



أحمد سعداوي مكتبة  
باب الطباشير بغداد



منشورات الجمل

رواية

أحمد سعداوي

# بَابُ الْطَّبَاشِيرِ

«سَيْنُ تَعَاوِيدٍ سُومَرِيَّةٍ لِلخَلاصِ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ»

رواية

منشورات الجمل

<https://telegram.me/maktabatbaghdad>

أحمد سعداوي: روائي وشاعر عراقي. مواليد بغداد ١٩٧٣. صدر له:  
عيد الأغانيات السينية، شعر، مدريد ٢٠٠١؛ البلد الجميل، رواية، بغداد  
٤، ٢٠٠٥، حازت الجائزة الأولى للرواية العربية في دبي؛ إنه  
يحلم أو يلعب أو يموت، رواية، دمشق ٢٠٠٨، حازت جائزة هاي  
فاستيفال ٢٠١٠، بيروت ٣٩. حازت روايته فرانكشتاين في بغداد  
جائزة البوكر للرواية العربية ٢٠١٤.

أحمد سعداوي: **باب الطباشين**، رواية، الطبعة الأولى  
كافة حقوق النشر والاقتباس والترجمة  
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت - بغداد ٢٠١٧  
تلفون وفاكس: ٠٩٦١ ١٣٥٣٢٠٤  
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ - بيروت - لبنان

© Al-Kamel Verlag 2017  
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany  
WebSite: [www.al-kamel.de](http://www.al-kamel.de)  
E-Mail: [alkamel.verlag@gmail.com](mailto:alkamel.verlag@gmail.com)

حِينَ سَمِعَهُ الْأَلِهُ ارْتَبَكُوا،  
اسْتَوْلَى عَلَيْهِم الصَّمْتُ، فَجَلَسُوا وَاجِمِينَ.  
ذُو الْفَهْمِ التَّاقِبُ، الْحَكِيمُ، الْحَادِقُ،  
«أَيَا» الْمُلِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، أَذْرَكَ خَطَّتَهُمْ.  
أَعْدَّ دَائِرَةً سِخْرِيَّةً مُضَادَةً لَهَا  
أَلْفَ بِمَهَارَةٍ رُّقِيَّةً مُقَدَّسَةً لَا عَاصِمَ مِنْهَا.  
أَنْشَدَهَا، وَجَعَلَهَا تَطْفُو فَوْقَ الْمَاءِ.  
**\* قِصَّةُ الْخَلِيلَةِ الْبَالِيَّةِ؛ إِنْوَمَا عَلِيش**

أَتَمَّنَى لَوْ كُنَّا فِي سَيَارَتِي  
وَأَنْتَ مَنْ بَدَلَ نَاقِلَ الْحَرَكَةَ  
كُنَّا سَنَجِدُ أَنفُسَنَا فِي مَكَانٍ آخَرَ  
عَلَى شَاطِئِ مَهْجُورٍ  
أَوْ رُبَّمَا عُذِّنَا إِلَى حَيْثُ كُنَّا مِنْ قَبْلِ.  
**\* جوزيف برودسكي**

«قَذْ يَكُونُ هَذَا الْعَالَمُ جَحِيْمَ عَالَمٍ آخَرَ..»  
**\* الدوس هكسلي.**



## الفصل الأول

### الميت الحي

- ١ -

حين ألقوني في هذه الزنزانة العفنة،رأيت ، على أضواء النهار الشحيحة، باباً مرسوماً بالطلابشير على الحائط. كان قد رسمه، كما بدا لي ، سجين سابق مرّ من هنا. ربما مات قبل أن ينجح في فتحه، أو فرّ منه. لا أدرى ! لم أُمْنِحُ الباب المستحيل حتى لا أضيق الخيارات التي عندي . وحتى لاأشعر بالعزلة.

- ٢ -

كان ذلك قبل أن تأتوا وتتكدّسوا هنا يا زملاء هذه الزنزانة العفنة ، يا أصدقائي التّشاليين والمزوّرين والقتلة وسارقي اسطوانات الغاز المنزليّة ، وشاتمي الرئيس في غفلة وسّورة انفعال ، أو المرؤّجين للثّنّيات البذينة عنه وعن عائلته وقادته القطرية . أيّها المنتظرون ، معي ، مصيراً أسود ، يُصارع بعثمه خيوط الفجر الأولى . أنتم محظوظون لأنني هنا معكم في هذه الزنزانة القبيحة الغارقة في الظلام . تستمعون لي وأنا أعطيكم درساً أخيراً في الحياة لن تستفيدوا منه على ما يبدوا ، لأنكم لا تعرفون مقدار الحياة المتبقّية لدیكم أصلاً . تتشمّمون داخل هذا العمى الشامل روائح أجسادكم

مثل ضوارٍ وحيوانات محبوسة تبحث بأنفها عن الطريق، ولا تلتقط أنوفكم المرهفة، في نهاية المطاف، إلا رائحة الوقت الشحيح الذي ينفد بسرعة، ويقترب بكم وبي حثثاً نحو حائط الرصاص أو منصات الاعدام.

لا تُبخلُّوا بي بهذه الطريقة، وكأنني قلت شيئاً عجباً. وكأنكم لا تعرفون ما ينتظرون هنا. ثم ما فائدة البخلة في الظلم؟ أنا لا أعرف حتى، أصدقكم القول، إن كنتم تنتظرون باتجاهي أم باتجاه الكوة أعلى الحائط المرسومة بلطخة نور باهت.

لا أعرف إن كنتم تنتظرون إلى شيء محدد، أو هل غطس نصفكم في النوم منذ وقتٍ من دون علمي؟ إني أتحسس وجودكم من خلال تنفس بعض الصدور المخرِّشة، أو بعض الهممَات والتأوهات التي تصدر دون إرادة من أولئك الذين تلقوا ضرباً شيئاً خلال الأيام الماضية، فتورَّمت أجسادهم، وانزَّلت عظامهم وصار الهدوء أفضل ما يمكن أن يقوموا به، أما محاولة تحريك اليد أو الساق المتقدمة من ثقل الجسم عليها، كما تخيل، فهو إيذان بتدفق موجة الالم كأسياخ حامية تنفرز عميقاً.

هل أنتم نائمون؟ لماذا لا يردّ عليَّ أحد؟ لقد شتمتكم في بداية كلامي ولم أتلقَّ اعترافاً؟ هل بلغ الاستسلام حدوده القصوى؟ قد يقول قائلكم عني؟ أنه رجلٌ مسكين، شبه مخبول، من كثرة التعذيب والصدمات الكهربائية على خصيته، دعونا منه، فلنُشركه يثرثر كما يشاء. إنه ميتٌ على أية حال، ونحن ميتون.

ولكنني لا أتمنى أن تستسلموا، من العبث أن تستغرقوا مع أنفسكم. انصتوا لي وانسو أنفسكم.

سيكون لديكم في القبر وقتٌ كافي للقيام باسترجاعات شاملة،

ومن الأفضل أن تستثمروا هذه الفرصة النادرة لوجودي معكم بالاستماع لكلماتي، فأنتم لا تملكون داخل هذه العتمة خيارات أخرى. أنظروا لي كما لو أني كاهنٌ أو قسٌ يقوم بغسل أرواحكم قبل مغادرتها هذا العالم. يغسلكم بيده من أدران الحياة الطينية الثقيلة، حتى تذهبوا أنقياء خفيفي الأرواح. و تستطعوا بعدها التحليق بسرعة أكبر.

في الحقيقة أنا أريد الاستمرار في الكلام معكم حتى اللحظة الأخيرة، اللحظة التي سيقررون فيها تصفية هذه الزنازين السرية، من دون تقديمها إلى أيٍّ محاكمة، ومن دون أن يعرف أهلوانا عن مصائرنا شيئاً. أريد الاستمرار بالكلام، وإلا فاني سأصابُ بالجنون حقاً، وأفقد قدرتي على الخلاص من حفرة العَفَن هذه، والخلاص من أصوات الاشباح التي تشرث داخل رأسي بنبرتها الخافتة المخيفة وتطالبني بالاستسلام.

- ٣ -

في وضع مُزِّر كالذي نحن فيه الآن، فإن أرواحنا ستذوي وتتأكل ، إن لم نتزود بمصادر طاقة بديلة. كتعويض عن تلك الطاقة التي نستمدُّها من الخارج ، من الأكل والشرب وتنفس الهواء الجيد ، والشعور بالحرية والقدرة على الحركة والركض ، والشعور بالأمان والطمأنينة ، والحصول على لمسة حبٌّ ومشاركة إنسانية مع آخرين ، وهذه كلها أشياء نفتقد لها هنا بشدة . علينا التشجيم والحرف في أرواحنا وذاكراتنا لاستخراج اللحظات الجيدة . مهما كانت حياتنا خربة فلا بد أنها تحوي لحظات جيدة . علينا أن نسترجع صورها بصبر ونجلوها لتكون لامعةً وبراقة ، ثمّ نحاول إقناع أنفسنا بأننا حصلنا

على حضتنا من الحياة. ولا نفكّر بالعدالة أو ننظر بعين الحسد للآخرين. التجربة الجميلة ليست هي المهمة بحد ذاتها بقدر شعورنا بها نحن. إن كانت مجساتنا مرهفةً فسنحصل من الوعاء على كامل ما يحتويه.

وما دُمْثُم تمتنعون عن الكلام، أو حتى الاعتراض على أفكاري، أو إعطاء إشارات للقبول أو الرفض فأننا مضطّرٌ للحديث عن نفسي.

كلّ شيء يتكتّف عندي بال بدايات. اللمسة الأولى للأشياء تختصر الأشياء كلّها. ما زلت أتذكّر وردة الجوري الحمراء التي وضعها والدي على الصندوق الخشبي للتلفزيون العتيق، بعد عودته من عمله ذات ظهيرة. خطفت الوردة وبقيت أنا متأمل التفافات أوراقها، ولونها المميز، ثم دسست أنفي في وسطها، وسحبت شهيقاً بطيئاً. تشبعـت برائحتها، وكانت شيئاً مبهراً. شمتت خلال حياتي اللاحقة، وفي مناسبات متفرّقة أنواعاً مختلفةً من الورود، ولكن هذه التجربة البكورية هي الأكثر تصاقاً في ذاكرتي. يمكنني الآن أن أغمض عيني داخل هذا الظلام وروائح العفن، وأتذكّر الرائحة الجميلة بيسير، وكأنها تتسلّل إلى أنفي الآن.

كنت أعود من المدرسة، ولأن أمي كانت متعبةً أو مريضةً أحياناً، أو لأنني كنت متحمّساً لتجربة الأشياء والحصول على المديح بسبب اتقاني لها، كنت أركض إلى المطبخ لأقشر جبات البطاطا الكبيرة وأعد طعام الغداء لنفسي. كنت أقطعها لاحقاً بمهارة على شكل أقراص نحيفة، وأقلّيها بالزيت. ومع رشّة ملح بسيطة تكتمل وجبة الغداء. للآن أتذكّر طعم أقراص البطاطا المقلية هذه، وبالذات تلك التي يتغيّر لونها فيغدو داكناً من الأطراف وتتبّس.

أذكر أيضاً بسهولة طعم البطاطا النية التي أقضيها أثناء انشغالي بإعداد البطاطا المقلية. أعبث بها بلسانى وأدورها في فمي وأتحسن بروتها.

حلاقة الوجه الأولى المليئة بالجروح. الكتاب السميك الأول محشش الأسطر، خارج كارييس وقصص الطفولة. أول مرة أنزل فيها إلى النهر، وكيف أن شعوري كان بالمقلوب، فأنا أنزل وأغطس جسمي بيضاء في النهر، ولكنني أشعر وكأن النهر هو من يرتفع إلى جسمي ويطوقني بمياهه على شكل حلقة. فعلت ذلك مع صديق الاعدادية، وهو من حرضني على النزول إلى ضفة نهر دجلة من جهة جسر السنك ذات صيف مليء بالتسكع وتسوق الكتب.

أول مرة أسمع فيها صوت ببغاء يتحدث بكلمات غير مفهومة. كان قد هبط في السادسة صباحاً على سعفة نخلة في باحة بيتنا العتيق في حي الفحامة. وكنت صحوت بسبب ضغط مثانتي الممتلئة رغم أن موعد نهوضي المعتمد استعداداً للمدرسة لم يَحن بعد. رأيته هناك وقد أثقل إحدى سعف نخلتنا الوحيدة. فنزلت للأسفل. كان متعدد الألوان بذيل أحمر مشطّب بالأصفر والبني. ذعرت من المفاجأة السعيدة. وكان الطائر خرج من كتب المصورات التي كنت أقتنيها وتشرح أنواع الطيور وأسماءها. كان هناك ثلاثة عشر طيراً ملؤناً بأشكال مختلفة تحت اسم واحد «ببغاء»، ولم يكن هذا يُقنعني. علمت لاحقاً أن هذا الببغاء تحديداً يُسمى «طائر المكاوا»، ويبدو أنه فرّ من قفص صاحبه في أحد البيوت المجاورة.

سلقت الحائط المجاور للنخلة، واقتربت بلهفة كي أمسك بهذا الطائر، وحين رأى يدي الحذرة تقترب منه نقر أصابعه محدراً ثم صار يلْفَظ بكلامه غير المفهوم. يا الله.. من المستحيل أن أنسى

تلك اللحظة. لا أعرف إن كان شتمني أو أعطاني نصيحةً معينة. أستطعت الإمساك بريش ذيله لكنه تحرّك وأفلت مني، ثم أفرد جناحيه العريضين وطار، وتركني أقاوم رغبة حرّافة بالبكاء بسبب الشعور بالخسارة.

لاحقاً، وفي سوق الغزل، تعرّفت على طيور شبيهة به، ولكنها لم تكن تتكلّم، وبسبب أسعارها العالية لم أفّكر حتى بشراء واحد، فما الذي سأفعله مع طائر مماثل، كيف يأكل ويشرب، وهل سأرتاح لوضعه مقيداً من دون أن يمنعني ذلك متعةً واضحة؟

لن أنسى أيضاً ملمس الأوراق الصفراء الناصعة لزهرة عباد الشمس التي زرعتها لأول مرة. وغضنها الأخضر الداكن المكسو بدبابيس بيضاء ناعمة صغيرة، سرعان ما تنهار تحت لمسة اليد مع منحها شعوراً بملمسٍ خشنٍ أو وخزاتٍ خفيفةٍ على الأنامل.

#### - ٤ -

أتذكّر القُبْلَة الأولى. كانت من فتاة أكبر مني ببعض سنوات. كنت على حافة المراهقة، ولكن هيأتي تشير إلى أنني ما زلت طفلاً، وكان يفترض بذلك الفتاة أنها تدرّسني كتاب الرياضيات. وضعتنى في حجرها ذات نهار، ونحن في الطابق الثاني في بيت أهلي بمحلّة الفحّامة، نجلس عند فتحة باب الغرفة وصارت تُقبّلني قُبلات عميقّة. لم أكن أعرف أنها تُهيج نفسها بهذه الطريقة. لم أقم بردة فعل واضحة. لكنني بقيت النهار كله منتسباً. وصرت أنتظر أن تأتي من بيت الجيران المجاور لإعطائي درس الرياضيات، وأيضاً قبلها المحمومة المفاجئة، والتي كانت مثل فاصل إعلاني بين فقرات التدريس الممّلة.

بقيت أتذَّكِرُها فترةً طويلةً، أتذَّكِرُ أنفها الكبير ووجهها المرقط بحب الشباب، شعرها الأحمر الملتفٌ وفمها المنفرج بشفتين نافرتين تشتيمان التقبيل. وحين عرفت بعد زمنٍ ما هي الاستجابات المناسبة من قبلي في تجربة من هذا النوع، كانت هي قد اختفت تماماً وكنت قد صرت على حافةَ الشباب.

أما المرة الأولى التي ألمس فيها جسد امرأة عارية وأتحسّسها بيديّ، فجاءت متأخّرة، بعد انتهاء امتحانات البكلوريا، برفقة أحد أصدقاء المدرسة. رِيَّما تسخرون مني حين أقول إن ازدفافي لهذه التجربة لم يكن بسبب ضغط الغريزة وإنما لدافع فلسفية!

نعم، كنت بسبب عزلة القراءة والتأملات بعيداً عن فرص الحصول على تجربة مماثلة، كما هو الحال مع أقراني. وظلّت المعرفة الناتجة عن الخبرة المباشرة في هذا الموضوع تحديداً لغزاً بالنسبة لي.

قادت الأحاديث في هذا الموضوع مع صديق لي إلى استعراضه لأماكن المتعة في بغداد، ثم اعترف لي بأنه يعرف مكاناً شبه سريّ وغير معروف بالنسبة للكثيرين، وقد قصده أكثر من مرّة لأنّه أنظف وأكثر أماناً وراحة من غيره، رغم أن أجوره مرتفعة قليلاً.

ظلَّ الموضوع يدور في ذهني، حتى صادفت هذا الصديق ذات ظهيرة حامية وهو يلوح لي بيده من بعيد. حين وصلت إليه قال لي بأنه ذاهب إلى هذا المكان، ولم أفكّر كثيراً حين اتّخذت قرار مرافقته.

كان فندقاً منزوتاً بدون رقعة تعريف يشغل الطوابق العليا في عمارة عتيقة بشارع الرشيد. يُواجهك باب صغير من فردتين يُطلُّ على

الشارع، ويؤدي إلى سُلْم يقودك إلى استعلامات الفندق في الطابق الأول. تؤجر غرفة في الفندق، ثم حين تدخل إليها يأتيك السمسار بعد لحظات ويقدم لك عروضه، فإن كنت تطلب مواصفات عامة سيأتي بطلبك على وفق مزاجه. كأن تطلب فتاة سمينة، أو بيضاء، أو نحيفة، صغيرة، كبيرة، وما إلى ذلك. أو؛ تطلب منه أن يعرض الفتيات اللائي عنده وتحتار منها. أما في الحالات التي تأتي فيها بصديقتك معك ولا تحتاج إلى فتاة منهم، فإن الفندق يأخذ منك الأجرة كاملة أيضاً.

كانت تجربتي الأولى مع الجنس الكامل، ولم أعد إلى هذا الفندق ثانية. كنت أرغب بالمعرفة والتعرف وحصلت عليهما، ربما بطريقة غير مناسبة أو وافية، ولكنني مع هذه التجربة علمت شيئاً من نفسي؛ لا أرغب بجسد امرأة إلا إذا كانت حبيبي. لنأشعر بالشبع والمتعة بالطريقة التي كان يتبعها صديقي.

بالنسبة لتجربة أولى من هذا النوع، فإن نصيحتي لكم يا زملاء الزنزانة العفنة، إن لم يكن بعضكم قد عايشها، وإن كان لنا أن نخرج من هنا يوماً، هو أن تختاروا بعناية من تفقدون معها عذريتكم، لأن هذه الذكرى ستبقى حاضرة معكم على مدى الحياة.

ما زلت حتى الآن قادرًا على استحضار الملمس الناعم للأئداء الرخوة الصغيرة شاحبة البياض للبنت التي استلقت على السرير أمامي، مع شعر عانة نابت، ومكياج كثيف على الوجه. أتذكر ملمس شعرها المتيسّس بتسريرحة على شكل كُرة أعلى الرأس بسبب مثبت الشعر. أتذكر كل شيء فيها، وأتذكر ما فعلت أنا، ولكنني للأسف لا أستطيع أن أتذكر طعم اللذة وقتها.

أحببَتْ ممثلاً مثل المصرية شريهان في فوازيرها الرمضانية، وصابرین في أولى إطلالاتها، أجنبیات مثل بروك شيلدز. لم يكن الجسد يجذب انتباهي أَوْلَ وهلة وإنما تقاطيع الوجه. أحببت طالبات يقطعن الشارع أمام باب منزلي، فتاة رأيتها في متحف الفنون، أثناء زيارتها مع أصدقاء. بنت جيران مراهقة، كُنَّا نلتقي وجهًا لوجه للحظة وجيبة أثناء قدومها من السوق الشعبية، وأنا أسير باتجاه معاكس، نتبادل النظارات والابتسامات، من دون أن نتوقف ونُكمل مسیرنا، حتى نعبر مسافة عَدَّة أمتار فنقوم كلانا بالتفاتة واحدة. ونتبادل الابتسام للمرة الثانية. كررت معها هذا العمل الساذج الأخرق عشرات المرات. وكان انتظاري لحدوثه وكأنني أتوقع حصول معجزة. كانت هذه المصادفات التي تشبه تجاور قطارين على سكتين باتجاهين متعاكسين، كافيةً جدًا لدفعي نحو سماع الأغاني والغطس بخيال شاسع معها.

تبادلنا لاحقاً رسائل ورقية، وساعدنا نزار قباني كثيراً، ثم اختفت فجأةً من دون أسباب. لم تعد تخرج من البيت، ولم أكن شجاعاً بما يكفي للمرور أمام بيتها مثلاً، أو محاولة السؤال عنها. لكنَّ هذا كله لا يمكن أن يكون حبّاً، إنها أشبه بالتمارين الضرورية لاستشعار الحب لاحقاً، بعد أن يكبر قلبك ويصبح الحب الطفولي والساذج والتعلق بأشباح الفنانات غير كافٍ لملته.

الحب الذي يمكن أن أصفه بأنه حبِّي الأول الحقيقي، عشته هناك، في أروقة قسم السمعية والمرئية في كلية الفنون، في صيف ١٩٩٣ بالسنة الثالثة من الدراسة، مع «ليلي حميد» قبل تسع سنوات تقريباً.

لَمْ تُكِنِ المشاعر واضحة في البداية، كُنَّا زملاء دراسة، وكنت وقتها قد طورت شخصيتي كفيلسوف وحكيماً ونبيًّا لمجموعة أصدقاء مقربيـنـ. كنت الأكثـر ثقافـةـ بينهمـ، وكـنـتـ هـادـئـاـ ولـطـيفـاـ واستـمـتعـ بـسـلـطـتـيـ الرـمـزـيـةـ عـلـىـ أـصـدـقـائـيـ،ـ حتىـ دـخـلـتـ لـلـىـ حـمـيدـ يـبـنـاـ.

كـانـتـ تحـاـولـ منـافـسـتـيـ عـلـىـ مـوـقـعـيـ،ـ وـتـبـجـحـ بـالـكـتـبـ التـيـ تـقـرـؤـهـاـ والـتـيـ تـأـخـذـهـاـ مـنـ مـكـتـبـةـ أـبـيـهاـ الـكـبـيرـةـ،ـ وـأـدـعـتـ أـنـ وـالـدـهـاـ يـكـتـبـ رـوـاـيـةـ طـوـيـلـةـ تـدـورـ أـحـدـاثـهـاـ فـيـ الـعـهـدـ الـمـلـكـيـ،ـ وـأـنـهـ يـحـفـظـ بـسـجـلـاتـ سـرـيـةـ عـنـ تـلـكـ الفـتـرـةـ.

كـنـتـ غـيـرـ مـرـتـاحـ لـشـخـصـيـتـهـ المـدـعـيـةـ،ـ وـلـأـنـاـ أـحـرـجـتـنـيـ أـكـثـرـ مـرـّـةـ.ـ لـمـ تـكـنـ تـقـبـلـ التـنـازـلـ عـنـ آـرـائـهـاـ وـوـجـهـاتـ نـظـرـهـاـ.ـ لـمـ تـعـجـبـنـيـ هـذـهـ الصـفـةـ فـيـهـاـ،ـ وـلـكـنـيـ شـيـنـاـ فـشـيـنـاـ وـجـدـتـ نـفـسـيـ أـبـحـثـ عـنـهـاـ،ـ وـأـرـغـبـ بـهـذـاـ الـعـرـاـكـ وـالتـنـافـسـ الـخـفـيـ.

أـقـفـ فـيـ الـأـيـامـ الشـتـائـيـةـ بـحـجـةـ الـبـحـثـ عـنـ حـرـارـةـ الشـمـسـ عـنـ حـائـطـ كـافـتـرـيـاـ الـاسـاتـذـةـ،ـ مـنـضـمـاـ إـلـىـ آـخـرـينـ يـفـضـلـونـ هـذـاـ الـمـكـانـ لـكـونـهـ مـكـانـاـ جـيـداـ لـلـمـراـقـبـةـ،ـ وـأـبـقـىـ مـثـلـهـمـ،ـ أـبـحـثـ بـعـيـنـيـ عـنـ حـبـيـبـتـيـ الـمـفـتـرـضـةـ،ـ هـلـ سـتـخـرـجـ مـنـ قـسـمـ السـمـعـيـةـ وـالـمـرـئـيـةـ،ـ أـمـ تـدـخـلـ إـلـىـ كـافـتـرـيـاـ الـطـلـبـةـ.

أـنـظـرـ إـلـيـهـاـ بـتـئـورـتـهـاـ الـكـيـلـوـتـ وـهـيـ الـمـوـضـةـ الـرـائـجـةـ فـيـ تـلـكـ السـنـةـ،ـ وـهـيـ تـحـمـلـ قـدـحـهـاـ،ـ مـثـلـ بـقـيـةـ الـبـنـاتـ.ـ لـشـرـبـ المـاءـ أوـ الـمـشـرـوبـاتـ السـاخـنـةـ.ـ نـسـخـرـ مـنـ هـذـاـ الـقـدـحـ،ـ وـرـبـمـاـ نـسـرـقـهـ،ـ فـيـ لـحـظـاتـ غـفـلـةـ.ـ نـصـنـعـ مـنـهـ مـوـضـوـعـاـ لـلـمـشـاكـسـةـ.ـ نـتـشـارـكـ فـيـ الـلـمـزـ وـالـقـمـزـ تـجـاهـ بـعـضـ الـاسـاتـذـةـ الـذـيـنـ يـرـتـدـونـ الـزـيـتونـيـ وـيـقـفـونـ بـأـسـلـحـةـ خـفـيـفةـ أـمـامـ بـابـ الـكـلـيـةـ لـإـقـامـةـ سـيـطـرـاتـ تـفـتـيشـ عـنـ الـهـارـبـينـ مـنـ الـخـدـمـةـ

العسكرية، وكأنها من مهام أستاذة الفنون! وتحاشرى الوجوه المريبة التي تجلس في الكافتريا، ونخمن أنهم طلبة مزيقون، ضباط أمن تم إقحامهم في الكلية من أجل المراقبة الأمنية. أحرص أن تكون بجوار ليلى حين يدفعنا الأستاذة دفعاً للذهاب سيراً حتى بناية اتحاد الطلبة في الوزيرية للمشاركة في تظاهرة حزبية ضد «العدوان الأميركي».

كُنا نجد الوقت أحياناً للذهاب مع مجموعة الأصدقاء إلى حفلات موسيقية في المعهد الثقافي الفرنسي، أو عروض خاصة لأفلام في مركز الفنون. نقضي ساعات بثرثرات طويلة حول مسرحيات يقدمها الأستاذة في الكلية، وأنذَّرَ منها مسرحية «خطوة من ألف خطوة وخطوة» لأستاذنا بدري حسون فريد، أو نتدرَّب على مسرحيات نمثلها سوية. وحين اقترب موعد تسليم أطروحتي الجامعية، أقنعت ليلى بالتمثيل أمام كامييرتي البدائية. جعلتها بطلة فيلمي القصير.

كُنا نتصوّر أننا سنجدو فنانين وممثلين بعد التخرج. وبعضاً أصبح كذلك بالفعل. لكن حياتي أنا ذهبت بمسارات أخرى مختلفة. كنت مشوش الذهن، مثل أي شاب بعمري، بفتيات آخريات، وأرى نفسي معهنَّ في خيالاتي الجنسية، ولكن ليلى صارت تُزيحهنَّ بهدوء، دون قصدٍ منها ربما، حتى صرت أتخيل نفسي معها دائماً بشعرها الأسود الملتفُّ، الذي تسرّحه على شكل حلقاتٍ مت Morrow، والذي يُذَكِّر بشعر الممثلة هند كامل، وبشرتها الحنطية الصافية. استخداماً الغريب للماكياج، ضربات خفيفة هنا وهناك ربما تنجزها أمّا المرأة في ظرف دقيقة لا أكثر، مع سهمين صغيرين باللون الأزرق الداكن على حاجتي العينين، يجعلان عينيها الناعستان

وكانهما أطول. كنت ألاحظ كل ذلك بسهولة، غير أنني وعلى مدى سنتين، لمأشعر أنها توليني اهتماماً خاصاً. كانت ترافق الجميع، والصديقة الأقرب للجميع، وكان من الصعب أن ألاحتقها لأعرف من هو حبيبها بين هؤلاء الزملاء، وهل لديها حبيب فعلاً أم لا. كما أن كبرياتي السخيف كان يصنع حاجزاً تجاه الآخرين. لم أكن أرغب أن أبدو ضعيفاً، أو محتاجاً لآخرين. أنا الذي يأتون إلىي لامنحهم نصائح عاطفية، أو ملاحظات على سلوكهم، وفي بعض الأحيان أستغرب كيف أنهم كانوا يصمتون ويطرقون إلى الأرض وأنا أوبخهم وأبهذل أحوالهم.

لم يكن سهلاً عندي أن جلس ليلى بينهم وتخبرهم بأن «علي ناجي» قد اعترف لها بحبه وأنها صدته. سينهار عرشي الافتراضي وأغدو أضحوكةً ومصدر سخرية للجميع. أنا الملائكي الذي لا يتحدث عن حيوانه الشخصي الراقد فيه أبداً، ويقمعه دائماً ويروّضه، ويحسده رفقاء من الذكور على هذه القوة والجلادة. إن لم تأت ليلى بنفسها وتعترف لي بحبتها، على العكس من السلوك الشائع، فلن أقدم على أي خطوة تجاهها.

وبما أن هذا خيار شبه مستحيل فقد استمرّ وضعني السخيف على جموده حتى انتهاء الامتحانات في السنة الأخيرة ثم انتظارنا للتخرج. كنت مع ليلى في صيف عام ١٩٩٤ في مهرجان الأفلام القصيرة التي أجززناها كطلبة ضمن متطلبات التخرج. وكنت معها ونحن نستعد لامتحان بالمواد النظرية، ولو كان هناك من يراقبنا لأحسن أن هناك شيئاً خاصاً يجمعنا. ورغم يأسِي من نفسي، إلا أنه في تلك الفترة تحديداً حصلت انعطافةً مثيرة.

كان صديقي عبد العظيم، الذي تركنا في السنة الثالثة من

الدراسة وتحوّل إلى الكلية العسكرية قد زارنا في يوم الامتحانات الأخير وهو من اقترح على مجموعة الأصدقاء أن نحتفل بهذا اليوم الممّيز بالذهاب إلى مدينة الألعاب في حديقة الزوراء. وافق الجميع بحماسة على مقترنه مع شعورهم بالتحرّر من ضغط الامتحانات، وكانت متحمّساً أيضاً.

حين وصلنا كانت مدينة الألعاب شبه فارغة في ذلك اليوم، ولم يُست كما تبدو في أيام الأعياد أو المناسبات. بقينا نتحرّك بين الألعاب المختلفة. دفعت ليلى على الارجوحة مع انقباضِ شديد في قلبي، وكانت تضحك بسعادة طفولية. قضينا ساعةً في التجوال العشوائي حتى وصلنا إلى لعبة الاخطبوط الحديدية الكبيرة، لم أكن متّحمساً للركوب فيها مثلما اندفع الجميع، ورغبت لو أبقى أراقبهم، ولكن ليلى نادت عليّ لاركب معها في كابينة واحدة. نظرت إلى الآخرين لعلّهم انتبهوا إلى إشارة الخصوصيّة في دعوتها، ولكنهم كانوا منشغلين بأنفسهم وهم يركبون في الكابينات ويغلقون الأبواب الحديدية الصغيرة خلفهم ويضحكون ويطلقون التعليقات الساخرة على بعضهم البعض الآخر.

صعدت إلى الكابينة وأغلقت ليلى الباب الحديدي، وقبل أن يضغط مشغل اللعبة على زر التشغيل تحسست هذه «الأول مرّة» جيداً، التي أحدثكم عنها، فهذه أول مرّة تكون ليلى على هذه المسافة من القرب مني. كان جسداً يكاد ان يتماسان ويتلاصقان في أكثر من مكان، أثناء محاولتنا اتخاذ وضع ثابت وأمن قبل دوران اللعبة، التي ستتحرّك على الأرجح بطريقةٍ مدوّحة، فأولاً ستدور الكابينة حول نفسها، ثم تدور الكابينات كلّها على شكل دائرة، ثم يتغيّر محور اللعبة يميناً وشمالاً. الأمر كلّه يشبه حركة المجموعة

الشمسية، مجموعة دورانات متراكبة مع بعضها البعض الآخر، فضلاً عن دوراني الشخصي الذي تحسسته قبل أن يبدأ أي شيء. دوران الدماء في صدري الذي يبعث الرهبة والخدر مع مشاعر أتحسستها لأول مرة بسبب القرب الشديد لليل. حتى أنها لم تمانع حين أمسكتها من زندتها لتشيتها على جانب من جوانب الكابينة الضيق، ونحن نضحك وأحاول أنا إبعاد نظري عنها باتجاه ما يفعله أصدقائي في تلك اللحظة.

لم يركب عبد العظيم وإنما وقف بجوار مشغل اللعبة، وطلب منه، بخبث، ألا يتلزم بوقت الدقة والنصف الصحي، ويدع اللعبة تدور لوقت أطول حول نفسها. هذا ما عرفناه لاحقاً حين أجبرنا عبد العظيم على الاعتراف.

أذكّر أنني جئت مع أخي الصغير «عمّار» إلى مدينة الألعاب قبل عقد من السنوات، وربما ركينا في الألعاب كلّها، ولكنني لا أحفظ بذكرى مميزة عن هذه اللعبة تحديداً، وربما ما حدث هو التالي؛ لقد محت ذكرى اللعبة مع ليلي أيّ ذكرى خاصة باللعبة سابقاً.

دارت اللعبة ببطء وأصدرت أصوات صرير حادة، ثم بدأت الأذرع الخطوطية للعبة ترتفع عن الأرض، قبل أن تبدأ الكابينات بالدوران على نفسها. تزايدت سرعة اللعبة، وصار قطر الدائرة التي صنعتها مروحة الحركة بالكابينات يميل شماليّاً ويميناً ليضاعف من الدورانات المتعددة.

كنت أسمع صراخ زملائي من البنات والشباب وهو يأتي متّوّجاً مع حركة الكابينات التي صارت تزيد من سرعتها وتكتمل بكل دوراناتها المتعددة، وأترك نفسي تستسلم لقوة الطرد المركزي، حتى صرت غير قادر على تحريك نفسي إلا بصعوبة، ثم شعرت بأنني أنزل

إلى الأسفل، ورأيت ليلي كيف تهوي إلى لتلتصق بجسدي وتتصبح، لم يكن التصاقاً وإنما التحامًا، وبعد دقيقة كانت كافية لإصابتنا بدوار شديد، وجذبها تمسك بي من كتفي ثم تعدل من وضعية الالتصاق العشوائي لتغدو احتضاناً مقصوداً.

كان وجهها أمامي حين تبادلنا القُبَّل. لم أعرف بالضبط من تجرأً أولاً لفعل ذلك. أنا الذي إنها رث دفاعاتي السابقة بسبب الوضع الطارئ الخاص داخل كابينة الأخطبوط الحديدي، أم هي لسبب ما، أو ربما اندفاعات اللُّعبة وتحريكها لجسدينا هي التي أغرتنا. بقيت أدور شفتي على شفتيها، واحتضنها، منفصلة عن العالم كلّه في قبة عميقه. وكأنني أدخل مع ليلي في دوراننا الخاص الذي أوقف الدورانات كلّها.

- ٧ -

هل تعرفون ماذا حصل بعد ذلك؟ أنتم لا تردون عليّ يا أصدقائي النشالين والقتلة وشاتمي الرئيس، لذلك لا أجد دافعاً ما لإكمال القصة. لا يردا أحدُّ منكم حتى ولو بِتَهْيَدَةٍ بسيطة. هل نُمْتُ جميعاً، أم أنكم تسلّتم دون أن أشعر إلى خارج هذه الزنزانة العفنة والمُعْتَمَة؟

لا أعرف كم مضى لي من الوقت هنا، ولكنني سمعت سجانين يتحدّثان من بعيد. سمعت صوتيهما بوضوح بسبب الهدوء المُطْبِق هنا، كانوا يذكران شيئاً عن احتشاد الجيوش وقرب بدء الحرب، وأن الأوضاع لا تُبشر بخير.

أتمنى أن تحدث أيّ كارثة، حتى ينتهي هذا الكابوس الذي نعيش فيه. على الأقل بالنسبة لكم يا أصدقائي، تعودون إلى عوائلكم

وتتحدّثون معهم عن فضاعة «الأشياء الأولى» التي مررتم بها هنا. تباركون نعمة الحياة التي تعيشونها، حتى لو كانت بسيطة وشحيبة بمصادر الفرح والأمل. تتشبّثون بأسنانكم وأظافركم بأيّ نسمة هواء نظيفة.

بالنسبة لي أنا «المَيْتُ الْحَيِّ» والذي لا يضيره إن كانت الحياة أم الموت هو ما سيأتي إليه، لن يغّير عندي من شيء أن آمل أو أ Yas. هل تفهمون ذلك يا أصدقائي المجرمين؟

آه.. ربما علىي أن أنهم أنا ألا أحد هنا معي في الزناة، وأنكم ربما سبقتموني إلى إطلاق السراح، أو منصة الإعدام.

## الفصل الثاني

### الدفتر الأسود

- ١ -

كانت أيام السجن القصيرة لعلي ناجي - من متتصف ٢٠٠٢ حتى إعلان العفو العام في ٢٠٠٢/١٠/٢٠ - تمر عليه أحياناً مثل كابوس ثقيل، ولكن بعد سنوات صار تذكّرها لا يستثير عنده مشاعر خاصة، وكان الاستدعاء المتكرّر لما عاشه من أحداث فظيعة غداً يشبه عصر ليمونة تمّ عصرها عشرات المرّات سابقاً، وما عاد فيها أيُّ «رّحّيق» انفعالي خاصّ، حتى صار وكأنه يشاهد شريطاً لفيلم يتحدث عمّا جرى للآخرين وليس له، وبالذات مع عملية العصر واسعة النطاق التي قام بها الشعب كله خلال عقد كامل، من ٢٠٠٣ وحتى ٢٠١٣.

لم تعد هذينات على عن فترة حبسه القصيرة ذات وزن أزاء القصص العجيبة المرعبة التي سمعها لاحقاً، وتتدفق بقوة في حفلة العصر الوطنية الكبرى. إن قصته، في أفضل الأحوال، مجرد قطرة حمضية صغيرة في بحيرة الليمون الوطني المتلاطمة.

خلال عشر سنوات شاهد علي أن «مغصّرة» الآلام الوطنية لم تتوقف وكانت تستمرّ بعملها بكفاءة. صارت هناك أنواع من الليمون، تتوّزع بين كلّ طائفـة وعرقـة وجماعـة عراقيـة. والكلّ صار يتراشق بحمض الآلام، ويحرقون أعين بعضهم البعض الآخر خلال

الترافق. وبعضهم يرفع وعاءه الشخصي من العصير كي يقدم الدليل على أنه أكبر وأغزر من ليمنون الآخرين.

انتقل عَلَيْ خلال ذلك، في عمله الصحفي والاذاعي، من محاولة صناعة كوكتيل من العصائر الوطنية، والاستدلال على أنه هو العصير الوحيد الاكثر شرعية، وأن قطرات الجميع تسهم في صناعة «المذاق» الوطني، لينتهي إلى تبرُّمِه من هذا العصير الخيالي المقرف، ثم انتقل بعدها إلى شرب القهوة!

يضع عَلَيْ، قُبِيلَ بدءِ ساعةِ البَثِ المباشر، قدح النسكافيه المُرَّة قليلة السُّكَّر، بجوار ما يكرفونه في غرفة الصوت، رغم تحذير مخرج البَثِ من مخاطر إدخال المشروبات إلى هنا، ويبداً بأخذ رشفات قصيرة، قبل أن يرفع المخرج يده له للإشارة إلى بدء البَثِ.

يعرف المخرج أن عَلَيْ صار يشرب القهوة قبيل بدء ساعة العمل الليلي لأنَّه يظنُّ أن القهوة تطرد قليلاً من خدر المشروبات المسكَّرة، التي اعتاد عَلَيْ على تناولها يومياً منذ الظهيرة، على شكل دفعات صغيرة، ثم يزداد الأمر خلال ساعات الليل، إلى الحد الذي ما عاد فيه قادراً على التركيز، أو السيطرة على ما يقول.

في ليلة من ليالي البَثِ الحي المميزة، لم يكن هناك نسكافيه ولا أي شيء، وانفتح عَلَيْ بالكلام، وهو في أغلبه تعليقات سياسية على أحداث جارية، إلى حد الشتائم المقذعة.

أوقف المخرج البَثِ المباشر، وحوَّله إلى أغانيات، ثم خرج من الاستوديو غاضباً وصار عَلَيْ يلاحقه لكي يعتذر، ولكن الأمر صار يتكرر أكثر من مرَّة، ولأنَّ مخرج البَثِ شعر بأن مدير الإذاعة لم يكتثر لهذا الأمر، وكذلك مالكه المقيم في ديترويت، فقد غض النظر، وترك عَلَيْ يهدى ويهدى بما يشاء.

يعرف علي وزميله مخرج البث وكلُّ العاملين معهم في إذاعة «الموقف» أن هذه الإذاعة ليست سوى واجهة لنشاطات أخرى لمالكها، وأنه ربما أخذ بسببيها أموالاً وتبرُّعات من منظمات أميركية دولية تدعم مشاريع التحقيق بالديمقراطية وما إلى ذلك من هراء سائد. ومن الصعب التصديق أن هناك جمهوراً واسعاً يتبع ما تبثه هذه الإذاعة، وسط نشاط عشرات القنوات الفضائية وبهرجة الصورة، وموقع التواصل الاجتماعي. كما أن هناك تعبيراً شعبياً يفسّر جانباً من الصورة العامة؛ «يربط مغذّي»، بمعنى أن جمهور إذاعة أو قناة فضائية معينة، يرتبط معها كما يرتبط مريض ما بأنبوب المغذّي. ولن يتحول عنها إلى خيارات أخرى بالألاف، إلا بالمصادفات، أو للفضول لا أكثر.

ما هو حجم الجمهور الذي يربط مغذّي مع إذاعة «الموقف» إذن؟ ومن يستمع إلى هراء علي ناجي الليلي؟ إنهم شيء ضائع يزحف بصعوبة مبتعداً عن نسبة الصفر بالمائة. هكذا يؤمن علي ناجي، وهكذا ظلَّ يجاجع زميله مخرج البث مع بداية إنطلاق شتائمه المقدعة.

- حتى لو غنينا «بلي يا بليو» لن يكتثر أحد.. . بصحتك.

- إسْكِرْ أنت وحدك، لأنني لو فعلت ذلك لن يكون هناك بث. تغيير برنامجه الليلي تدريجياً ليكون مجرد فوهة مدفع لشتائم جديدة ومنوعة تجاه كلِّ السياسيين ومن يقف خلفهم. ثم مع دهشه، صار يتلقى ملفات على بريد البرنامج، تضمُّ فضائح لسياسيين، ثم اتبه لاحقاً أن هناك من يتبعه فعلاً. امتدح مالك الإذاعة الأسلوب الجديد الذي اتبه عليه، فهو يجلب متابعين أكثر على ما يbedo، وهناك مقاطع مسجلة من هذر علي تنزل على اليوتيوب أو موقع التواصل الأخرى.

ولكن مدير الاذاعة المقيم في بغداد كان قلقاً. أن علي بذلك يضع الاذاعة وسط لُجَّة الخصومات السياسية، وأساليب حلها المعتادة، التي تكون أحياناً بالتصفيات الجسدية، ولم يكن يرغب بأن يكون مع إذاعته في حفلة الرصاص الاعمى مجهول المصدر.

لم يتقبل زملاء وأصدقاء علي ما يقوم به. إنه يتجاوز المعايير الصحفية، ولا يُقدم خدمةً لنفسه. ثم من الممكن أن يظنَّ طرفٌ سياسيٌّ ما أن كلامه مؤثرٌ ومزعجٌ حقاً، ما يستدعي إيقافه بالقوة، بإطلاق النار على من يثرثره مثلًا.

كان علي يرى أن البداءة هي الشيء المناسب للتعليق على ما وصل إليه حال البلد، أما التهديدات تجاه سلامته فبعد بضعة أشهر من تحول لهجته في برنامجه الليلي صار يستشعرها، من خلال الاتصالات المجهولة التي يتلقاها أحياناً على هاتفه والتحذيرات اللطيفة التي يرسلها إليه أشخاص محترمون في الوسط الإعلامي. وقد سبَّه أحد المارة ذات يوم لأنه تجاوز بالالفاظ القبيحة على فصيله السياسي الذي يؤيده. كما أنه تعرض للكمات في تظاهرة بساحة التحرير.

حتى أكثر الأشخاص احتراماً في حياته وتأثيراً عليه؛ الدكتور واصف عبد المحبي، عالم الآثار والسوبرميت المتلاحد، حينما كان يتصل به وينصحه، لم يكن ليؤثر عليه. كان يقول له بأنها وسليتي الوحيدة لعمل شيء. فيردد الدكتور واصف بأسف بأنه كان يعول عليه كثيراً، والآن صار إنساناً مختلفاً تماماً. وربما بسبب هذه المساجلات الأخيرة على الهاتف والتي لم تكن مريحة لعلي، انقطع عن زيارة صديقه العجوز حتى مع علمه بأنه يعيش تحت وطأة المرض والعزلة والاقتراب البطيء من الموت.

ولكن، إلى أين يريد أن ينتهي؟ كم من الزمن يستطيع أن يصمد بهذه الطريقة، وهل يتحمل الآخرون صياحه الليلي من دون ردّ فعل ما؟

اشتكى بعض الأطراف لدى الإذاعة، ورغم الموقف المعارض لمدير الإذاعة لكلٍّ ما يقوم به علي، إلا أنه لم يستطع القيام بشيء. مالك الإذاعة المقيم في ديترويت يؤيد علي ويدعمه. ويخشى المدير المقيم في بغداد أن يتم استبداله بعلي في يوم ما. لذلك حاول إقناع نفسه ومن يتصل به للاعتراض إنها مجرد ساعة صراخ لا معنى له قبل انتصاف الليل، ساعة واحدة لا أكثر، يستطيع أن يبلغها، ويفترض مع نفسه عدم وجودها.

حتى جاء ذلك اليوم الذي تدخل به بعض الرجال النافذين لدى هيئة الاتصالات ووجهوا إنذاراً للإذاعة، الامر الذي دفع المدير للاتصال بمالك الإذاعة ومحاولة الوصول إلى تسوية ما مع علي.

ومثل من يستيقظ فجأة من سُكرة طويلة، وجد علي نفسه مكروهاً من قبل الجميع، يتعرض لانتقادات من كل الناس الذين يحبونه. صار مشهوراً نوعاً ما باعتباره علي ناجي القبيح والبديء. وهي صورة لم يَرْ نفسه فيها سابقاً. إنه شخصٌ مرهفٌ وفليسوفٌ بطريقة ما. هكذا كان يصفه أصدقاؤه قبل أكثر من عقد. ما الذي حصل له وما الذي دفعه لهذا التغيير العميق؟

بعد تفكير طويل شعر أنه أصبح بالتعب. لم يعد يجد دهشة ما في الموضوع، لقد استنفذ كل طاقته. كان يريد أن يحدث أثراً ما. حتى الكلمات التي تلقاها في ساحة التحرير والشتائم التي وجهها الرجل المتحمس لفصيله السياسي، كانت في الحقيقة تُبهجُهُ، وتمتنى لو أنه جرى اعتقاله، أو وجه له حزبٌ أو رجلٌ دين تهديداً صريحاً

بالاسم. كان يندفع إلى نتيجة من هذا النوع بقوّة، حتى من دون أن يعلن ذلك صراحة أو يفهم المغزى العميق من ورائه.

- ٢ -

ذات ظهيرة دافئة حدث شيءٌ مثير. كان علي خارجاً من مطعم راوندوуз في شارع السعدون، حين لحقه من عمق المطعم شاب سمينٌ وصاخ عليه. استوقفه وسلّم عليه بحرارة، قال بأنه يعرفه، ويتابع برنامجه الإذاعي. كان الشاب السمين ذو اللحية الخفيفة المحددة يضحك، ولا يبدو أنه ينوي ضرب علي مثلاً.

- بسبب هذا البرنامج أنا غيرت رأيي بك. كنت أكرهك بصراحة، ولكني الآن أحببتك. عرفت كيف تأثر أخي بك.

- ومن أخوك؟

- أمير داغر.

قال الشاب السمين، من دون أن يبدو على علي أنه عرف الاسم، فشرح الشاب السمين:

- لقد شنق أخي أمير نفسه في سنة ٢٠٠٠، بعد ليلة رأس السنة بيومين، وكان ذلك بسببك. أنت كنت تدير جمعية منتحرين أو شيئاً من هذا القبيل، وكان هو يتلقى بك، وتتأثر كثيراً بكلامك. ومن الغريب أنك لم تنتهز وتركته يموت.

قال الشاب السمين ذو اللحية المحددة، وتسمّر علي في مكانه مسترجعاً التفاصيل التي صارت تنبثق من ذاكرته الآن.

- حين علمت بحقيقة ما جرى بعد موت أخي، وعرفت بشأن جمعيتك، صرت أتبיעك وأبحث عنك، وكم غضبت لأنني وجدتك حياً. لم يكن لدى سلاح وقتها، ولم أرغب بأن تعرّف على وجهي

فتتجنّبني في أيّ مصادفة أخرى. لقد خدعت أخي وجعلته يخسر حياته من دون سبب معقول، لذلك قرّرت وقتها أنني سأقتلك.

قال الشاب السمين ذلك وكأنه يُلقي بقنبلة على علي الذي داهمه الخوف بسبب سماعه لمفردة القتل.

- بحثت عنك طويلاً. كنت أذهب إلى كاليري حوار في الوزيرية، وأذهب إلى جامعة بغداد، والى كلّ الأماكن التي كنت تلتقي فيها بأخي وأصدقائك الآخرين، ولم أعثر عليك، ثم في أواخر عام ٢٠٠٢ قيل لي إنه جرى اعتقالك من قبل الأمن العامة. توقفت حينها، وعدت للبحث عنك بعد السقوط، وفشل في العثور عليك، ثم أهملت الموضوع، حتى ظهرت باسمك وصوتك في البرنامج الإذاعي، وهنا تغيير كلّ شيء عندى. لقد تأثرت بكلامك. أشكر المصادفة التي جعلتني أراك اليوم، واعذرني لأنني ثرثرت كثيراً، ولكنني لم أستطع منع نفسي من كشف كلّ هذه القصة، ربما تفيdek أو تحكي عنها في برنامجك. أنا أؤيدك في كلامك، لازم يصير انقلاب عسكري ويخلّصنا من هاي الملة.

غادر الشاب السمين، والذي لم تكن هيأته تدلّ على رجلٍ يستطيع القتل واستخدام السلاح، بدا لطيفاً وساذجاً نوعاً ما، ولكن هل هناك صورةٌ نمطيةٌ للقاتل، ثابتةٌ ومكررة؟ لماذا لا يكون القاتل لطيف الملamus هادئاً؟

أثارت هذه الصورة عليّ كثيراً؛ هناك قاتلٌ ما مجهول، كان يبحث عنه ويريد قتله. قاتل لم يتوقعه أبداً. وساعد برنامجه الإذاعي السخيف في تغيير دقة مصيره تماماً. لم يتأثر الساسة، ولا المجتمع، ولم يحدث أيّ تغيير ولو طفيف، وكان كلامه كان صراخاً في صحراء مفقرة، ولكن، على الأقل، منع صراخه شخصاً ما من قتله.

كان هناك معنى إذن وراء كلّ ما فعله. كان يدافع عن حياته إذن، حتى وإن لم يعرف هذا بشكل واضح. ولم ينتبه للتناقض في النتيجة التي وصل إليها، فهو كان يتذكر الموت ويرحب به كما يدعى أمام أصدقائه، فلماذا فرح إذن بإفلاته من قبضة موت مجهول؟!

عاد في الليلة نفسها، وعلى الرغم من اتفاقه السابق مع مدير الإذاعة، الذي يقضي بالهدوء والتزام المعايير المهنية الصحفية، إلا أنه بدأ يشتم من جديد. صار يشتم بشكل أكثر بذاءة، ويستخدم الأعضاء الجنسية بشكلٍ صريح.

- يا أخي هذا شيء غير معقول!.. لن أشتراك بهذا البرنامج بعد اليوم. أنا آتي من بيتي وأسهر هنا من أجل شيء محترم مو هذا الخرط.

قال مهندس الصوت ومخرج البرنامج بعد انتهاء ساعة الشتائم. مغادراً حسّ الفكاهة والدعاية الذي يُعرف به. كان متضايقاً جداً، ما أربك على قليلاً. إنه يريد إزعاج من هم فوق، في بانثيون السلطة، وليس أصدقاءه. اعتذر منه، وقال له بأنه لن يكرر ما حصل الليلة مرّة ثانية.

لم يكن هناك من داعٍ لما فعل، ولكن عقله الخرافي يخبره بأنه أثر الليلة على شيء ما. ربما يتغير أمرٌ معينٌ في حياته غداً إلى الأحسن. ولم يُفكّر بردة فعل مدير الإذاعة صباح اليوم التالي حين يسمع التفاصيل، أو تتصل به هيئة الاتصالات لتبلغه بقرار إيقاف الإذاعة عن العمل مثلاً.

كان، في واقع الحال، مملوءاً بتلك التوعية من الثقة بالنفس المدمرة. التي تجعله لا يرى الآخرين بوضوح. وحين يدقق مع نفسه

قليلًا، لا يراها أصلًا نوعاً من الثقة بالنفس، وإنما حاجزاً صلداً يحاول تسوير نفسه به، حتى يبدو قويًا وصلباً أمام الآخرين، وهو يعرف مع نفسه بطلان هذه الصورة.

إنه يتداعى من الداخل، مثل من يتزحلق ببطءٍ منذ سنوات على سفح باتجاه هاوية سحيقة. إن قررَ مالك الإذاعة طرده من هنا، فلن يحصل على عملٍ ما بسهولةٍ في أيٍّ مكانٍ آخر. إن لم تؤثر شتائمه الصادبة بعمل الساسة، ومن السذاجة أن يفگر على بذلك، فهو على الأقل دفع زملاء المهنة إلى عدم احترامه. إنه ليس صحفيًا، أنه باائع خضرة، أو سائق باص عتيق يعمل على الخطوط الداخلية في المدينة، كما يمكن أن يصفه أي صديق يعرفه جيداً. لقد اندفع بقوّة باتجاه الهاوية، بعيون مفتوحة وإرادة واعية، ومن العبث أن يدعي أن أحداً ما دفعه لذلك. إنه في العمق، ما زال في «جمعية المترحرين» تلك، التي تحدث عنها الشاب السمين وذكره بها. وإذا لم يقم بإلقاء نفسه في مياه دجلة ليلة رأس السنة في الألفية الجديدة، كما كان يخطط مع أعضاء جمعيته، فهو استمر يقوم بذلك بالتقسيط، يندفع إلى الموت الاختياري بإرادة واعية، وإن كان ذلك ببطءٍ وعلى دفعات خلال مدى زمني طويل.

تلفون واحد يرفعه مالك الإذاعة ليتصل بالمدير هنا، سيكون كافياً لإطلاق تلك الرصاصة التي وفرها الشاب السمين ولم يُطلقها أبداً.

طرده من عمله سيجعله يعود إلى شقته في الكرادة قرب مستشفى الراهبات، ويُدفن نفسه هناك حتى يموت. لن يتبرع أخوه عمّار بمساعدته هذه المرة. لقد تعارك معه قبل بضعة أشهر وانقطعت علاقتهما. أيضاً هو سمع أن تتركه زوجته بسبب مشكلة يمكن

معالجتها، ضمن سياق المشاكل الزوجية المألوفة والمتوّقعة هنا. لم يبذل أيّ جهدٍ ليكذب ويعالج المشكلة. وكانت زوجته تتوقع أن يزورها في بيت أهلها في أيّ لحظة.

لقد تخلّى، بقصد ووعي منه أو من دون ذلك، عن الجميع، فتخلّى الجميع عنه.

### - ٣ -

كان سبب المشكلة مع زوجته هو اكتشافها لعلاقة غرامية يقيمها على مع «بان» الموظفة في البنك المركزي، وبدل أن يحاول الاعتذار أو الانكار، اندفع في هذه العلاقة أكثر. ثم بعد زعل زوجته وذهابها إلى بيت أهلها، صارت شفّته التي ظلّ يقيم فيها وحده عُشاً غرامياً. كانت هناك بنتٌ ما دائماً خلال الأسبوع، وربما التقى باثنتين أو ثلاثة خلال أسبوع واحد. وحصل في مرّة أنه نام مع عشيقته من البنك المركزي صباحاً، ثم قبل أن يغادر بعد الظهر إلى عمله المعتاد، اتصلت به عشيقة أخرى، وأعطتها العنوان كي تأتي إليه.

كان يعرف بأنه عمل غير آمن. لا توجد بنت حرّة هنا. هناك مفهوم محدّد عن الشرف، وهناك رجل ما في العائلة يرعى شرف البنت. لا أحد يعترف بالحبّ. ممارسة الجنس خارج إطار الزواج جريمة اجتماعية. الحبُّ العراقي الآمن غالباً هو تبادل للكلمات لا أكثر. وحتى لو اكتشف الرجل الراعي لشرف البنت أن هذه البنت تتبادل كلمات الحبّ مع رجلٍ غريبٍ فإن ذلك يمكن أن يؤدي إلى مشكلة، أو يتعرّض البنت إلى الإهانة والضرب، ويتعرّض عشيقتها إلى الملاحقة، أو يدخل الموضوع في إطار المعالجة العشارية. إنها أرض ملغومة ومحفوّفة بالمخاطر غالباً، أرض الحبّ

العربي، ورغم أن الكثيرين يجاذفون باجتيازها، لكنهم يعرفون في قراره أنفسهم، أنها أرض غير آمنة، واجتيازها مكلف.

يعرف علي ذلك، ويتجاهله بإصرار. حتى بعض التفاصيل البسيطة التي يمكن اتباعها للأمان والطمأنينة كان يتتجاهلها، ومنها أن البنت التي تصدق أنه يحبّها ثم تكتشف أنه يخونها مع امرأة أخرى، يمكن أن تتحول إلى وحش كاسر، ويمكن أن تخرب عليه حياته. كما أن البنات اللائي يتلقّلن على شقتها، يمكن أن تنفل إحداهن ولا تنتبه لرجل العائلة الذي يتبعها، ويصعد خلفها إلى شقة علي ويرفس الباب ثم يقتل العاشقين معاً، وسيؤيد المجتمع هذه الفعلة، ولن تقوم الدولة بأيّ ردّ فعل لحماية الحبّ، أو الحق الأصيل للفرد في استخدام جسده، فهذا هراء وكلام لا وزن له هنا.

إنه تفصيل آخر يتعلق بالدلوافع الانتحارية لدى علي. وكأنه يتوقّع هذه الاطلاقة من الرجل حامي شرف العائلة في لحظة ما قادمة، لهذا هو لم يفكّر بترميم علاقته مع زوجته، ولم يفكّر بحماية مصدر رزقه، ولا مصالحة أخيه، ولا كسب ودّ أصدقائه واحترامهم. كان يهوي وحده إلى عزلة عمق سحيق ومظلم.

في آخر لقاء له مع عشيقة البنك المركزي، التي تسبّبت أصلاً بانفصاله عن زوجته، أخبرته بأنها حامل، وظلت تصرّ أن الطفل منه وليس من زوجها الذي لم يعد يمارس الجنس معها منذ فترة طويلة. قالت إنها مستعدة للطلاق من زوجها للزواج من علي، ولكن هذا أبعد ما يكون عن تفكير علي. لا الزواج منها ولا من أيّ امرأة أخرى. لقد مرّ بهذه التجربة ولن يكرّرها تحت أيّ ظرف.

صار يتهرّب من عشيقته خلال الأسابيع اللاحقة. لم يلتقي بها مرّة ثانية، رغم أنها تتصل به. كانت تحافظ على اتفاقهما بأن تصل

قبل أن تقرر المجيء إلى شقته. لم تتجروا لتأتي إليه دون موعد مسبق، خشية أن يكون مع امرأة أخرى. كانت تريده مستعداً وراغباً. فهذا فرق علاقتها عن الزواج، الذي يمكن أن يمارس الزوج أو الزوجة الجنس تحت مظلة، كنوع من المجاملة، أو تأدية واجب روتيني في أوقات معلومة، أو كنوع من القول للشريك الجنسي بأنه ما زال يرغب به ويشهيه. هناك ألاعيب وخدع كثيرة تجري على سرير الزوجية، ولا مبرر للقيام بها في سرير العشق والغرام.

ثم ذات مساء، بعد عودته من برنامجه الإذاعي، اتصلت به. كانت تبكي. قالت له بأنها تحبه، تموت عليه، تعشقه حتى النخاع، ترحب به كلّ ساعة ودقيقة وثانية. تريده. كانت تتحدث بنبرة غير معهودة عنها. ففي كلّ لقاءاتهما، كانت تصرّف بحسنٍ عمليٍّ، وبأقل ما يمكن من العواطف والمشاعر. الآن هي تبدو مختلفة، يائسة ومنهارة، وكأنها طفلة مراهقة. وهذا ما أخاف على.

طلب علي منها أن تهدأ، وظلّ يسايرها. سيتصل بها صباح الغد كي يتحدثا. هو الآن سكران ولن يستطيع اتخاذ قرارات أو إعطاء وعد بهذا الوضع، وعليها أن تقدر ذلك.

#### - ٤ -

صباح اليوم التالي لم يتصل بها، فقد تلقى اتصالاً من صديقه العجوز الدكتور واصف عبد المحيي، عالم الآثار والسوبرميات المتتقاعد، قال له بأنه يمكن أن يكون اللقاء الأخير معه، فهو سيموت.

أخافته النبرة الدرامية في صوت صديقه العجوز، فعلى الرغم من الجفوة التي حصلت بينهما مؤخراً بسبب شتائمه الليلية على الهواء،

إلا أنه يعرف تماماً أن العجوز واصف هو أقرب أصدقائه، وأكثر شخص أثر فيه، على الأقل خلال السنوات الخمس عشرة الماضية. ذهب إليه في بيته الواسع في حي المنصور. جلسا على كرسيين مصنوعين من الخوص في الحديقة لساعتين. وكما توقع، وجد أن صديقه العجوز قد وصل إلى درجات متقدمة من الخرف والحديث غير المنطقي أو المفهوم. تأسف للحال الذي انتهى إليه هذا الرجل الذي كان في فترة ما أشبه بالمعلم له، والصديق العقلاني الذي يفهم أدقَّ الأشياء التي يفكِّر أو يشعر بها على.

سرح دكتور واصف بنظره إلى البعيد، وقال وكأنه يُكلِّم نفسه: - تظنُّ بأنك في مهمة كونية، سعيًا وراء الحقيقة. تنفق ثلاثة أرباع عمرك باحثاً، في غابة الأساطير والأكاذيب والأوهام الجمعية، عن الحقيقة، ولا تريدها. تتعدَّب، ويتمُّ نبذك وطردك، تشعر بقسوة العزلة مبكراً، وتفقد شيئاً فشيئاً قاموس الكلمات المشتركة مع الآخرين. حتى حين تروي نكتةً أو تروي حادثةً مررتُ بك، يصمت الآخرون ولا يفهمون ما تقول.

ثم حين تصل، مضرجاً بدماء الرحلة، إلى الحقيقة التي ليس غيرها، تعرف يقيناً، أنها مثل منشفتك الخاصة داخل الحمام، لا يصلح أن يستخدمها إثنان.

ظلَّ علي منصتاً، مقدراً مع نفسه حاجة العجوز للثرثرة، وكأنه يخلُّص نفسه من عباء أشياء لم يجد الشخص المناسب للنطق بها أمامه سابقاً. وشعر بأن أسئلته عن وضعه الصحي وإمكانية أن يساعدته بشيء لم تعد مهمة الآن. الرجل يُحضر نفسه للموت، حتى وإن كان هذا الموت ما زال بعيداً.

عرض عليه أن يأخذه بجولة في شوارع بغداد. يخرج معه

ليتناولوا الغداء في مطعم مثلاً. لكن العجوز واصف كان لا ينصل، وكأنه يشعر بأن علي ليس جاداً بما يقول.

قبل أن يغادر، وضع الدكتور واصف دفتراً صغيراً بجلد أسود في يد علي وقال له:

- في هذا الدفتر أشياء مهمة أريدك أن تهتم بها جيداً. هذا دفتر الأبواب السومرية. هذا هو الكتاب المقدس لخلاصك.

هزَّ علي رأسه حتى يطمئن العجوز أنه يأخذ كلامه بجدية، ووضع الدفتر الأسود الصغير في حقيبته، ثم غادر مع شعور يملأه بأنها ربما تكون المرة الأخيرة فعلاً التي يرى فيها صديقه العجوز. في الطريق عاندَ إلى الإذاعة ظلَّ يُقلِّب في الدفتر الصغير بحزن وأسف. عرف أن ما مسطورٌ في هذا الدفتر له علاقة بكلام تحدث به الدكتور واصف على مدى الساعتين الماضيتين. لم يكن فضوله قوياً للتدقيق في المكتوب. لا يوجد خلاصٌ في أيٍّ كتاب أو كلمات، وهذا الأمر ينطبق على الكلام المنطقي والعقلاني الذي قيل خلال السنوات العشر الماضية في محاولة للمساعدة بإيقاف الانهيار العام، وينطبق أيضاً على أيٍّ كلام شعري أو سحري كما هو هذا الدفتر المسطور بقلم جاف أزرق. كانت أشياء أخرى تشغل ذهن علي. أهمها ما يتعلق بمصدر رزقه الوحيد. وما يمكن أن يقوله هذه الليلة في برنامجه الإذاعي.

قال له مدير الإذاعة، وهو يصادفه في الممر باتجاه السُّلْم المؤدي إلى الطابق الثاني، إنه تفاهم مع مالك الإذاعة، وتوصلنا إلى قرار:

- لن تتحدث بأيٍّ شيءٍ مما كنت تقوم به في الليالي السابقة. إن

كان الامر لا يناسبك فستوقف البرنامج. واذهب لتبث لنفسك عن عمل آخر.

كان يتوقع هذا الكلام، وشعر بأنه تم تجريده من أسلحته. سيدخل إلى ستوديو البث المباشر عارياً وأعزل. غادر غاضباً مبني الاذاعة المطل على شارع أبي نواس، بالقرب من فندق الشيراتون والميرديان، وظل يمشي وقتاً طويلاً حتى وصل إلى كافteria زيتونة في شارع السعدون. صعد إلى الطابق الثاني، وعلى طاولة بجوار النافذة المطلة على الشارع جلس، وصار يُقلب في هاتفه المحمول. شرب القهوة ثم فتح حقيقته وأخرج الدفتر الاسود الصغير الذي أعطاه إياه الدكتور واصف. وتحت وطأة شعوره بفقدان البوصلة والتشویش صار يقرأ. قرأ الدفتر الصغير كلّه بإمعان. لم يغيّر رأيه بما قرأه، ولكن خطرت في ذهنه فكرةً ما.

- ٥ -

في الليل، وبدل قائمة الشائم المعتادة، كان علي هادئاً أمام الميكروفون، ثم طلب من المستمعين ممن يريدون الاتصال بالبرنامج أن يوفروا شائمهم ضده هذه الليلة، ويكتفوا بالانصات إلى ما سيقوله.

فتح الدفتر ذا الغلاف الجلدي الأسود وبدأ يقرأ لهم. فهذا هو الحل الأخير. هروب جماعي من هذا العالم، ليس من البلد وما فيه من مصائب، وإنما من العالم بأسره، وحسب مقترح صديقه الدكتور واصف عبد المحبي، عالم الآثار، فمن يقرأ هذه التعاوينذ يستطيع العبور، خلال النوم، من بوابة افتراضية، إلى نسخ أخرى معدلة من حياتنا نفسها. وربما نعثر هناك على عالم أفضل.

سخرت اتصالات المستمعين من كلامه، وقال له أحدهم؛ أنت حولت البرنامج السياسي إلى برنامج للسحر والتنجيم. وفي اتصال آخر قالت سيدة ما بأنها مهتمة بهذه التعاوين السحرية وتريد تجربتها، فوعدها علي بتكرار التعاوين مرتين خلال الوقت المتبقى من البرنامج.

كانت الفكرة طريفة ومسلية، ولم تواجه اعترافاً من أحد. بل إن مدير الإذاعة رحب بها، على الأقل هي ابتعاد من حافة خطيرة كانت تتجه إليها الإذاعة مع شتائم علي.

بعد ليالتين من بدء قراءة تعاوين الدكتور واصف وقبل أن ينتهي وقت البثّ، اتصل صوت نسائي وقال له بنبرة هادئة ومؤلفة:

- صرت تبحث عن أبواب للعبور من هذا العالم. لماذا لا تحصل على فيزا وتفضل السالفقة؟ أترك هذا البلد وسافر.

أربكه الصوت، وشعر بأنه يعرف صاحبته. ربما هي من عشيقاته. لم تكن زوجته بكل تأكيد. وحتى يتأكد أكثر، نسي أنه في برنامج يبث على الهواء مباشرةً وظل يتجادب الكلام مع المتصلة.

استمرت الحوارية نصف دقيقة قبل أن تختمها السيدة الغامضة:

- لا موجب أن تنتحر هنا لأنك تبحث عن دور في هذه المعممة. كان عليك أن تهاجر من سنوات يا علي.

- عفواً من المتصلة إذا أمكن؟

- أنا ليلي حميد يا علي.

أغلقت الهاتف، ولم يعرف علي كيف استطاع تمضية الدقائق المتبقية قبل نهاية البرنامج. شعر وكأنه تعرض لصفعه أو رجحة من تيار كهربائي مفاجئ. حاول العثور على هاتفها من مركز الكونترول بالاذاعة. وفي اليوم التالي اتصل بكل معارفه وأصدقائه ومن يعلم أن

لهم صلة مع ليلي. وفي النهاية اتصل بصديقه عبد العظيم، الذي تفاجأ أن صديقه القديم والمقرب تذكّره أخيراً. اضطر إلى الاستطراد بأحاديث متفرقة لدققتين قبل أن يسأله عن ليلي، لكن عبد العظيم أنكر أنه يعرف شيئاً عنها.

ظلّت الصور تتدفق من ذاكرته من دون إرادة منه، وكأنه بحاجة إلى تشويش مضاف على الدوران الذي يعيش فيه. تذكّر لعبة المجموعة الشمسية في مدينة الألعاب. إنه يدور الآن داخل حفلة دورانات متعددة، تماماً مثلما فعلت ليلي حين فجّرت داخل حفلة الدورانات قبليتها الصغيرة قبل تسع عشرة سنة، ها هي تعود لتفعل الشيء نفسه.

تعود؟! وهل عادت؟ وجد تلفونها مغلقاً أو خارج نطاق التغطية. وانتهى سريعاً إلى حصيلة تقارب الصفر. أخبره زميلٌ قديم من أيام الكلية بأنه شاهد سيدة تشبهها في دائرة الضريبة قبل بضعة أشهر. كما أن تقريراً تلفزيونياً عن ظاهرة ما في ساحة التحرير أظهر صورتها. ذات السيدة التي تشبه ليلي. هذا كلُّ شيء.

ظلَّ يفتّش عن التقرير التلفزيوني، ولم يعثر عليها، ثم ذهب إلى ساحة التحرير خلال ظاهرة تم الإعلان عنها ضد الحكومة، وفتش بين وجوه النساء المتوجّدات، ثم تجرأ وسأل أحداهنَّ عن ليلي حميد، ولكنه لم يصل إلى أيّ نتيجة. بعدها بيومين تذكّر صديقه العجوز واصف، وشعر بأنه يحتاج لإبلاغه بما فعل. لقد نشر تعويذات الأبواب السومرية على الهواء مباشرة، كنوع من التسلية والإثارة، وربما كان الأمر فيه إهانة وسخرية من النصيحة الجادة التي قدمها له الدكتور واصف، ولكن هذه التعاويد جلبت له ليلي، كما أن صديقه العجوز هو الشخص الوحيد المتبقّي الذي لم يسأله عنها.

اتصل به ولم يحصل على ردّ. كان الهاتف يرن ولا أحد يجيب. وبعد ساعتين عاود الاتصال ليرد عليه صوت شاب خشن ويلغّه بأن الدكتور واصف في الانعاش.

## - ٦ -

لم يذهب إلى المستشفى مباشرةً. خَشِيَ أن يجد «رافد» الأخ الأصغر للدكتور واصف، والذي يكرهه على، وهو بالتأكيد صاحب الصوت الخشن على الهاتف. اتصل بهااتف دكتور واصف في اليوم التالي، ولكنه كان خارج التغطية، الأمر الذي ضاعف قلقه فعزم على الذهاب إلى المستشفى. أخذ معه أحد أصدقائه، كنوع من الدرع النفسيّة لمواجهة رافد. ظلّ يطرق في الممرات ويسأل عن الغرفة التي ينام فيها الدكتور واصف، ويدخل إلى الغرف يتقدّها. لم يعثر عليه، وفي النهاية واجهه أحد الموظفين بالخبر المحزن؛ فالرجل الذي يسأل عنه توفي مساء البارحة وجاء أهله وأخذوا جثّته من المستشفى. شعر علي بُغمٌ شديد. وكان شيئاً ما كان معه على الدوام قد إنهاض فجأة. شعر بالذنب لأنّه لم يكن صديقاً جيداً خلال السنوات الأخيرة، رغم أنه كان يشعر بوجود دكتور واصف حوله دائماً. حتى حين ينشر شتائمه على أثير الإذاعة، كان شيء ما في أعماقه يخبره بأن الدكتور واصف ينصل ويستمع، حتى وإن كان في واقع الحال لا يملك مذيعاً أو لا يملك وقتاً وطاقةً لمتابعة أيّ شيء.

ها هو يخسر صديقه الأساسي، حتى من دون فرصة للقاء كلمة وداع، أو الاستماع إلى نصائحه الأخيرة. ظلّ طوال الطريق مستغرقاً مع نفسه، ثم انبعق في ذهنه شيء ما؛ لقد قال الدكتور واصف ما يريد قوله في اللقاء الأخير بينهما. لقد سلّمه شيئاً يراه الدكتور واصف

مهماً، بينما ينظر إليه علي على أنه مجرد هراء كتبه رجل دخل مرحلة الخرف. وربما عليه الآن أن ينظر بعين أخرى ويبحث بين الكلمات المكتوبة بخطّ الدكتور واصف عن معنى أو شيء آخر لم يتتبه له سابقاً.

- ٧ -

بسبب تعاويد الدكتور واصف، أو لأسباب أخرى، عثرت ليلي عليه، بعد أن فشل هو في العثور عليها. بعد أسبوعين من مكالمتها له في البث المباشر دخلت على صفحته على الفيسبوك وكتبت له قائلةً؛ إن التعويذة الأولى من بين ما كان يرددّه في برنامجه الليلي تنطبق عليه تماماً؛ «إن المحظوظ فقط من يصل للهوة السحرية في ذاته، ولكن الحكم من يطيل النظر إليها، لا أن يسقط فيها.»

ثم ختمت تعليقها بالقول:

- لقد سقطت يا علي في هوّتك السحرية على ما يدو. حكمتك القديمة لم تفعك كثيراً.

كان كلامها مستفزّاً. وبدت من نبرتها في الرسالة وكأنها ما زالت على هيأتها الأولى التي يعرفها عنها، حين كانت تباري معه في الكلام أيام الدراسة في الكلية، ولا تقبل إلا بهزيمته.

استجابة لتحديها، هو يعرف أنه اليوم أكثر عدوايةً مما كان عليه سابقاً ويستطيع المجازفة بإذعاجها. ظلاً يتحدثان عبر الرسائل لمدة من الزمن، وأنتقداً في كلّ المواقف التي حصلت بينهما خلال التسعة عشر سنة الماضية. لم يُخفِ أن الأمر بدا مثيراً أن تنبثق أمامه الآن من العدم، ولكنه لم يكن يعوّل على شيء أكثر. وعلى غير ما افترض، تطورت الرسائل سريعاً إلى مكالمات هاتفية، ثم لقاءات

مباشرة في عدة أماكن، منها بيت عائلتها في الزعفرانية الذي لم تعد تسكن فيه سوى والدتها العجوز.

كان هناك تفسير آخر للتعويذة الأولى لم تفَّغر به ليلى، فدخولها المفاجئ على حياته التي تقف بكلّها على حافة الهاوية، سارع في سقوطه المدوّي. لم يكن حكيمًا ليتبّه أنه يتزلّق من الحافة الخطيرة، ولم يكن لديه وقتٌ كافٍ لعمل أيّ شيء لتفادي ذلك.

كان عائداً من لقاء معها، يسير مغموماً مع صديق له في شارع السعدون حين تلقى اتصالاً من مخرج البث الذي يرافقه في برنامجه الليلي المعتمد، ليبلغه بصوت مرتبك أن مدير الإذاعة أوقف برنامجه النهائيّاً. لا شتائم ولا تعاوِذ بعد اليوم، وكلُّ هذا جرى بالاتفاق مع مالك الإذاعة، ما يعني أن علي صار بدون عمل الآن.

- عليك أن تأتي لتفاهم مع المدير قبل أن يغادر الإذاعة يمْعُود.  
قال مخرج البث عبر الهاتف بنبرة تحاول إخفاء الشعور بالذنب. ظلَّ على حائرًا. لقد تخلَّ عن الشتائم منذ فترة فلماذا أوقفوا البرنامج؟!

- يمْعُود.. لقد كانت الشتائم السياسية منطقية على أيّ حال، أما حكايات السحر والتجمیع والتعاوِذ فهي سخيفة جداً يا علي.  
قال مخرج البث قبل إنتهاء الاتصال.

ظلَّ يسیر شاعراً بالضيق ورغبة بإطلاق شتائم جديدة لم يخترعها أحدٌ بعد، وأخبره صديقه الذي يرافقه بضرورة الإسراع للعودة إلى الإذاعة، عليه أن يقاتل من أجل قضيته.

- أيّ قضية يا رجل؟  
ردَّ علي ساخراً وهو يشعر بمرارة الموقف. أدخل يديه في جيبي قمصلته، وظلَّ يسیر بخطوات مثاقلة، وخلال دقائق الصمت التالية

كانت صورة ليلي تطفو في ذهنه من دون إرادة منه. لم يكن مستعداً لتلقي الخبر السيئ الجديد، فهو مشغول أصلاً بليلي، فضلاً عن الأشياء المئة الأخرى الأقل حجماً التي تدور في ذهنه على مدار الوقت مثل دوامة.

وصل مع صديقه إلى ركن شارع فرعى يقوده إلى بناية الإذاعة المطلة على شارع أبي نواس. توقفاً، لأن الصديق سيذهب في طريق آخر. صافحه وطلب منه أن يهدأ ويحاول إنقاذه عمله.

كان مرهقاً ويستعيد دون إرادة منه أجزاءً من كلامه الكثير مع ليلى. لقد التقى ظهر اليوم بعد افتراق عشرة أيام. بدت مصرة على إنهاء هذه العلاقة المتتجدة، حرصاً على سلامته كما قالت. لكنه أقنعها باللقاء هذا اليوم، ولم تنس أن تخبره بأنه لقاوهما الأخير. في الحقيقة كل لقاء بينهما كان أخيراً، لذلك لم يعد يأخذ نبرة الإصرار والتصميم في كلامها على محمل الجد. أخبرها بأنه كلما التفت في السرير رأى وجهها أمامه، وخلال النهار، في بعض الأحيان، يتحسّس مثل الممسوس شفتيه بأصابعه وكأنه يحاول تهدئتها وهمما تبحثان بلهفة عن شفتيها. هو يحتاج في كل ساعة إلى هاتين الشفتين. لقد أدمن عليهما. يتذكّر الأشياء البسيطة التي كانا يفعلانها معاً. التدخين في السرير، أكل المكسرات، أو المشاركة في شرب كأس ويسكي مخفف بالصودا. الأحاديث المتشعبة عن حياتيهما التي شعبت خلال تسعه عشر عاماً في طرقات ودروب مختلفة، وغيرها من الأشياء التافهة التي لا قيمة لها، سوى أنها حشو ضروري لوقتهم معاً، مادة أثيرية للمرور من خلالها عبر الزمن الذي يقضيانه وهما ينظران أحدهما في وجه الآخر، أو يتحسّس يديها الصغيرتين وأظافرها الطويلة المشغولة بمهارة، أو وهي تعبث بشعر صدره،

تمرر يدها عليه ثم تمسك بقبضة منه وتسحبها برفق، وكأنها تريد الإحساس بكتافة هذا الشعر أكثر مما تهدف لإيلامه. احتضانها المفاجئ له بين حين وآخر، وكأنها تريد تذكيره بحاجتها له. أو حين ترفع نظرها إليه أثناء ما يحرّك يديه دون هدف على وجهها وأنفها ورقبتها. بسبب هذه الأوقات التثمينة صار يُصدق جسدها والإشارات التي تنبئ عنه، من ملامح وجهها وعيونها وانفراجه شفتها، أكثر مما يُصدق كلامها. هي تحاول دفعه بعيداً، لكن جسدها يكذب ذلك في كلّ مرّة.

إن كانت روحه غرفة أنيقة مؤثثة بشكل جيد في سرداب خفيّ، قال لها ذات مرّة، فإن غيابها ولو لنهار واحد، صار يشبه فأساً مجهولة تقطّع بوحشية أرجل الكراسي والأرائك وتشوه اللوحات على الجدران، وتكسر الآنيات الزجاجية داخل هذه الغرفة الأنique. وكلما زاد غيابها تحولت روحه إلى مكبّ نفايات تصوّل فوقها فأسّ مجونة.

سخرت من كلامه المنمق وقالت له إنه لقاوهما الأخير، وليس كما في كلّ مرّة. عليه أن ينظر إلى عينيها جيداً حين تقول له إنها المرّة الأخيرة، حتى يعرف من عينيها، وليس لسانها، أنها مرّة الأخيرة فعلاً. ظلّ مشغولاً بدوامة ليلي حتى سمع، عبر الهاتف، خبر فصله من عمله.

غادره الصديق بخطوات بطينة وصار على مبعدة عدّة أمتار، حين توقفت فجأة سيارة موهافي بيضاء وأخرج الراكب بجوار السائق ذراعه شاهراً مسدساً، وجهه بسرعة إلى علي الذي يبعد عنه نحو عشرين متراً وأطلق رصاصة اخترقت رأس علي، وسقط في إثرها فوراً. انتبه الصديق الذي استدار إلى الخلف أن علي سقط على

الأرض بينما أطلقت عجلات سيارة الموهافي المتحركة بسرعة صريراً حاداً واجتازت الصديق وكادت تصدمه.

كان الدم يتدفق على وجهه علي ورقبته وملابسها بسبب الجرح الذي أحدثته الرصاصة في مقدمة رأسه عند حافة الشعر أعلى الجبهة. ظلّ الصديق يصرخ بدونوعي منه وهو يتحسّن بيده مفروعاً تهشّم مؤخرة رأسه علي وامتلاء يديه بالدم، مثيراً فزع المارة القليلين في هذا الوقت مع اقتراب مغيب الشمس. وربما بسبب كلام علي السابق عن التهديدات بقتله، فإن صديقه المفجوع كان على يقين أن تهديداً ما قد تمّ تنفيذه.

ها هو بريد الموت الذي ظلّ علي، يقصد أو دون قصد، ينتظره وينادي عليه خلال ثلاثة عشر عاماً يصل إلى الآن.

### الفصل الثالث

## جَمِيعَةُ الْمُنْتَحِرِينَ

- ١ -

إنها ليلة العادي والثلاثين من كانون الثاني ١٩٩٩ ، والهواء البارد يجمد أنف علي أثناء خطوه بتناول حتى منتصف جسر الجمهورية . وقف عند السياج الحديدي من الجهة التي تودع مياه النهر المندفعة بثبات وليونة إلى الجنوب . كانت أضواء متفرقة تأتي من البناءات القريبة تعكس وهجاً متراقصاً على الجسد المعتم للنهر . استغرق علي في تخيل كيف سيكون أثر السقطة في المياه القارصة في هذه اللحظة . هل سيندفع الماء إلى رئتيه بسرعة ، أم أن غرائزه ستقاوم؟ هل ستكون الشرطة النهرية قريبة وحاضرة في هذه الساعة من الليل ، قبيل نصف ساعة من منتصف رأس السنة ورأس القرن؟ أم أنهم الآن يركون زوارقهم الرشيقة في مكان ما ، ويحتفلون بهذه الليلة المميزة على طريقتهم الخاصة ، بقنانى البيرة وتردد الأغاني الشعبية . أنسنت ولكنه لم يسمع شيئاً ، سوى أصوات حركة السيارات القليلة ، بين حين وآخر على أسفلت الجسر خلفه .

لم يتوقف أحد ما ليسأله ماذا يفعل في هذه الساعة في هذا المكان وحده . لماذا يقف شاب يرتعش من البرد أو القلق هنا هنا وينظر إلى النهر؟ هل أضاع شيئاً؟ هل هو سكران؟ لا بد أن تمر

سيارة شرطة بعد قليل وينزل رجال الشرطة ليسألوه هذه الأسئلة، وإن ارتابوا بأمره فلربما يقتادونه معهم.

هو يتوقع كلًّا هذه الأشياء، ولكنه الليلة عبر الحاجز الوهمي الذي يفصل بين الحياة والموت، نفسياً على الأقل، وما عاد أي شيء يهمه. ليست سوى دقائق تفصله عن الغطسة الأخيرة في المياه الباردة المعتمة. فحتى لو وقفت سيارة شرطة الآن، فإنهم لن يلحقوا به وهو يقوم بقفزته المفاجئة إلى مياه النهر، واستناداً إلى حوادث سابقة، لن يكتثر رجال الشرطة كثيراً، ولن يهتمُوا بإيقاؤه أو الاتصال بالشرطة النهرية لمحاولة ذلك، أو على الأقل لانتشال الجثة الهايدة فيما بعد. «إنه شخص يريد أن يموت، ونحن نقاتل من أجل أن نعيش وما نجد هذا العيش، ما الذي نفعله له يا ترى، فليم.. موتة الكلاب السود» هكذا سيقولون ربما.

كان يفترض، وحسب الموعد الذي ضربه مع أصدقائه السبعة عشر في جمعية المنتحرين، أن يحضروا لها هنا في هذه الساعة تحديداً. سيكونون معه ثمانية عشر منتحرًا يُنقذون غطسةً جماعية وأخيرة مع ضربات الساعة الأولى في القرن الجديد. هذا هو الموت المميز الذي يستحق أن نموته. موتاً شاعرياً لم يقم به أحدٌ سابقاً. موتاً شجاعاً لا يجرؤ الكثيرون على القيام به. أما الثمانية عشر رجلاً وامرأة، فهم أولئك الذين أنهوا جميع مشاغلهم مع هذه الحياة، وأخرجوها من الرأس، وصارت في الخلف تماماً. لقد قضوا ثمانية أشهر في حوارات عميقة ومتصلة حول هذه القضايا، والأسباب التي تدفعهم للإيمان بفكرة الموت الاختياري. لم تعد هناك تفاصيل تستحق النقاش، كلُّ شيء حُسم وانتهى الأمر، ولكن، لماذا لم يأت أحدٌ منهم حتى الآن؟!

هو لم يجبر أحداً. كان قد قرر هذا التاريخ لانتخاره منذ سنة تقريباً. كان يريد إيقاف الألم، فعند كلّ صباح يستيقظ فيه يشعر بفداحة ما يرتكبه بحقّ نفسه. إنه يتثبتّ مثل جرذ بحياة الجرذان ولا يملك الشجاعة لمجادرتها، مغادرة هذه التفاهة المتصلة التي يسميها الآخرون حيّة. شعر بالقرف من الشاعرية التي تضفيها نصوص الأدب على حيّة شاحبة يجب أن نعاملها مثل جائزة. كرّه انعدام الحلول، ومن كونه يفكّر بالمصائر الكبرى أكثر مما يُفكّر بمصيره الشخصي. حاول القيام بأشياء كثيرة تُحطم قفص الجرذان الذي يعيش فيه، ولكنه فشل فيها كلّها.

فشل في التصالح مع الأوضاع العامة، وفشل في مسك لسانه من التعليق والكلام بأشياء تمثّل القضايا السياسية المحرمّة، وما كان يمنعه من التمادي في ذلك هو خشيته على عائلته؛ أخيه الأصغر بالذات. ربما سيسبب لهم مشاكل وألاماً من دون داعٍ. ولكنه لم يستطع الصمت بشكل كامل. وظلّ يلعب على هذا الحبل الممدود ما بين حياة الجرذان الآمنة في مجاريها المعتمة، ومناطق الخطر القادر من الدولة والحكومة والحزب الحاكم.

ملأ في النهاية من هذا اللعب على الحبل الخطر. حاول استخراج جواز سفر، واستطاع توفير مبلغ الأربعين ألف دينار، الضريبة التي وضعتها الحكومة على طالبي جواز السفر، إلا أن دائرة الجوازات رفضت طلبه، بسبب قيودٍ ما غامضة وتشابه أسماء مع شخصيات ممنوعة من السفر وما إلى ذلك. فشلت حتى الرشاوى وحصلت له مشاكل كثيرة مع الوسطاء الذين تربّعوا بحلّ المشكلة. لم يَرِ جواز سفره النور أبداً.

إنفق في أواخر عام ١٩٩٨، ومن خلال علاقة ما مع صديق

لأخيه عمار، مع مهرب محترف. وخرج معه برفقة أربعة شباب آخرين، واستطاعوا عبور الحدود ما بين العراق وسوريا. غير أنهم وسط الظلام الدامس فقدوا أثر المهرّب، أو ربما هو من تركهم وفرّ، بعد أن تمكّنت دوريات حرس الحدود من كشفهم وملاحقتهم. أطلقت النيران باتجاههم، ووُجد على حفرة عميقَة اختباً فيها، وسمع أصوات زملائه وهم يتسلّلون ألا يقتلهم حرس الحدود. ألقى القبض على الجميع، وما بين شعوره بأنه أفلت والقلق مما سيفعله لاحقاً وكيف يجد طريقه وسط هذه العتمة والأراضي الجرداء المترامية، وجد سبطانات البنادق وهي تنزل إليه في الحفرة، بعد أن وشى به أحد رفاق الهجرة غير الشرعية.

قضى ستة أشهر في سجن بادوش في الموصل، قبل أن يُطلق سراحه. ليعود إلى النقطة نفسها التي انطلق منها، إلى الحبل الممدوّد ما بين حياة الجرذان وحائط السلطة المخيفة. حاول الاتصال بالمهرب القديم من أجل استعادة أمواله أو للتخطيط لرحلة أخرى، ولكنه لم يسمع عنه خبراً، ولم يعثر على مهرب آخر. وصار أخوه عمار يتعارك معه كلما تحدث أمامه بشأن الهجرة غير الشرعية مرة أخرى. طلب منه أن يتكتّف مع حياته ها هنا، حاله حال ملايين البشر الذين يخرجون من الفجر ويقدّحون ويقيّسون الظروف من أجل *لُقْمة العيش*? «ما مشكلتك؟ أنا لا أفهم بصرامة؟ لماذا لا ترجع للعمل معي في محل السجائر؟ لماذا لا تتزوج؟ غرفتك في الطابق الثاني موجودة. جذّ فتاة وتتزوجها، ستتغيّر نظرتك كثيراً. أنا أصغر منك صحيح بس أعرف أن العضو الذكري له صلة بالدماغ، والأفكار السيئة أحياناً تأتي من عضو ذكري معطل وليس الدماغ». قال عمار ذات مرّة، ولم يرد عليه علي بشيء، لأنه

يدرك صعوبة الحوار مع أخيه، فلا شيء يجمعهما سوى اسم الأب.

كان من المستحيل أن يفکر بأخبار أخيه أشياء سيسخر منها ويضحك عليها. لم يجرّب سابقاً فتح قلبه والتحدث معه مثل صديق. لم يستطع إخباره مثلاً بأنه يرى عضوه الذكري مرتبطاً بقلبه، وعضوه معطل لأنه يائسٌ من العثور على الحبّ. كلُّ الفتيات التي تعرف عليهن، وهذه ربما مصادفة وليس قدرًا مغلّاً، كُنَّ يبحثن فيه عن صورة زوج مستقبلي، بينما هو كان يريد التأكّد أولاً من صورته في أذهانهن، صورة حقيقة وغير مشروطة بشيءٍ أبعد من وجود هذه الصورة المستقلّ. لم تكن هناك فتيات كثيرات أصلاً لفهم هذا الكلام، فضلاً عن حقيقة العلاقة غير المشروطة، التي قد تؤدي إلى الحبّ العميق، ومن ثم إلى مستويات أبعد من هذه العلاقة، منها الزواج طبعاً.

كلُّ من تعرّف عليهن، كُنَّ يسبحن بتعيّن في محيط واسع من عدم الأمان، وكنَّ يرين فيه وفي غيره أطواقاً محتملة للنجاة. وهو لم يرَ نفسه طوقاً لنجاية أحد، هو غارق أصلاً ويبحث عن طوق. لذلك وبعد تكرار طويل لهذه المقدمات، صار يصنع مصدّات أمام أيّ امرأة تجلس بجواره، أو تستمر بالحديث معه وقتاً أطول من المعتاد. إنه يشعر بثقل ذاته الشديد، يشعر بالورطة مع هذه الذات، ولا يريد أنقاذاً إضافية اسمها؛ تلبية توقعات إنسان آخر ومحاولة العمل على إسعاده. «أنت تتوهم يا علي.. هناك أشياء تعرفها بلمسّ اليد وليس الحالات مثل حالتك. حين تنام مع امرأة وتقوم بذلك بشكل جيد وتضحكان وتستمتعان ستجبهما وتحبك وخلص، نقطة راس الشارع».

«راس السطر قصتك».

«أيّاً كان.. نَمْ مع امرأة، ولكن في سرير الزوجية، وتعود على رائحة امرأة في سريرك لوقت طويل، وسترى أن العالم كُلُّه يتغيّر، ستكون هناك أشياء ثمينة تستحق أن نعيش من أجلها. صدقني.. رأس عضوك الخائب الآن هو من يفگر بمكان رأسك»

مكذا ينتهي الحوار ما بينه وأخيه عمّار. ماذا لو أنه حاول نزع جلدِه واندفع في «حياة الآخرين» كما يطلب منه عمّار؟ جرّب ذلك لبضعة أشهر بعد تسریعه من الجيش، بالعمل مع أخيه في بيع السجائر في سوق الأرض وملی الشعبي بمنطقة كراج العلاوي خلف المتحف العراقي، غير أنه لم يستطع الصمود طويلاً. كان يسرح، دون إرادته، ويفشل في التكيف، ويجد نفسه في مواقف مضحكه وشاذة، وتسبّب بالحرج لنفسه وأخيه في بعض الأحيان، ما أنهى هذه التجربة سريعاً.

كم يحتاج المرء من تأكيدات في العالم الخارجي كي يصل إلى قناعاته القاطعة؟ يعرف أنه تحت وطأة مزاج واحدٍ منذ بضعة أشهر، ويعرف أن تفاعله مع المحيط ومع إمكانات هذا المحيط هو ما يخلق هذا المزاج السيئ. يعرف أنه غير حرّ ولا يمكن أن يكون حرّاً في يوم من الأيام ما دامت هناك صلة مشروطة بينه، ككائن، وهذا العالم الخارجي. وكلّ شخصٍ يصرخ بأنه حرّ فهو مجانون أو أحمق. نحن ننتاج العلاقة الشائكة بين كينونتنا الخاصة وإمكانات هذا العالم. الشارع والحي السكني والطقس والنظام الاجتماعي والسلطة السياسية، والمطبخ الشعبي والأغاني وطرق التفكير بالحياة والكون ومغزى كلّ شيء، هي أمور قدرية تحاصرنا من كلّ اتجاه، وما ذاتنا إلا منطقة فارغة لا معنى لها، تكون بلون وشكل محددين، حسب الموقع الذي تشغله داخل هذه الخلطة المعقدة.

حين نختفي من هذا العالم، فإننا لا نفعل شيئاً سوى تأكيد اختفائها الأصلي، فلا وجود لنا، وإنما لكيان ضخم اسمه المجتمع والتاريخ، وإنعكاس أضوائهما على شريحة الزجاج الشفاف التي نسميها؛ وجودنا الإكراهي الذي لم نختره، ولم يستشرنا أحدٌ من أجل إيجاده.

إنه بارع تماماً في سرد هذه القناعات التي توصل إليها، وهو ما جذب انتباه أصدقائه دائمًا، الذين سموه بالفيلسوف، وهم يقصدون أنه يتكلّم بكلام عميق، ويقصدون أيضًا معنى ساخرًا خفيًا؛ فهو يتكلّم بكلامٍ مرتَبٍ وأنيقٍ ولكنه غامضٌ وغير مفهوم ولا يجدون طاقة ولا رغبة لمحاولة فهمه، لذلك يبدو اندفاعه بالشرح والتفصيل أحياناً نوعاً من الفاصل الترفيهي، الذي لا يستدعي المقاطعة أو التعليقات الساخرة لأنهم سيحرمون أنفسهم من تكراره لاحقاً.

لم يدرك هذه الظروف المحيطة بتفاعلاته مع الآخرين من أصدقائه ومعارفه إلا في وقتٍ متأخّر، في الوقت الذي صار يميل فيه إلى الصمت أكثر من الكلام. وشعر فيه باليأس التام من موقعه داخل هذا العالم، وفشل في استبدال العالم الذي ملّ منه بعالم آخر ربما يكون أفضل. صار يعيش في لحظة صفرية تماماً، وبذا له التفكير بالموت أمراً مريحاً ومحرراً.

لا موجب لتبرير وجوده، أو محاولة التفاهم مع الآخرين من أجل إفساح مجال له كي «يوجد» بينهم. لا مبرر للبحث عن شرعية وجوده في عالم غير شرعي أصلاً، أو لا يراه شرعاً. لا مبرر لأي شيء. لقد سقط المعنى من العالم، وسقطت محاولاته في إسباغ معنى ما من صنعه على هذا العالم، ولم يتبقَّ سوى الدفق الشعري

الذي يمكن أن ينفلق في الهواء مثل صَعَادَة نارية جميلة ثم يختفي  
بعدها مباشرة.

دقق يشبه القُبْلَة البتيمة التي أعطتها له «ليلي» في كابينة لعبة  
الأخطبوط الحديدي في مدينة الألعاب قبل ست سنوات تقريباً. لو  
تكررت القُبْلَة في المكان ذاته لاحقاً، لفقدت طاقتها الشعرية. لو  
كان هناك انتظار وتخطيط واع لها لما بدت قُبْلَة مهمة. لو أن كلّ  
شيء تطور لاحقاً كي تعمق علاقته مع ليلي، وربما أحجاً بعضهما  
الآخر فعلاً، وتزوجاً، لما كانت القُبْلَة مثيرة وموحية. إنها مهمة  
لأنها يتيمة ومن دون معنى مسبق، شيء خاطفٌ ولا علاقة له بهذه  
الحياة رغم أنه مصنوعٌ من مادتها.

ولأنها قصيرة وهشة وشحيحة باللحظات الشعرية، ولأنه صار  
يفتقد الحيلة في محاولات التعديل أو فتح الأبواب المستحيلة، لأنه  
سَيِّئَ من رائحة براز الجرذان التي تواجهه في قفصه الضيق، شعر بأنه  
من الشجاعة أن يقرّر المغادرة الآن. تحياتي لكم جميعاً أنا مغادرٌ  
إلى غير رجعة، هوووووب قفزة في الهواء البارد ثم غطسة عميقه في  
الماء الأشدّ برودة فقد الشعور بأجزاء جسده أولاً، ثم تبُثُّ شللاً  
كاماً في شيئاً فشيئاً، ثم غيوبة متصلة بالأبد.

كان للآخرين أسبابهم وقصصهم المختلفة التي انتهت إلى  
النتيجة ذاتها التي توصل إليها علي، أو هكذا توهم. جاءه شابٌ من  
أصدقائه غير المقربين وأخبره بأنه سمع بنيتها الانتحار في ليلة رأس  
القرن وأنه سيشاركه هذا الانتحار، ولم يمانع علي بذلك، ثم شيئاً  
فشيئاً انضمَّ آخرون، وأطلق أحدهم تسمية «جمعية المنتحرين» على  
جلساتهم الأسبوعية في كافتريا كلية الآداب بجامعة بغداد.

صارت «جمعية المنتحرين» أشبه بالفقاعة الزجاجية التي دخل

فيها على مع الآخرين بيارادتهم، فقاعة عزلتهم عن عوادم السيارات وأتربة الشوارع، وتنفسوا فيها هواء نقياً مضمحةً برائحة الشعر، رغم أنه في الوقت ذاته، هواء الموت أو نواباً الموت.

لم يكن الأمر يتعلّق بمجرد الانتحار وقتل النفس بأيّ طريقة، وإنما أن يجري ذلك بطريقة شاعرية، وفي وقتٍ ممّيز. لم يُدرك عليًّا الأهمية الحاسمة لجعل موعد الانتحار بعيداً. لقد كانوا متّحرين مع وقف التنفيذ. كلّهم، وعلى مدى الأشهر الثمانية، كانوا يتّنفسون شجاعة الموت الاختياري رغم أنهم لم ينتحرّوا بعد. كانوا يعيشون في وضعٍ نفسيٍّ ما بعد الانتحار، وربما خلال الأشهر الماضية استندوا بطارية الموت الاختياري تماماً. لقد انتحرّوا ثم عادوا إلى الحياة، انتحرّوا نفسياً من خلال كلّ الكلام الغاضب الذي أطلقوه في الهواء، من خلال الدموع، والشرب بإفراط والبكاء الهستيري، والتضامن الجماعي، وشتم الحياة بأقذع الألفاظ، والشعور بالشجاعة المفرطة والمجنونة التي كانت تدور في حيز ضيق، ربما هو شقة أحد الأصدقاء في راغبة خاتون. شجاعة كانت محبوسةً طويلاً بسبب الهدنة المرهقة مع العالم الخارجي، ومحاولة استرضاء العائلة والسلطة الاجتماعية والسياسية وغيرها.

خلال هذا الوقت الطويل استفرغوا كلّ الطاقة الشعرية في نية الانتحار الجماعي ليلة رأس السنة والقرن من خلال القفز من على جسر الجمهورية إلى المياه الباردة. هذا ما توصل إليه علي سريعاً، وهو يدخن «سيجارته الأخيرة». تبخّرت كلّ الشجاعة وتسربت من خلال الأحاديث والأعمال المشتركة التي قاموا بها في جمعية المنتحرّين، ولم يوفّروا ما يكفي من هذه الشجاعة للقيام بالحدث الأساسي الذي جمعهم أصلاً.

رمى على عقب السيجارة على الأرض وتنفس الهواء البارد  
غمضاً عينيه. حاول أن يمتّص كلّ شيء في تلك اللحظة؛ الأصوات  
المتعددة الضعيفة التي تختلط في هذا الليل وفي هذا المكان تحديداً،  
الروائح والأضوئية والألوان. حاول أن يفتح فم روحه الافتراضي  
ويأخذ أكبر قضمّة أخيرة من هذه الحياة التافهة. ثم ارتقى على  
السياج الحديدي بمساعدة عمود الضوء. صار واقفاً على السياج،  
ناظراً إلى الأسفل، متوقعاً أن يثير منظره الغريب أولئك القلة المارّين  
في منتصف الليل على الجسر هنا، وربما كانت الشرطة منهم، ولكن  
هذا غير مهم أبداً الآن. رقم ساعته اليدوية، ورأى أن هناك دقيقة أو  
دقيقة ونصف، قبل أن يُعلن العالم، وحسب توقيت بغداد، الدخول  
في القرن الجديد.

كان يحفر نفسه لتقبل صدمة المياه الباردة بعد ثوانٍ، حين سمع  
لغطاً خلفه، حركة سيارة ثم صوتاً ينادي عليه. كان يتوقع هذا، وهو  
أمر غير مهم، إنه شيء يحدث ما وراء جدار فقاعته الزجاجية، التي  
صارت فقاعة صلدة جداً الآن، ليس فيها من أحد غيره.

## - ٢ -

في تلك اللحظات بالذات، كان «أمير داغر»، الشاب النكرة  
المجهول، الذي انضمَّ إلى جمعية المترحرين منذ شهرين تقريباً، ولم  
ينتبه له عليّ كثيراً، مكبلاً على كرسي حديد في بيته، بعد أن علمت  
أمّه بنبيته أن يتتحر هذه الليلة فاستدعت الجيران لربطه. كان ثرثاراً بما  
يكفي أن تصدق أمّه وأخته التوأم بنوایاه المجنونة. مرّت الليلة صعبةً  
عليه وعلى عائلته التي لم تكنْ تعرف كيف تتصرّف بحكمة مع ابنها  
المجنون.

في هذه الأثناء كان الدكتور واصف عبد المحيي، العضو العجوز الوحيد في جمعية المترحرين، يُحكم إغلاق معطفه الصوفي الأسود، متحاملاً مع نفسه ضد الهواء البارد، ومندفعاً باتجاه جسد علي المتصالب بجوار عمود النور فوق السياج الحديدي لجسر الجمهورية. كان قد صرخ عليه عدة مرات وهو ينزل من سيارته السوبر صالون البيضاء إلى الرصيف مباشرةً. ولكن لم يبدُ أن علي قد سمعه، أو كان يتتجاهل النداء الواضح باسمه. لماذا لم يفترض أنهم أصدقاؤه وقد قدموا في اللحظة الأخيرة من أجل موعدهم المقرر؟

نزلت السيارة من الجسر، بسائقها الشاب، حسب أوامر الدكتور. سيبقى هناك عند الرصيف بعد نَزْلَةِ الجسر بانتظار قدوم الدكتور واصف بعد الانتهاء من مهمته الغامضة. هو عضو في جمعية المترحرين، ويفترض أن يكون مع بقية الثمانية عشر عضواً ها هنا، ولكنه لم يخطط لمغادرة الحياة هذه الليلة على ما يبدو.

إلتفت علي وشاهد الدكتور واصف يقف عند قدميه محاذياً السياج. «لماذا تأخَّرت؟» هتف به. فصمت الدكتور واصف، كانت الدقيقة الأخيرة قبل دخول القرن الجديد. «هيا.. اصعد معي.. والى اللعنة هؤلاء البقية الجبناء». قال علي وهو يلقي نظرة أخيرة إلى ساعته اليدوية.

«عملينا عربنا متتصف الليل منذ نصف ساعة»

«كيف هذا!؟!

«هناك ثلاثون دقيقة زائفة»

«ما الذي تقوله!؟!

رَدَ علي وهو يشعر بالاضطراب.

«ثم أنها ليست ليلة رأس القرن. حساباتي الرياضية الدقيقة تشير إلى ذلك، وقد أخبرت البقية بالموضوع. ليلة رأس السنة الفعلية بعد ثلاثة أيام، لهذا هم لم يحضروا»

كانت تلك هي الكلمات القاضية، التي جعلت علي ساكناً وصامتاً لعدة لحظات. كانت نفسه تحذّه بيقين أن الأمر كله مجرد خدعة، وهذا العجوز يريد إinzاله من حافة الجسر بأيّ طريقة. مرّ وقت وهو يصارع مع نفسه أفكاره المتناقضة، ثم ألقى نظرة إلى ساعته وانتبه أنه دخل العام والقرن الجديد منذ دققيتين. انتهت اللحظة الشعرية إذن من دون أن يستثمرها، ومن المؤسف أن هذه اللحظة لن تكرّر مرة أخرى إلا بعد مئة عام. وحينها لن يكون علي موجوداً. لقد شوّش الدكتور واصف ذهنه وخرب عليه لحظته المميزة إلى الأبد.

سحبه الدكتور واصف من يده فنزل معه. ثم دفعه برفقٍ كي يسيراً معاً. نزلا على الجسر بخطوات بطيئة، وأعطاه الدكتور واصف سيجارةً وصارا يدخنان. شعر وهو يقترب من نهاية الجسر بالبرد الشديد. لقد عَبَ ما يكفي من البرد خلال نصف الساعة الماضية، وها هو يتبهّه ويفرك ذراعيه بانفعال.

«حين نصل إلى البيت سنأخذ كأسي ويسكي وتشعر بالدفء» قال الدكتور واصف، ولم يرد علي بشيء. لم يكن يشعر بمعنى لما يجري. كان أشبه بالمخدر أو بمن دخل إلى غيبة أو حالة سُكر عميقه. ليس هناك شيء واضح في ذهنه في تلك اللحظات. هل كان حقاً يريد إلقاء نفسه في المياه الباردة؟ أم أنه كان يريد التشجيع من الآخرين للقيام بشيء لا يستطيع عمله بمفردته؟ لقد كانت جوقة المتحرّين الافتراضيين من حوله مبرراً كافياً لجديّة الأمر، أما بغيابهم

فهو يجد نفسه عارياً بمواجهة حججه المتناقضة. لم يكن قادراً على الانتحار، ولكنه خَشِيَ من السخرية في اليوم التالي.

«المَاذَا لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ مِنْكُمْ؟»

«ولِمَذَا لَمْ تَتَحَرَّ أَنْتَ؟ هَلْ كَانَ وَجُودُنَا ضَرُورِيًّا؟ لَمَذَا ضَيَّعْتِ اللَّهُظَةَ الْمُمِيَّزةَ وَلَمْ تَتَحَرَّ؟»  
«أَلَيْسَ اِنْتَهَارًا جَمَاعِيًّا؟»

«لَقَدْ جَبَنا، لَسْنَا شَجَعَانًا لِمُغَادِرَةِ هَذِهِ الْحَيَاةِ التَّافِهَةِ، وَلَكِنَّكَ أَنْتَ النَّبِيُّ وَالقَائِدُ لِمَجْمُوعَتِنَا، لَوْ اِنْتَهَرْتَ لَكُنْتَ أَشْعَرْتَنَا جَمِيعًا بِالذَّنْبِ وَلَرِبِّما لَحْقَنَاكَ لِلتَّكْفِيرِ عَنْ خِيَانَتِنَا لَكَ، وَلَكِنَّكَ القَائِدُ وَمَعَ هَذَا لَمْ تَتَحَرَّ، فَلَا تَلُمْ أَرْوَاحَنَا الصَّغِيرَةَ وَعَقُولَنَا التَّافِهَةَ الَّتِي لَمْ تَتَجَرَّأْ عَلَى مُشارِكتِكَ فِي عَمْلِكَ الْعَظِيمِ». .

خاض هذه الحوارية الافتراضية في ذهنه خلال الطريق إلى بيت الدكتور واصف في حي المنصور. وأنه يعرف أن أي حوارية مع أصدقائه في الجمعية ستجري بهذا الشكل فقد شطب على الأمر كله. لقد انتهت جمعية المنتحرين، والى الأبد، مع استداره على بجسده من على الجسر ونزوله منه بناءً على طلب الدكتور واصف.

- ٣ -

كان الدكتور واصف قد سمع بـ «جمعية المنتحرين» من جاره العجوز وصديقه «فتاح»، لأن ابنه سنان قد انضم إليها. تصوّر واصف حين سمع بهذا الاسم أنها جمعية فعلية، لها مكتب وأعضاء وربما بطاقة هوية، ولم يفهم في البداية معنى الاسم الغريب. فما هي الخدمات التي تقدمها جمعية من هذا النوع يا ترى؟!

لم يمهله العجوز فتّاح كثيراً وشرح له أن ابنه طالب معهد الدراسات الموسيقية إلىتقى بهذه المجموعة الغريبة في كافتريا كلية الفنون بالوزيرية، ثم صار يرافقهم حتى صدّق تماماً الفكرة التي يتداولونها؛ الانتحار في ليلة رأس السنة المقبلة. ولم تنفع حجج العجوز مع ابنه الوحيد. لم يفهم لماذا يفگر شاب مثله بالانتحار.

«انهم في عمر رومانسي، والانتحار فكرة رومانسية»

«يعني.. هو ليس جاداً؟ سيترك الموضوع، هل تريده قول

ذلك؟»

سأل فتّاح بقلق، فردّ دكتور واصف:

«لا أعرف. ولكن البشر لا يقومون غالباً بالأعمال الحكيمه. ثلاثة أرباع أفعال البشر إما غير واعية ومتهورة، أو أعمال رومانسية في جوهرها».

«لا تتفلسف علي دكتور الله يخليلك. آني خايف من الموضوع. هذا الولد بس هو عندي، وإذا مات ما اعرف شراح أسوبي».

«لن يموت. أنا أعدك بذلك»

قال дكتور واصف ذلك بثقة، في محاولة لتهيئة صديقه المليء بأمراض الشيخوخة، ولم يدرك أنه تورط بالموضوع ابتداءً من هذا الوعد.

كان دكتور واصف متقدعاً، في الخامسة والستين من عمره، يسكن وحده في بيت واسع وفخم منذ بضع سنوات، بعد مغادرة أخيه راfeld وعائلته إلى عَمَان، ورفضه الذهاب معهم. ولم يكن يعجز عن ملء وقته الكثير بمشاكله وتتفاصيل عديدة، أغلبها تتعلق بالقراءة والاستغراق بتخصصه الأثاري، وربما تلقى اتصالاً هاتفياً من زملائه

الموظفين القدامى، والتلقى بهم على وجبه في مطعم أو مقهى. وكانت امرأة عجوز تسكن في بيت مجاور تأتى إليه كلَّ صباح لتقضى ساعتين أو ثلاثةً في التنظيف وتهيئة الطعام له إن رغب بذلك. وفي أوقات الصيف الدافئة يكون كرسيه البلاستيكى في وسط حديقته هو مكانه الأثير، بجوار طاولة عليها جهاز تسجيل وكأس مشروب ما، وبضعة جرائد ومجلات وكتب. وقد يقضى في هذه الجلسة ساعات طويلة من دون أن يشعر بذلك، وغالباً ما كان العجوز فتاح يقاطع خلوته داخل الحديقة ويأتى إليه ويجلس بجواره من دون استئذان، ولم يكن هذا يزعج الدكتور واصف، فعلاقتهما طويلة، على الرغم من أنه لا توجد مشتركات كثيرة بين الرجلين، ولكنها صداقة الشيخوخة ربما، التي تجعلهما متقاربين في هموم الجسد والشعور بالعزلة عن مجريات الحياة السريعة، وأفعال الأناس الأكثر شباباً التي تبدو غامضةً أكثر فأكثر بالنسبة للعجز فتاح.

كان الوعد الذي قطعه الدكتور واصف لمساعدة صديقه العجوز فتاح، قد أربكه في البداية، فهو لا يعرف بالضبط ما سيفعل، ولكنه في الأيام اللاحقة اعتبرها فرصَّةً لتحريك البركة الساكنة في يومياته. صار يذهب إلى كلية الفنون، وإلى قاعة حوار والكافترىات المجاورة. صار عملاً شبه يومي، حتى تصادف ذات يوم مع ابن العجوز فتاح، وصارا يجلسان ويتحدثان، ثم تبرع بايصاله للبيت ذات مرة بسيارته الخاصة. كان الدكتور واصف يسايره، ولا يعترض على وجهات نظره العدمية، ثم شيئاً فشيئاً دخل في جمعية المنتحررين وتعرَّف على علي وبقية أصدقائه، وأعلن أمامهم بأنه عضُّ جديدٌ في المجموعة.

«إنهم مجموعة مسكونة من الشباب، تعاطفت معهم كثيراً، ولا

أستطيع الادعاء بأنهم يقصدون فعلاً الانتحار، أم يترثرون ليس إلا؟  
قال الدكتور واصف وكأنه يُقدّم تقريراً ما لصديقه العجوز فتاج.

«وماذا يعني؟ ألن يتتحرروا؟ هل تطلب مني القيام بشيء ما تجاه  
ولدي سنان؟»

«لا تقوم بأي شيء. دع الأمر لي. وانا أؤكّد لك؛ لن يتتحرر  
أحد».

قال الدكتور واصف، من أجل تهدئة خاطر صديقه العجوز،  
رغم أنه غير متأكد من أيّ شيء. لم يخبر فتاج بالتفاصيل التي سمعها  
من أفراد الجمعية حتى لا يُخيفه أكثر، ولكن ما كان يجعله مطمئناً أن  
هذا الموعد ما زال بعيداً.

صار يساير المجموعة ويمضي على النتائج التي يتوصلون لها،  
خصوصاً ما ينطّقه هذا الشاب السليط ذي الكلام المنمق، علي،  
والذى يبدو فعلاً قائداً لمجموعة المتحررين الذين لم يتتحرروا بعد.

كان يعوّل على تأثير الزمن الطويل واستنفاد الطاقة بالكلام  
وتكرار الأفكار ذاتها كلّ يوم. ثم أغري المجموعة الصغيرة بالقدوم  
إلى حديقة بيته. وكم كان العجوز فتاج سعيداً حين شاهد ابنه سنان  
يدخل مع الشباب إلى حديقة الدكتور واصف. ومن أجل اتقان خطّة  
الدكتور واصف توّارى العجوز فتاج نهائياً، وادعى انشغاله بأمراضه  
المتعددة.

صار يُقدّم لهم المشروبات ووجبات الطعام الخفيفة، ويصحّبهم  
معه لسماع الأغاني القديمة، ويشرح لهم الانتقالات التي حصلت في  
الموسيقى الشعبية العراقية، ثم يدفعهم لقراءة بعض الكتب المهمة  
التي ألهمه في شبابه. كان يريدهم أن يستمتعوا بالوقت المتبقّي حتى

موعد موته المؤكّد. وخلال ذلك سيترك التغييرات الجديّة تحدث في العمق.

تخلّى ابن العجوز فتّاح عن فكرة الانتحار في النهاية، بعد أن عاودت الفتاة التي يُحبّها الاتصال به. ولكن الدكتور واصف ظلّ على صداقته بالشباب الآخرين. صار يشعر بتغيير في مشاعره. صار يحبّهم، وتعود على زيارتهم الأسبوعيّة لبيته، رغم أنّهم في كلّ ذلك لم يكونوا قد تخلّوا عن فكرتهم الأساسيّة.

إلتقي الدكتور قبل يومين من ليلة رأس السنة بأربعة من أعضاء الجمعية الشبان وأخبروه بأنّهم غيروا أفكارهم. ليسوا هم فقط وإنما آخرون في الجمعيّة الافتراضيّة. ولكن المؤكّد أنّ علي لن يغيّر تفكيره. هم لا يملكون الشجاعة لإخباره بتخلّيهم عن فكرة الانتحار. يشعرون بالحرج منه وهم يريدون البقاء كأصدقاء. يشعرون بالبهجة والراحة في هذه اللقاءات، التي يُصنّف فيها علي نكّهة خاصة، ومن السخف أن تنتهي هذه العلاقة المميّزة بالانتحار. عليهم أن يستمرّوا في قضاء هذا الوقت الجميل أطول فترة ممكّنة.

طلب الدكتور منهم عدم معارضته علي. فلو أخبروه بتخلّيهم عن فكرة الانتحار فهذا سيجعله في مزاج سيئ جداً ليلة رأس السنة وسيتحرّر بسبب ذلك من دون شكّ. كما أنّ الدكتور واصف لم يعرف رأي جميع الأعضاء الثمانية عشر في الجمعيّة، ولا يريد المجازفة باستجوابهم كلّهم، فلربما ذهب أحدهم وأخبر علي بالمؤامرة الداخليّة الانقلابيّة.

مضت الأمور مثلما تخيلها الدكتور واصف، وذهب رأس القرن الخطر إلى غير رجعة، غير أنه بعد أسبوع سمع من ابن العجوز فتّاح

أن عضواً في الجمعية، اسمه أمير داغر، انتحر شانقاً نفسه في غرفته بالبيت.

- ٤ -

على ركام جمعية المترحرين، ظهر شيء آخر. قال الدكتور واصف في تلك الليلة التي عادا فيها من الجسر، وبنبرة مختلفة لم يسمع بها على سابقاً، إن الحياة والموت هما أمران نسيان. ما الذي يمكن أن نقوله عن شخص يقضي ربع قرن في السجن. أو امرأة مجبرة على التزام علاقة زوجية حتى الممات رغم أنها لا تُطيق هذه العلاقة، ولا تستطيع فعل شيء لتغييرها بسبب العادات والتقاليد الاجتماعية. ماذا نقول عن أشخاص عديدين يقولون لك إنهم لا يشعرون بطعم الحياة. هل الحياة هي مجرد التنفس والقيام بشكل إجباري بالعمليات الأيضية من أكل وتبرّز وتبول ومعها نوم واستيقاظ وما إلى ذلك. ثم ماذا بشأن من يلتهم الحياة بكل مباحثتها ثم لا يجد بعدها شيئاً مثيراً، وتصبح مباحث الحياة التي يطمح إليها الآخرون أمراً رتيباً ومملأً بالنسبة له. ماذا عن المعاقين، أو أولئك الذين فقدوا بصرهم في الحرب. ماذا عن فقد عضوه الذكري بسبب حادث. هناك نسبة كبيرة من الرجال تربط حياتها بحياة عضوها الذكري. إن لم يَرَ عضوه ينتصب فهو خارج الحياة تماماً.

هناك أشكال متعددة من الحياة تشبه الموت تماماً وربما أقسى، لأننا لا نملك خبراً عن الموت، إنه يحدث فحسب. وربما كان الموت أفضل بالنسبة لكثير من الأشخاص الذين يتحسّسون عذاباً هائلاً في هذه الحياة، وهذا ما يقف وراء حالات الانتهار للنساء في

الأحياء الشعبية، فالضغط النفسي على المرأة هناك لا يُطاق. ثم يلومونها لأنها قتلت نفسها.

«افتراض منذ الليلة أن علي ألقى نفسه من الجسر، وعش منذ الليلة وكأنك ميت حي»

«ميت حي؟!، وماذا يفترض بالميت الحي أن يعمل»

«يعيش بالمجان، يعيش في الوقت الإضافي ما بعد الموت، ينسى القصص الكبيرة ويتحول إلى مجرد شيء في الحياة. يعيش ما وراء منظومته الأخلاقية والقيمية، يعيش مثل شخص آخر تماماً، وينسى كل شيء يتعلق بالكائن المُكرَه على الموت، فهذا قد غدا خلفه، هناك، يطفو على سطح الماء ذاهباً إلى المدائن أو الكوت ربما».

كان كلاماً غامضاً وجديداً، ولكنه أثر في علي، كما أن مغادرته اللحظة الشعرية الثمينة جعلته يعيش في حالة من الفراغ الذهني، فهو لم يخطط كثيراً لما بعد فشل خطّة الموت.

«الميت الحي» صارت لحظته الشعرية الجديدة.

ظلّ يأتي بانتظام إلى حديقة الدكتور واصف، ليأخذ جرعات أخرى من مخدر «الميت الحي». يلتقي ببعضه أصدقاء، واحد منهم فقط من جمعية المترحرين المنحلة، فضلاً عن صديقه القديم، من أيام كلية الفنون، عبد العظيم حامد، الذي ترك دراسة المسرح في السنة الثالثة وذهب ليتطلع في الكلية العسكرية. كان وقتها يخدم، كملازم أول، في وحدة عسكرية قريبة جنوبى بغداد.

استمرت الجلسات تلك على مدى عامي ٢٠٠٠ و ٢٠٠١. لم يكن هناك شيء مهم قد تغير في يوميات علي. كان يعمل في وظائف

مؤقتة سرعان ما يتركها، ويذهب في كثير من الأحيان لأخذ المال من أخيه عمار. يقرأ ويستمع إلى الموسيقى ويشاهد الأفلام على أقراص ليزرية مع أصدقائه. يحضرون عروضاً مسرحية. وقد يرتبون لحفلات ماجنة، في شقة الصديق المقيم بрагبة خاتون. نفذ خلال ذلك كله وصفة «الميت الحي»، أو ما فهمه من هذه الوصفة. ظلَّ يُوهم نفسه بأنه يعيش ما وراء لحظة العجس القيامية. لقد مات وانبعث من الموت من جديد. وهو كائنٌ آخر. ولم يعد يعبأ بالآخرين أو صورته في أذهانهم.

- ٥ -

ظلَّ يمضي على هذه الحالة حتى ذلك النهار الشتائي الذي دخلت فيه ليلى حميد مع عبد العظيم إلى حديقة الدكتور واصف. قال عبد العظيم إنه صادفها في إحدى المكتبات، وحين سمعت بأن أصدقاء من الكلية يتلقون هنا الْحَتْ بطلب المجيء. نظر عبد العظيم إلى دكتور واصف وقال له بأنه فعل ذلك من دون استئذانه ويتمنّى إلا يمانع بمعجزي صديق جديد.

كان وجود بنت في المجموعة فكرة لطيفة بالنسبة للدكتور واصف، رغم أنه لم يكن يعرف شيئاً عن خلفية الشخصية الجديدة في حديقته ثم في صالة الضيوف، التي انتقلوا للجلوس فيها مع اشتداد البرد في الخارج.

تغير مزاج علي فجأة، وفقد المرح الذي كان يرتديه كقناع يُغطي وجه المنتحر السابق. ورجع بالذاكرة، من دون إرادته، إلى ما قبل ثمانين سنوات، إلى كابينة اللعبة الحديدية، والقبلة المفاجئة العميقية التي طبعتها ليلى على شفتيه من دون سابق إنذار. إلى الدهشة

المخلوطة بمشاعر غامضة لم يختبرها سابقاً، والى الشعور بالمرارة والخيبة لاحقاً بسبب اختفاء ليلي المفاجئ.

اختفت لثمانيني سنواتوها هي تحضر فجأة. ظلَّ علي متسمراً في دهشته الجديدة بعض الوقت، وكان من المفید أن هناك أشخاصاً كثيرين من حوله، صاروا يتجادبون الكلام، وانشغلت ليلي بهم قليلاً، قبل أن تقترب منه وتحاول التعرُّف على زميلها القديم وما الذي جرى له خلال السنوات الماضية.

حاول علي جاهداً أن يبدو طبيعياً، وأن يحذف من دماغه أي شيء يتعلَّق بالقبلة القديمة وأيام التسْكُنات والنقاشات الحامية. من المخزي بالنسبة له أن يعود إلى لحظة مضت منذ ثمانيني سنوات من أجل استئنافها مجدداً، ومحاولة طرح أسئلة من قبيل؛ لماذا اختفيت، لماذا قبلتني في ذلك اليوم؟ حاول أن يبدو منشغلًا وغائضاً في تفاصيل حياة صاحبة، وما ليلي وعالماها كله إلا صورة شاحبة لا يتذَّكر تفاصيلها جيداً، أو هكذا حاول أن يُوحِي لليلى.

إطمأنَّ إلى أنه التزم بشكلٍ جيدٍ هذا القناع، وأن ليلي صدقت به، ومنع نفسه من استجواب البنت. فهل تزوجت مثلاً؟ لا بد أنها تزوجت. ما الذي يشغلها، هل تعمل في وظيفة ما؟ أما زالت في بيت عائلتها القديم. من بقي من الصديقات والأصدقاء القدامى قريباً منها وتلتقي به خلال السنوات الماضية؟

كان يتوقَّع أنها زيارة يتيمة ولن تتكرَّر، وهذا ما سيريحه من عبء وجودها غير المربي بالنسبة له. ولكنها صارت تظهر كلَّ أسبوع في صالة بيت الدكتور واصف، وفي المرات الأخيرة كانت تأتي من دون عبد العظيم الذي لم تكن واجباته العسكرية تعطيه حرية الحركة والمجيء إلى بغداد في أيّ وقت يشاء.

في بعض الأحيان، وبسبب أنها لا تعرف الآخرين جيداً، كان يضطر لمرافقتها حتى تأخذ سيارة أجرة من رأس الشارع العام. وقد تقترح أن يمضيا سيراً لمسافة معينة. يتوقفان عند محل مرطبات. أو تطلب منه أن يدخل معها إلى محل للملابس النسائية لأنها تذكريت فجأة حاجتها لحذاء أو قميص، وخلال ذلك وجدت نفسها تسرد تفاصيل من يومياتها ووضعها الخاص. كان علي يشعر بدق الأسئلة الكثيرة في ذهنه وهي تزدحم ويلجمها بصعوبة. دعِيَتِ الفتاة تحكي بما تريده وعلى وفق مزاجها. ثم ما هذا الذي يجري الآن. إنه عُوْمٌ في بقعة من المحيط لا يعرف على موقعها بالضبط، وأيُّ شاطئ قريب منها، فلا شيء حوله سوى المياه الزرقاء المتصلة بزرقة السماء. هل سيستمر هذا العوم طويلاً أم ماذا؟

أمسك بيدها وهما يسيران قريباً من معرض بغداد الدولي، ولم تمانع. صار ينزلق معها، ويشعر بدوار طفيف كلما نظرت إليه، وكأنهما يسترجعان لحظة ما من كابينة اللعبة الأخطبوطية. قال لها أخيراً بأنه يحبها، فردت من دون أن تتفاجأ بأنها تعرف.

- وأنتِ؟!

أفلت منه هذا السؤال، وكأنه يريد التأكيد بسرعة. فنظرت إليه مع ابتسامة ذات مغزى من طرف الفم :

- لماذا أقضى هذا الوقت الطويل معك يا علي، يعني كلك نظراً كانت تحبّ كعادتها الأجوبة غير المباشرة، واللطف والدوران. وألا تنطق بشيء يشبه لغة الاعترافات، وكأنها في مركز شرطة، وعلى يفهم هذا الشيء، وما هذه الجولات سوى تأكيد لما يعرفه عنها. لم تتغير الفتاة كثيراً.

استمرّا على هذه الحال عدّة أسابيع، وغادر علي تحفظه السابق

وخوفه من إزعاج ليلي ، وصار يمطرها بالأسئلة عن أدق التفاصيل التي تخصها ، وكانت تصده وتمتنع عن إجابة نصف الأسئلة ، أو تُقدّم أجوبة غامضة . وهذا كان يزيد من توتر علي ، وفي الوقت نفسه يزيد من خوفه أن يسبب إلحاشه في ابتعادها وفرارها مجدداً . كان يعرف أنه في هيأته الحالية متراجعاً كثيراً عن صورته أيام الجامعة . لم يعد ذلك الفيلسوف والقديس الهدى . إنه مضطرب ومرتبك على الدوام ، وفاقد للبوصلة التي تشير عنده إلى جهة محددة . على العكس من ليلي التي تبدو منضبطة ، وتنظر إلى ساعتها الذهبية الصغيرة بين حين وآخر ، وقد تقرر المغادرة فجأة وأنها لا تستطيع التأثر عن البيت أكثر ، حتى لو كان قرارها المفاجئ يفتت بقصوة غيمة من الكلام الشاعري .

كان صوت في رأس علي يُخبره أنه يندفع معها مثل فراشة العث التي تقترب من مصباح حارق . لا بد أن تأتي تلك اللحظة التي سيحترق فيها . ثم يعزّز هذه الصورة النارية ، في هذيانه حول ليلي ، باستعادة للصورة المائية السابقة عن العوم داخل محيط لا ضفاف له . فيقول مع نفسه ؛ لا بد أن تظهر في الأفق ضفة صخرية ، وسترفعني الأمواج فجأة ومن دون سابق إنذار لتلطماني على الساحل وتُكسر عظامي .

في لقائهما الأخير جاءت ليلي ، في فترة بعد الظهيرة المعتادة ، إلى صالة بيت الدكتور واصف . كان هناك ستة شباب وجاء علي متأخراً ، ولا حظ من دون عنایة كبيرة أن ليلي لم تكن في وضع مريح . جلس بجوارها ، وحينما لاحظ انشغال الآخرين دنا منها وسألها ، فردت بالنفي . لا شيء . حاولت خلال الساعتين اللاثتين أن تبدو مسترخية وهادئة كعادتها ، ولكنها كانت تسرح بذهنها . ثم

قبل أن يشغل الدكتور واصف فيلماً إيطالياً قدِيماً على جهاز السي دي ليريه لأصدقائه الشباب إلتفت ليلى إلى علي وطلبت منه أن يغادراً. ظلا يسيران على رصيف الشارع العام، وعلى يُمطر ليلى كعادته بالأسئلة عما بها وهي تنهَّب من الأジョبة الواضحة. وبعد دقائق توقفت وقالت له إنها تريد منه أن يرافقها إلى بيت اختها، كي تعيد له مجموعة شعرية قديمة لجوزيف برودسكي، كان علي قد أعارها لها في يوم من أيام دراستهما الجامعية الأخيرة.

رافقها حتى شقة اختها، التي رحّبت بهما وقدّمت مشروبات الضيافة، ثم سرعان ما تركتهما لأنشغالها بموعد ما. كانت فراشة العث تقترب من المصباح، والموجة تتكتّف تحت علي لترفعه إلى الأعلى، إلى مستوى يمكنه من رؤية الضفة الصخرية الخطيرة التي سينفذ إليها بشدّة. ولكنه لم يمانع ذلك. تذَّرَّ وهو يمسك يد ليلى ويرى إلتماعة عينيها وكأنها تكتب دموعاً غامضة لا تريد سفحها في هذا اللقاء، أنه كان أحمق حين فَكَرَ بالانتحار، وأن الدكتور واصف أنقذه وهو من قدم له، بشكل غريب، هذه اللحظة المميزة. اللحظة التي يشعر معها، دون حاجة لأدلة من التفكير المنطقي، أن هناك ما يستحق في هذه الحياة أن يعيش. حتى لو كان مجرد ومضة كاشفة على بهجة الحياة في عيني حبيبته، ومضة سريعة لم يعرف بعد أنها زائلة.

استيقظ على الضفة الصخرية. كانت عظامه محظمة، واستطاع بصعوبة النهوض ورؤية الجزيرة الموحشة التي وجد نفسه وحيداً فيها. احترق أجنحة الفراشة وسقطت إلى الأرض. غادرت بهجة السماء، وظلَّ المصباح الناري يسطع في الأعلى، من دون أملٍ بمحاولة مسَّه مَرَّةً أخرى.

ظلّ علي ليومين وهو يشمّ في يديه وجسمه رائحة ليلي. لم يغتسل، لم يمس الماء أصلًا. كانت هناك تحت أظافره رائحة لو شمها في مكان آخر لبدت له قبيحة، لا يتذكّر إلى أين ذهبت أصابعه، ولكنها رائحة مهيبة، كانت تؤدي إلى انتصاب سريع لديه، إنها رائحة إفرازات جسد ليلي. كان مؤمناً أن رائحة تعرقها ما زالت عالقة في تجويف أنفه. مارسا الجنس لثلاث ساعات أو أكثر، وأحسّ داخل بخار الشهوة الذي غلّفهما أن ليلي بكت في حضنه، ولم يسألها عن السبب، ثم وجد أن عينيه تدمعن أيضاً من دون سبب، ربما تمثّل مع نفسه وبشكلٍ هزياني الاحتراق المستقبلي لجناحي الفراشة، وتحطم أضلاعه على صخر الجزيرة المهجورة.

كان يتوقع أن تظهر ليلي خلال اليومين التاليين، ولكنها اختفت. جاء إلى بيت الدكتور واصف، وسأل إن كانت قد مرّت. ظلّ يتوجول في الطرق ذاتها. ثم سريعاً ومن دون انتظار لوقت أطول صار علي مثل الممسوس، يتحسّن النيران تأكل جسده. تقطّعت أقدامه من السير على غير هدى في شوارع حي الزعفرانية. يدقق النظر في وجوه فتيات يبدين من بعيد بهيئة ليلي؛ قامتها المتوسطة وجسدها ذي الامتلاء البسيط وشعرها الأسود الملتف على شكل حلقات على جانبي وجهها، الذي يُذكّر بشعر هند كامل.

عاد عبد العظيم بإجازة من وحدته العسكرية في خانقين، وحين التقاه علي سأله فوراً عن ليلي، فكرر عبد العظيم، مع شعوره بالاستغراب، أنه لا يعرف معلومات أكثر من التي قالها سابقاً؛ لقد شاهدتها صدفةً عند مكتبات شارع السعدون ذات نهار.

تحطم علي تماماً، رغم أن صوت المنطق في عقله يخبره بالحاج أن الارتفاع الشديد يؤدي إلى سقطة مؤلمة أكثر، ولم يكن امتزاج

جسمه مع جسد ليلي العاري لحظة عبور إلى هضبة أعلى، يتبعه استقرار وطمأنينة وإنما مجرد ارتفاع شاهق في الهواء الطلق، يفقد زخمه لاحقاً ثم يهوي به إلى الأسفل.

نسبي تماماً حكاية «الميت الحي» التي أقنعه بها دكتور واصف. صار يشرب كثيراً، ويذهب ليلاً وحده إلى المكان نفسه على الجسر الذي شهد محاولة انتحاره الفاشلة. يبقى هناك لساعة من دون قرار واضح في ذهنه، ثم وجد نفسه ذات ليلة بعد ساعات طويلة من الشرب، أمام باب بيت доктор واصف. وحين انفتح الباب ورأى علامات الاستغراب على وجه صديقه العجوز سارع للقول دون تفكير:

- أنت من قلت لي، تصرف مثل ميت حيٍّ ما وراء منظومة القيم. إنه وقت غير مناسب للزيارة، وأبدوا في أسوأ حال، أعرف هذا، ولكنني أفكّر بك منذ الظهيرة، سأنفجر إن لم أتحدث مع أحد، ولا ملجاً لي غيرك.

أخبره علي بكل القصة مع ليلي، وظلَّ доктор واصف واجماً يحاول أن يفهم.

- هذه التجارب الغريبة ثمينة أيضاً. أشكر الله أنك استطعت أن تحظى بحصتك منها، إنها ثمينة.

- يا ثمينة!! إنها مؤلمة. أشعر بأنني العوبة. أعرف بأنها ستظهر ذات يوم، مثلما اختفت وظهرت سابقاً. ستظهر حين أكون قد نسيتها تماماً، لتضرم النار المنطفئة من جديد، من أجل دورة عذاب أخرى.

- لا تبالغ، لا يوجد إحساس لا يمكن مَحْوُه بإحساس آخر، من النوع ذاته، يأتي بدرجة أعمق أو يتكرر لوقت أطول.

فرَكَ على وجهه في محاولة للتركيز، حاول إجبار نفسه على تصديق كلام صديقه العجوز لكنه فشل في ذلك، وربما شعر الدكتور واصف بهذا حين علق بعد لحظات صمت بما يشبه الاعتراف:

- إن كان يريحك سأقول إنني أحسدك يا علي.. أنا لم أحظ في حياتي بشيء مماثل، ولم يتبق لدى الكثير لتجربة من هذا النوع. أنت محظوظ لأنك استطعت تجربة هذه المشاعر. أما أنا فحياتي ناشفة وجافة مثل يدي هاتين.

ظلا يشرثان ويشربان حتى ساعة متأخرة، ثم غفا على على الأريكة داخل الصالة، وبيقي نائماً هناك حتى الصباح.

## - ٦ -

في مزاجه الجديد لم يجد علي في كلام الدكتور واصف أي ترباق أو تعزية. غرق في أفكاره السوداوية من جديد. لم تعد القبلة القديمة ذات معنى إلا بارتباطها بسلسل أحداث قاد إلى اللقاء المدمر في شقة اخت ليلي التي عرف لاحقاً أنها مجرد صديقة لها وليس اختاً. وبسبب عدم فاعلية كلام الدكتور واصف، فما عاد يحضر كثيراً إلى بيته وحديقته، كما أن الأخ الأصغر للدكتور واصف، ذلك الشاب السمين ذو الشاربين السميكيين الذي اسمه راfeld، عاد من عمان، ولم يكن مرتاحاً لوجود هؤلاء الشباب في حديقة بيت العائلة. وشعر علي بسهولة بالنظرات النارية غير المرحة التي كان يرميها راfeld تجاههم كلما دخل أو خرج من البيت.

كان راfeld قد احتدّ في النقاش أكثر من مرة مع أخيه الدكتور، في محاولة إقناعه ببيع بيت العائلة والانتقال نهائياً إلى عمان وربما السفر من هناك إلى بلد آخر. وحين لاحظ الحضور المنتظم لهؤلاء الشباب

المجهولين أخبره من دون تحفظ أو خجل، بأن هؤلاء هم من سيسرقه.

«لا أحد يسرق بيتك إن لم يكن يعرفه، وهؤلاء يبدون مثل الجرذان، وبالتأكيد واحدٌ منهم أو كلّهم سيقومون بمسح هذا البيت من أغراضه ذات يوم».

تارك الدكتور معه، بسبب هذا الكلام، ويسبب فكرة بيع البيت كلها. وظلّ يؤكد لأخيه الأصغر بأنه لا توجد مشكلة تستدعي الحلّ في كلّ هذا الوضع الذي يعيشونه، فرافد يقيم بشكل مريح مع عائلته الصغيرة خارج العراق، والدكتور واصف مرتاح لليوميات هنا، ولا موجب لأي تغيير.

ذهب علي لشهرين في خدمة الاحتياط العسكرية الثانية، وحين عاد كان أكثر مرارةً وظلاماً، بسبب البؤس الذي عاشه كجندي والإهانات التي تلقاها. وكان قد منع نفسه بصعوبة من صفع الضباط الذين كان يأمرهم. وفي الفترة التي تلتها، لم يتوقف عن أمرين؛ البحث عن ليلي، واستعادة الأفكار السوداوية لجمعية المتحررين. كان قد قرر شيئاً مع نفسه، فإن كان القدر يلعب معه لعبة ما، فعليه أن يُظهر ليلي أمامه ثانيةً كي يمنعه من الموت هذه المرة.

لن يتمكّن الدكتور واصف من استخدام حيله القديمة من جديد. لن يكون أيّ شيء مما مرّ به سابقاً مفيداً لإيقافه عن نوایاه هذه المرة. وفي شقة الصديق براغبة خاتون، وجد أن ثلاثة من أصدقائه يمضون على كلامه، وأنه من الضروري القيام بعمل ما، ولكن ليس بالقفز من الجسر ليلاً إلى مياه النهر الباردة. إنه عمل سخيف، والأفضل شراء سلحة ومتفجرات إن أمكن، والقيام بعمل انتشاري في باب القصر

الجمهوري، أو باب دائرة الاستخبارات العامة بالكاظمية. أو إن كان هناك مزاج للتخطيط الدقيق والعميق، الذهاب إلى شيءٍ أبعد، الدخول إلى جسد السلطة الحاكمة بالحيلة ثم تنفيذ عمل انتشاري سيتذكّر الجميع لاحقاً ولن يستطيعوا نسيانه. هكذا يستثمرون طاقة الموت والعدمية في عمل أمر جديد تماماً ربما يُغري الآخرين ويكسر حاجز الجبن لديهم.

لم تكن الفكرة مثيرة جداً لعلي في البداية، هو لا يريد الخلود كبطل، لا يريد القيام بعمل يتعرّض لاحقاً للتفسيرات القراءات المختلفة. إنه يُفضّل وبساطة فتح الباب والخروج من هذا العالم بصمت. الاحتجاج على كلّ الحياة، وليس على نظام سلطة فقط.

استمروا بالجدال عدّة أسابيع من دون الوصول إلى نتيجة واضحة، فضلاً عن كون هؤلاء الأصدقاء شبه السكارى لا يملكون خبرةً فعليةً بتنفيذ أعمالٍ من هذا النوع، واستحالَة التحرّك بأعمال عدائية ضد السلطة من دون أن يلاحظ أحدٌ ما شيئاً.

كانت مجرد ثرثارات لإزعاجه الوقت حتى يصلوا إلى فكرة أخرى أكثر جدوّيّاً وفاعليّة، أو لا يصلوا. ثرثارات مفيدة لحشو بطانة الزمن وجعلها ثقيلة قليلاً وليس تافهة تماماً.

## - ٧ -

يحاول على استحضار وجوه أصدقائه، للتعرف على جهة ولاتهم له، وكونهم لم يكونوا وشاً من دون قصد. لا يتذكّر أنه ثرث ب بهذه الأفكار الخطرة عن التخطيط لعمل ما ضد الدولة والنظام، خارج الصالة الحقيقة في شقة صديقه براغبة خاتون.

يحاول أن يتذكّر أيّ مقدمات منطقية لما جرى لاحقاً، ولكنه

يفشل في العثور على شيءٍ مفيد. كان يسير على رصيف الشارع الرئيس بالوزيرية مع صديق له ويشرثان، حين توقفت سيارة لاندكروز بيضاء ونزل منها شابان يرتديان ملابس مدنية. سألهما «هل أنت على ناجي؟» وحين ردّ عليهم بالإيجاب سحبوه معهم، وأهملوا صديقه. أخذوه بالسيارة إلى مكان لم يكن يعرف ما هو، وابتداً من ليلة القبض عليه تعرّف على عالم آخر، وشعر مصدوماً بسذاجة كلّ أفكاره السابقة عن معنى الحياة، و موقفه منها، ومجمل أفكاره الرومانسية عن قيمة مساره الشخصي ونظرته العدمية. كلّ شيءٍ تهاوى مع الضربات الحادة على جسده بالكيلات السوداء.

«أنت رئيس منظمة انتشارية. أخبرنا بأعضاء منظمتك، وما الأهداف التي كتمت تريدون تغييرها»  
«جمعية مت天涯ين، وليس انتشاريين»  
«أها.. أنت تعرف إذن. جيد.. أكمل. من هم أعضاء منظمتك؟»

«لن أخبرك بشيء. أنا أريد الموت، صارلي ثلاث سنوات أريد الموت وأخاف منه. أعملوا فضل معي واقتلوني رجاءً». «ستموت، ولكن ليس الآن. ستتعرف بأسماء أعضاء منظمتك الارهابية، وإن لم تفعل سنريك أشياء أفعظ من الموت، حتى تعرف».

لم يعترف بأي شيء. اكتشف على جانباً آخر خفياً في نفسه. كان قوياً وصلباً. وتمتّ الموت أكثر من مرّة ولكن هذا الموت لم يأت. لم يكن يعرف أن المصادفات أو القدر الخفي كان يدفعه كلّ مرّة بعيداً عن الموت. لقد أنقذته سيارة اللاندكروز البيضاء لرجال الأمن من موت محقق آخر.

كان الأخ الأكبر للشاب أمير داغر قد عاد من الأردن بشكل نهائي. عاد في المرة الأولى كي يحضر جنازة أخيه في كانون الثاني عام ٢٠٠٠، ثم رجع بعد انتهاء مجلس العزاء إلى عمله في ورشة صناعة المرمر في عمان، وحين انتهى عقد عمله عاد إلى عائلته في بغداد في صيف ٢٠٠٢، وهناك فهم من أمه القصة الحقيقة لموت أخيه الصغير. في البداية أخبروه بأنه مات بسبب انكسار رقبته بعد سقوطه من السلم الحجري ذي الدرجات المتكسرة. أخبروا الجميع بذلك، فخبر انتحار الولد الشاب سيغدو أشبه بالفضيحة، ولم يكشفوا له الحقيقة لأنهم لا يريدون تشويشه أكثر، خصوصاً مع حاجتهم لبقاءه في عمان للعمل وتأمين وضع العائلة.

شعر هذا الأخ الأكبر بالصدمة، وبعد أيام طرأ فكرة في ذهنه. كان يريد التعرُّف أكثر على المسبِّبين بمقتل أخيه الصغير، أولئك الذين أغروه بفكرة الانتحار الغبية. كان يريد أن يفهم أكثر الأسباب والدوافع، وقاده السؤال والبحث في النهاية إلى علي ناجي. وحين تعرَّف على يوميات هذا الرجل، شعر بالغضب وقرر قتله ثاراً لأخيه. كان يعُدُ العدة للقيام بهذا الأمر في اليوم التالي لاعتقال علي.

اختفى علي من أمامه بشكلٍ حاسم، وعرف بعد مضي بضعة أشهر أنه جرى اعتقاله في ظروف غامضة. ظلَّ يتنتظر أن يخرج حتى بهتت الفكرة في رأسه، وغادرته انفعالات الثأر، ثم انشغل بشؤون حياته ونبيَّ علي ونوايا القتل الانتقامية.

كانت الأحداث في الخارج تأخذ مساراً متصاعداً. تبيَّن أن إقرار قانون «حرية العراق» في الكونغرس الأميركي هو أمرٌ جديٌّ، والأجواء مشحونة بالترقب. بينما على يرقد في قاعة باردة مع معتقلين آخرين في مكان ما تابع للأمن العامة، مقطوعاً عن الزمن

وعن مجريات الحياة في الخارج. يعرف مع نفسه أنه تلقى، أكثر من مرّة، ضربات مؤلمة من هذه التي تُسمّى «حياته» ولكنه في الأشهر الماضية تعرّض لرفسات قوية في أعماق روحه جعلت كلَّ ألم تعرّف عليه سابقاً مجرد تجربة تافهة.

بسبب ثرثاته المزعجة قضى أيامه الأخيرة في زنزانة حبس انفرادي، ثم في أوائل شهر تشرين الاول عام ٢٠٠٢ سمع من حرس فتح عليه الزنزانة خبر «مكرمة» الرئيس بالعفو العام عن السجناء. لم يصدق في البداية حتى خرج مع بقية المعتقلين بشكل جماعي لاحقاً، وبدأ السجانون وكأنهم يستعجلون خروجهم بأسرع وقت ممكن.

خرج علي ووجد البلد تستعد للحرب. لم يكن الدكتور واصف في بيته. أخبره الجار العجوز فتّاح أنه سافر مع أخيه الأصغر رايد إلى عمان قبل بضعة أشهر. كان الزمن الجيلاتيني البطيء وشبه الساكن لعقد التسعينيات قد انتهى وصارت الأحداث تتلاحق بسرعة. لقد تغيّر العالم من حول علي. عالم الفقاعة الزجاجية لجمعية المنتحرين التسعينية صار في الخلف، وهو مع الآخرين الآن أمام بوابة عالم جديد، أو فقاعة زجاجية أخرى.

## الفصل الرابع

# المُتَجَوِّلُ بَيْنَ الْعَوَالِمِ

- ١ -

الإطلاقة النارية التي تلقيتها يا علي عصر ذلك اليوم البعيد لم تقتلك. يجب أن تعرف أنك محظوظ. ما جرى لك لا يحدث للكثيرين. هناك إرادة سماوية، كما أؤمن أنا، تريده أن تبقى حياً. إن كنت تصدق بهذا أو لا تصدق، ولكن ليس كل شخص يُصاب بطلق ناري بشكل مباشر يخترق رأسه ويخرج من الناحية الأخرى من على مسافة بضعة أمتار، ويبقى حياً. إنها معجزة كما أفهمها. أنت في غيبة الآن، ولكن إن لم يكن ما جرى لك معجزة فهو حظٌ نادرٌ وغريبٌ يستدعي التأمل والتفكير.

أتمنى أن تنظر إلى الأمر على أنه هبةً ونعمَّةً إلهيتان، فأنت حصلت على شيء يشبه ما تذكره التعويذة الخامسة: «ذوب الموت في الحياة، والحياة في الموت. حينها ستعرف الطعم الحقيقي لكليهما».

أنت الآن تتدوّق بشكل جيد الطعم الحقيقي للموت والحياة، لأنك أصلاً تقييم في مسافة ما بينهما. عليك أن تفكّر بهذا الأمر ملياً، طبعاً إنْ كان لك أن تستيقظ من هذه الغيبة في يوم من الأيام، وتكون قادراً على التفكير فعلاً. ولا يمكنني أن أجزم بذلك. أنا أمر

عليك هنا كل ليلة، وأبقى معك حتى الصباح، كي أتيح لأخيك عمار  
الذهاب إلى بيته والمبيت مع عائلته. إنه مسكون والله، عليك أن ترى  
حاله منذ تعرّضك للإصابة، إنه منهك ومرهق بسببك، وترك عمله  
وأهمل كل شيء في سبيلك.

لا نستطيع أنا وعمار فعل الكثير، لم يتبق لدينا سوى الدعاء  
والصلوة، فالأطباء هنا والممراضون يقومون بواجبهم بشكل حسن.  
جلس بجوارك وأنظر إلى جسدك المسجى على السرير، وأسأل  
الممراضين الذين يكررون الإجابة ذاتها. أسألهם وأنا أعرف بماذا  
سيردون علي، ولكنني أفعل ذلك وفاءً لرغبة أخيك ليس إلا. هو  
يخمن أنني مقرب منك أو صديق.

أنت قد لا تعرف هذا الأمر. فأنت ثمين عندي. أنا مدین لك  
مدى العمر. لقد أنقذتني من دون أن تقصد. هل تتذكرة ما كنت تبهـة  
في برنامـجك الإذاعـي؟ كنت أنا في غرفة الأشـعة في هذا المستشفـى  
مع راديو صغير أضعـه كـيفـما اتفـق على إـذاعـات عـراقـية، أـسمـع الأـغانـي  
أـو بـرامـج الشـعر الشـعـبيـ، وأـحيـاناـ أـسمـع صـوتـكـ وأـنتـ تـشـتمـ. كـنتـ  
مرـتاـحاـ لـشتـائـمـكـ، حتـى تـغـيـرـ هـذـاـ الـأـمـرـ لـاحـقاـ، حينـ بدـأـتـ تـبـثـ  
تعـاوـيدـ غـرـيبـةـ، وـتـطـالـبـ الـمـسـتـعـمـينـ بـتـطـيـقـهـاـ. شـعـرـتـ بـأنـكـ صـادـقـ ولاـ  
تضـحـكـ عـلـيـنـاـ. كانـ الـأـمـرـ مـسـلـيـاـ.

لماذا أحـدـثـكـ بـهـذـاـ الـآنـ ياـ تـرىـ؟

لقد أخبرـنيـ الطـبـيبـ المـشـرفـ عـلـىـ حـالـتـكـ أـنـ التـفـاعـلـ الإـنـسـانـيـ  
معـكـ سـيـحـفـزـ عـقـلـكـ الـبـاطـنـ مـنـ أـجـلـ الـمـسـاعـدـةـ فـيـ الشـفـاءـ. لـقـدـ  
عـالـجـواـ الـجـروحـ الـتـيـ سـبـبـتـهـ الرـصـاصـةـ فـيـ رـأـسـكـ مـنـذـ فـتـرـةـ طـوـيـلـةـ،  
ولـكـ هـنـاكـ أـضـرـارـاـ فـيـ القـشـرـةـ الدـاخـلـيـةـ لـلـدـمـاغـ أـوـ شـيـئـاـ مـنـ هـذـاـ

القبيل، ضرر يمنعك من الإفادة. العلاجات تفعل فعلها، رغم أنها لا تضمن انتهاء الغيبوبة. والتفاعل الإنساني معك، كما هو الكلام والحديث الموجه لك الآن، قد يساعد في تسريع العلاج.

سمعت أيضاً شيئاً غريباً؛ مداعبة أعضائك الذكرية يمكن أن تصنع شيئاً محفزاً، ولكنك لا تتوقع مني فعل ذلك. ربما أتجرأ ذات يوم وأطلب هذا من إحدى الممرضات هنا. أنا شبه مجنون ولن يؤثر عندي الأمر كثيراً.

الكثيرون هنا يظنون أنني فردٌ من عائلتك. أنهى عملي النهاري وأصعد إليك في هذه الغرفة وأجلس وأبقى أثر لساعةٍ ربما، محاولاً أن أجعل صوتي خفيضاً قدر الإمكان حتى لا أزعج المرضى بجوارك أو مرافقيهم. أهمُّ بالقرب من أذنك بدرجة افترض أنك قادرٌ على سماعها.

لقد ساعدتني على التحرر من سجني الخاص، ولكن ماذا عن هذه الآلاف ومئات الآلاف من البشر المسجونين في قَدَرٍ لا يستطيعون معالجته أو تصحيحه؟ بالتأكيد الأمر يتطلب أكثر من كلمات تطلقها على أثير إذاعة قبل انتصاف الليل بساعة. وماذا عن سجنك أنت؟ ها أنت محبوسٌ في جسدٍ هامد، ورغم أنني أشك في قدرتك على سمعي، إلا أنني أملك من الجنون الممزوج بالأمل ما يساعدني على تصديق حدوث المعجزات.

- ٢ -

لقد رویت لك في الليالي السابقة ما جرى هنا، في عالمنا هذا، خلال فترة غيبوبتك. وأنفقت الوقت الكثير للحديث عن الرحلة العجيبة التي قمت بها أنا بين العوالم. وكيف أنني تعثرت بعوالم

عديدة قبل أن أرجع إليك. وها أنذا أكمل لك آخر قصتين من قصص العالم التي مررت بها.

أنا متأكد أنك لن تعجب كثيراً بنفسك الموجودة في «العالم الثاني»، فهناك ونحن في هذه السنة تحديداً، أي ٢٠١٣، لا يبدو أن شيئاً ما قد تغير بشكل جذري. الناس تمتاح الأمان والهدوء، وتستمر في الوقت ذاته بشتم السلطة سرّاً. إلا إن موقفك أنت تغيير كلّياً.

في «العالم الثاني» كان مشروع غزو العراق قد واجه عراقبيل في الكونغرس الأميركي، ولم يتم إقرار مشروع «حرية العراق» في عام ٢٠٠٢. قدّم العراق في وقتها معلومات مهمة عن غزوة ثانية لأميركا غير غزوة منهاهن السابقة. وجرى تحجيم الإدارة الجمهورية عن القيام بأي مغامرات جديدة، بسبب الخسائر وتكليف الحرب في أفغانستان.

كانت هناك حركة دبلوماسية قوية من قبل الفرنسيين والروس، بجوار حركة رشاوى هائلة أغدقها النظام العراقي على حلفائه الدوليين، الأمر الذي ساعد على تخفيف جزئي للعقوبات الدولية، ثم بدا وكأن الأمور استقرت على حالة من الهدوء مع العالم.

في عام ٢٠١٠ تنحى صدام حسين عن السلطة، وتم انتخاب قصي صدام حسين بإجماع شعبي واسع، مشكوك بأمره دون شك. ولكن الناس نظرت إلى هذا التحول على أنه تغيير على أي حال. تراجع حضور الرئيس السابق من واجهة الأحداث ليكون مجرد «الأب القائد»، غير أن صوره الشخصية ظلت موجودة في الشوارع والساحات، وهذه المرة بجوار صورة الرئيس الجديد الشاب. الصور الثنائية انتشرت في كلّ مكان، واختفت بالتدرج الصورة الأحادية

للقائد البطل الأوحد. ثم صارت صور الرئيس الجديد تتکاثر، صور مفردة له هو فحسب من دون «الأب القائد».

الشيء الذي لمسه الناس أن الرئيس الجديد كان ينوي إجراء تغييرات شاملة، تعيد تجديد الدولة العراقية وصورتها أمام العالم، وطبي. صفحة الحروب السابقة والمعارك المصيرية والمبادئ القومية العليا وما إلى ذلك.

كان العراق منهكاً بسبب الحصار، وأعطت نوايا التغيير والإصلاح للرئيس الجديد ذريعة للقوى الدولية بإعادة حساباتها تجاه العراق، لا شيء إلا لما يتضمنه التعامل مع العراق من وعد بأرباح اقتصادية كبيرة.

أعاد الرئيس الجديد هيكلة مؤسسات الدولة الإعلامية والثقافية بشكل كامل، وانفتح على التقنيات الجديدة في العالم. أجاز خدمة الانترنت تجاريًا، وسمح بمدّ شبكات الهاتف المحمول، والأطباق اللاقطة للقنوات الفضائية، وصار يتحدث بخطابات مقتضبة عن ضرورة اللحاق بركب العالم، مع محافظته على ثوابت عامة كانت تتردد سابقاً في خطابات «الأب القائد».

بسبب إعادة الهيكلة الشاملة تم طرد أو تنحية الكثير من الأسماء المعروفة والتي ریصت لعقود في المؤسسات الإعلامية، وإحلال شباب محلهم. أنت يا علي كنت من ضمن الشباب الذين شعروا بالأمل في التغيير الجديد، وصار لديهم يقين بأنه من المستحيل تغيير الأوضاع في العراق إلا بهذه الطريقة.

لقد تسلمت أنت منصب مدير إذاعة بغداد، وساحت بجوارك طاقماً من الأصدقاء القدامى، أغلبهم كان معارضًا بشدة لنظام صدام. لكنكم جميعاً صرتم جزءاً من جهاز الدولة الإعلامي الجديد.

هل يعجبك هذا التحول؟ بالنسبة لي لم يتغير وضعي كثيراً،  
بقيت مجرد عجوز أنفق ربع قرن من عمره في الأسر في إيران، يعيش  
في عزلة محشورةً في وظيفة صغيرة تافهة، منسياً وخارج سياق  
الأحداث العامة.

- ٣ -

أما في «العالم الثالث» فالامر ربما أسوأ بالنسبة لك. لقد تُلتَّ  
في منتصف العام ١٩٩٦، أثناء محاولتك القيام بأمر مفيد في أجواء  
الحرب الأهلية الطاحنة. كُنْتَ محايداً لكن الجميع نظر إليك بوصفك  
مهادناً للعدو. ولا أحد يعرف من الذي أطلق عليك النار في الشارع  
وأرداك قتيلاً.

حين صحوت في «العالم الثالث» علمتُ أننا كنا نقف على  
أعتاب السنة العاشرة من الاتفاق التاريخي الذي سجل نجاحاً للأمم  
المتحدة وممثلها سيرجي ديميلو، قلماً حدث في ظلّ ظروف دولية  
مماثلة. وعلى الرغم من ذلك لم تكن الأوضاع جيدة.

وبالنسبة لاتفاق التاريخي فقد حضر في ذهني بسبب نسختي  
التي حلّلت فيها هناك، تفاصيل عما جرى حينها. لقد أخليت بغداد  
في ذلك اليوم التاريخي، حتى القحط لم تكن لتتجزأً وتعبر الشارع،  
وكانت طائرات الهليكوپتر تحوم حول أحياء بغداد على مدار الساعة.  
وخشينا، بين لحظة وأخرى، أن يفتح أحد الشباب المجازفين سلاحه  
عليها فترد بنيران حامية تحرقنا وننحن في بيوتنا. كانت تحوم بشكلٍ  
منخفضٍ وكأنها تريد التلصص علينا وترى ما نفعل، لذلك اكتفيت أنا  
بالابتسام. رفعت وجهي إلى الأعلى ورسمت ابتسامة عريضة، ثم  
وبخنتني زوجتي وطلبت مني العودة إلى داخل الغرفة، والكف عن

هذه التصرُّفات الصبيانية. فهؤلاء لا يريدون تصويرنا أو رؤية موقفنا من الاتفاques السياسية الجارية، إنها مجرد قوة جوية تابعة للأمم المتحدة تقوم بدورية روتينية، لمتابعة ورصد أي تحركات معادية في هذا اليوم الحسّاس.

كان العمل قبلها قد بدأ منذ أشهر في إعادة تأهيل القصر الجمهوري، الذي امتلاً بالأزيال والنفايات منذ العام ١٩٩٣، ثم أغلقت المنطقة المحيطة بالقصر بشكلٍ كامل، وبنىت أسوار كونكريتية حوله، ولم يعد أحدٌ ما قادرًا على مشاهدة ما يحدث هناك خلف الأسوار. وأخبرنا أحد الأصدقاء ممن عمل في فرش المَرْمَر ببعض صالات القصر، أنه صار تحفة فنية، وأن أموالًا طائلة صرفت من أجل ذلك. فها هنا ستم إعادة تشكيل الدولة من جديد. ويتم عقد الاجتماع الحسّاس.

جاووا بطائرات هيلكوبتر من مختلف المحافظات، لا تشبه هذه الطائرات التي تحوم فوق بيتنا. إنها أكبر حجمًا وتحمل شارات وأعلام الدول المجاورة، طائرات إيرانية وسعودية وأردنية وتركية وسورية وكويتية. هذا ما أكدته الكثيرون لاحقًا.

فتحنا التلفزيون، مع مجيء التيار الكهربائي، وشاهدنا مختلف القنوات وهي تبثُّ وقائع المؤتمر الخطير، فلأول مرّة منذ ١٢ سنة سيكون لدينا إعلان رسمي عن نهاية الحرب، ولأول مرّة هناك كلام عن حكومة في بغداد، يفترض أن تكون أكبر من حكومات كويستنجق والجلة وتكريت.

صافح سيرجي دي ميلو الجميع وأخذ صوراً ضاحكة معهم، وانشغلت القنوات التلفزيونية بعدها لساعات طويلة، حتى وقت

متاًخِرٍ من الليل في تحليل فوائد وأهمية الاتفاques التي حصلت اليوم في بغداد.

لقد تم تنصيب فالح عبد الله مزيعل رئيساً للوزراء، وهو منصب جديد لم نعهده سابقاً، وفالح هذا كان نائب ضابط في جيش صدام، أصيب بعوق أثناء الحرب العراقية الإيرانية، وبدل أن يعود مع سيارات الجرحى إلى الخلفيات، ترك ذراعه مع أشلاء جنود آخرين، وعبر الحدود إلى إيران.

لديه الآن ذراع بلاستيكية جيدة المظهر، حتى أنه يستطيع مصافحة الآخرين بها، شرط ألا يُصدقوا أنها مصافحة فعليةً ويُشنّدون على يده المزيفة بقوة، فلربما أخذوها معهم أمام إخراج الكاميرات الصحفية.

تحدث «مزيعل» لثلاث ساعات ونصف أمام الكاميرات عن برنامجه الحكومي، ولكني لم أفهم شيئاً.

أحسست به وكأنه صدام. أنا أتضايقُ كثيراً من هذا اللغو الكبير. كل ذلك بسبب صدام. وما أن انتهى حتى جاء الدور لرئيس الجمهورية ليتحدث ويلقي خطابه. وكان اسمه شاهر حمد الله فرحان، واستغرق مني الأمر طويلاً حتى استطعت حفظ اسمه. وهذا أيضاً كان ضابطاً كبيراً في جيش صدام، ربما كان الأمر المباشر لفالح، وهو الذي أمره بالاندفاع نحو العدو الإيراني وحصل ما حصل بعدها. ربما.. أنا لا أقول ذلك، ولكن ربما.

فرحان رجلٌ عشاريٌّ وتاجرٌ ولديه علاقات واسعة في المناطق من شمالى بغداد حتى الحدود العراقية التركية السورية. لديه أربع زوجات هنَّ بنات قبائل كبيرة، وأولاده تزوَّجوا من بنات قبائل كبيرة أخرى، وبناته تحت رجال من قبائل أخرى. إنه بالإجمال، يقف

على رأس حلف قبائلي تم عقده بالدم والمني، ولا ينفع أحد غيره لهذا المنصب الحساس. ولكن أي حساس هذا؟ إنه لا يُقيم في العراق أصلاً، ويتابع أعماله التجارية من هناك من بُرئه. لا يثق بأحد، ويُوَقِّع على كل الأوراق ويعقد كل الصفقات بنفسه. وضع شخصاً من أقاربه في منصب رئيس الديوان، وأمره بمهمة محددة؛ إرسال البريد الرئاسي له أينما يكون.

انتصف الليل حين رأينا رئيس البرلمان واسمه خدوا يتتحدث عن المهام الجسمان والمرحلة الخطيرة وما إلى ذلك. كان وسيماً كأنه ممثلٌ أمريكيٌ معروفٌ، ولكن كلامه كان مملاً أيضاً.

#### - ٤ -

ما عدا فالح مزيع الغبي، فإن الجميع، غادروا وانقضوا صباح اليوم التالي. بقيت قوة مليشياوية كبيرة يديرها أحد أعمام فالح، وصارت قوة عسكرية رسمية في ظرف نصف ساعة وتم صرف رواتب لها من ديوان مجلس الوزراء. ولكن الطائرات غادرت. عاد خدوا إلى كويسنجر، وذهب الرئيس إلى عمان لحفل زواج ابنته أخته. حتى سيرجيودي ميلو اختفى، ولم يعد يظهر بالأخبار. وظل فالح وحده يظهر في الفضائيات كل ليلة ليتحدث ثلاث ساعات متواصلة عن برنامجه الحكومي. حتى ملأنا وما عاد أحد يُطيق رؤية وجهه. كنا بالبداية نتعاطف مع ذراعه البلاستيكية. ثم صرنا نُقدِّرُ هذه الذراع المزيفة أكثر مما نُقدِّرُه هو. تمنينا لو أنهم يضعون صورة فوتografية على ملء الشاشة لهذه الذراع على مدى وقت البث بدلاً من الخطاب العجيب الممل. حتى جاء ذلك اليوم الذي أعلن فيه صاحب الذراع قراراً غريباً. سيجري رفع الحواجز والجدران الكونكريتية من أحياe

وшوارع بغداد فوراً. سيتم رفعها كلّها. ستكون بغداد مدينةً موحدةً واحدةً من جديد. لم يتلقَ سكان المدينة هذا الخبر بحماس. إنها مؤامرة إيرانية... لا مؤامرة سعودية تركية... هناك خطأ ما في الموضوع. لماذا يرفع الحواجز الآن. ما الذي استجد يا ترى؟!

فيما بعد تحدث أحد أقاربه في مقهى بكراج النهضة، وكان يعمل جندياً في سرية الحمايات الخاصة، قبل أن يُطرد بسبب سُكْرِه الدائم. قال إن رئيس الوزراء ظلَّ لأشهر طويلة لا يعرف ماذا يفعل لأنه لم يجد ما يفعل أصلاً. لقد ألبسوه كلاًّاً كبيراً وذهبوا، المطلوب منه أن يُضفي شرعية على ما تفعله الحكومات الحقيقية الثلاث لا أكثر ولا أقل. هم من يُنصِّبون سفراء العراق، وهم من يعقدون الاتفاques وكلَّ شيء، هو مجرد الرجل الذي يُوقع. ولا يفعل شيئاً فعلاً. وحين أمرَ بهذا القرار الغريب، لم يكن أحدُ يعرف، ولم يحضر القرار بموافقة حكومات تكريت والحلة وكويستنجق. أنت تقطط دون سبب واضح ومعلوم جزءاً من كيان هذه الحكومات لتضعه في منطقة عائمة وغائمة. أنت تقطع جزءاً شيئاً مهماً لتضعه في الفراغ، وتقطط جزءاً سنياً مهماً وتضعه في الفراغ، هكذا قال مندوياً الحلة وتكريت. أما كويستنجق فترى أن عودة بغداد الموحدة أمرٌ مخيفٌ، يُذَكَّر بما فعله صدام حين كان يحكم عاصمةً موحدة.

وحين اشتَدَ النقاش من حوله ذات مرّة شعر بضيق كبير، ولا أحد يعرف كيف حمل بذراعه البلاستيكية قنينة مياه معدنية ورمهاها بوجوه مستشاريه، وقال صارخاً، إن أمَّه ولدته أصلًاً لكي يقوم بهذا العمل.

في كلِّ الأحوال الأمر المفید الوحيد أننا صرنا نتابع شيئاً

مختلفاً، غير الخطابات المملة لرئيس الوزراء، أما على الأرض فلم يتغير الكثير. رفعت الجدران الكونكريتية كلها. وبدت المدينة عاريةً وموحشةً وقدرةً بسبب ما ظهر خلف هذه الجدران المنزوعة. وصرنا نرى آثار سنوات من نقل هذه الجدران مرسومة على الأرض، حتى بعد تنظيفها وغسلها، ظلت واضحةً، كالأصباغ التي كان يرسم بها على الجدران وتبقى نقاطً أو بقعًّا وآثارًّا منها على الأرض أسفل الجدار. ذهب الجدار وظلّ جدارٌ وهميٌّ ترسمه هذه البقع على مسافات طويلة.

كانت القطة والكلاب تمرُّ بجوار الجدار الوهميّ ولا تعبره، وهكذا كان يفعل الجميع. لقد كَيْفَ الجميع أنفسهم على حياة لا تحتاج ما هو خلف الجدار. نعم، هذا الحلاق هو أمامي عبر الشارع، ولكنني صرُّت صديقاً حمِيماً لحلاق آخر في منطقتي، بعيد قليلاً، وسيزعل حين يراني صدفةً بشعر مقصوص وأنيق فيعرف بمجرد النظر أنني ذهبت إلى حلاقٍ غيره. لن يُفيدني التحجُّج بأن شعريًّا لا يطول أصلاً أو أن زوجتي تعلمَت في المُلْمِنْ فنَّ الحلاقة.

ظلّت الحياة تسير في المدينة من دون الحاجة إلى التأكُّد من أن الجدران رُفعت أصلاً. لا يحتاج هذا الجزء ذاك الجزء أبداً. ثم أن هناك قضية أعقد؛ مما فعله هذا الرئيس الذي لا يُذَكَّر شكله أبداً بأيٍ ملمح يمت للرئاسة، هو قرار غامض وهشّ، صدام نفسه لم يحافظ على هذه الدولة، فهل يفعلها فالح مزيعل؟!

لا أحد يريد المجازفة بالتعايش وخلق عادات جديدة مع أماكن وأشخاص لم يكن يعرفهم طوال أكثر من عقد، ثم ترجع الجدران فجأةً ذات نهار، لنشرع جميعاً بالصدمة والأسف. الصدمة من أنفسنا التي صدقَت كذبةً كذبها شخصٌ يدعى أنه رئيس وزراء، والأسف

لأننا نكرر دائمًا أمام أنفسنا بأننا تعلمنا من دروس الماضي، ومع ذلك نعود مرة أخرى لنكرر ذات الخطأ: الثقة بما سيأتي.

بعد أشهر مريمة مليئة بالترقب، أصدر الرجل الذي اسمه فالح قرارات غريبة أخرى؛ قطع الطحين عن أفران الصمون في الجزء الشيعي من بغداد، ومنع توريد الخضار والفواكه إلى الجزء السنّي من المدينة.

صار الفرّانون يشترون الطحين من المنازل، وارتفع سعر الصمون قليلاً، ولكن الأمور ظلت تسير بشكلٍ حسن، ثم أنَّ أغلب النساء يخزنن في المنازل.

ثم شاهد السكان قوارب صغيرة محمّلة بالخضار والفواكه تأتي من شمالي بغداد وترصف عند ضفة النهر في الأعظمية. وكأنها نجدة وإغاثة لمواطنين منكوبين.

أصدر فالح قرارات بنقل الموظفين كي يعملوا في دوائر خلف الجدار الوهمي، ولكن أحدًا لم ينفذ هذه القرارات. وجلس موظفو بغداد، الذين لا يعملون شيئاً أصلاً، في بيوتهم، وظلّت الهيئات الخيرية السنّية والشيعية تزودهم برواتب موازية لما يقبضونه من الدولة، والتقطوا معهم صوراً، وصار البعض أبطالاً بسبب التنفيذ التعسفي لقرارات فالح. لقد تحطم وجه موظف في دائرة بلدية بعد أن تمَّ دفعه من قبل القوة المليشياوية الرئاسية حتى يعبر الجدار الوهمي، وهو يرفض بشدة. كانت الفضائيات تصوّر الحدث، حتى يتأكد العالم بأن الشائعات عن وجود الجدار الوهمي لا أساس لها. وأن موظفي الدولة يُنفذون قرارات الدولة، ولا أحد يُغفّط في وجه رئيس الوزراء، كما تقول الشائعات. لكن الخدمة الإعلامية والدعائية التي أرادها فالح تحولت لاحقاً إلى فضيحة.

دفع الرجال المسلاحون الموظف المسكين وصار قريباً من الحائط الوهمي، وهنا توقف وثبت قدميه على الأرض بشدة وتقلّصت ملامح وجهه ويداً وكأنه على شفا البكاء، محضناً حقيبة الجلدية، وينظر بفزع إلى ما يراه أمامه، ولا يراه أحدٌ غيره، وكأن أسدًا مخيفاً يفتح شدقته أمامه ويهمُّ بابتلاعه. دفعه رجلٌ ضخمٌ دفعه قوية، فارتطم وجه الموظف المرعوب بالحائط الوهمي وتكسر عظم وجنته وسأَلَ دمه على صدره وحقيبته وتلوّثت ملابسه، وتقطّر الدم منه فوق بقع الصبغ و قطرات الدهان التي كانت أسفل الجدار الوهمي، وتعزّزت حدود هذا الجدار بصورةٍ أوضحت.

تقول إنني كاذب؟! ها؟ صدقي كان جداراً زجاجياً صلباً وقف بوجه الموظف المسكين. لم يكن خائفاً من العبور إلى الجهة الثانية من الجدار لو لا ذلك، ألا يفترض أن يكون هناك باب في هذا الجدار حتى يعبره؟ لم يكن أحمق أو غبياً، كان يبحث عن سلوك منطقي، وما فعله الجنود في ذلك النهار هو العمل الغبي والأحمق والشرير.

لم يترك فالح هذا الحدث يمر دون ثلات ساعات تلفزيونية، تحدث فيها عن كل شيء، حتى عن مقتل أفراد من القوة الاممية في الكونغو المعنية بإغاثة النازحين. وفي الوقت الذي كنا نضحك فيه على هذا الرجل المخبول، كان يستمر هو في اتخاذ المزيد من القرارات التي تحرّك ماكنة الصحافة وتعطي معنى لتنابع الأيام في الجرائد والإذاعات.

ما الذي يريد هذا الرجل، ولماذا لا يريد أن يكون وفياً لأولياء نعمته الذين وضعوه في هذا المنصب؟ هل يريد تخريب السلام الذي حصلنا عليه بشق الأنفس؟ نعم إنه سلامٌ من نوع خاص، ببصمة

عراقية، ولكنه السلام الوحد الذي حصلنا عليه بعد ١٢ سنة من الاقتتال.

يأتي فالح هذا ليغير الحدود ويُخرب الاتفاقيات، يرمينا جميعاً في هُوَة غامضة، لا نعرف هل تؤدي إلى المستقبل أم تعود بنا إلى الماضي.

استمرّت السخرية من فالح وقراراته الغريبة في الفضائيات وبرامجها الحوارية والفكاهية، ولم يستطع الرد عليهم لأنّه لا يملك أيّ وسيلة إعلامية ما عدا ألسنة فوج الحماية المليشياوي الضخم، الذي يتكون في مجمله من أبناء عشيرته وعمومته.

ثم ذات صباح، انقطع البث في هذه الفضائيات الساخرة، لتثبت بشكل عاجل مؤتمراً صحفياً عقده رئيس الوزراء في القصر الجمهوري. وما إن ظهر على الشاشات حتى شعرنا بأنّ أمراً خطيراً سيحدث، لأن الرجل كان يرتدي بزة عسكرية برتبة عقيد رُكن. لم يكن خطابه هذه المرة طويلاً ولا مكرراً ولا مملاً. لقد جاءنا بحدث جديد، سلس وقصير وصادم. أخيراً استطاع رجل الذراع البلاستيكية أن يقوم بأمر مُسلّ.

أعلن فالح مزيعل، بصفته الشخصية، لا بالمنصب الذي يشغله، أنه قام بانقلاب عسكري، نعم. لقد حدث الانقلاب صبيحةً هذا اليوم. لماذا يقولون بالكلام عن الانقلابات «صبيحة» ولا يقولون «صباح»؟

على أيّ حال.. في هذه الصبيحة حدث الانقلاب، وانتهى الأمر، وأعلنت الأحكام العُرفية. وعُطل الدستور والبرلمان، وعُطّلت الحكومة. ولكن هناك أمراً غريباً، هل قام فالح بانقلاب على نفسه أم لماذا؟

نعم، تفلسف أحد المعلقين بعد إذاعة البيان رقم واحد، بأن فالح المواطن قام بانقلاب على فالح رئيس الوزراء، فالح الذي يُمثل حالة الرفض الشعبي انقلب على الاتفاques السياسية التي قادت فالح إلى منصب رئيس الوزراء. ولكن لماذا يرتدي بدلة عسكرية؟ لقد قام الفوج الرئاسي المليشياوي بهذا الانقلاب، وبعد نجاحه نصبوا فالح زعيماً عليهم بهذه الرتبة العسكرية. ولكن الفوج الرئاسي هم من أبناء عمومته؟

كان الأمر مثيراً وغريباً ومليناً بالمقارنات، وهذا ما حرك الصحف والفضائيات لعدة أسابيع لاحقة.

خلال ذلك كان فالح قد اتخذ عدة قرارات تتعلق بالتحضير لغزو باقي مناطق العراق لإعادتها إلى حكومة بغداد، وإسقاط حكومات تكريت والحلة وكويستنجق. ولكن الغريب أن رؤساء وأعضاء هذه الحكومات الثلاث لم يحرّكوا ساكناً ولم يعلّقوا على ما يجري. وتعاملوا وكأن شيئاً لم يحدث. لا انقلاب ولا بطيخ.

وحينما عثرت الصحافة العالمية على رئيس الجمهورية في بيته الفارِه بمدينة نيس الفرنسية، قال غاضباً إن هذه مؤامرة تستهدفه شخصياً وإنه مُصرٌ على ضمان حقوق الطائفة والعرق والزقاق الذي ولد فيه. وإنما في ذلك ليلة.

لا والله أنا لا أسرّ منك. ايقظ هذا الرجل النائم في السرير المجاور واسأله وتأكّد بنفسك. إنه نائمٌ هنا منذ فترة طويلة وربما لا يعرف نعم، إذن أسأل المريض النائم في الجهة الثانية، إنه يفتح عينيه ويغلقهما كلَّ خمس دقائق، لا بدَّ أنه يملك معلومات أكثر مني عن هذه الحوادث. على راحتك. أنت تُصدق أو لا تُصدق، ما يبدي حيلة.

أصرَّ الجميع أنها مجرد لُعبة بين فالح وأولاد عُمه، مثل لعبة المحبس الرمضانية التي تتطلّب مشاركين كثيرين. لعب مزيّع اللعبة مع أبناء عُمه داخل القصر ثم صدّق أنها حدث وطني. ظلَّ الجميع يُراسلونه بصفته رئيس الوزراء. وظلَّ هو يقوم بالمهام الخاصة بالمنصب، فلا شيء تغيير.

ثم أخبرنا أحد الجنود المطرودين من فوج حمايته أنه قام بثورة تصحيحية على الانقلاب الأول، ونصّب نفسه زعيم الثورة التصحيحية، ولكن، ولا فضائية واحدة قبلت أن تبثَ بيان الثورة التصحيحية.

في النهاية تراجعت الأخبار المجانية الصادرة من القصر الجمهوري، وغرق فالح في صمت غامض، ولم يعد يتحدّث في وسائل الإعلام إلا نادراً. وترك كلَّ شيء على حاله. ربما بسبب تهديدات جدية بتصفيته أو ما يشبه ذلك. ربما بسبب شكوك جماعية تمَّ توجيهها إلى زعيم عشيرته هناك في الجنوب.

- ٥ -

اعذرني ولكن خاطرًا سينَا كان يمرُّ في ذهني أحياناً، ولا أنسِك عن معاودة التفكير به مراراً، وهو ينبعق في ذهني الآن، مفاده؛  
ماذا لو أن ذلك المساعد الغامض لم يُقتلُ رئيسه صدام؟  
ماذا لو أنه لم يمت في شتاء العام ١٩٩٨، واستمرَّ رئيساً، واستطاع تجميع شتات نفسه وجيشه من مقره في تكريت، ثم العودة أدراجها إلى بغداد واستعادة كلَّ شيء.

ماذا لو أنه أصلاً لم يدخل إلى الكويت. كان من الممكن أن ينسى الناس مأساة الحرب مع إيران. هي حربٌ، على أيّ حال،

كانت تجري على الجبهات، ولا يمكن أن تقارن بما حصل لاحقاً.  
كان الجنود يذهبون ليموتوها أو ينتظروا الموت، ثم يعود منهم من  
يعود، إماً سالماً يسير على قدميه، أو جثة على تابوت في سيارة. لا  
تبقي الجثث طويلاً داخل أحياط المدينة، وسرعان ما يرسلونها إلى  
المقابر. ولكنني الآن أعرف مقبرتين أو ثلاثة وسط مدينة بغداد، بين  
أحيائها السكنية. جرى دفن جثث كثيرة في ساحة مدرسة، بسبب  
العزلة في أواخر التسعينيات. هناك قبورٌ يعرفها الكثيرون قائمة دون  
شواهد أو أسماء في حدائق عامة، أو خلف جدران مستشفيات  
احتفظت بجثث القتلى فترات طويلة حتى تعفّن.

لقد إنهاز الجيش العراقي بقطعاته المختلفة تحت ضربات قوات  
التحالف، أنتَ تذَكَّرُ هذا. ثم تبَخَّرَ جزءٌ كبيرٌ من قطعات الجيش مع  
الانسحاب من الكويت، رمى الكثيرون أسلحتهم وغادروا سيراً على  
الأقدام إلى بيوتهم في قراهم ومدنهم المختلفة، أو ربما انضمُوا إلى  
الانتفاضة التي كانت تشتعل في الجنوب. كانت قوات التحالف قد  
قصفت المدرجات ومهابط الطائرات العمودية كلَّها حتى تلك المعطلة  
أو قيد التصليح، لذلك لم يجد الرئيس في نهاية المطاف، وهو يرى  
المحافظات تساقط من يديه، سوى الاستعانة بالخلص من منتسبي  
تشكيلاته العسكرية. وبالذات الحرس الجمهوري الخاص، الذي  
يتكون غالبيته من أبناء المدن والمحافظات التي تُدين بالولاء له.  
 فهو لا يرون، رغم انتقاداتهم لسياسة صدام، أن مصيرهم مرتبط به،  
مع التقدُّم الحمامي المخيف لميليشيات الشيعة المنتفضين بشكل  
جماعي لأول مرة منذ بدايات القرن العشرين.

أشياء بسيطة ومواقف صغيرة يمكن أن تغيِّر مسارات بلد كامل.  
كانت أطرافُ في التحالف الدولي تداول فكرة رفع المنع عن

طائرات صدام كي يضرب التمرد الذي نشب ضده. لكن الطلب جاء متأخراً يوماً أو يومين، بسبب نسف طيران التحالف لتكامل سلاح الجو العراقي، وأتمَّ مهمَّةً كانت تحلم بها إيران من قبل على مدى عقد تقريباً.

نصف الأسلحة الثقيلة إما تركها الجيش المنسحب من حفر الباطن والكويت، أو سقطت بأيدي المنتفضين، ولا توجد أسلحة كثيرة أصلاً ابتداءً من بغداد وصعوداً إلى الشمال، كما أن الجبهة التي انفتحت مع دخول قوات البيشمركة الكردية إلى كركوك، قسمت الجهد الحكومي العسكري. ثم استيقظ الناس على صورة لم يكن يحلم بحدوثها أحد، جيشان متكافئان بالقوة يقتتلان على أعتاب بغداد، جيش المنتفضين الشيعة، يتصارع لوضع اليد على المناطق والأحياء السكنية مع جيش وطني غداً الآن، بحكم الأمر الواقع، جيشاً سُنياً. ثم جيشٌ سُنيٌّ يتقابل في الشمال مع جيش كردي.

لم تعد المعركة معركة العراق أو صدام، صار هذان الاسمان في الخلف، إنها معركة وجود طائفي وعرقي، خشية الطائفة من الإبادة والتصفية والانتقام على يد الطائفة المعادية، وخلال نمو مشاعر الخشية هذه، كان يسقط العديد من الضحايا، الذين يتحولون فوراً إلى وقود لنيران الخشية والغضب والرغبة بالثار، وأمام هذه الصورة لم يعد تبجح صدام بشعاراته وكلامه عن العراق العظيم نافعاً في تفسير أو تهدئة أي شيء. كانت الأحداث تصاعد معلنة نهاية العراق الذي نعرفه، ونهاية صدام نفسه، رغم أنه ما زال رسمياً على رأس السلطة في العراق.

ومع ضعف الموارد في يد صدام، وشعور السنة بأنهم يقاتلون ليس دفاعاً عن البعث أو صدام، وإنما عن أنفسهم، لم يعد صدام

قادراً على مسك زمام الأمور، وحصلت مُشادات بين زعامات عشائرية وضباط في الحرس الرئاسي الخاص، غير أن صدام لم يرد على هذه الأحداث بأي إجراء عنيف. وفضلَ المصالحة والمساومة، وكانت هذه لفتة ذكاء. ثم تشكّلت بأمر منه تشكيلاً مساندة من الأهالي لحماية مناطقهم بأنفسهم، وسرعان ما تعاظم دور هذه التشكيلات شبه النظامية، وصارت تفرض الآتاوات على السكان في المناطق التي تسيطر عليها. كنوعٍ من التمويل الذاتي، واستخدم القادة المحليون لهذا التنظيم شعارات مشابهة لتلك التي كان يطلقها صدام، فالناس هنا تبرّعوا للمجهود العربي، وهم يتعاونون، كلّ بطريقته وأسلوبه، لصدّ الهجوم الفارسية الصفوية التي تريد احتلال بغداد.

استمرَّ الصراع على أسوار بغداد عاماً كاملاً. وصار من المعلوم أن إيران تورّد بأشكال مختلفة، السلاح والعتاد للفصائل الشيعية المقاتلة، بينما لم يعد في يد صدام وحرسه الرئاسي الخاص شيء الكثير، وسط مقاطعة دولية واسعة. كان من الواضح أنه يخسر ولا يتصرّ.

ثم حدث في أواخر العام ١٩٩٥ أمرٌ مفاجئٌ. لقد تقدّمت القوات الشيعية السنّية بسرعة حتى وصلت إلى اعتاب كربلاء، محرّرة القرى السنّية في بابل، واكتشف بعض المخبرين الشيعة أسلحة جديدة في أيدي هذه القوات، وسرعان ما اتضح أن دولاً عربية اجتمعت في عمان بشكل عاجل، لتقرّر دعم الميليشيات السنّية بالسلاح، من دون الإشارة إلى صدام وحرسه الرئاسي.

في أواخر العام ١٩٩٦ حدث احتكاكٌ آخر داخل المعسكر الصدامي المفترض، أدى إلى انفصال قوة قتالية كبيرة في الموصل عن الادارة المباشرة لصدام، ثم أذاعت إذاعة خاصة بالمحافظة بياناً

انتقادياً شديداً للهجة، اتهم صدام بأنه رمى البلد في الهاوية، وان الانتصار الذي حققه على ايران قدمه الآن على طبق من ذهب إليها. ثم تصاعدت اللهجة في الأسابيع اللاحقة، واتهمهم صدام بأنهم فئة منحرفة وقعت تحت تأثير وابتزاز قوى العدوان الثلاثي.

في الأسبوع نفسه ذكر بيان صادر عن الجامعة العربية أن صدام لم يعد مؤهلاً لقيادة بلد موحد، وأن عليه أن يفسح المجال لقيادات أكثر حرضاً وشعوراً بالمسؤولية. وجواهر البيان كان يشير إلى اتجاه محدد؛ فسح المجال أمام قائد عربي سُني يعالج المشكلة الشيعية بالجنوب.

الذى لم يكن واضحاً وقتها أن القرار العربي كان قد اتخذ في دعم البديل عن صدام، ولكن هذا البديل لم يكن قادراً على الظهور بسبب الكاريزما الخاصة بصدام، حتى نضجت الفاكهة وسقطت في اليد في ذلك اليوم من شتاء ١٩٩٨ حين قام أحد مساعدي الرئيس بإفراج مسدسه في رأسه، ولحق ذلك اغتيال ولديه. وكان هذا المساعد يظنُّ في نفسه أنه هو البديل المفترض، ولكن سرعان ما وقع في كمين نُصِبَ له من قبل عشيرة صدام، وتمَ قتله بطريقة بشعة. وبدل أن يظهر البديل هنا أو هناك فجأة ليُسدِّد الفراغ الذي خلفه غياب صدام، إنهاارت الجبهة السُّنية ودخلت في احتراب داخلي، وأيّاً كانت الجهة الداعمة والمخططة والممولة لهذا القرار فإنه لم يكن قراراً حكيمَا، وأدى إلى حدث غير مسبوق، فبسبب التراجع والانقسام في الجبهة السُّنية، تقدّمت القوات الشيعية واحتلت أكثر من نصف بغداد. وما جرى بعد ذلك لم يكن يحوي تفاصيل كثيرة، حتى مجيء القوات الأممية ووقفها عند جدران الفصل بين المعسكرين داخل بغداد وبابل وديالى وصلاح الدين ومنطقة النخيب.

نتائج هذه الدراما مُخيّبة للأمال. صرنا مسلّحين، من الصبي إلى الشيخ، وحوادث القتل لم تكنْ تثير حفيظة أحد، وفي حوادث قليلة، حين يتم التعرُّف على القتلة، تتمُّ تسوية الأمر عشائرياً، وهذا ما تطرق إليه فالح في أحد تعليقاته الصحفية، باعتباره مشكلة يجب علاجُها بتنقية القانون.

بعد فترة من الهدوء عاد فالح إلى خطاباته الطويلة، كان منفعلاً ومنزعجاً ويلوم الجميع على تركه دون حيلة ولا قدرة على التغيير الفعلي. ظلت القنوات الفضائية تأخذ مقتطفات من خطاباته فقط ولا تنقلها كاملة، وتتجاهل بعضها، كما فعلت قنوات كردية، رأت في كلامه عن «العراق العظيم» بوادر كيمياوي.

وأرسلت القوى الشيعية المتنفذة في الجنوب مندوبيهن عنها لتدكير فالح بمن وضعيه في هذا المنصب، وأنه في الدورة الانتخابية المقبلة لن يبقى رئيساً للوزراء، ولا حتى نائباً في البرلمان الاتحادي، ويبدو أن الكرسي أطار عقله ونسى نفسه، وربما ضرب شبح صدام مخيلته بقوة ويريد أن يستنسخه.

أما التيار القومي العربي والجبهة الإسلامية الموحدة اللذان يقتسمان الأراضي السُّنية بما فيها أجزاء من بغداد، فلم ينظروا إلى فالح إلا بكونه محافظاً إيرانياً، وكلامه الوطني لن ينفعه.

إن فالح رجل ساذجٌ وحالُم بكل تأكيد، ولكنه رجلٌ وطنيٌّ فعلاً، أما الناس فهي تتبع سادتها، حتى كتيبة الحماية الرئاسية المكوّنة من أبناء عشيرة فالح، فهم يتبعون سادتهم، ولا يُمثّل لهم فالح سوى مصدر الرزق المؤقت، الذين يعرفون أنه زائلٌ لا محالة، لهذا كانوا يستخدمون نفوذهم من أجل تحصيل أموال خارج المرتبات الرسمية. مثل تخليص معاملات، أو إخراج مطلوبين من السجن، أو حتى

تشكيل عصابات صغيرة تقوم بعمليات سطو مسلح على صاغة أو تجار أو حتى بيوت، وحين يتم اتهام كتيبة الحمايات بأنها هي من نفذت هذه الأفعال يأتي الرد المعتاد بأن عصابة ما قامت بهذا الأمر واستخدمت ملابس وبطاقات تعريف مزورة تنسبهم إلى كتيبة الحمايات.

- ٦ -

إنه رجلُ شريفُ، فالح مزيعل هذا، والشريفُ لا يولد فجأةً وإنما تكونه التجارب. ربما كانت لديه ميول سابقة تجعله متطرفاً أو عقائدياً متّحمساً، ربما قام ببعض التجاوزات أو الجرائم في مراحل ما من حياته، ولكنه الآن شخص مختلف. لا يتعلّق الأمر بالمنصب والسلطة أو اتهامات الآخرين له بأنه يحاول تقليد صدام وما إلى ذلك. لقد شعر في لحظة بأنه يمكن أن يستثمر السلطة التي في يده بالاتّجاه الصحيح، بما يخدم العراق ككلٍّ وليس فئة محددة منه، ولكن المفارقة أنه اكتشف وهم هذه السلطة، وأنه مجرد فرّاعة وضعت في بغداد، على هرم حكومة لا تقوم سوى بالإمضاء على قرارات حكومات الحلّة وتكرير وكيستنجر. إنه يُضفي الشرعية على نظام سياسي غريب وعجيب، يمنع العراق حضوراً في المحافل الدولية كبلدٍ موحدٍ لا وجود له على الأرض فعلًا. إنه مجرد خادم لمصالح القوى الفعلية في العراق، ولا يملك قوّة مستقلة، ولا يستطيع أن يخدم العراق بأيّ شيء. لذلك، وقبل أن يحين موعد الانتخابات البرلمانية، تفاجأ الجميع ببيانٍ جديدٍ من فالح، تمَّ نقل مقتطفات منه في البداية، ولكن القنوات الفضائية عادت، في مساء اليوم نفسه، لتُبئِّه كاملاً، خصوصاً وأنه لم يكن طويلاً.

طرح فالح في بيانه الختامي تصوّره عن المشكلة العميقة في

العراق، ثم موقعه من هذه المشكلة. اعترف بأنه فشل في تقديم ما يفيد البلد، وأنه رغم كلّ الجهود التي بذلها، وأآخرها التمرُّد التام على القرارات الأممية التي وضعته في منصبه، وإعلانه الثورة مرتَّبين، إلا أنه لم يغيِّر شيئاً، ولا يريد أن يخرج من السلطة مع انتهاء دورته الانتخابية، ليُقال عنه لاحقاً، أنه بقي في منصبه رغم كلّ العيوب التي شاهدها بعينيه، لا لشيء إلا للاستفادة من منافع السلطة.

إنه يستقيل الآن، أمام متفرّجي التلفزيون، ولن يُرشح نفسه لأيّ منصب، ولن يشترك في أيّ عمل سياسي لاحق. هذه هي ثورته التصحيحية الثانية، التي لا يملك غيرها.

حرز فالح حقيقته وخرج مع ثلاثة من أبناء عمومته المقربين، الذين رافقوه بسيارتين مصفّحتين حتى منزل عائلته في قطاع ٢٦ في مدينة الثورة. لم ينتظر أحداً، لا مداولات الحكومات الثلاث حول قراره، ولا مقترباتهم بشأن البديل. كان يريد إخراجهم وإرباكهم، وكان يشعر بأن خروجه أو بقاءه في المنصب لن يغيّر من واقع الحال كثيراً. لن ينهار البلد أو تحدث فوضى أو ما شابه. وهذا ما جرى فعلاً. كانت الأمور طبيعية في صباح اليوم التالي، وشاهد على التلفزيون رجالاً جديداً يقوم بمهام رئيس الوزراء بشكلٍ مؤقتٍ حتى موعد الانتخابات المقبلة.

الطريف بالأمر أن الناس كانت تتقاطر على بيت فالح في البداية، يأخذون معه الصور، وهناك من كان يلومه من أعمامه الكبار، لأنّه ترك منصباً كان يجلب لهم الوجاهة والرفعة بين العشائر، ثم سرعان ما تراجعت هذه النبرة، وبدأ فالح يشغل نفسه بأشياء أخرى. طلب منه صحفيون أن يكتب مذكراته. انشغل بها

لفترة ولكنه لم يستطيع الكتابة بيده اليسرى إلا بصعوبة. ثم صار يملي على صبي من أبناء أخوته ليكتب. وبعد مرور سنة توقف عن هذا الأمر وتجاهله الصحافة، ثم أصبح يجلس في المقاهي ولا ينتبه له أحد. حتى حين يقول شخص ما إن هذا الرجل كان رئيساً لوزراء العراق، فإن المقابل يضفن للحظات ثم يولي بصره إلى جهة أخرى، وكأنه لا يصدق، أو لأن الناس لم تعد تهزّها هذه التسميات الفخمة؟ رئيس وزراء، رئيس الجمهورية، وزير الدفاع.. إلخ إلخ.

كان الشعور بأنه يرجع إلى صورته كشخص عادي مريحاً بالنسبة له، ولكنه شعور غير واقعي، فلا أحد يدخل من باب ليعود ويخرج منه مرة ثانية، إننا نعبر مراحل وتجارب ونتغير خلال ذلك ولا نغدو أنفسنا التي رأينا صورتها في المرأة ذات مرة. إننا نتحول، وصورتنا الجديدة لا يمكن تحطيمها أو الانسحاب منها والعودة إلى صورة قديمة. إنه ليس أمراً اختيارياً، ولا يتعلق بالمزاج والرغبة، وأبسط مثال على ذلك هو الهرم والشيخوخة.

وبسبب وهم العودة إلى ما قبل التغييرات الكبرى في حياته، كان فالح يذهب أحياناً في الصباح لشراء الصمون من الفرن وقىمر العرب لافطار العائلة، أو يذهب لجلب عبوات الماء الصافي من الدكان في رأس الزقاق، وفي مرة من هذه المرات استهدفه أشخاص ببنادقهم وزحّوه بالرصاص من أعلى إلى أسفل في لمح البصر ثم اختلفوا.

ألم تتفاجأ من هذه النهاية؟ ألم يتحرّك فيك شيء؟ على أي حال أنا أمزح معك. لا أعرف بدقة ما جرى له. لأنني عُدّت من ذلك العالم الموازي إلى هنا، ربما تعرض لمحاولة اغتيال فعلاً، أو ربما رجع وندم وانضم إلى فصيله السياسي السابق، ثم أخذ منصباً ما هنا أو هناك، أو ربما سيعود، بسبب مذاق السلطة اللعين، ليروّح نفسه

من جديد في الانتخابات المقبلة، التي لم يتبقَ على موعد إجرائها سوى بضعة أشهر. أو ربما سافر، من يدري.

- ٧ -

لقد سمعتك يا علي. أعرف أن الكثير من المستمعين في تلك الساعة من الليل، كانوا يضحكون ربما على ما تقول، أو يستمعون لبرنامجك المسائي بدھشة ويرون الأمر مجرد فاصلٍ ليليٍ ممتعٍ وغريب، ثم سرعان ما يذهبون للنوم أو لينشغلوا بشؤون أخرى. أنت نفسك كنت تكرر القول دائمًا أن البرامج السياسية الحوارية، مهما تضمنَت من كلام قييم فهي ليست سوى برامج موضوعة للممتعة لا للتغيير شيء. حين يكون البرنامج ممتعًا فإنه يحقق هدفه الحقيقي، ولهذا تكون البرامج التي تتضمن تصريحات نارية أو عرائضاً بين الضيوف بالأيدي هي البرامج المفضلة لدى المشاهدين والمستمعين. إنهم يبحثون عن الأكشن وليس عن مفاتيح تغيير الواقع. وأيُّ إعلامٍ يصدق حكاية تغيير الواقع فسيصاب لاحقاً بالأمراض المزمنة بوقت مبكر.

أنا الممُرض العجوز محمد سدخان كنت مستعداً لتصديق حكاية تغيير الواقع. ولكن ليس واقع البلد، وإنما واقع حياتي أنا فحسب. كنت مجرد شخصٍ ضيئع نصف عمره في الحروب والأسر، من دون عائلة. يرمي بصره أحياناً إلى البعيد فيرى أنه صحيحة مقلبة كبيرة، ولا يستطيع اتهام أحد بوجوده في هذا المقلب. هل هو القدر أم القرارات السياسية للزعماء أم خياراتي الشخصية؟!

كنت مريضاً وكثيراً وشبه مجنون. لذلك حين سمعتك تردد التعويذات السُّومرية السَّبعة. دونتها، ثم باليمان شديد قرأتها قبل

النوم، وارتحلت فعلاً عبر باب الطباشير. لقد ساعدتنى وأنقذتنى. ذهبت إلى «حياة مثالية» كنت أحلم بها. ثم من أجل إنقاذه، ولردد الدين لك، ها إني أعود إلى عالمي الأول الذي هربت منه. للأسف، وبعد هذا الوقت العصيب الذي مررت به مع عائلتك لا يبدو أنك ستنهض من رقدتك قريباً. أنا يائسٌ من استيقاظك الآن، وكانت الخطة البديلة التي كُلِّفت بها، أن أصنع حلاً في كل الأحوال. لا يجب أن تبقى هكذا. بقاوك في هذا الوضع هو فشلٌ شخصيٌ لي. والخطة البديلة تقضي أن أرفع هذه الأجهزة عنك، أقطع مصادر بقائك على قيد الحياة. أقتلك وأخلصك من هذا الوضع العائم ما بين الموت والحياة. ولكنني بهذه الثرثرة الطويلة وهذا الاعتراف وكأني أقر بفشلني، وعدم قدرتي على ارتكاب جريمة مماثلة. أحدثك بذلك وأنا أعرفُ أن روحك ربما أثناء غيبوبتك المتصلة تتجوّل الآن بين العوالم، ومهمّتي أصلًا أن أوقف هذا التجوال وأنهيه بشكلٍ حاسم.

آه.. قبل أن أغادر ساذگُرُ لك شيئاً أخيراً ربما يحفز لديك عرفاً ميناً؛ زارتكم امرأةٌ مرتين في الأسابيع الماضية، كانت تجلس واجمة وهي تنظر إلى وجهك، وفي زيارتها الأخيرة رفعت يدك الهاameda ووضعت تحتها مجموعة شعرية متهرّبة الصفحات وقديمة. قرأت في المجموعة بعض الصفحات، وكررتُ اسم الشاعر أكثر من مرّة مع نفسي حتى أحفظه وأتعود على لفظه، وأنطقه بشكل صحيح أمامك؛ جوزيف بروودسكي. كانت امرأة حسناء وبدت حزينة لأجلك، وقبل أن تغادر، وعلى مرأى من جميع المرضى ومرافقهم في هذه الغرفة، ومن دون أن تتحرّج طبعت قبّلَةً مديدةً على شفتيك.

## الفصل الخامس

### حَيَاةُ أُخْرَى

- ١ -

كان أول ما سأله عنه علي بعد أن فتح عينيه ورأى أخاه عمّار واقفاً بجوار سريره في المستشفى، هو كتاب جوزيف برودسكي الصغير. لم يجربه عمّار على سؤاله لأنّه لم يسمع بوضوح، وكان هناك لغط في ردهة المستشفى. ثم سرعان ما عاد علي إلى إغفائه. استيقظ لاحقاً ووجد أن عمّار وشخصاً آخر لا يعرفه يحاولان مساعدته على النهوض والmigration. كانت هناك مشكلة في المستشفى، بسبب الحاجة إلى أسرة المرضى الأحسن حالاً من أجل جرحى جدد، أو شيء من هذا. وكان عمّار يشتمُ بانفعال.

«في البيت نعتنى بك بشكل أفضل»

قال وهو يدفع علي إلى المقعد الخلفي في سيارته. فَهِمَ علي خلال الطريق، أن إصابته كانت مجرد خدش. الإطلاقه مزقت الجلد بجوار صدغه ونزعـت شريطاً من الشعر لن ينـبت ثانية، ولكن صدمة الإطلاقه النارـية وحرارتها هو ما تسبـب في إغماءـته لأسبوعـين. من الذي أطلق النار عليه، وهـل سيـكرـر محاـولـته مـرـة ثـانـية. لماذا نجا علي من الموت؟ هل هناك تدبـير خـفيـ أم مجرد مصادـفة حـظـ عـاثـرـ؟ هـا هو يعود إلى غـرفـته القـديـمة بالـطـابـق الثـانـي في بـيـت العـائـلة

بمحلّة الفحامة. لن يتركه عمّار هذه المرة ليعود إلى شقته. لن يسمح له أصلًا بالخروج، ريثما يعرف من وراء استهداف أخيه الأكبر بالقتل. كان مُنْهَكًا ولا يشعر أنه بخير، لذلك استسلم لخطط أخيه. إن لم تسبِّ الإطلاق النارية في مقتله فإنها خربت شيئاً ما فيه بشكل مؤكد. هكذا كان يشعر.

في اليوم التالي جلب عمّار كتاباً وبعض الملابس والأغراض من شقة علي، رمى كتاب جوزيف برودسكي في حجره. ربّ الأغراض كلّها في الغرفة على عجل، ووضع شاشة تلفزيون مسطحة على الحائط أمامه، جعل عمّار الأجواء مناسبة في هذه الغرفة لإقامة طويلة. ومجرد إحساس علي بذلك كان يبعث فيه شعوراً غير مريح. ليس لأنه لا يُرْحّب بحماسة أخيه الأصغر، وإنما لشعوره بالانتكasa، وعودته إلى حال تفرض عليه الحاجة إلى الآخرين، ومن ثم ضرورة أن يكون ممتنًا لهم. غالباً ما يؤدي شعور الامتنان، كما يؤمن علي، إلى نوع من التنازع لصالح هؤلاء الآخرين. فأن تكون مدیناً، هذا يُسْهّل ابتزازك ودفعك لتقديم تنازلات، حتى وإن لم يقصد أحد الابتزاز بشكل صريح وواضح. هكذا تعمل القوانين الاجتماعية الخفية هنا.

سيَعْمَدُ عمّار، بحسن نية غالباً، إلى حصر علي في زاوية ضيقة، فهو يطعمه ويدفعه ويحرض على راحته، ومقابل ذلك عليه أنْ يُنصت الآن جيداً إلى كلامه، ولا يتصنّع الإنصات ويتجاهل ما يسمع، كما كان يحدث في زياراته القليلة السابقة إلى شقته. الآن عليه أن يفهم أن عمّار يعيش حياة منضبطة وواضحة، ولأنّ حياته كذلك فإنه في وضع يُمكّنه من مساعدة أخيه لعيش حياة جيدة قدر الإمكان. ظلّ علي يتذَّكر، وهو يحاول التكيف مع وضعه الجديد، خليطاً

من أحلام داهمته أثناء غيبوبته التي استمرت اثنى عشر يوماً. عبوره إلى عوالم، وأحاديث عن تأهيل القصر الجمهوري لإعادة تشكيل الحكومة، وصديقه العجوز واصف عبد المحبي. تعاوينه وكلام سحري كان يردد في أسلاف غابرون، ثم صار علي يردد على الراديو. زاره زملاء من العمل، وأكدوا له أن قرار فصله كان مجرد انفعال من مدير الإذاعة، سرعان ما تراجع عنه، فأنت موهوبٌ وذكيٌ ولا يستطيع بسهولة تعويضك بمذيع آخر بمثل كفاءتك.

- ماذا عن هؤلاء الذين حاولوا قتلي. هل جرى التعرُّف عليهم؟

- أين أنت عايش يا علي؟! إنسَ أحسن.

- ذكر مدير الإذاعة شيئاً من هذا القبيل في اتصاله الهاتفي.

- لا نعلم شيئاً.. المهم، صير زين حتى ترجع لشغلك.

قال مهندس الصوت الذي يرافقه عادةً في حلقاته الإذاعية الليلية، وهو يُربِّث على كتفه، وكأنه يحاول تسفية كل المخاطر التي تُحيط بعلي.

لم يساعد هذه الأمور كثيراً، وهو يعرف أن شفاءه التام وخروجه من جديد إلى الشارع سيُعيده تماماً إلى لحظة الإطلاق النارية على الرصيف مرة أخرى. لا شيء يمكنه من تكرارها، كما أنه يعرف، في الوقت ذاته، أن لا شيء يمكنه من عيش حياته نفسها، بكل مجازفاتها وأخطائها ومتعبها الصغيرة التي تمثل عنده نوعاً من الترائق المساعدة على الاستمرار.

قلَّب في كتاب جوزيف برودسكي، وعلى الغلاف الثاني من الداخل، ويقلم سوفت أحمر، لاحظ وجود رقم هاتف نقال، مع كلمتين؛ اتصل بي.

لم يشك للحظة واحدة أنها «ليلي». اتصل بالرقم ووجده خارج

الخدمة. ظلَّ يفعل ذلك للأيام اللاحقة وكانت النتيجة نفسها. لقد مرّت فترة طويلة منذ أن تسلَّم هذا الكتاب داخل المستشفى. ربما سافرت، ربما كانت ت يريد أن تراه لمرة أخرى قبل سفرها. أو كانت هذه العبارة مع الرقم مكتوبة هنا منذ سنوات، وليس متوجة له.

حين عاد عمَّار ليجلس معه في الغرفة، أراد أن يطلب منه أن يذهب ليشتري له مشروباً. سينفعه هذا كثيراً، غير أنه يعلم أن أخيه المواظب على الطقوس الدينية سينزعج من هذا الطلب. وهذه واحدة من الضرائب الذي يضطر على لدفعها ما دام مقيناً هنا.

- بشأن الدفتر الصغير بخلاف جلدي أسود.. قلَّبت الشقة كلَّها عاليها ساقلها ولم أعثر عليه. حتى في التواليت بحثت.  
- أي دفتر أسود؟

- أنت طلبتَ مثِي العثور على هذا الدفتر في اليوم الأول لخروبك من المستشفى.

## - ٢ -

تذَكَّر فجأةً، مثل من يعيد تركيب القطع المتناشرة، دفتر التعاويد الذي أخذه من الدكتور واصف قبل وفاته. تذَكَّر القراءات المجنونة على أثير الإذاعة، قبل أن يؤدي هذا الأمر إلى فصله من عمله. شعر بأنه اندفع في جنونه إلى الحدود القصوى، وربما كانت الإطلاقات الناريه المخطئة، مثل نقطة ختام حادة وحاسمة ما بين حيatiين وعالميin. بدا وكأن المطلوب منه الآن، بالاستعانة بهذه الراحة الإجبارية في السرير، وانتظار التئام جروح الرأس، أن يستعيد رُشْدَهُ، وشعر بأنه بات يخضع جزئياً لوجهة نظر أخيه. فما الذي جناه خلال العشرين سنة الأخيرة؟

ألم يكن من الواجب عليه المحافظة على عائلته الصغيرة؟ ألا يَحْنُ أحياناً لاستداره زوجته في السرير خلال الليل ثم تطويقها له بذراعها ومحاولتها دفن وجهها في رقبته قبل أن تسترخي في نوم عميق.

لماذا ظلَّ يهرب من الوظائف التي عُرِضَتْ عليه؟ لو كان صدام حيَاً ودولة صدام باقية، ألم يكن سيضطر للعمل فيها. لماذا لا يريد الآن أن يعمل تحت يد الأحزاب السياسية الماسكة للسلطة ودوائر الدولة والمؤسسات الإعلامية؟ أليس التفكيرُ بنظام سياسي ملائكي نطمئنُ إلى خدمته هو ضرباً من الجنون، أو بأهون الأحوال تفكيراً طفوليَاً وغير واقعي؟ لماذا رضيَّ أن يحشرَ نفسه في وظائف تافهة متزوِّية؟

ثم من أين تأتي أموال إذاعة الموقف التي يعمل فيها. لماذا يفترض أن صاحب ومالك الإذاعة المقيم في ديترويت بأميركا هو رجل نزيه وأمواله سليمة؟

ثم ما المشكلة في العمل التجاري؟ لماذا يفترض أنه أرقى وأعلى مرتبةً من أخيه عمار الذي يملك محال تجارية قرب سوق شعبية. هل لأنَّه قرأ بضعة كتب لم يتَسَّع لعمار قراءتها؟ لأنَّه يظن في نفسه الفهم والمعرفة والدراءة، لأنَّ ذوقه مرهف، ويتعلَّم إلى طعم أعلى مرتبةً للحياة؟

لماذا يبدو، بعد أكثر من عقد على «جمعية المترحرين» وكأنه ما زال هناك، في فقاعة الحسُّ العدمي التي صنعوا هو وأصدقاؤه وعاشوا فيها سنوات طويلة، كانت مبرَّرة بسبب انغلاق الأفق وندرة إمكانيات التغيير المتاحة أمامهم، وأيضاً بسبب ضعف التجربة وصغر سُنُّهم. إلا أن عقد جماعته الأولى انفرط، وكلُّ انشغل بنفسه مع التيار

الجارف والصاخب للاحادث ما بعد ٢٠٠٣. صارت تحدث في شهر واحد أشياء أكثر مما في سنة من سنوات الحصار.

كان عمّار يعمل على ميز لبيع السجائر في الشورجة قبل ٢٠٠٣، ثم تطور عمله بشكل متسرع، ليفتتح محلًا للبيع بالجملة في بورصة السجائر في هذا السوق، ووقف على معه في العمل، وصارا شريكين تقريبًا، إلا أن علي كان يغيب لساعات طويلة خلال النهار، بسبب انشغاله مع أصدقائه من فنانين ومثقفين، حتى حصل أول احتكاك بين الأخرين بسبب ترك المحل مُغلقاً لنهايـر كامل، والسبب أن علي كان يرافق صديقاً أصيب بأزمة قلبية مفاجئة، واضطر للبقاء معه في المستشفى، ورغم أنه حدث طارئ إلا أن عمّار لم يتقبل هذه الحجـة، خصوصاً وأن علي لديه سوابق كثيرة بدون حـجـج مقنعة. صارت العلاقة باردة بين الأخرين، ومع اشتداد الحرب الأهلية في ٢٠٠٦ وجد علي عملاً كمحرر في إذاعة كردية بيـداد ناطقة بالعربية، ثم ارتقى شيئاً فشيئاً حتى صار مقدم برامج في الإذاعة ثم مذيعاً للنشرة الرئيسـة، وصار مرتبـه يُعـطـي نفقـاته، من دون الحاجـة إلى أخيـه الصغير، وفي أروقة هذه الإذاعة التقى «شاناز» الفتـاة التي أصبحـت زوجـته لاحـقاً.

خلال هذه السنوات كلـها، لم يـفـكـرـ كثيرـاً بمصير صديقه العجوز السابق. لقد مات على ما يـبـدوـ. وحتى لو ظـلـ حـيـاً لبعض سنـينـ، فهو مريض ومن الصعب التصديق بأنه سيـقـىـ لعقد إضافـيـ كاملـ. لم يـمـتـ الدكتور واصـفـ عبدـ المـحيـيـ طـبعـاًـ. وإن لم يـبـدـ هذا لـعليـ أمـراًـ جـيدـاًـ تماماًـ. لقد فقد صديقه العجوز عقلـهـ. هذا ما صـارـ يتـذـكرـهـ علىـ الآـنـ بشكلـ جـيدـ، خـصـوصـاًـ فيـ اللـقاءـ الآـخـيرـ الـحـاسـمـ، فيـ حـديـقةـ بـيـتـ الدـكتـورـ، عـنـدـماـ تـسلـمـ عـلـيـ الدـفـتـرـ الصـغـيرـ ذـاـ الغـلـافـ الجـلـديـ الأـسـودـ.

كانت الحالة الصحية للدكتور واصف سيئةً، مع سبعة أمراض، صار يتغنى بها، ويتحدث عنها بشاعرية وكأنه قبلَ التعايش معها ومصادقتها، وقبل دخول الأميركيَّان لبغداد، حزم أخوه راقد أغراضه، وأجبر أخيه العجوز على المعاشرة مع عائلته إلى عمان مجدداً. وأدخله هناك إلى مستشفى أشرف على علاج امراضه السبعة بعناية حتى انخفضت إلى مجرد ثلاثة أمراض مزمنة يمكن السيطرة عليها. ولكنه ظلَّ واهناً يفتقد طاقته السابقة وقدرته على الحركة بحرية، ولو لا وهنَّ وضعفه لما استطاع راقد السيطرة عليه وجراه معه خارج بيت العائلة الذي لم يتركه خلال سنوات عمره إلا لفترات محدودة بسفريات هنا أو هناك.

في تلك الفترة شعر بأن رحلته كلها تنتهي. لقد وصل إلى النهاية الدرامية المناسبة لحياته الربانية، التي ابتدأت ذات يوم شتايني من ١٩٣٣ في إحدى محلات بغداد القديمة، قبل انتقال العائلة ما بين عدّة بيوت وأحياء بغدادية ليتّهي المطاف بهم في السبعينيات في حي المنصور.

خلال ذلك كله كان الدكتور واصف يفخر بأنه من الدفعـة الأولى من خريجي قسم الآثار بجامعة بغداد والتي تخرجت في ١٩٥٧، وأنه زامل نجوماً وأعلاماً في علم التنقيب والآثار العراقيـن، ومنهم طه باقر وفؤاد سفر وبهـنام أبو الصوف وعبد القادر الشـيخلي، وقيس الوائلي وخالد الاعظمـي. وحين يجد فرصة مناسبـة مع مجالسيـه فإنه لا يملُّ من الحديث عمـا شاهده خلال البعثـة الآثـارية إلى دولة الـامارات العـربية في السـبعينـيات، برفقة محمود الـقيسيـ، مثل تلك الجـرار السـومـرـية التي كانت تـُـستعمل لدفع الموتـى

في هذا المكان القصي عن العراق، كي لا يعودوا حسبما يُفسّر  
الدكتور واصف.

كان العنوان الوظيفي الأول الذي عين فيه هو مُنقبُ آثار، وظلَّ  
يتدرَّج بالمناصب حتى صار خبير آثار. ثم قبل تقاعده ببعضة سنوات  
رُقِيَ إلى منصب خبير أقدم. إنها سيرة لامعة دون شكٍّ، ولكن  
الكثيرين لا يعرفونها، ما لم يتطرقَّ هو لسردها، ولم يحصل على هذه  
السيرة لولا سنوات العمل الميداني، وكتابته لبحوث آثرية رصينة،  
تُشرَّطَت تباعًا في مجلة سومر، وهي المجلة العريقة التي كانت  
تصدرها دائرة الآثار. هذه الدائرة التي تُعدُّ مع دائرة الري أقدم  
مؤسسَين حكوميتين في العراق وسبقتا حتى تأسيس الدولة العراقية  
نفسها.

كان يرافق بعض البعثات التنقيبية الاجنبية، وبالذات الألمانية  
والاميركية، بالإضافة إلى المواسم التنقيبية التي تعمل فيها فرق  
عراقية من الجامعات أو من دائرة الآثار.

تعَرَّفت يداه بكلٍّ أنواع التراب والطين، ولم يمس تلك الدهشة  
الغريبة حين ينبعُّ من بين الركام والتربَّ وجهٌ بملامح حادة وعيينٍ  
واسعتين، وكأنه كائنٌ حيٌّ ينتظر هذه المقابلة مع البشر منذ آلاف  
السنين.

لم يكن يدخل بملحوظاته الشعرية التي يصف بها انبطاعاته وهو  
يواجه اللُّقى والأثار التي تعود من جديد إلى فضاء العالم وإلى نور  
المشاهدَة والرؤْيَة من قبل الآخرين بعد انطمَارها في التراب لدهور  
طويلة.

كان يتمنَّى أن يبقى جوًّاً بين الواقع الأثري، ولكن حكم  
العمر، وكذلك محدودات الوظيفة، ثم غروب شمس الأعمال التنقيبية

في التسعينيات، بسبب العقوبات الدولية وتراثي مؤسسات الدولة، جعله مرتبطاً بكرسي وطاولة الوظيفة، خبيراً بالسُّومريَّات، فائتاً لطلاسمها، ومقدراً لمعنى الكلمة المطموسة داخل السطر. ووُجد في هذا العمل شاغلاً عن أي شيء آخر، حتى كأنه يغطُّ مع الكلمات المسماوية التي لم يعد يتحدث بها أحد، هارباً من الحياة نفسها.

استيقظ فجأة ليجد نفسه في الشوط الأخير، من دون زوجة وأولاد، يعيش نصف حياته داخل عالم غير حقيقي، تكونه الكتب والمخطوطات واللُّقى، واسطوانات الموسيقى الشرقية والغربية، ومجموعة من العادات والروتين المحبب، وكأنه في قاعة زجاجية ضخمة تحجزه عما يجري في الحياة الفعلية في الخارج. وها هي الرحلة تصل إلى نهايتها، مع افال أبواب البيت الكبير والهروب إلى عمان.

بعد ثلاث سنوات ونصف من الإقامة في العاصمة الأردنية كان الدكتور واصف بحالة صحيحة مستقرة، ويستطيع الخروج إلى مشاويقريبة، وقد يجلس مع أخيه وثلة أصدقائه الجدد من عراقيين هربوا من العراق مؤخراً، ويستمع منهم إلى وجهات نظر حول ما يجري في البلد، و موقفهم من الأحداث هناك. لا يبدو أن حكايته قد انتهت حقاً.

كان قادراً على تجاهل كل التحذيرات، وكل الكراهية المبثوثة في أحاديث أصدقاء أخيه للوضع السياسي القائم وقوة الاحتلال الأجنبي الرابضة في أرض العراق، والعودة مجدداً إلى بيته الحبيب، وأفضل أكثر من مرة عن رغبته تلك أمام أخيه، لكن راقد ظل يرفض هذه الفكرة التي أسمهاها بالمجونة.

- نحن مطلوبون بثار هناك. هل تريد أن ترجع كي يتقموا منك؟

قال راقد في مرّة، فرداً عليه أخوه العجوز:

- ينتقمون مني؟ وماذا فعلت أنا؟ لا تبالغ.. قلْ إنك ت يريد مبرراً للبقاء هنا وعدم العودة، ولكن هذا شأنك في النهاية، مالي أنا و موقفك؟ أريد العودة لبيتي وكتبي وأغراضي.

- من لك هناك؟ ماذا سيحدث لو تدهورت صحتك؟ من الذي يساعدك؟ أنت تخيل أن بغداد ما زالت على حالها السابق؟ خليك مرتاح هنا وأمام عيوننا أحسن.

خاض الأخوان بضع حوارات مشابهة في أوقات أخرى، وانتهت إلى النتيجة نفسها. إنه يرى بعض المنطق في كلام أخيه، رغم أنه يفرض خياراته عليه بسلطٍ غير مقبول. فإن كانت بغداد مثلما كانت سابقاً أو صارت أسوأ، هذا ليس لبُّ الموضوع، وإنما هو، دكتور واصف، لم يعد مثلما كان سابقاً.

صار مجبراً على متابعة الأحداث الجارية في بلده وكأنها عرضٌ تلفزيوني. أشياء تحدث لشعب آخر بعيد، يراه في صورة مختزلة من على شاشة تلفزيون، في نشرات الأخبار وبرامج العراك الحواري التي تسبّب له الصداع أكثر مما تعطيه معلومة جديدةً تساعده على الفهم.

استمرَّ أخوه راقد بالتنديد بما يجري، وأن البلد ضاع إلى الأبد. وهذه «الى الأبد» هي أكثر ما كان يُخيف الدكتور واصف، إنَّ فيها حسماً غريباً. وكأنهم نزحوا إلى قارة بعيدة، خلف بحار وجبال وأسوار عالية، وحتى لو قرروا العودة في وقتٍ ما، فإن الإمكانيات لذلك لن تكون متوفرة. أشبه بمن تتعلق عودته إلى بلده بشمن تذكرة طائرة باهظة لا يقوى على شرائها.

استمرَّ الحال في ايقاع رتيب، خصوصاً بالنسبة لدكتور واصف،

في يومياته معدودة ولا تغيير فيها، أما أخوه رايد فهو يخرج ويلتقي بأصدقائه ويسافر، يقوم بصفقات تجارية ويقضي بعض الأعمال، ولديه لقاءات خاصة مع معارضين للنظام السياسي الجديد، ولكنه لا يُقصّح عنها.

ذات ليلة صحا واصف على مشادة بين رايد وزوجته التي تشك في أن لديه عشيقة يقضي معها وقتاً طويلاً، يتزامن مع أوقات إطفائه لتلفونه المحمول، كما تدعى زوجته.

لم يكن يتدخل في كل هذه الأحداث، ولم يتحدث مع أخيه رايد إلا بالمواقيع والقضايا التي يطرحها رايد نفسه.

وفي يوم من أواخر عام ٢٠٠٧ جاء رايد إلى البيت مبتهجاً، وهو يحمل خبراً مفاجئاً، فقد قرر العودة مع عائلته إلى بغداد. ظلّ دكتور واصف مستغرباً ولم يُعلّق في البداية بأي شيء، ثم حاول بعدها أن يفهم التغيير المفاجئ في مواقف أخيه.

- هذا بلدنا دكتور، وإذا ما كنا نتكلّف ونضع أيدينا بآيديين بعض منو اللي بيبنيه ويعمره ومنو يصلح حاله. إذا كلنا هربينا وعفناه أكيد الناس السيئة والخبيثة هي اللي تسيطر عليه.

قال رايد ذلك بحماسة وبوجه مبتهج، ولم يُصدق دكتور واصف ما يسمعه، وبذا كلام أخيه بالنسبة له وكأنه فاصل إعلاني من تلك الإعلانات التي تروجها القنوات الفضائية العراقية لدحر الإرهاب والدعوة إلى السلام والمحبة بين العراقيين.

كلام فارغ ولا معنى له، ومن المستحيل أن يكون هو السبب الحقيقي في التغيير الشامل بوجهة نظر رايد.

- قل شيئاً آخر يا رايد. هل أنا طفل أمّاك؟ يا ناس سيئة وخبيثة ويا بناء واعمار؟ شنو اللي صار؟ ا JACK تهدّيد هنا؟ اكو شي

يخوفك هنا؟ لو خلصت فلوسك لو زوج عشيقتك اللي هنا كشفك لو  
شنو؟

- يا عشيقه؟ شنو هالكلام دكتور؟

صارا يتجادلان، ثم مع دخول زوجة رافد وبناته، انقطع الجدال  
ثم عبرا بالكلام إلى موضوع آخر لا علاقة له بالوطن والسلام  
والوثام.

ومع مطلع عام ٢٠٠٨ اتضح كل شيء، وها هم يحزمون  
أغراضهم للعودة من جديد إلى بغداد. لقد حصل رافد على وظيفة  
حساسة في الدولة. تم استدعاؤه من قبل النظام السياسي الذي كان  
يشتمه، وقبل الدعوة فوراً، حتى من دون أن يأخذ رأي أفراد عائلته،  
ورأي أخيه الأكبر الذي لم يتتبه أنه يتعامل معه بشيء من الاستخفاف.  
عاد دكتور واصف إلى مكتبه وأشرطة الموسيقى الخاصة به،  
وتَقَبَّلَ وجود عائلة بأربعة أطفال بنوا لهم بيئاً صغيراً على جزء من  
حديقته الواسعة. إنها عائلة الحراس الذي عينه رافد لحراسة البيت  
على مدى السنوات الماضية، ولا يبدو أنه من الضروري أن يطرده  
الآن، خصوصاً وأن هذا البيت الصغير لا يشتراك بأي مداخل مع بيت  
العائلة الكبير. ولكن الحديقة لم تعد مثلاً كانت، ففضلاً عن نصفها  
تقريباً الذي ضاع مع بيت الحراس، فإن النصف الثاني كان في حال  
مزوية، ويحتاج إلى عناية وإعادة تأهيل، وهذا ما بدا المهمة الأولى  
التي سيشغل دكتور واصف نفسه بها.

بعد أقل من سنة عاد رافد إلى مزاجه السلبي السابق، فصار حين  
يجلس في مرات قليلة إلى أخيه، يشتم وينتقد الحكومة والوضع  
القائم، ويبدو ناقماً بشدة، غير أنه لم يُصرّح برغبة واضحة لمعادرة  
عمله الجديد، بل إنه بدا مستمتعاً به، مع حميات وسيارة مصفحة.

ثم جاء خبرٌ مفاجئٌ جديد. لقد تمَّ تخصيص منزل لرافد داخل المنطقة  
الحضراء. ويسبب ذلك سعادته مع زوجته وبنته إلى هناك.

- عليك أن تأتي معنا يا دكتور. كيف ستعتني بنفسك وأنت هنا؟  
قال رافد ذلك وحين لم يتلقَّ ردًّا سريعاً من أخيه، جلس على  
كرسي أمام المكتب الخشبي الفخم لأخيه العجوز. وضع دكتور  
واصف كتاباً سميكاً كان بيده ونظر إلى أخيه من وراء زجاج نظارته  
السميكية، ولم يعرف لحظتها من أين تجمعت لديه مشاعر الكراهة  
تجاه أخيه. شعر بأنه يكرههُ ويحتقره. أراد أن يردد عليه بانفعال  
شديد. يشتمه، أو ينهض ليقذفه بالكتاب أو منفضة السجائر النحاسية  
الموضوعة كأثنيَّة على طرف الطاولة الخشبية. أراد أن يُويَّخه ويجره  
من أذنه إلى أعلى كما كان يفعل أحياناً في سنوات طفولته البعيدة.  
ولكن جسده خانه، حتى أنه بسبب هذا الانفعال الذي اعتراه لم  
يستطيع النهوض من كرسيه.

- أنا لستُ طفلاً صغيراً تُجْرِيَني معك أينما تذهب. أنت نسيت  
أن لي حياتي الخاصة، وعشت سنوات طويلة بدون الحاجة إليك أو  
إلى أي أحد آخر. إذهب وافعل ما تشاء. تسكن في بيتك آخر ت safar  
تهاجر. هذا شأنك.

هذا ما استطاع نطقه وتمَّنَّ ألا يجادله رافد كما هي هوايته  
المعتادة.

- أخشى أن يحصل لك مكروهٌ هنا.  
- هناك عائلة الحراس، وسأعين أحداً للتنظيف وإعداد الطعام  
لي. ليست مسألة صعبة.  
- لا.. أقصد إنْ عرفوا أنك أخي.. ربما يعرضونك للخطر.  
يستخدمونك ضدي.

قال رافد بنبرة جادة، وكأنه مطارد من جهة ما، وكأنَّ هناك خطراً جدياً يهدُّد العائلة بمن فيهم الدكتور واصف.

- لا تخشى شيئاً، إن حدث لي شيء لن أحملك المسؤولية.  
فَكَرْ بِنَفْسِكَ وَعَائِلَتِكَ، أَنَا كَبِيرٌ بِمَا يَكْفِي لِأَعْرِفَ كَيْفَ أَتَصْرُفُ.

انتهى الجدال القصير، وفهم دكتور واصف بأن أي شيء لم يكن ليغيّر قرارات أخيه. لم يكن رافد يحسب لأخيه أي حساب، وما هذه الحوارية إلا نوع من إسقاط الفرض، أو لتهذئة شعور ما بالذنب.

غادر رافد وعائلته إلى بيته الجديد وبقي دكتور واصف وحده مجدداً. وصار مع تأهيل ما تبقى من حديقته قادرًا على استعادة أجواء سابقة. ولكن بدون زيارات منتظمة من أصدقاء أو معارف، ما عدا زيارات متقطعة من زملاء عمل قدماء عرفوا أنه عاد إلى بغداد، وهي زيارات شحيحة لم تغيّر شيئاً في عزلته التي يعرفها. يتذكر أحياناً أولئك الشباب الذين غيروا مزاجه في السنوات الأخيرة ما قبل الاحتلال، ولكنه لا يعرف أين هم الآن، وكيف يتصل بهم، حتى سمع مرّة عن طريق الصدفة، نشرة أخبار يقرؤها مذيع باسم علي ناجي. كانت إذاعة كردية ناطقة بالعربية. الاسم مألوف ولكن الصوت مصطنع وكان صاحبه يحاول تقليد مذيع مشهور في البي بي سي. هل يكون هو نفسه علي ناجي؟ هل يستحق الأمر أن يتصل بالإذاعة ليتأكد؟

- ٤ -

كان ذلك قبل اللحظة الحاسمة التي انعطفت بحياته. يتوقع الإنسان أن تتغيّر حياته وهو في عنفوان شبابه. يُكافح ويُركز جهده على إنجاز أمر ما، ثم ينبعج فيه فتتغيّر حياته. يُصفّنُ مع نفسه قليلاً

ويُحاول أن يكون صادقاً معها قدر الامكان ثم يقرر قرارات حاسمة، كما هو الحال مع الزواج والسفر أو تحديد الولاءات السياسية. لكن أن يجد شخصٌ ما يقترب من الثالثة والسبعين فرصة لتغيير حياته فهذا أمرٌ نادر الحدوث، وإن كنت في هذه السن المتقدمة فما الذي تبقى من الحياة حتى تتغير من أجلها يا ترى؟ إن كانت مجسّات التمتع بالحياة ضعيفة، فحتى لو وضعت في الجنة فإنك لن تكون قادرًا على تحسّن مباهجها بالشكل الأمثل.

ولكن، في أنفس الكثيرين يبقى عرقٌ نابضٌ يهفو للشعور بشيء مختلف، الحصول على فرصة لرؤيه الذات ضمن سياق آخر لم تعتدُه. وإلا لماذا يُكافح متقادعون غرييون، على عَگازاتهم أحياناً لرؤيه تاج محل وإهرامات الجيزة وشرب القهوة قرب برج إيفل. لماذا يريدون الاحتفال بحياة ليسوا قادرين على قضمها بملء أفواههم، بسبب أطقم الأسنان الصناعية. ولا رؤيه ألوان مبهجة بوضوح كافٍ بسبب تهُّل الشبكية أو تأثيرات السُّكري. لا يتذوقون ما يشهون من الأطعمة بسبب تحذيرات الأطباء. لا يسخرون ولا يُمارسون الجنس بكفاءة عالية وقتما يشاورون. ما هو طعم الحياة حين تفتح مائدتها أمامك وأنت غير قادر على مدّ يدك إلى أطباقها، ولا حتى رؤيتها بشكل جيد أو شمّ روائحها بوضوح. إنه وضع لا يمكن افتراضه وتخيل الإجابة عنه، ولن يقدّره حقّ قدره إلا من كان فيه فعلاً، وهو الحال الذي يعيشه الدكتور واصف ويعرفه جيداً. إنه رغم استسلامه الظاهري، ورتابة استجابته للحياة من حوله، مستعدٌ في أعماقه لأيّ تغيير يفتح له طريقاً لخيارات جديدة ومختلفة. قد لا يكون قوياً بما يكفي للسعى خلف هذا الباب المجهول، ولكن، إن صار أمامه وشعر بأنه قادر على فتحه، فلن يتردّد أبداً، حتى لو سخرَ

منه الآخرون ووصفوه بالجنون لمحاولته هذه. خصوصاً مع يقينه بأن «آخرين» مجرد وجود غائم وغير واضح المعالم في حياته.

جاء الحارس الأربعيني يَغْدُ بخطوات واسعة وأخبره، وهو جالس في الحديقة يقرأ، أن رجلاً بسيارة قديمة وقف في وسط الزقاق وصار يسأل عن بيت الدكتور واصف عبد المحيبي.

كان الجو ربيعيّاً دافتاً، ومزاج الدكتور واصف رائقاً. أخبر الحارس أن يطلب من هذا السائل الغريب أن يأتي، ولكن ليس له أولاً عما يريد.

كان السائل موظفاً قديماً في المتحف العراقي، يعرفه دكتور واصف، وإن لم يكونا صديقين. صافحه بحرارة، وجلس على كرسيّ بجواره. صارا يتحدثان، ثم شربا الشاي، وطلب منه دكتور واصف أن يبقى ليتغديا معاً، ولكن هذا الزميل القديم اعتذر متعللاً بأن لديه أشغالاً والتزامات.

ظلَّ يتحدث عن أحوال المتحف المغلق هذه الفترة، ثم استرجع الأحداث المحزنة لعمليات النهب التي حصلت للمتحف في يوم التاسع من نيسان ٢٠٠٣. لم يكن الدكتور واصف شاهداً على هذه الأحداث، وكان أمراً مثيراً للضجوة أن يستمع لشهادة عيَّانِيَة من شخص حضر هذه الأحداث المؤسفة.

- كنت أكثر شخص أحترمه في المتحف. أنت أستاذنا كلّنا دكتور. وكنت حريصاً على العمل، حتى تقاعدت، ووقتها كنت أرغب بزيارتكم، ولكني خجلت، فنحن لسنا أصدقاء، وأنت لم تكن تختلط كثيراً معنا.

قال الزميل القديم، وهو يرشّف من الشاي الذي أعدّته زوجة

الحارس. كان يبدو عجوزاً بهنداً متعب، ولكنه أصغر من دكتور واصف بعدين على الأقل.

- لقد قمت بشيء ما. أعتقدت وقتها بأنه أمر حسن، ولكنه صار شيئاً فيما بعد، ولم أعرف كيف أتصرف.

ظلَّ الزميل يتحدث، وكأنه يعترف أمام كاهن أو قسٌ. لقد عرف بوجود دكتور واصف من بعض الزملاء الذين يتلقى بهم أحياناً، وشعر بأنه الرجل المناسب الذي يمكن أن يحلَّ مشكلته. والتي تبدأ تحديداً من يوم اقتحام المتحف من قبل جماعات مجهلة سرقت جزءاً من محتويات المتحف. كان هذا الزميل قريباً من المتحف، وشعر بإمكانية حدوث مكروه لذلك توجه إليه بسيارة أحد أولاده. وكم كانت صدمة أن يجده مفتوحاً على مصراعيه، ومحتوياته في متناول أيدي السارقين.

- كانت هناك جرة سومرية من الفخار أحبَّها، تلك التي استخرجت من تل أبو صلابيغ جنوبي بغداد في العام 1989. أنت تعرفها دكتور لأنك كنت مع الدكتور دونالد هادسن الذي استخرجها. شعرت حينها بأنَّ عليَّ أن أفعل شيئاً. كنت مرتبكاً وخائفاً أيضاً من العصابات واللصوص، حملت الجرة معِي دون تفكير كثير وأخذتها بسيارة ابني إلى البيت، وبقيت عندي سنوات طويلة.

- وماذا فعلت بها. هل أعدتها إلى المتحف لاحقاً؟

سأل доктор واصف. فصمت ضيفه عدة لحظات قبل أن

يجيب:

- هذه هي المشكلة دكتور. أنا خفتُ أن أرجعها بالبداية، لأن الحديث كان وقتها عن عصابات سرقة، وامتلاك الصحافة والتلفزيون بالحديث عن سرقة الآثار، خشيت أن أتهم بأنني أنا من

سرقت المتحف أو شاركت في سرقته. خفت يا دكتور. ثم حين شعرت بضرورة إعادة هذه الجرة، مهما كانت النتائج، سقطت مني وتحطمت.

- تحطمت؟ كيف حدث هذا؟

- لا أعرف دكتور، مجرد مصادفة سينته حصلت. الجرة انقسمت إلى قسمين. فكّرت أكثر من مرة بإعادة لحمها، ولكنني موظف آثار وأعرف بأن هذا الأمر لا يجري كما مع مزهرية أو طبق مكسور في المطبخ. يجب أن يتم داخل ورشة الصيانة والترميم، أو تبقى على حالها مكسورةً.

- المهم.. هل أعدت الجرة إلى المتحف؟

- لا دكتور.. الجرة لدى في السيارة الآن. ملفوفة بالقماش في صندوق ورقي. وأريد أن أعطيها لك. لا أثق بأي شخص آخر. وأخاف أن تحدث لي مشكلة جدية لأنني كسرتها. أنت يحترمونك ويقدرونك. أنت أرجعها إلى المتحف.

انعقد لسان دكتور واصف من الدهشة. وحاول إقناع زائره الطاري بأن يذهبا معاً إلى المتحف وهو من يتحدث مع المدراء الجديد هناك ويعيدان القطعة الأثرية إلى مكانها، ولكن هذا الضيف المذعور رفض. ثم خشية من أن يفرّ مع القطعة الأثرية، رضخ الدكتور واصف، فغادر الضيف مسرعاً لجلب الصندوق الورقي من السيارة، ثم عاد بعد نصف دقيقة ووضعه على الحشائش أمام دكتور واصف.

أعاد منظر الجرة الفخارية المكسورة شريط الذكريات عند الدكتور واصف، إلى تلك الفترة حين اكتشف مع الفريق الأجنبي من معهد الآثار البريطاني تلك القرية بكلّ ما فيها من بيوت وبنایات تعود إلى عصر الأسرة السومرية الأولى، إلى رُكام العِمار والألواح الطينية

التي لم تكن نافعة بشيء، وكانت هذه الجرة من بين اللقى التي ظلت على حالها وتم استنقاذها بسلامة.وها هي مكسورة الآن مثل أشياء كثيرة أخرى حدثت في البلد.

- ٥ -

وجد الدكتور واصف بهذه الجرة المحطمـة ما يغيـر مزاجـه، ويـسحبـه من الاستغرـاق العمـيق وغيرـ المـجـدي معـ نفسهـ. قـرـأـنـ يـحتـفـظـ بالـجـرـةـ لـعـدـةـ أـيـامـ،ـ يـتأـمـلـهاـ وـيـتـحـسـسـ منـ خـلـالـهاـ،ـ وـلـوـ لـبـعـضـ الـوقـتـ،ـ عـلـاقـةـ مـاـ قـدـيمـةـ مـعـ الـعـمـلـ الـمـيـدانـيـ فـيـ النـبـشـ عـنـ الـاثـارـ وـاسـخـراـجـهاـ،ـ ثـمـ يـحاـوـلـ الـاتـصالـ بـمـعـارـفـهـ فـيـ الـمـتـحـفـ لـإـعادـتـهاـ إـلـىـ مـكـانـهـاـ بـشـكـلـ لـاـ يـشـيرـ مـشاـكـلـ أـوـ تـبعـاتـ عـلـىـ الرـجـلـ الـذـيـ اـسـتـنقـاذـهـ أـصـلـاـ مـنـ أـيـديـ الـلـصـوصـ.

كـانـتـ الجـرـةـ مـلـسـاءـ مـنـ الـخـارـجـ،ـ وـلـكـنـ باـطـنـهـاـ بـداـ مـخـتـلـفـاـ.ـ لاـ يـتـذـكـرـ دـكـتوـرـ وـاصـفـ أـنـ شـاهـدـ باـطـنـ جـرـةـ مـمـائـلاـ.ـ هـنـاكـ كـتـابـةـ بـنـقوـشـ مـسـمـاريـةـ وـبـعـضـ الـخـطـوـطـ وـالـرـسـومـ.ـ كـيـفـ فـعـلـواـ ذـلـكـ؟ـ ظـلـلـ يـتأـمـلـ هـذـهـ الـخـرـيـطةـ مـنـ الـكـتـابـاتـ وـالـرـسـومـ الرـمـزـيـةـ،ـ وـانتـهـىـ إـلـىـ الـظـنـ بـأنـ الجـرـةـ بـعـدـ أـنـ صـنـعـتـ مـنـ الطـينـ تـمـ قـطـعـهـاـ إـلـىـ قـسـمـيـنـ،ـ وـكـتـبـتـ هـذـهـ النـقـوشـ وـالـعـبـارـاتـ عـلـيـهـاـ مـنـ الدـاخـلـ ثـمـ أـعـيـدـ لـصـقـهـاـ مـجـدـداـ قـبـلـ إـدـخـالـهـاـ إـلـىـ فـرـنـ الشـوـاءـ.

أـفـرغـ طـاـوـلـةـ مـكـتبـهـ وـغـطاـهـاـ بـقـطـعـةـ قـمـاشـ كـبـيرـةـ،ـ ثـمـ وـضـعـ قـطـعـتـيـ

الـجـرـةـ عـلـيـهـاـ،ـ وـاسـتـغـرـقـ فـيـ نـقـلـ النـقـوشـ وـالـكـلـمـاتـ مـنـ الجـرـةـ إـلـىـ الـورـقـ.ـ لـكـنـهـ لـمـ يـسـتـطـعـ اـتـمـامـ هـذـاـ الـعـمـلـ بـالـسـرـعـةـ التـيـ توـقـعـهـاـ.ـ فـتـأـخـرـ لـثـلـاثـةـ أـيـامـ قـبـلـ أـنـ يـنـقـلـ كـامـلـ الرـمـوزـ وـالـكـلـمـاتـ،ـ ثـمـ لـيـقـرـرـ بـعـدـهـ الـاتـصالـ بـأـحـدـ زـمـلـائـهـ الـقـدـماءـ لـإـعادـةـ الجـرـةـ إـلـىـ الـمـتـحـفـ.

لم تحدث مشكلة كبيرة، وكان ذلك الزميل الذي احتفظ بالجراة  
بيالغ. كانوا ممتين، وذكرت إحدى الصحف خبراً عن إعادة الدكتور  
واصف عبد المحيي لقطعة آثرية لا تُقدر بثمن إلى المتحف العراقي.  
كان هذا الخبر متضمناً في النشرة الإخبارية التي قرأها المذيع  
علي ناجي، قبل أن يستقيل في اليوم التالي من وظيفته في الإذاعة  
الكردية، بسبب مشاكل غيره نسائية حصلت مع زوجته. كانت أول  
مشكلة جدية تواجه زواجه، وكان الحلُّ السريع هو بالترافق أمام  
زوجته. يستقيل ويختفي من أمام عيني زميلته العاشقة التي سببت  
المشكلة أصلاً.

- إنه حيٌّ يُرزق. لم يتمت إذن.

قال علي لصديقه عبد العظيم، خلال اتصال هاتفي نادر بينهما.

- أيه.. حي. هؤلاء الأغنياء لا يموتون بسهولة. مو مثل حانا.

نعبر الأربعين نصير شباب، ونموت بالخمسين.

ردَّ عبد العظيم بلا مبالاة. أما علي فظلَّ مأخوذاً بفكرة أن يبقى  
رجلٌ كان على شفا الاحتضار حيَاً كلَّ هذه السنوات، وليس هذا  
فحسب، وإنما يعود ليمارس عمله. يستعيد قطعاً آثرياً وتكتب  
الصحافة عنه.

كان من المنطقي أن يحاول علي العثور على دكتور واصف.  
ذهب إلى المتحف العراقي وسأل عنه، وقيل له بأنه لم يرجع إلى  
العمل وكان في زيارة إلى المتحف ليس إلا. وفي هذا الوقت تحديداً  
كان الدكتور واصف قد تشجع لتسجيل أحد أرقام الخدمة التي تذيعها  
الإذاعة الكردية، ثم يتصل بهم ليسأل عن المذيع علي ناجي، وجاءه  
الجواب بأنه «كان» يعمل في الإذاعة، وقد استقال منذ عدة أيام. يا  
للخيبة. ما أن طفا إلى السطح حتى غطس في العتمة من جديد هذا

الولد. ولكن هذه الغطسة كانت قصيرة جداً، فبعدها بب يومين طرَقَ على باب بيت الدكتور واصف، وكم كانت مفاجأة سارة أن يظهر أمام صديقه العجوز بعد كلّ هذه السنوات.

- تركتك تحضر. كيف نجوت؟

- متثبت بالحياة أنا بأظافري وأسنانني. عزرايل انكسر خاطره علىَ.

ردَّ الدكتور واصف وظلَّ يضحك ويقهقه. وربما هي الضحكة الأولى من هذا النوع منذ تسعه أعوام. ظلًا يشرثان لساعات، حتى أن العجوز لم يشعر بالتعب. رَمَّما تلك الفجوة من نقص المعلومات والأخبار التي صنعتها هذه السنوات، وبدا أنهما لا يختلفان كثيراً بوجهات النظر حول كلّ ما جرى ويجري.

## - ٦ -

يتذَكَّر علي الآن تلك الاوقات جيداً. بدا الدكتور واصف حينها حيوياً، ولكنه خسر بعضاً من روحيته السابقة. كان يضحك ويشرث معه ويعطي آراءً بما يجري حوله، ولكن كمن يتحدث من بشر. بدا غاطساً أكثر في ذاته، وهي مرحلة لم يكن على قد وصل إليها حينها. أما الآن فيعرف طعمها جيداً. ليس هناك قعرًّا أعمقُ من الذي يُقيم فيه الآن.

يستذكر بوضوح كيف أن التفاصيل التي رواها الدكتور واصف عن علاقته بأخيه رافد تشبه حالاً يعايشها علي الآن. إنهمما في خطوط عامة مرّا بها خلال حياتيهم، يبدوان متشابهين. وبالذات مع هذه الحساسية المبالغ فيها تجاه الأشياء.

حتى مع التفصيل المختلف المتعلق بالزواج والإنجاب، فإن

الشعور بالعزلة لم يختفي تماماً عند علي. بل ربما كان العكس. لم يشعر ولا للحظة واحدة بأنه يعيش خارج عُلبة الزجاج التي يقيم فيها. كل الآخرين، بمن فيهم زوجته، يقفون خارج الزجاجة الصلبة غير القابلة للكسر.

ظلاً يلتقيان بين حين وآخر، وتشجع الدكتور واصف ليطلب من صديقه الشاب أن يستدعي بقية الأصدقاء، ولكن كيف يفعل ذلك. إنه أمر شبه مستحيل. لقد صاروا بعيدين جداً، ولم يرغب عبد العظيم مثلاً ببرؤية العجوز مجدداً. قال كلاماً غير لائق عن زوال «حقبتهم». وعن مهانة الأكل والشرب المجاني في بيت الدكتور واصف وأشياء أخرى أكدت على بأنّ عبد العظيم لم يعد مثلما كان سابقاً، وأنه على الأقل لا يرغب إطلاقاً ببرؤية العجوز واصف.

وبسبب علي ربما، عاود الدكتور بعض عاداته الصحية السيئة، ومنها الشرب، رغم أن علي لا يعرف هل كان الدكتور متوقفاً عن الشرب فعلاً أم كان وجوده بجواره من جديد حافزاً لاستعادة عادات الانتشاء بالحياة، مع تجاهل تام لأي ترتيبات صحية ضرورية يتبعها من هُم في مثل عمره.

وقد يحدث أن يتصل به تلفونياً ما بعد منتصف الليل، تحت وطأة السُّكر، ويستغرق بأحاديث متشعبة منقوعة بالأسى حتى ينقطع الاتصال فجأةً بسبب نفاد الرصيد في هاتف الدكتور واصف. ولا يعرف علي لماذا لم يكن متحمّساً لمعاودة الاتصال به حتى يستمرّ الدكتور في نشيجه الذي يشبه منولوجاً ذاتياً لا يحتاج من الآخر أن يتفاعل معه بقدر ما يحتاج إلى تأكيد الاستماع.

كانت مضامين هذه الاتصالات متشابهة، وكان دكتور واصف يتجاهل الإشارة إليها حين يلتقي مع علي في بيته، أو تأخذه الحماسة

للذهاب معه إلى شارع المتنبي أو بعض الفعاليات الفنية، بهدف إخراج الدكتور من عزلته وإعادة الاختلاط مع الناس.

ثم انقطعت هذه الاتصالات بسبب انقطاع دكتور واصف عن الشرب، وهو أمرٌ ربما جرى بعد تأكيدات طيبة سلبية.

و قبل أن يصل زواج علي إلى نقطة حرجة، ويندفع إلى الطلاق بشكل جدي، كان يتحدث عن مشاكله مع صديقه العجوز ولكن من دون أن يسمع منه نصيحة أو رأياً كاشفاً لمشكلته. وأقصى ما سمعه منه أنه لم يتزوج ولم يُنگر بالزواج يوماً ولهذا فهو آخر شخص يمكن أن يقدم له نصيحة تتعلق بمشاكل الزواج.

- لقد أعفيت نفسي من هذه المشكلة، ولا ت يريد أن تسمع مني الآن كلاماً ألومك فيه أو أجعلك تشعر بالذنب لأنك تزوجت. أنا قد أشعر أحياناً بالندم لأنني لم أفع في هذه الحماقة.

لم يكن كلاماً مريحاً لعلي، ولا واضحاً. ثم بعد طلاقه شعر علي بأنه يضع أول خطوة باتجاه الانزلاق إلى عزلته الخاصة، التي تجعل الاكترات لشئون الآخرين أمراً ثانوياً، مهما كان.

دخل علي في إيقاع حياتي رتيب، يقوده من إذاعة الموقف إلى البيت ثم إلى الإذاعة، مع تفاصيل هامشية ليست ذات شأن كبير، تفاصيل لم تستطع خرق زجاجته العازلة، حتى لو كانت جسداً ثرياً كما هو جسد بان. وكانت اللقاءات التي صارت متباudeًة مع صديقه العجوز تفتقر إلى الحيوية، تطفو عليها سحابة كثيبة، وكأنها متزامنة مع سحب مشابهة تطفو على البلد كله، بسبب تراكم المشاكل التي صنعها الإرهاب والاحتلال وأخطاء الطبقة السياسية الجديدة وصدام المجتمع مع نفسه على مدى عشر سنوات.

وفي تلك الفترة تلقى اتصالاً هاتفياً ما بعد منتصف الليل من دكتور واصف. لم يكن سكراناً، ولكن الكلام الذي تحدث به هو كلام سُكّيرين. قال له بأن البوابات الطبشورية المرسومة على الحيطان ستفتح. لقد وجد المفتاح السحري الذي يفتح هذه الأبواب. ثم طلب منه أن يأتي إليه في اليوم التالي كي يريه ما توصل إليه.

كان اللقاء الأخير مع الدكتور واصف مخيّباً للأمال. بدا مشعثاً لم يغيّر ملابسه التي ينام فيها، وكشف لعلي عن التقارير الطبية الأخيرة التي حددت إصابته بسرطان الكبد. مرّ سريعاً على تطورات وضعه الصحي، واستغرق مثل ممسوس بالحديث عن الجرّة الفخارية والنقوش السومرية والكلمات المسمارية التي استطاع فك حروفها، وأخذت منه وقتاً طويلاً حتى فهم أنَّ ما فيها هو تعويذة تتعلق بالانتقال ما بين أبعاد حيوانات موازية.

رجلٌ عقلانيٌّ، يمتحن الآخرون رجاحة عقله، انتهى وهو يعبر سنَّ السبعين إلى حالة جنون أكيدة. حتى أن أخيه الصغير راقد قاطعه، بعد أن قاوم دكتور واصف وبشدة فكرة وضعه في مستشفى أو دار للعجزة في لبنان أو نيقوسياً، حيث يملك راقد عقارات هناك.

- هذه نسخة من التعويذات السبع. احتفظ بها. ربما تُغيّر رأيك.

قال الدكتور واصف، وهو يدفع الدفتر الجلدي الصغير برفقٍ حتى مسَّ يد علي المسترخية على الطاولة. كان مُصرراً على إقناع صديقه الشاب. وشعر علي بالتعاطف معه، وهو يراه بحال مزرية، وكأنه شبح رجل ميت. نحيفاً أكثر من المعتاد ببشرة باهتة وعينين جاحظتين تغيّر لون بياضهما، وشاربه الانشتايني يتهدّل على جانبي فمه.

- أعرف بأن المتبقي من حياتي في كل الأحوال شحيح جداً.. ربما هي في كل النسخ السبع من حياتي مجرد أيام معدودة. ولكني أرغب بنهاية مختلفة.

قال الدكتور واصف بصوت مرتج، وهو يرمي بصره دون تعين باتجاه الأشجار في حديقته. ثم يلتفت إلى صديقه الشاب ويمسك بيده ويضغط عليها بما لديه من طاقة، وكأنه يحاول ترسيخ كلماته التالية بقوة أكبر في مسامع علي:

- أنت لا تعرف أنني في عشريناتي جربت الانتحار لمرتين وفشلـت، واحدة من هذه المحاولات كانت بإلقاء نفسي في نهر الفولغا في يوم جليدي. لربما لو نجحت الآن بالقيام بأمر يسعدك، سأشعر بدوري بأنني نجحت. وأنني سعيد. أنت أمامك حياة كاملة لتعيشها. أن تعيش يا صديقي هو آخر أمنية حقيقة عندي.

## - ٧ -

توقف التدفق بشرط الذكريات الحزينة عن العجوز الميت حين سمع علي رنين هاتفه المحمول. كان واقفاً في الممر خارج غرفه ينظر من الشباك إلى حديقة بيت مجاور ويدخن بهدوء. عاد ليرفع هاتفه فوجد على شاشته رقمًا غير مسجل عنده. ففتح الإتصال وسمع صوتاً مألوفاً. تحدث الصوت بىضع كلمات كانت كافية لأن يتعرف عليه بيسر وسهولة، إنه الدكتور واصف.

- ها يا ولد.. كنت مؤمناً بأنك ستلحق بي؟ كم أنا مسروء الآن. لقد نجحت أخيراً بالعبور من باب الطباشير.

## الفصل السادس

# جَرَّةُ التَّعَاوِيدِ

- ١ -

لم يحدث الكثير منذ أن أخبره الصوت الضاحك عبر الهاتف أن حياته قد تغيرت. لقد انتقل عبر الباب الطباشيري من عالمه الأول إلى آخر جديد ومختلف. يحدث هذا الأمر تحديداً خلال النوم، بعد أن تكون قد قرأت التعويذات السُّومرية السبعة، وبما أن علي قرأ هذه التعويذات مراراً أمام مايكروفون برنامجه الإذاعي الليلي، وبما أنه دخل بعدها في غيبوبة عميقه، فقد تحقق الانتقال الذي تحدث عنه الدكتور واصف. أليس كذلك؟!

لا يبدو علي، وبعد مرور أكثر من أسبوع على خروجه من المستشفى أنه متتأكد من شيء، فما عدا حسّ المراجعة الذي هيمن عليه، وتأنيب الضمير من أجل الأخطاء الكثيرة التي ارتكبها فإنه لم ير شيئاً مختلفاً في «حياته الجديدة». ولم تتحقق له فرصة بعد ليرى معالم الحياة في الخارج كي يتأكد من التغييرات المفترضة. إنه مقيد الحركة، ولا بسبب وهن الإصابة التي ما زالت طرية في رأسه المغطى بالأربطة الطبية، وثانياً لأن عمار لم يكن يسمح له بالخروج من البيت. كان يجلب له السجائر، وايّ شيء يريده، ما عدا المشروبات الكحولية طبعاً التي لم يكلّف علي نفسه عناء طلبها أصلاً.

كان عمّار مؤرقاً بفكرة التعرّف على الجُناة الذين أطلقوا النيران على أخيه، ومن يقف خلفهم. أنفق وقتاً كثيراً واتصل بكلّ أصدقائه ومعارفهم المتنفذين في دوائر الحكومة، وجسّ نبع أفراد نشطاء في جماعات مسلحة. كان أقرب من علي إلى حركة الشارع ويستطيع الغوص فيه بسهولة. ظلّ مشغولاً بهذه القضية وقتاً طويلاً حتى وصل إلى طريق مسدودة. هناك العشرات من العصابات التي يمكن أن تقتل لهدف عقائدي أو لأنها تتلقى المال من طرف مجهول. والشيء الذي كان يُخيف عمّار أنه لا ضمانات بعدم تكرّر الحادثة، كما أنه يعرف جيداً عدم واقعية فكرة أن يبقى علي حبيس غرفته القديمة بيت العائلة ولا يخرج منها أبداً.

- لا أريدك أن تخرج من باب البيت، وإن كان ولا بدّ فاخضر من البلد.. ألسْتْ تملك جوازاً؟ سافر وهاجر وأنا أساعدك، فقط حتى أضمن أنك حي وغير مهدد هنا.

قال عمّار وهو يشارك أخيه ذات مساء فاتر الحرارة شربَ قدحين من الكاكاو الساخن أعدته زوجته، ويتبعان الأخبار على القنوات الفضائية، من دون رغبة فعلية لدى علي. فهو ما وصل سابقاً إلى مرحلة الشتائم إلا لليأسه التام من التحليلات ومتابعة المواقف والأحداث التي صارت مكررة وتستنسخ نفسها بشكلٍ يسبّب آلاماً عصبية.

- إلى أين أذهب في الخارج؟ كيف أعيش؟

ردّ علي بنيرة يائسة، على الرغم من أنه مع نفسه يعرف أن السفر والهرب من البلد هو حلّ لمن لا حلّ له، وليس عليه أن يستبعده من ذهنه تماماً، إلا أنه يشعر بأن هذا الخيار يضعه في موقف الهزيمة، كما أن دافعيته القديمة للهجرة والسفر أيام التسعينيات تغيرت كثيراً

وكانه فقد حسَّ المغامرة أو شعر أن الزمن والأحداث الكثيرة التي جرت دفعته لتجاوز هذه الفكرة.

منذ أن خرج من المستشفى ظلًّا يشغل وقته بالقراءة، والاستغراب بالنوم الكثير، وكأنه يعُوض نقصاً متراكماً. ينزل أحياناً ليجلس مع عائلة أخيه، أو يساعدهم ببعض الشؤون، ثم يتبع مع أخيه مضطراً لساعة أو ساعتين الأخبار على التلفزيون، ويشاركه التعليق على أهمّ ما فيها.

كانت الأزمة السياسية على حالها، ولا يبدو أن هناك اتفاقاً على تحديد اسم رئيس وزراء جديد بديلاً عن المنتهية ولايته المتشبث بحقه الدستوري، كما يرى، في شغل هذا المنصب لولاية ثالثة. القضية كلُّها لا تستحق من علي أن يتبعها، الخراب يتناصل، هكذا ظلًّا يكرر على مسامع أخيه، هو كان يشتم كنوعٍ من الصراخ وطلب النجدة من المجهول أو أيّ سلطة خارج القوانين الصلبة التي تتحمّل برقة العالم من حولنا، والتي قادت إلى هذا الخراب المتناضل.

في النهاية تزايد الضيق عند علي. لم يتعود على هذا السجن، ولم يقض سابقاً وقتاً طويلاً كهذا وجهاً لوجه مع أخيه عمار، إنهم مختلفان، ولا يستطيع علي أن يهادنه طويلاً. طلب من أخيه أن يشاهد الأخبار في المرّة القادمة على التلفزيون مع زوجته وأطفاله في صالة البيت، فهو يشعر بالصداع بسبب الإصابة كما أذعى أمامه، ووضعه النفسي لا يساعده على متابعة التلفزيون لوقت طويل. وحين رأى أن أخيه تقبّل هذا الأمر تشجّع ليخبره بأنه سيخرج غداً ليذهب إلى شقته. لا يوجد ما يدعوه للقلق. سيخفّ أو يأخذ سيارةأجرة من باب البيت هنا حتى باب العمارة التي فيها شقته. سيعمل ما يسعه حتى لا يتبه لوجوده أحد.

لم تمرّ سوى دقائق معدودة على مغادرة عمار وعوده على لاستغراقه بالقراءة، حتى رجع ليخبره بالحدث الصادم:  
- افتح التلفزيون واسمع. هناك خبرٌ عن اقتحام للمنطقة الخضراء.

لم يردد علي بشيء، فرفع عمار الريموت وفتح التلفزيون، وصار يقلب بالقنوات وجلس يتابع مع علي ما تناقله القنوات الفضائية. وبعد نصف ساعة من التدقيق في نشرات الأخبار وعواجلها لم يقفوا على معلومات كثيرة. هناك مواجهات، وقد اندلعت انتلقت من مكان مجهول باتجاه المنطقة الخضراء.

- لا... انقلاب.. الجيش يقوم بانقلاب عسكري، وقوات حفظ النظام وحماية المنطقة الخضراء تواجههم الآن.  
قال عمار مؤكداً ما سمعه من أحد المراسلين.

نفث علي دخان سيجارته ثم أكَّد بنبرة العالم الخير:  
- نعم، أيّاً كان سينتهي كلُّ شيء في الصباح. أيُّ أحمق يقوم بهذه الفعلة الآن؟!

- الله يبشرك بالخير.. ما بینا حیل تشتعل بغداد من جديد. شغلي ورزقي وديون العالم، وبين انتي وجهي اذا تنسد الشوارع لو تصير مواجهات.

ردّ عمار مرتاحاً للثقة التي بدت في كلام أخيه. ولكن المواجهات لم تنتهِ، وأعلن في وقت قبيل الفجر، اثناء ما كان علي وعمار نائمين، حالة الطوارئ. ويبدو أن جهات سياسية استدعت فصائلها المسلحة إلى بغداد على وجه السرعة، الإنقاذ «الدولة» كما قالوا.

صباح اليوم التالي بدت الشوارع شبه خالية، والدبابات تقف في الساحات وتمنع مرور السيارات. وفي مناطق أخرى كان هناك انتشار كثيف للميليشيات. ثم قبل نهاية اليوم الثاني حدثت ثلاثة انفجارات بعجلات ملغومة لم يعرف أحدُ كيف دخلت ومن الذي يقف وراءها. ومن حسن الحظ أن أغلب الناس التزموا بيوتهم، ولم يخرجوا، فلم تحدث خسائر كبيرة.

كان عمّار يُولوِّل في صالة بيته. لديه أموالٌ كان يفترض أن يسحبها من المصرف اليوم. وهناك طلبيات على بضائع تدخل شاحناتها إلى بغداد في اليوم التالي. كان يثرثر بكلام كثير، ولم ترد عليه زوجته ولا أطفاله بشيء، خشية أن يتحول غضبه باتجاههم. أمّا علي، فضلَ في غرفته يتبع القنوات التلفزيونية، ويحاول أن يفهم ما يجري. ثم انقطع التيار الكهربائي الوطني فجأة، فasad الظلام في البيت. ولم يشغل عامل المولدة الأهلية الكهرباء إلا بعد نصف ساعة.

### - ٣ -

قبل منتصف ليل اليوم الثاني. نقلت الفضائيات مؤتمراً صحفياً من قلب المنطقة الخضراء، وفي المكان المعتماد الذي يقف فيه المسؤولون الكبار أمام الصحفيين، ومنهم رئيس الوزراء المنتهية ولايته. بينما يلوح في العمق علماً عراقياً على جانبي الكادر.

كانت المنصة الخشبية خالية، ما سوى ما يكرفونات الفضائيات التي تزاحت بجوار بعض. ثم بعد أقل من دقيقة دخلت مجموعة ضباط برتب عسكرية متفاوتة. ووقفوا كلهم أمام المنصة، وفي وسطهم ضابط الأربعيني برتبة عقيد، بشاربين كثين أسودين وجه

ممتهنٍ. أخرج ورقة وصار يقرأ بصوت مرتجّ لا يُخفى انفعاله وارتباكه.

الشيء الذي فاجأ علي أكثر أن وجه الضابط المرتبك ذي الشارب السميك كان مألوفاً. إنه صديقه القديم عبد العظيم حامد. يبدو أكبر بهيئته متيبة وجسد ممتليء، ولكنه هو. وصوته هذا ذو القرار والقراءة المكسرة للنصوص العربية الفصحى، هي ذاتها. إنه صاحبه القديم الغاضب الممتعض، الذي لم يكن يعجبه شيء، وهو هو على ما يبدو يسهم في تغيير ما لا يعجبه بحركة مجونة.

تحدّث البيان القصير عن الاختناق السياسي، وعن الاحزاب السياسية التي تحولت إلى عصابات نهبت البلد وسرقته، عن الطائفية وارتهان العراق إلى محاور اقليمية. عن الحرب ضد الارهاب الذي انتزع ثلث أراضي العراق وأقام دولته فيها.

انتقد البيان الجميع تقريباً، ولكنه لم يكشف عن الخطط التي سيتبعها ذوو الرتب العسكرية لتصحيح الأوضاع. في الحقيقة حتى سائق الأجرة وبائع الخضراء والمنظف في الشارع والحمّال في الشورجة يستطيع الحديث بكلام مشابه وتوجيهه انتقادات لاذعة. ولكن حين تأسّله عن الحلّ، سيعطيك حلولاً خيالية أو غير واقعية. وهذه الحلول لو تمّ تفزيذها فإنها، كما تخبرنا التجربة السياسية في العراق طوال قرن، ستعمّق المشاكل الموجودة، وربما تضيف إليها قائمة جديدة.

يا الله.. شعر علي بأن رأسه يدور، وانه بحاجة فورية لمشروب. ولكن هناك حظر تجوال، وأخوه في الطابق الأرضي يغلي الآن ويستمِّ، وستكون حماقة أن يطلب منه المجازفة للخروج بسيارته من أجل جلب مشروب!

إنه مجرد كابوس، آه.. سينام ويصحو غداً ليجد نفسه في سرير المستشفى، وحين يتصل تلفونياً سيخبره زملاؤه بأن قرار فصله من العمل منذ أسبوعين ما زال سارياً وعليه أن يدبر أموره ويجد مصدر رزق آخر سريعاً. سيتأكد أن صديقه العجوز واصف ما زال تحت التراب، ولا أحد يردد على هاتفه لأن عائلته أتلفت، بعد وفاته، شريحة الاتصال الخاصة به.

- ٤ -

أطفأ التلفزيون، وتناوم فعلاً. ظلَّ على هذه الحال عدَّة دقائق، محاولاً إفراغ رأسه من أي شيء. الوصول إلى حالة من التصفير التام، ولكن اتصالاً جاء على هاتفه. رقم غريب آخر. رد عليه فسمع صوت الدكتور واصف يتحدث إليه :

- ها يا ولد.. قل لي الحمد لله عَ السلامَة. كنت معتقلًا بمطار بغداد من ليلة أمس. ما الذي يجري؟

- هل رجعت إلى بغداد؟

- أنا الآن في بيتي. كانت ليلة سبتة جداً بالمطار. واليوم ظهرَ أفرجوا عناً. ووصلت بصعوبة إلى بيتي.

- حمد لله عَ السلامَة.

- نحتاج أن نلتقي.. هل تقدر على السير بقدميك؟

- نعم.

- اوكي.. اتصل بك غداً اذا رفعوا حظر التجوال.  
عاد عمَّار إليه مع صينية أقداح كاكاو ساخن أعدته زوجته، وهذه إشارة أن عمَّار يستعد لجولة حوار طويلة مع علي. والسبب الجوهرى في ذلك أنه غير قادر على الخروج بسيارته للقاء أصدقائه المعتادين،

والسهر معهم لساعة أو ساعتين، وإفراج في صدره من ثرثارات. هذه الليلة سيؤدي على هذا الدور بالرغم منه.

استمرّ عمار في محاولته تحليل ما يجري، وينظر بين فينة وأخرى إلى علي كي يؤكد له ما توصل إليه من استنتاجات أو يعارض، ولكن علي لم يكن متّحمساً للغوص والتحليل. وكان يردد عليه بالقليل من الكلام، ويستمر بالنظر إلى شاشة التلفزيون لمتابعة أيّ جديد يطأ.

في اليوم التالي كانت هناك مواجهات في الحي السكني بين عناصر من ميليشيا لها نفوذ واسع مع قوات الجيش، استمرّت إلى ما بعد الظهر، ثم انقطع إطلاق الرصاص في الشوارع الفارغة.

في اليوم الثالث كان عناصر الميليشيا يُقيّمون سيطرات ويُقْتَلُون المارة القليلين الذاهبين للتَّبَضُّع من محال مجاورة. ويبدو أن الجيش انسحب وترك حيزة المنطقة في أيديهم، إما تراضياً أو بسبب أولويات أمنية أعلى في مناطق أخرى، أو لأي سبب آخر مجهول لا يعرفه أحد.

كانت الفعالية الأساسية التي داوم عليها علي خلال هذه الفترة هي المشي داخل الغرفة، وتمرين قدميه على السير. كانت لديه رغبة بالخروج من البيت حالما يتم رفع أو تخفيف حظر التجوال، وهذا ما حصل بعد خمسة أيام.

كانت هناك تطورات كثيرة نقلتها شاشات التلفزيون، غير أن علي ظلّ مشغول البال بشأن محدّد. ويدا في كلامه مع أخيه عمار وكأنه يعرف ما سيحدث لاحقاً:

- إما الاميركان موافقون على هذه الخطوة. أو سيضربونها بقسوة، وترجع شلة السفلة من جديد.

خرج علي من بيت أخيه أخيراً. واستقلَّ سيارة أجراة إلى حيث شقته. وفي الطريق اخترق العديد من السيطرات التي أقامتها ميليشيات عديدة. وحتى أمام العمارة التي يقيم فيها كان هناك عناصر من الميليشيا، استوقفوه وسأله عن اسمه ومهنته والى أين هو ذاهب.

صعد الدرج بيظه حتى شقته وفتحها. كان التراب يُغطي الأثاث والطاولات وكلَّ شيء، بسبب شباك تُرك مفتوحاً على ما يبدو. لم يكن يتوقع وهو يخرج من شقته آخر مرّة، أنه لن يعود إليها بعد أسابيع.

استغرق في البحث عن الدفتر ذي الجلد الأسود. لم يترك شيئاً في الشقة لم يبحث فيه. ولكن لم يعثر عليه. كان قد اختفى بسبب من الأسباب. لم يكن يبدو أن الشقة قد تعرضت لاقتحام. ولم يختفي منها شيء. كان الدفتر غير موجود، وبعد ساعة اقتنع بأنه لن يعثر عليه أبداً.

قلَّب في أرقام تلفونه وضرب على الرقم الأخير، مرّت نصف دقيقة قبل أن يأتي الصوت من الجهة الثانية.

- ها يا ولد.. لازم تريدين تطلع من البيت؟

- آني طالع أصلًا.. وين ممكن نلتقي؟

أخبره الدكتور بأنه ملزم بتقضية بعض الأعمال خلال الساعتين القادمتين، وحدّد له موعداً ومكاناً محدداً للقاء. خرج علي من شقته، وفي ذهنه أن يعود إلى بيت أخيه قبل مغيب الشمس تحسباً لأي طارئ. أخذ سيارة تكسي إلى مقر الإذاعة التي يعمل بها. لم

تكن هناك تغييرات واضحة. الأجواء نفسها والموظفوون الذين حيوا وأبدوا سعادتهم أنه قام من الإصابة بصحة جيدة. لكنه لم يعثر على المدير ولا أيّ من زملائه المقربين. قالوا له بأنّ أجواء حظر التجوال أربكت العمل في الإذاعة.

- أنت فيلسوفنا. أخبرنا بما سيحدث.

قال أحد زملائه بنبرة جادة، ليس فيها طيف مزاح.

- فيلسوفكم يعني شنو؟

- أها.. هذا أنت يمكن الضربة أثرت على راسك. أنت اصلاً برنامجك الليلي اسمه «الفلسفة والحياة».

- مو برنامج سياسي وشتائم؟

ضحك الزميل وضحك عامل الخدمة الذي وضع الشاي أمامهم. تجول، بعد شرب الشاي، في أرجاء الإذاعة، دخل إلى الاستوديو ولم يجد مهندس الصوت الذي يرافقه عادةً في برنامجه الليلي، وجد شاباً آخر لا يعرفه، ثم حين أراد العودة إلى الطابق الأرضي، صادفه زميل آخر، أخذه جانباً وكأنه يُسرّه سرّاً وقال له:

- أريد أقول شي قبل ما تطلع.. أكو ضباط يتصلون علينا صار لهم يومين. رادوا رقم تلفونك، واحده ما انطيناهم. قلنا لهم.. ما نعرف رقمه.

- منو ذولي؟

- ما نعرف. بس خفنا لا يكون أكو شي مو زين. لهذا ما حبينا نتصرف إلى ان نشوفك، واني ما حبيت اتصل بيك لأن قلت ربما مريض وتعبان. وشبكات المحمول كانت سيئة، ومن انقطوا عن الاتصالات تجاهلنا الموضوع.

صَفَنَ لعدَّة ثوانٍ، ثم نظر إلى ساعته، وشعر بأن موعده مع الدكتور واصف يقترب. لذلك غادر الاذاعة، ومن شارع السعدون استقلَّ سيارة تكسي إلى حي المنصور، إلى كافteria صيفية جلس فيها مع الدكتور واصف سابقًا بضعة مرات.

صادفه عند المدخل وهو يbedo نشطاً وبصحة جيدة. ارتقى إلى الطابق الثاني من الكافteria بسبب برودة الجو في الخارج. لم يكن دكتور واصف هو نفسه الذي يعرفه علي. كان مورِّد الوجه ويمكن أن يbedo مائلاً إلى السمنة، حيوياً بحسُّ مرح عالي. كان نسخة أخرى عن الدكتور واصف بشكل فعلي.

قال له إنه متزوج منذ ثلاثين سنة من أميرة الحسني، زميلته السابقة في دائرة الآثار ولديه ولدان، يعيشان خارج العراق منذ زمن، وكان مع زوجته في عمان مؤخرًا بما يشبه الإجازة مع الأولاد، وحين عادا بالطائرة إلى بغداد لم يعرف أحد أن هناك انقلاباً عسكرياً يجري في ذلك النهار. الأخبار أعلنت عن الأضطرابات الأمنية بجوار المنطقة الخضراء مساءً. أما في الساعة الرابعة عصرًا حين وصلت طائرة الدكتور واصف إلى مطار بغداد، كانت الأضطرابات قد بدأت فعلاً، وأغلق الجيش المطار وسبب إرباكاً في السيطرة على الرحلات القادمة إلى مطار بغداد. وتمَّ حجز الركاب بسبب قطع الشوارع كلها التي تربط المطار ببقية أحياء العاصمة، وعلموا فيما بعد أن السبب هو الخشية من هروب أحد من السياسيين الكبار على متن طائراتهم لخاصة.

إنه هنا في البعد الثاني من حياته لا يُعاني من أيّ أمراض، وما زال بصحة جيدة، ولديه مؤلفات وكتب حول الآثار وعلم التنقيب. يُدرِّس في الجامعة ويُقدِّم محاضرات في أماكن عديدة، ويحضر

مؤتمرات دولية عن الآثار العراقية. باختصار؛ حياته مملوءةً ومتحركة، ولا تشبه كثيراً النسخة التي تركها في ذلك العالم البائس.

- ولكنني لا أرى أيّ تغيير كبير بما يخصّني؟!

- سترى هذا بالتدرج. الانقلاب العسكري الذي حصل أربك الأجواء، ولكنك سترى كيف أن حياتك هنا مختلفة، وأوْكَد لك، أنها ربما أحسن. تذَكَّر مضمون التعويذة السادسة «لا تصنع للمجهول إلَّهًا». إيقَّ مع المعلوم ولا تشغلي نفسك كثيراً بما لا تعرفه ولم يحدث بعد.

- نعم. سأبقي كذلك، ليس لدى شيء آخر على أيّ حال. وضعت نادلة شابة فنجاني قهوة، ثم غادرت. وظلَّ الدكتور واصف يرشف بهدوء وينظر من وراء زجاج الكافteria إلى الشارع. كان قد رَكَّن سيارته على الرصيف أمام الكافteria، ويبعد أن لديه أشياء تشغله، ربما مشاورير أو متعلقات. لن يطول هذا اللقاء كثيراً، وهذه ليست عادة الدكتور واصف فيما سبق.

- هناك مشكلة تخُصُّك يا علي.

قال الدكتور واصف وهو يُنهي فنجانه.

- أنت في الحياة السابقة دخلت في غيبة، ولم تنم. التعويذات السبع، تفتح لك باباً داخل الحلم تدخل منه لتنقل إلى عالم آخر، وحالما تنسحو في العالم الأول، فإن الباب سينغلق ثانيةً. وتتفصل الحياةان عن بعضهما، حياتك الأولى عن الثانية.

- نعم.

- أنت، كما قلت، دخلت في غيبة. انتقلت عبر بوابة الطباشير من ذلك العالم إلى عالمنا هذا. ولكنك لم تصحِّ بعد هناك. ما زالت البوابة الطباشيرية مفتوحةً ما بين العالمين. وأشكُّ في أنها مفتوحةً ما

بين العوالم الأخرى كلّها. أنت هنا أمامي، ولكنك في أيّ لحظة يمكن أن تأخذك هبة ريح عبر بوابة غير محدّدة وتنتقل إلى عالم ثالث أو رابع وهكذا في حالة تشبه الفوضى ما بين العوالم.

ظلّ عليّ واجماً وهو يحاول أن يستوعب المشكلة التي هو فيها.

- كلُّ ذلك بسبب الغيوبية؟

- نعم. يجب أن تصحو حتى ينغلق الباب الطباشيري ثانيةً. وإذا حدث ومت في غيبوبتك، أو جرى فصل الأجهزة عنك بخيار القتل الرحيم، فلن تعود إلى حياتك الأولى أبداً، أو ربما ستموت كلُّ نسخ حيواتك الستة الأخرى أيضاً.

- يا الله.. شنو هالكلام دكتور؟

- الخطر الأكبر هو أنك ربما تعودُ بشكلٍ اعتباطيٍ إلى حياتك الأولى وتحلُّ في جسدك المغمي عليه. ولن تملك حينها خيار قراءة التعويذات السبع من جديد. ستظلُّ مسجونةً هناك.

نهض الدكتور واصف مثلما توقع علي، وقال له بأنه ملزم بشراء بعض الأشياء للبيت، ولكنهما سيظلان على تواصل، وأنه سيبذل جهده لإيجاد حلٍ لهذه المشكلة.

غادر الدكتور وبقي علي جالساً وحده في الكافteria ما يقارب الساعة. يُقلّب كلام الدكتور في رأسه، ويحاول العثور على حلٍ. لقد ظنَّ حتى الساعات القليلة الماضية أنه يعيش في عالمه الحقيقي، وكلُّ ما كان يمرُّ بذهنه عن مرض الدكتور واصف وموته والإطلاق النارية وسط الشارع وكلُّ هذه التفاصيل هي مجرد أضغاث أحلام. لكن الدكتور واصف حَطَمَ له كلَّ هذه الافتراضات في أقل من ساعة.

عاد علي إلى بيت أخيه عمار، وعند رأس الشارع شاهد أن نقطة التفتيش التي أقامتها الميليشيات قد غادرت، وتواجدت نقطة عسكرية نظامية في محلها، ثم حين وصل إلى البيت، شاهد أخاه واقفاً بالباب والقلق باهٍ عليه.

- ماذا هناك؟

- جاؤوا يسألون عنك. وطلبوا رقم هاتفك. بصرامة أعطيتهم الرقم. لا تزعزع مني.

- من الذي سأله عنِّي؟

- الجيش. جاء ملازم أول وسأل عن محل إقامتك. تعشى مع عائلة أخيه، ثم صعد إلى غرفته، وانظرت على الفراش. شعر بأن بدنَه لم يتحمل هذا التجوال البسيط. ربما بسبب حاجته إلى وقت نقاوه أطول، أو لأنَّه تعود على الكسل.

كان قد أخذ في طريق عودته، من مخزن سري يعرفه، قنينة ويُسكي بلاك ليبل، أخفتها في كيس أسود للتسوق. وحينما إطمأنَّ أنَّ أخيه لن يصعد إليه اليوم ليناقش معه الأوضاع السياسية الطارئة، أغلق باب الغرفة وظل يسكب لنفسه في كأس صغيرة. شرب على مهلٍ مستعيداً جزءاً من كلام الدكتور واصف. لقد استسلم الآن تماماً إلى هذا الخيال الذي تحول إلى واقع يعيشه. ووثق تماماً بكلام صديقه العجوز. أمّا المشكلة التي طرحتها أمامه بشأن موته المحتمل في النسخ السابعة، فلم يجد في نفسه أي إمكانية للعثور على حل لها الآن. ربما غداً أو بعد غد. ربما حين يسكر بشكل جيد وعلى عدة ليالٍ يستطيع حينها أن يعثر على الحل الثاني في مكان ما.

لم يكن قد دخل إلى السكر بعد، حين رنَّ هاتفه، ووُجِد رقمًا

غريباً، وحين فتحه، سمع صوت قرار مرتجاً ومرتبكاً، مع ضحكات قصيرة مكتومة:

- شلونك ولک .

كان صوت عبد العظيم، صديقه القديم. والذي افترق عنه قرابة العشر سنوات. لم يكونا، كما في النسخة الحياتية الأولى يتواصلاً. لم يكن يعرف ما الذي حدث معه، واستغرب حين شاهده على شاشة التلفزيون، كانت هناك أحداث كثيرة على ما يبدو قادت عبد العظيم، من تلك الهيئة المرتبكة الغاضبة، إلى الرتب العسكرية والوجه الحليق وأصدار البيانات التي أربكت وسائل الإعلام كلّها.

- بصعوبة عشرت عليك ذلك.

قال عبد العظيم ثم أكمل:

- أني أحتجلك ولك . شغلي يتطلب أجيبي يمي ناس أثق بيهم .

- وانت شجاعی تسوی هسه یعنی؟

- آنی الزعيم هسه.. ولک.

- وانى شنى اللي اسويه مثلاً يا سيادة الزعيم؟

- أنت صديقي الفيلسوف. أنت عندك كلُّ الحلول. أذكي واحد

شfte پهچاتی.

ظلًّا يشرِّرُ معه لنصف ساعة تقريباً، ثم انتهى الاتصال باتفاق أن تأتي سيارة خاصة نهار الغد لأخذ علي إلى حيث يقيم الزعيم داخل الفوضى الهائلة التي أسهم في صنعها.

تَقْبَلَ عَلَيْهِ هَذِهِ الْأَحْدَاثُ الْمُفَاجِئَةُ، لَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ كَانَ بِالْوَهْجِ  
نَفْسِهِ، حَتَّىٰ عَادَتْ عَيْنَاهُ لَا تُرِيَانُ شَيْئًا مَا بِوْضُوحٍ، بِسَبَبِ كُثْرَةِ  
الْأَصْوَاءِ الْكَاشِفَةِ عَلَيْهِ وَجْهَهُ.

أكمل شربه، وصار يستعيد أجزاءً من كلام العجوز واصف. لأنه يرید استيعابه أكثر. وحضرت في ذهنه فوراً صورة عن الحيوانات المجترة، التي تستعيد ما أكلته كي تمضغه بشكل جيد. إنه في مشكلة حقيقة. ربما يموت الآن هكذا فجأةً من دون سبب طبی معقول، وهو يرفع الكأس إلى فمه. ربما لن يصحو غداً، وينتقل إلى عالم ثالث أو رابع. كان قد سأله دكتور واصف عن الدفتر المجلد الأسود الذي يحوي التعويذات السبع. ربما بإعادة قراءتها يمكن أن يعثر على حلٌّ. ماذا لو أقنع أحداً ما بقراءة التعويذات ليذهب إلى حياته الأولى ويساعده على الاستيقاظ من الغيبوبة أو أي حل آخر. فاجأه ردُّ الدكتور:

- هنا في هذا العالم أنا لم أعطك التعويذات. لا توجد تعويذات أصلاً يا علي. ما زالت الجرة السُّومرية من تل أبو صلابيخ على حالها. لم تُسرق ولم تُكسر. الشيفرة طبعاً موجودة في جدارها الداخلي، ولكنها داخل المتحف وراء زجاج سميك الآن.

## الفصل السابع

# الضَّابطُ وَالْفَيَاسُوفُ

- ١ -

في ذلك العالم الأول الذي تركه علي، يقف عمار أمام جسد أخيه المربوط بالأسلاك والموصولة إلى جهاز تنفس على سريره داخل المستشفى، ويشعر بالأسى. لم يكن يفهم هذا الأخ جيداً. لم يعرف لماذا كان يتقبل أن يكون خاسراً، ولا يقاتل في سبيل حياة جيدة، حياة معقولة ضمن الحدود المتاحة. هو واثق لو أن قرار الحياة والموت عائد لعلي، لقال بنبرة يائسة: افصلوا هذه الأجهزة عنّي. كلنا سنتموت في النهاية. لا أهمية لسنة أو عشر سنين أو عشرين، قياساً بعشرات السنين من عمر الكون التي لم نكن ولن تكون موجودين فيها.

لكن عمار لا يشبه أخاه. إنه يشكر نعمة الحياة، ويحمد الله ألف مرة خلال اليوم، لأن الله يساعد، ويذلل العقبات أمامه، يجعله يحافظ على بيته ورزقه وتلبية مسؤولياته الاجتماعية.

« علينا أن نعيش داخل أنوابنا التي فُصّلت لنا» هكذا كان يقول أحياناً. كحالة من التكيف مع الواقع الذي يعيش فيه.

كان قرار الموت والحياة في يد عمار الآن. لأول مرة يحدث علي أن يكون قرار موته وحياته في يد شخص واحد وبهذه الطريقة.

كان يظنُ سابقاً، على خلفية الآلام التي سبّبتها له ليلٍ، أنها هي من أطلقت عليه رصاصة أماتت شهوة الحياة عنده. ثم شعر لاحقاً، بعد بضع سنوات، بأنه يبالغ. لا يمكن لامرأة أن تقتل رجلاً إلا بارادته. وهذا يعني نوعاً من الانتحار الوعي. وليس غريباً بالنسبة لعلى أن يفجّر بهذه الطريقة في عقد التسعينيات، فهو كان رئيس جمعية المترحرين الذين لم يتحرروا بعد.

الآن، يصرُّ عمّار، وبكلِّ ما أوتيَ من إرادة وإمكانيات مادية على إيقاء أخيه يتنفس. يجب ألا يموت. من هو حتى يقرر موت شخص ما. يختار ساعة ودقيقة معينة لإزهاق روح إنسان، فضلاً عن كون هذا الإنسان أخاه الوحيد.

يجب أن يبقى يتنفس، فلربما يطرأُ شيءٌ جديدٌ في الأيام القادمة أو الأسبوع أو الأشهر. ليس مهمّاً الزمن، لا بدَّ أن يحدث شيءٌ، كأنْ يجرِّب الأطباء علاجاً جديداً، أو يأتي طبيب عراقي مغترب ليفحص أخاه ويقرّر عملية جراحية مثلاً، أو يتعافى الجسد من تلقاء نفسه ويفتح على عينيه في نهاية المطاف.

## - ٢ -

يجلس على الآن، في عالمه الثاني، أمام عمار ويتناولان الإفطار معاً، ولا يدور في خلده للحظة أن هذا الرجل يملك أن يُمْيز نسخَ حياته السبع كلّها، إن قرر ذلك هناك، في العالم الأول الذي غادره.

لو أخبر أخاه الآن بحكاية التعويذات السبع لضحك عليه بكلِّ تأكيد، وإنْ لمسَ أنه جاذِّ في كلامه، فسيظُنُّ بهسوء. قد يرى أن

أخاه الأكبر أصيب بلوثة في دماغه. ولا يمكن أن يُجسّر الهوة بالفهم بينهما مهما فعل.

كانت الأحداث تتسرّع. فخلال بضعة أيام تولى ضباط صغار المسؤولية المباشرة عن الوزارات، ليقوموا بوظائف الوزراء، وبالارتباط بوكلاء الوزارات. ويتصل هؤلاء الضباط بمجلس الضباط الأعلى الذي يُمثل خلية القرار السياسي، ويرأس هذا المجلس، وبالصادفة البحتة، العقيد عبد العظيم حامد محمد.

جرى حلُّ البرلمان ومجلس الرئاسة والوزراء والهيئات الاستشارية المرتبطة بها، وتمَّ حجز الأموال والأموال، وأودع الجميع، بما فيهم من رجال معتمدين ينظر إليهم الناس غالباً بقدسيّة وخشية، في سجن المطار، تحت إشراف وإدارة فرقه عسكرية كاملة، وبحراسات مشدّدة، بانتظار البَّتْ بمصيرهم لاحقاً.

كان الشيء الواضح بالنسبة لمجلس الضباط هو ما يريدون إزاحته، وهذا ما حصل بسهولة دون عناء كبير في بضعة أيام، أمّا ما يريدون القيام به كبديل، فلم يكن واضحاً بعد، حتى في التصريحات الصحفية لم يكن الناطق الإعلامي باسم مجلس الضباط يذكر تفاصيل كثيرة. ثم، وبحركة مدروسة بعناية، توارى الضباط لاحقاً عن وسائل الإعلام، وألغوا هذه التقاليد المسرحية المتعلّقة بالمؤتمرات الصحفية، وضخّ بيانات وتصريحات تُحرّك العمل اليومي للصحف والفضائيات وتزيد من تشويش المواطنين ولا تُقدم خدمة حقيقة.

كانت البيانات الصادرة عن الدول الكبرى وممثلي الأمم المتحدة والهيئات الدوليّة الأخرى واضحة ومتوقعة بهذا الشأن: عدم القبول بالواقع الذي فرضه الانقلاب العسكري، وضرورة عودة الحياة الدستورية والبرلمانية للبلد، وإنما فإن العراق معرّضٌ لعقوبات دولية

تجبر الانقلابيين على الرضوخ للإرادة الدولية، ولإرادة الشعب العراقي الذي انتخب عبر صناديق الاقتراع ممثليه الشرعيين في الحكومة والبرلمان.

ولكن هذه البيانات لم تلق صدى قوياً لدى الشارع. فكان الناس وكأنهم ملؤا منها، أو ملؤا من الشرعيات التي حولت البلد خلال أكثر من عقد إلى فيلم رعب طويل. وصار جزءٌ من المواطنين يعلن عن فرحة بشكل علني من خلال الرقص بالشوارع كلما مرّت دبابة أو عجلة عسكرية. هذا الانقلاب كان يرغب به الناس على ما يبدو. وهو بهذا الشكل لم يكن انقلاباً، وإنما ذراعٌ لإرادة الشعب الخفية؛ كان ثورةً.

هكذا على الأقل يعتقد مجلس الضباط، بل ويؤمنون بشدةً، ويررون أنهم هم الممثلون الحقيقيون للإرادة الشعبية وليس حفنة اللصوص هؤلاء الذين خيروا المواطن ما بين الذئب والضبع، ثم قالوا لهم إنكم اخترتم بحرية. أيُّ حرية وضحك على الذقون هذه.

ظلَّ علي في البيت على مدى النهار، منتظرًا أن تأتي السيارة الخاصة لنقله إلى مقر عمل «الزعيم» ولكن، لم يأتي أحد. ومنعته المكابرة من الاتصال على رقم صديقه الذي اتصل به مساء البارحة. سيتركه لشأنه، إن كان يرغب بلقائه فهو موجودٌ هنا، ولن يغادر مربع الحركة المعتمد ما بين بيت أخيه وشقته وعمله في الإذاعة.

- ٣ -

عند العصر غير ملابسه وخرج، وعند وصوله إلى مسافة قريرة من مبنى الإذاعة المطلٌ على شارع أبي نواس. نزل من سيارة الأجرة بسبب قطع الشارع بمظاهرة على ما يبدو. شاهد جمهوراً من الناس

قرب ساحة الفردوس. كانت تظاهرة مؤيدة للانقلابيين. وأثاره أنهم كلهم كانوا يحملون نسخاً بحجم الكف من الدستور العراقي، كانت قد أصدرتها الحكومة قبل بضع سنوات كجزء من التنفيذ بالدستور ومواده.

سكب شاب عشريني، يرتدي فانيلة عليها صورة جيفارا، بتزييناً على كومة من صناديق ورقية ممزقة. ثم أشعـل النيران فيها، وبحركة مسرحية رفع نسخة كان يحملها بيده إلى الأعلى، وكأنه يريد من الجميع أن يتبعوا إلى ما سيفعله. مرّت لحظات ثم هو في يده إلى النيران وألتهمت ألسنة اللهب سريعاً نسخة الدستور، وبما يشبه إطلاقـة البداية في سباق ما، سارع الجميع إلى رمي النسخ التي في أيديهم في دائرة النار، بما يشبه طقساً احتفالياً مثيراً، كان يعني عند علي شيئاً واحداً: الإعلان الرسمي عن الجنون الجماعي.

إذا كان الشعب يفعل بنفسه هكذا، فما الذي سيفعله هؤلاء الضباط الغاضبون يا ترى؟ ظلّ يفكّر بهذا المشهد المثير حتى وصل إلى بناية الإذاعة، وهناك في الاستعلامات تفاجأ برؤية شخص لم يتوقع رؤيته أبداً.

كانت «بان» عشيقـة البنك المركزي جالسة هناك وهي تضع شالـها الطويل الذي تلـفـه على رأسها عدـة مرات حتى ليبدو وكأنه كـرـة متـفـخـة حول وجهـها. وحالـما أبـصرـته يـدخلـ حتى نـهـضـتـ منـ مـكانـهاـ. كانت تـنتـظـرهـ وـتـعـرـفـ رـبـماـ موـعـدـ قـدـومـهـ إـلـىـ الإـذـاعـةـ.

سـلـمـ عليهاـ، وـلـمـ يـعـرـفـ ماـ يـفـعـلـ. هوـ لـمـ يـلـتـقـ بـهاـ فيـ الإـذـاعـةـ سابـقاـ. هيـ تـعـرـفـ مـكـانـ عـمـلـهـ، وـلـكـنـهـماـ كـانـاـ يـتـكـتمـانـ عـلـىـ عـلـاقـتـهـماـ، ولاـ يـظـهـرـانـ فـيـ أـمـاـكـنـ عـامـةـ مـعـاـ. ماـ الـذـيـ جاءـ بـهاـ إـلـىـ هـنـاـ؟

ـ طـلـبـتـ رقمـكـ هـنـاـ وـلـمـ يـعـطـنـيـ أـيـاهـ أـحـدـ.

قالت بانزعاج واضح. وكان على علي، قبل أن يفهم لماذا جاءت وماذا تريده، أن يجد طريقة ما لتأجيل كل ذلك حتى يوم آخر. لن يُجري حواراً معها هنا في الاستعلامات، حيث الموظفون من زملائه يدخلون ويخرجن، وموظفو الاستعلامات يُنصل. ولن يستطيع أخذها خارجاً. كما أنه يتضايق من اللقاءات من دون مواعيد هكذا.

- وماذا حصل لرقمي عندك؟

عضَّت شفتها السفلَى وهي تتملَّى وجهه، ثم أرختها، ورمث حسراً صغيرةً:

- غضبتك منك في آخر مرّة. زعلت. كسرت التلفون والشريحة. أراد أن يستمرّ في هذه الحوارية فيسألها مثلاً: إذا كنت غضبت مني لماذا أنت عائدة الآن. ولكنه شعر بأنه خيار سيئ. سحبها معه إلى خارج البناء وظلَّ يتمشّى معها قليلاً. تبادلاً أرقام الهواتف، وتواجهوا في اليوم التالي في شقتها. كانت تبدو على شفا البكاء، مع هالة من الشعور بالنندم أو الحزن والأسف تحيط بها. لم يفهم تماماً ما يُخالجها من شعور. وأقنع نفسه بأنه سيعرف كلَّ شيءٍ غالباً، ومهما كان الذي سيعترف له فهو لا يبدو متعلقاً بصيغة الحياة الأفضل، التي أدعى دكتور واصف أنها موجودة في هذه النسخة من حياة علي.

داخل الإذاعة ظلَّ يتحرَّك بين الغرف، ويجلس بجوار أصدقائه ويتحدث معهم، حتى جاءه عامل الخدمة ليخبره بأن مدير الإذاعة يطلبه في غرفته.

كانت الإذاعات والصحف والقنوات الفضائية العاملة داخل بغداد قد تلقت تعليمات مشدّدة تتعلّق بإجراءات الطوارئ المفروضة من قبل مجلس الضباط الأعلى. ويبدو أن مدير الإذاعة يستشعر ضرورة تطبيق

هذه التعليمات بحذافيرها ، بل وربما المبالغة في تطبيقها ، فإن كانت هذه الرؤوس الكبيرة ، حتى من ذوي اللحى والعمائم قد وضعوا في السجن نفسه الذي كان فيه جماعة الخمسة وخمسين من رجالات صدام ، فمن السهل على هؤلاء الضباط المجانين تنفيذ إعدام فوري على الرصيف ضد من يخالفهم أو يزعجهم .

لم ينظر علي إلى الموضوع بهذه الصورة . ربما السبب الخفي في عدم شعوره بالتهديد هو الاتصال الهاتفي الذي حصل بينه و«الزعيم» . وكون الزعيم أصلاً هو صديقه . لم يخبر مدير الإذاعة بذلك . ولكنه حاول تهدئته وطمئنه أن شيئاً من هذه المخاوف لن يحدث .

- هو يحدث حين يحدث . لا تقل لي لا يحدث . الامر يشبه حين تصدم شخصاً على الرصيف ، ثم تنزل وتبقى تلطم ، وتقول : كيف لم أنتبه له وهو يعبر؟! كان عليك أن تنتبه حبيبي . لا فائدة . لن يقنع هذا المدير بأي شيء . إنه مجرد أحمق سمين ببدلة فاخرة وضعيه مالك الإذاعة المقيم في أميركا بمنصبه هنا بمصادفات غبية .

- وما المطلوب مني أستاذ؟

- المطلوب ، أن تخفف لهجتك في برنامجك الليلي . . . لا تنتقد أحداً بعد اليوم . كل من كنت تنتقدتهم في سجن المطار الآن .. بعد شتريده!

قال مدير الإذاعة وهو يفرد يديه وكأنه يريد أن يطير .

- اذا لم تنتقد أحداً فلماذا لا نحوال البرنامج إلى أشعار وغزل وأغانی قديمة؟

- مو لها الدرجة .. بس الله استجاب لطلبك . وخلصنا من رؤوس البلاء .

- وهل هؤلاء الضباط ملائكة؟!

قال علي فنهض مدير الإذاعة في مكانه متحجّجاً.

- هذا الكلام بالضبط ما أريد اسمعه من الإذاعة. لا تخليني

أزعل عليك علي. أنت صاحب الإذاعة موصيبي عليك.

- ٤ -

خرج من مكتب مدير الإذاعة وهو منزعج. إنه عمله السخيف نفسه الذي تركه في العالم الآخر، لماذا يبدو الآن أكثر سخافة مما كان يشعر به سابقاً!

في غرفة المحرّرين وجد زملاءه منقسمين في نقاش صاخب.  
وكانت الطاولة مليئة بأخبار الوكالات:

- حكومة إقليم كردستان تطالب المنقلين على الشرعية بطلاق سراح الوزراء ونواب البرلمان الكرد، وتصرّ على تطبيق بنود الدستور، وتعتبره نافذاً، وتطالب بحصتها من الموازنة العامة.

- مرجعية النجف تلتزم الصمت، ولم يُعلق خطيبها المعتمد على حدث الانقلاب العسكري، في خطبة الجمعة الأخيرة، وطالب الناس بالصبر.

- إيران ترفض الاعتراف بالتغييرات غير الشرعية الحاصلة في العراق.

- مجلس التعاون لدول الخليج والجامعة العربية، يطالبون الانقلابيين بموقف حازم ضد التدخلات الإيرانية، ويدعون إلى حفظ سلامة أراضي العراق. والعودة إلى «الحضن العربي».

- الميليشيات تدير عملياً المحافظات الجنوبية. بغداد صارت مجرد محافظة الآن بيد الانقلابيين.

كانت النقاشات الحادة تتصاعد بين الزملاء، مع شايات وأكواب نسكافيه وسجائر، رغم اليافة التي تحذر من التدخين. وبعد دقائق دخل مدير الإذاعة إلى الغرفة وعيناه تكادان تُنطَّان من مكانهما. كان قد سمع من الراديو موجز الأنباء، وأصيب بما يشبه الصدمة، فجاء راكضاً.

- انقلابيين؟!! على شنو كنا نحكي من الصبح ليهسه؟

قال المدير وكان فصيل الإعدام يتظاهر بباب الإذاعة. ثم سارع إلى جمع قصاصات الأخبار ليطالعها بنفسه. احتاج بعض الزملاء بأنه هو الوصف المهني، والذي تستخدمنه كلُّ الوكالات الخبرية المرموقة. لماذا علينا أن نُقبل مؤخرة الانقلابيين الآن، رغم أن الصورة لم تتضح بعد.

- أي صورة هاي؟ خلص.. هذه ثورة شعبية، وأميركا تؤيدتها. يعني العم الكبير يؤيدتها، يعني باقية وتمدد.

تصاعدت حمى النقاش، وظلَّ علي صامتاً، وتمئنَّا إلا يسأله أحدٌ عن رأيه. لأن رأيه سيبدو فلسفياً أكثر من اللازم، وبالتالي غير مباشر أو واضح. سيقول لهم مثلاً؛ إننا فعلنا المستحيل طوال عقود طويلة، من أجل اختيار الخيارات الخاطئة دائماً. كنا متطرفين دائماً، وليس انتحاريين، على الأقل الانتحاري يعرف بأنه ينفذ هدفاً بجسمه المُلَمَّ. أما نحن فنقتل أنفسنا فداء لإله غامض لا يفصح لنا عن خططه. إنه العدمية الشاملة.

أذعن الجميع في النهاية إلى الرأي القائل بثورية القادة الجدد. في كلِّ الأحوال لا أحد يعرف كيف ستكون الأوضاع في الفترة المقبلة، ومن العبث خسارة الوظيفة الآن. ربما لن تكون هناك فرصة لتعويضها في ظلِّ الظروف الحالية التي تخبيء أشياء أكثر مما تعلَّن.

صباح اليوم التالي استحمَّ بشكلٍ جيد وحلق وتعطر، وارتدى أفضل ملابسه. وغادر مسرعاً باتجاه شقته. كانت على حالها، متربة ووسمخة، وتحتاج إلى تنظيف مدة أسبوع. أهمل كلَّ شيء، ورَكَّز جهده على غرفة النوم. أخرج ملاءات جديدة وفرشها على السرير. وضع معطر جو. نفخ التراب عن المزهريات أمام ميز التواليت وكنس الأرضية. صارت الغرفة جاهزة لاستقبال «بان».

تناول على السرير ليحتفظ بطاقة حتى موعد لقائه مع بان. ثم قبل أن يغفو سمع طرقات على باب الشقة.

كانت بان على هيأتها التي رأها بها عصر يوم أمس. وكأنها قضت الوقت كله وهي تتجول في الشوارع. ما زالت اللفة ذاتها على رأسها وجهها، حقيقتها وملابسها. واللامع التي رأها بها آخر مرّة. كانت فاترةً، ولا تبدو بحماستها المعهودة.

- آني آسفة.. ما ادرى ييك انضربت. حمدللّه ع السلامه.

- تسلمين.

- يمكن آني شورت ييك. كم كنت أكرهك.

قالت ذلك وهي ترمي إليه بنظرات لوم وحزن. حاول احتضانها وهو يجلس بجوارها، ولكنها لم تبد أيَّ استجابة. ظلّت مستغرقة مع نفسها. وشيناً فشيئاً شعر على بان هذه البوادر لا تشير إلى أنها سيدخلان إلى غرفة النوم. لم يكن مستعداً لتقبُّل هذه النتيجة، ولكن انتظر حتى يعرف ما هي ضرورات اللقاء به بالنسبة لبان.

- لقد تطلقنا.

قالت ثم رمت حسراً مديدةً، وكأنها أزاحت صخرة ما جاثمة على صدرها.

- تخلصت منه أخيراً. وبما أنك خيّرتني خيارات صعبة، فأنا اتخذت قراري في النهاية. اخترتك أنت، وتركت هذا الأرعن. على الأقل أنا لست مضطرة الآن للاعتراف له بأن سيف ليس ولده.

- من هو سيف؟

- إبنتنا.

قالت له بأنها اضطرت لترك ولديها الآخرين عند زوجها، ولكنها ليست مستعدة لترك سيف مع رجل لا يمثّل لها بصلة. هي الآن شبه ضائعة، تسكن في بيت أختها الكبيرة. لقد وضع كلّ أوراقها في سلة واحدة، وهذه السلة عند علي الآن.

شعر علي بأن جزءاً من جدار الشقة قد سقط عليه. وتذكّر فوراً صديقه العجوز واصف، ورغب بالاتصال به كي يسأله عما يقصد بـ«الحياة الأفضل» التي حدّثه عنها سابقاً. أراد أن يخبر بان بأنه لا يُصدق ما يقول، وأنه لا يتذكّر كيف حملت منه، وأشياء أخرى ستنتهي طبعاً بالشجار، وربما بمعادرة بان الشقة وهي غاضبة وباكية. ولكنه كان يشعر برغبة قوية تجاهها. كان يشتتها، وربما ذلك من آثار استغراقه الطويل مع الغيبة والإصابة وأحاديث السياسة والتعويذات السبع وهذه الدوامة من الأشياء المتلاحقة التي أنهكت دماغه.

جذبها إليه وقبل رقبتها، ولكنها لم تتفاعل معه. نهض وحاول سحبها من يدها. دعاها إلى غرفة النوم، ولكنها تصلبّت في جلستها أكثر.

- شجاعي تسوّي علي... أريد اسمع منك جواب.

- تعالى هسه.. بعدين نسولف.

- لا علي.

نفضت ذراعها من يده القابضة. ولم تنظر إليه.

- انطيني جواب علي. انت خيرتني بين خيارات واني اتخذت  
قراري. عفته واجيتك. شراح تسوی هسه؟  
- سهله.

قال ذلك ثم جذبها ولما لم تنھض انحنى عليها وقبل شفتيها.  
ولم تمنعه ولكنه اكتشف أنها بعيدة تماماً، ولن تمنح نفسها في هذه  
اللحظة ما لم يعطها رأياً بما فعلت. وهو رأي سيقرّر مصيرها.  
خدمت فورة على فجأة وجلس بجوارها، وظلّ صامتاً لعدة  
لحظات. حاول العثور على جواب ما لا يُورّطه أكثر مع هذه المرأة،  
ولكنه فشل. سيقرّر تجميد هذا الوضع لفترة معينة.

- آني هسه ما اكدر اسوبي شي. بس اذا تحبين تنتقلين إلى هاي  
الشقة ما عندي مانع.  
- باي صفة علي؟

شعر علي بالإرهاق فجأة، فوعدها بأن ينفذ كل طلباتها. إنه يرى  
نفسه زائراً في هذا العالم، وسيغادره في أي لحظة، ولا موجب  
للتعامل بجدية مع أي قرارات يتم اتخاذها هنا. لم تتقبل هي  
تطميناته، ولم تَر أنه جادًّا فعلاً فيما يقول. لم يبدُ سعيداً، كما  
شعرت، بالأخبار التي حملتها له. لم يُعلق بشيء على حكاية  
«سيف». لم يبد فضولاً لرؤيته.

لم تحصل على طمأنينة واضحة ولكن الشرارة كانت مفيدة في  
شيء واحد، فقد هدأت أعصابها قليلاً، ووجودها بجوار علي  
وشعورها به أسمهم في إزاحة جانب من الإرهاق والتعب بسبب  
الاحداث الشخصية باللغة السوء التي حصلت لها مع طليقها. صار  
علي يُقبّل رقبتها وهي لا تمانع، ثم دفعها برفق على الأريكة وانحنى  
فوقها ليُقبّل شفتيها، وفي هذه اللحظة تجاوبت معه قليلاً.

صباح هاتفه المحمول في جيب سترته الملقة على كرسي مجاور. أراد تجاهل الرنين، لكنه أزعجه وعُكَّر مزاجه، كما أن بان دفعته برفق بعيداً عنها وكأنها تذكّرت القضية الجدية والحساستة التي جاءت من أجلها إلى هنا. قام وهو يعتزم غلق الهاتف إلا أنه شاهد اسم المتصل، انه «الزعيم» صديقه.

- وين أنت؟ السيارة أمام باب البيت؟

- يا بيت؟ آه.. لا.. أنا في بيتي، في شقتي.

- اعطني العنوان، سيأتون إليك فوراً. أوكي؟!

ارتبك تماماً، واستحضر دون شعور منه صورة مدير الإذاعة المرعوب من العسكر. ربما صار صديقه القديم مجنوناً تماماً، من يدرى، ربما لن يقدر صداقهما القديمة؟ لماذا تحدث معه بهذه النبرة الحازمة؟

انتهى كلُّ شيء مع بان. فَقَدَ استرخاءه، وقال لها بأن هذا الاتصال أبلغه بموعده طارئ مع «الحكومة». لم تبِد بان ردة فعل محدّدة. تناولت الشال الطويل وأعادت لفَّه باسترخاء حول وجهها ورأسها حتى صنعت منه عمامنة كبيرة، ثم تناولت حقيبتها، وقبل أن يخرجَا معاً من الشقة، قالت له بأنها تحبُّه، وأنها لم تكون مخطئة بالرهان عليه.

تجاهل التبرة الرومانسية في كلامها، وانشغل بقفل باب الشقة، ودفعها بيده برفق كي تنزل من سُلّم العمارة. كان وكأنه يرغب باختفائها قبل مجيء سيارات الجيش أمام العمارة.

كانت الساعة تشير إلى انتصاف الظهر حين غادرت بان، وبقي علي يدْخُن على الرصيف أمام العمارة، ولم تمضِ سوى نصف ساعة

حتى جاءت ثلاثة سيارات دفع رباعي، عليها علامات على الجانبين تشير إلى الاستخبارات العسكرية. نزل ضابط صغير برتبة ملازم أول وسلام على «الاستاذ» علي بكل احترام، ثم دعاه للركوب في المقعد الخلفي للسيارة. ركب معهم ثم انطلقوا بسرعة هائلة في شوارع بغداد، وعبروا الجسر باتجاه المنطقة الخضراء.

لم تكن هناك حواجز أمنية ولا سيطرات أوقفت رتل السيارات، وتعجب علي من سرعة الوصول إلى قلب المنطقة الخضراء، وهو أمر شبه مستحيل بالنسبة للاشخاص العاديين.

دار في مرات، وتم تفتيشه اكثر من مرّة، وحين طلبو الاحتفاظ بهاتفه محمول في الأمانات، أشار لهم الملازم الشاب بالرفض. سيحتفظ بتلفونه. أعطوه هوية تعريف «زائر» علقها على رقبته ثم دخل معهم إلى قاعة، سرعان ما اخترقوها بتجاهل للموجودين فيها واتجهوا إلى المصاعد.

كان العقيد عبد العظيم حامد، مع مرافقه وحمياته وبقية ضباط المجلس، يشغلون المكاتب التي كان يشغلها إلى ما قبل أسبوعين رئيس الوزراء المنتهية ولايته.

وقف علي أمام صديقه القديم، ولم يستطع إخفاء شعوره بالقلق والرعب. والسبب الأكيد في ذلك هو الأجواء المحيطة بهذا اللقاء، وطبيعة المكان الحساس الذي لم يدخله علي سابقاً، وإنما كان يرى تفاصيل منه في التغطيات الإخبارية على القنوات الفضائية.

خطا عبد العظيم خطوات واسعة حتى وصل إلى صديقه واحتضنه بقوّة وصار يضحك. وضحك علي معه، ثم أشار إلى مرافقيه بجلب الشاي والماء، وسحب علي من يده للجلوس في صالة استقبال فخمة. وقبل أن يتحدث علي بأي شيء، ظل عبد العظيم

يستجوبيه. ماذا تعمل؟ هل تزوجت؟ صار عندك أطفال؟ شكد راتبك؟ وين ساكن؟ وغيرها من الأسئلة التي يمكن أن يتبادلها أصدقاء عاديون.

كان الحائط المواجه لمكتب عبد العظيم مملوءاً بالكامل بشاشات فضائيات عديدة، وكلُّها تعمل ولكن من دون صوت. وظلَّ عبد العظيم ينقل عينيه ما بين هذه الشاشات الكثيرة ووجه صديقه القديم «الفيلسوف».

- ماذا يقول الناس في الشارع عننا؟

سأل عبد العظيم، مستمراً باستجاباته، ولكنه نقل الأسئلة إلى دائرة أكثر عمومية. ولم يعرف علي بماذا يرد، ثم تذَّكر فجأة مشهد حرق الدستور في ساحة الفردوس، فروى الحادثة، وكان عبد العظيم مبتسماً، ثم أشار إلى أنه تابع هذه «الفعالية» التي نقلتها إحدى الفضائيات.

- ما زلت كما أنت. لن تجيب على أي سؤال بجواب واضح.

اسألك فتروي لي حادثة.

علق عبد العظيم، ثم مدّ يده إلى المكتب الفخم الذي صار وراءه ليأخذ قداحة معدنية ويشعل بها السيجار الفخم الذي كان معلقاً بأصابعه طوال الوقت الماضي. صار يُدْخِن وطلب من علي أن يأخذ سيجاراً مشابهاً من العلبة الموضوعة على طاولة جانبية بين الارائك الوثيرة. لكن علي فضل ان يدْخُن سجائره المعتادة.

- هناك فرضي في الحقيقة. بالتأكيد أناس كثيرون يؤيدونكم. ولكن ليس كلهم.

قال علي فابتھجت أسارير عبد العظيم وردد عليه بحماس:

- بالتأكيد الناس مؤيدة. وإنما كيف صنعنا «الثورة»؟ هل يجاذف أحدٌ ما بسهولة ب حياته من أجل نفسه فقط؟

قال عبد العظيم بصيغة سؤال وكأنه يتضرر من علي التعليق أو الإجابة. ولكنه سؤال سيتلقي عبد العظيم إجابة غير مريةحة عنه فيما لو فتح علي فمه بكلام صريح.

ظلّ عبد العظيم يشرح لعلي بالواقع نفسه الذي كان يتحدث به عندما كانا زميين في كلية الفنون، أو في لقاءاتهما القليلة بعد ترك عبد العظيم للدراسة في الفنون وانتسابه للكلية العسكرية. كان يتحدث بنبرة رجل يحاول الحصول على الاعتراف والموافقة، وكأنه غير واثق تماماً مما فعل، وكأن دور علي يكمن هنا، ولربما هو سبب جلبه إلى هذا المكان؛ إعطاء صديقه المغامر نوعاً من المباركة لمغامرته الغامضة، التي تشبه قفزة في الظلام.

- كان لدينا مجلس قيادة ثورة، كما هو معتمد في حركات مشابهة، كلّهم ضباط كبار برتب عالية، ولكن في الليلة السابقة للعملية جرى اعتقالهم كلّهم، ثم خلال محاولاتنا تحريرهم جرى قتلهم جميعاً. أنا كنت في الصف الثاني أو الثالث. كنت أتلقي الأوامر وأنفذها. كنا نعمل بصمت منذ سنوات، نحضر بهدوء وسرية، وبعد مدة شعرنا جميعاً بأنه لن تكون هناك إمكانية للتراجع، لقد تورّطنا جميعاً، فلما أن تنجح هذه العملية، أو أننا سنثال عقاباً قاسياً في كل الأحوال، في حال تراجعنا عن خططنا، أو في حال نفذنا العملية وتم إجهاضها.

- ولكن العملية نجحت!

علقَ علي متجلّباً كلمات مثل الانقلاب أو الثورة، وراغباً في

الوقت نفسه بتشجيع صديقه للادلاء بتفاصيل أكثر، ربما لا يعلمها أي شخص آخر ما سوى الدائرة الضيقة لمجلس الضباط ومعاونيه.

نهض عبد العظيم من مكانه وظلّ يدور بعدة خطوات وكأنه يحاول مساعدة نفسه على التركيز في الكلمات التي ستخرج من فمه.

- أنا لم أكن أتخيل يا علي، ولا للحظة واحدة، أنني سأكون في هذا المكان. جُلُّ ما كنت أتصوره، أنني سأكون على رأس أميرية وحدة عسكرية تُطوق بغداد لأغراض الأمن، لا أن أكون «الزعيم» كما يحب حمایاتي أن يسموني. أنا لست زعيمًا ولا بطيخ!

- لقد تورّطت إذن.

لم يعرف علي كيف تجرأً لينطق هذه العبارة. سشعر بالخطأ حالما خرجت من فمه، وهو عادة لا يرتكب حماقة مماثلة. إنه «الفيلسوف» الذي يلفّ ويدور حول المعاني والكلمات ولا يقول شيئاً واضحاً في نهاية المطاف. ولكن النبرة التي تحدث بها عبد العظيم، أعادت إليه صورة صديقه القديمة. الشاب المرتباً الغاضب، المترنح من الأحوال والأوضاع العامة، الذي يريد أن يفعل شيئاً، ولكنه لا يعرف ما هو. الذي يشعر بأزمات المحيطين به، ويحاول أن يساعدهم، ويفشل غالباً، بسبب ضيق ذات اليد وندرة الخيارات، فيتحول كل ذلك إلى أزمة شخصية عنده.

- آه.. تورّطت.

ردّ عبد العظيم بنبرة اعتراف وهو يعود ليجلس على الأريكة الوثيرة أمام علي.

- ولهذا أنا استدعينك.

- أنا معك في أيّ مساعدة.

عاود عبد العظيم اشعال سيجاره الذي انطفأ، وبعد أن سحب نفسيّن بدخان كثيف، حدّ النظر باتجاه صديقه وقال:

- لا أريد مساعدة على.. أريدك أن تكون بجواري دائمًا.

سأصدر أمراً بتعيينك مستشاراً في المجلس العسكري. سأجري لك راتباً مجزياً، وتكون معي دائمًا في كل القرارات التي يجب علي أن أتخاذها خلال الفترة المقبلة.

ذهلَ علي من كلام صديقه. آخرُ شيءٍ يرحب به أن يشارك في هذه الحفلة المجنونة، لأنَّه غير واثق من أنها ستؤدي في كلِّ الاحوال إلى نهاية جيدة. ولكنه صديقه وقد بيَّن له بوضوح كيف أنه لم يُسعَ إلى هذا المنصب ولا إلى أن يكون صاحب قرار يخصُّ مصائر الناس والبلد.

عليه أن يساعد صديقه في محنته. ربما عليه إن تطلب الأمر إقناعه بالتخلي عن هذه المسؤوليات الجسيمة، والتراجع خطوةً إلى الوراء، وليرقم شخصٌ آخر، ربما من مجلس الضباط نفسه، بأداء مهام «الزعيم».

تحدَّث علي بكلام كثير، ولكنه كالعادة لم يكن واضحاً، غير أن عبد العظيم فَهِمَ منه أن صديقه القديم لا يُمانع بمساعدته. وحين نهضَا سويةً، شاهد علي صورته تتعكس على مرآة طولية موضوعة كزينة في المكتب. لمع صورته وهي ترددُ عليه برسالة غامضة. كان يرى دهشةً وانتشاءً على ملامحه. هو إذن في العمق لا يمانع هذا التحول الذي سيحصل في حياته، من مذيع ومقدم برامج مغمور، إلى مستشار في المجلس العسكري، بمرتبٍ كبيرٍ وربما حمايات وامتيازات كثيرة أخرى.

ربما هذه هي لحظته المنتظرة. هذا ما تحدَّث به صديقه العجوز

واصف. كان عليه أن يصبر قليلاً ليرى نتائج التحول في حياته نحو الأفضل.

حاول إقناع نفسه بأن «الأفضل» قد فتح أبوابه أخيراً، ولكن غيمة سوداء غامضة في داخله ظلت تدور لتغطي كلَّ هذه الإشارات الواصلة بهالة من الشك.

قال له عبد العظيم، بأن هذا اللقاء من أجل نيل موافقته على الوظيفة فحسب، وأنه سيرتُب خلال الأيام المقبلة وضعه داخل المنطقة الخضراء، ونادى على أحد مرافقيه كي يُبلغ الدورية العسكرية التي جاءت بعلي أن تعينه إلى حيث يشاء.

## - ٧ -

في الطريق ساعد صمت الضباط ومرافقهم في السيارة على استراله مع نفسه. ماذا لو أنه أعجب بهذا التغيير الذي يحصل له. كان منذ ساعات يظنَّ بأن عليه ألا يأخذ ما يجري له في هذا العالم على مَحْمَلِ الجد. ماذا لو أعجبته حياته هنا، وشعر بأنها الحياة التي يستحق أن يعيشها فعلاً، ثم في هذه الأثناء وبهذه اللحظة تحديداً، يأتي شخص مجهولٌ في عالمه الأول الذي تركه، مثل ذلك الممرّض المجنون الذي ظلَّ يُثْرِثُ على مسامعه، ليقوم وبحركة حازمة بفصل أجهزة المعدني والتنفس عن جسده؟!

## الفصل الثامن

# خطافٌ قَبْيُّ الشَّكْلِ

- ١ -

يستريح على في مكتبه الوثير الذي كان لمستشار الأمن الوطني السابق المعتقل حالياً في سجن المطار. يمسح بيده على الخشب الفخم المطلبي بشكلٍ جيد وعلى الجلد الناعم للكرسي، ويشعرُ مع نفسه أنه غير مؤهلٍ للجلوس في مكتب مثل هذا، يستطيع الجزم أن شاغله السابق، مستشار الأمن الوطني، لا يستحق الجلوس على هذا المكتب أيضاً. لا أحد من الموجودين مناسب للجلوس في كابينة القيادة في هذا البلد المجنون.

يدخل موظفٌ خدمة يحمل صينية نحاسية مزخرفة، يضع بهدوء فنجان القهوة مع كأسٍ ماء ثم يغادر. يرشفُ على من الفنجان ويستذكرُ محاولاً ملاً الفراغات في قصة صديقه عبد العظيم.

كانوا سويةً هو وعبد العظيم مع شلة الأصدقاء المقربين في كلية الفنون حتى السنة الثالثة، وهي السنة التي شهدت فشل الأخ الأصغر لعبد العظيم في الاختبارات الصحية لانضمامه إلى الكلية العسكرية في بغداد. كان هذا حدثاً فاصلاً، فعائلة عبد العظيم لها علاقة طويلة مع السلك العسكري يعود إلى أواخر العهد الملكي، مع جدٍ ما كان ضابطاً في قوة الشرطة السيارة التي كانت تقوم بمهام قتالية عسكرية

ضد العشائر العربية المتمردة وضد الأكراد في الشمال في بعض الأحيان.

استمرت وراثة العمل العسكري في العائلة، بغض النظر عن النظام السياسي القائم، وكانت السلالة كلها وفيه لمبادئ العسكرية حتى مع انسحاب العقيد حامد محمد نعيم والد عبد العظيم بوحدته العسكرية من الكويت مع شعور كبير بالمهانة، وكان يُغالب مع نفسه رغبة قوية بالانتحار بمسدسه الشخصي، وظلَّ نادماً على عدم انضمامه إلى المنتفضين في الجنوب ضد نظام صدام، ولكنه فَكَرَ بعائلته في بغداد وحياتها ومصير أبنائه بعده.

كان عبد العظيم، الابن البكر في العائلة، قد أعلن منذ وقت مبكر، خصوصاً مع رؤيته لتداعي المؤسسة العسكرية العراقية وانهيارها العميق، أنه غير مستعدٌ لوراثة «الدم العسكري»، وأنه يرغب بقوة بالعمل في المسرح. هو مُمثل جيد، كما أخبره أساتذته في الإعدادية. لديه مكتبة سينمائية جيدة، ويحرص على مشاهدة العروض المسرحية العراقية إن كانت في مسرح الرشيد أو الوطني أو حتى في منتدى المسرح بشارع الرشيد، ويفخرُ أنه صديقُ لبعض الفنانين والمخرجين.

سبَّبت هذه النوايا خيبة شديدة لوالده، ثم مع التقديم لكلية الفنون الجميلة حدثت معركة صغيرة في البيت، اضطرت عبد العظيم إلى المغادرة إلى بيت أخته لبضعة أسابيع، ثم استسلم الجميع لرغبته، مع إعلان الأخ الأصغر بأنه يرغب فعلاً، حين يحين الوقت، بالدخول إلى الكلية العسكرية. وهذا ما جعل الأب يهدأ، على الأقل حتى ذلك اليوم من سنة عبد العظيم الثالثة في كلية الفنون، حين عُلِمَ فيه أن أخيه فشل في الاختبارات الصحية، ولم تفع تدخلات الأب

الضابط المتقاعد القديم، وشك عبد العظيم لاحقاً بأن أخيه غير رأيه من دون أن يبلغ أحداً بذلك، وأنه أفشل نفسه عن عدم.

في كل الأحوال، كان عبد العظيم يعيش في تلك الفترة مزاجاً مختلفاً، ولم يعد بتلك الحماسة السابقة لدراسة التمثيل. لم يتأكد من أنه ممثل عظيم، كما أن مصائر الفنانين وأحوالهم، مع تداعي كل شيء في التسعينيات، ليست جذابة ولا مغربية. ثم اكتشف أن بعض الضباط كانوا يأتون للدراسة المسائية في كلية الفنون، وبمصاحبة بعضهم علم أنهم يرغبون بمصادقة الطالبات لا أكثر.

صار كل ما يراه تافهاً، كما أن والده العقيد حامد محمد صار هرماً ومرضاً، وبدا يائساً ومحبطاً، وتخيل عبد العظيم أحياناً بأن هذه السلسلة العسكرية التي تبتدئ من جد غامض بشارب هتلري وتنتهي عند والده، هي سلسلة عظيمة فعلاً ومن المؤسف أن يكسرها هو، ويجب أن تستمرة، على الأقل كنوع من المكافأة لأوهام أبي.

- إن اسمك مناسبٌ لضابط وليس فناناً.

قال له علي ذات مرة معلقاً على أزمة صديقه، غير مقدر بشكل جيد لأهمية الموضوع.

- صديقي أنت لا تفهم. سأترك كلية الفنون وربما لن نلتقي بعدها.

- ٢ -

اختفى عبد العظيم بضعة سنوات، الأمر الذي أثار قلق أصدقائه، ليظهر لاحقاً برتبة ملازم، مع شاربين كثين، ثم صارت فترات غيابه طويلة، بحكم ارتباطه بعملٍ قذفه إلى أماكن بعيدة، فضلاً عن تغير المزاج العام لشباب تخرجوا وذهبوا إلى الخدمة

العسكرية الإلزامية كجنود مكلفين ثم تسرّحوا إلى شوارع البطالة أو الأعمال المهينة، ثم عاد عبد العظيم ليظهر بشكل منتظم مع «جمعية المنتحرين» وحديقة الدكتور واصف، وما سهل له التواجد مع أصدقائه القدامى أنه صار يخدم في وحدة عسكرية عند أطراف بغداد، بالقرب من موقع آثار قديم يُدعى تل أبو صلايبخ، وصار يستطيع النزول بشكل يومي إلى بيته، ويغيب أحياناً بالتنسيق مع زملائه الضباط.

أشياء كثيرة تغيرت في عبد العظيم إلا مزاجه السلبي، الرافض والمتبّرّ، وهذا ما كان يميّزه، فلا شيء يرضيه أو يقنعه. كان وضعه المادي سيّناً بسبب التزاماته المالية الكثيرة تجاه والدين مريضين وأخوات يتّضمنن الإعاقة من عائلة الأب، وبسبب إنفاقه على علاقاته النسائية التي لا يتكلّم عليها غالباً.

الشيء الذي لم يكن علي يعرفه أن حضور عبد العظيم مع ليلي إلى حديقة بيت الدكتور واصف لم يكن مصادفةً، وإنما حلقة جديدة في علاقة معقدة بين الاثنين، كانت تحت السطح من أيام الجامعة، واستمرّت حتى مع ذهاب عبد العظيم إلى العسكرية. كان يلاحقها، متعلقاً بها وغير قادر على الخلاص منها، حتى انتهي إلى الخطوبة. كانت ليلي خطيبة عبد العظيم السرية، ولم يكن يرغب بالإعلان عن ذلك أمام أصدقائه لسبب لا يبدو مفهوماً لعلي.

تزوجا وأنجبا ولدين بعد الاحتلال، واستمرّت علاقتها بين مذ وجذر حتى وصلا إلى الطلاق في أواخر العام ٢٠١٢. ولم يكن ذلك برغبة كاملة منه. ولكن حياتهما معاً صارت سلسلة مستمرة من المشاكل.

وعلى الرغم من افتراقهما إلا أنها ظلت حاضرة في ذهنه، وفي

أوقات ما كان يرحب لو أن هناك شيئاً ما ينزعها من رأسه، أو ينزع رأسه. ثم وجد ما يشغلها عنها حين دخل في مجموعة من الأصدقاء الضباط برتب عسكرية متقاربة، يثثرون دائمًا عن سوء الوضع وضياع كرامة العراق وخسارة البلد لكل شيء. كانت مجرد أحاديث بين أشخاص محبطين، ولم يتوقع أن هذه الأحاديث، وعلى مدى سنة كانت مختبرًا لمعرفة اتجاهات التفكير والميول والأمزجة الخاصة بضباط صغار يُراد لهم أن يؤدوا أدواراً أبعد بكثير مما كانت تخطط له المؤسسة العسكرية في ظلّ النظام السياسي الجديد.

لم يتغير الكثير في الأحاديث المترسبة والمنتقدة في شلة الضباط الأصدقاء، الذين يتلقون أحياناً في مكاتب وحدات عسكرية، أو في الإجازات في شقق أشبه ما تكون بأماكن استراحة، فيها كل شيء، من المشروبات إلى النساء إلى الثرثارات الخطرة التي صارت تتتجاوز الحدود المعقولة لثرثرات المقاهمي إلى الاسرار العسكرية، وإلى اتصالات بعض الضباط بمسؤولين غير عراقيين.

لا يعرف عبد العظيم أين كان الحد الفاصل ما بين اللغو الآمن والكلام عن خطط انقلابية يمكن أن تودي بمستقبله العسكري. لكنه وجد نفسه يتوجه في هذا الطريق دون تردد. حتى تبلور الأمر قبل حدوث الانقلاب فعلياً بعدهة أشهر. كان عبد العظيم مع مجموعة من الضباط من الصف الثاني، ولم يكونوا مسؤولين عن التفكير والتخطيط أو أي شيء. وفي أعماقه شعر عبد العظيم أنه مجرد عمل انتحاري تأجل كثيراً. كان يجب أن يحدث ضد نظام صدام أصلاً. ونظر إلى مجموعة الضباط الصغار والكبار على أنها استعادة عملية لـ «جمعية المنتحرين» التسعينية، والفرق الأساسي أن المجموعة الجديدة ستتهرّ فعلًا.

كان الانقلاب العسكري يتحرّك بقوّة حين خرجت مجموعة مضادة، قامت بتصفية دائرة الضباط الكبار محدودة العدد، فصار عبد العظيم وزملاؤه من العقداء في الواجهة فجأةً، حتى انتهى بهم المطاف في قلب المنطقة الخضراء، وأمام مايكرفونات القنوات الفضائية وهو يقرأ البيان رقم واحد.

حدثت هذه التطورات بشكلٍ متسرّع، ومنها أنه بات ينام ويصحو على مسمى «الزعيم» الذي لم يعد يذكره بضباط ١٩٥٨ وإنما بمسرحيّة كوميدية قديمة للممثل عادل إمام.

### - ٣ -

كان عبد العظيم يسردُ هذه الأحداث ويملاً الفراغات في قصته أمام علي، خلال لقاءاتهما داخل بناء القصر الجمهوري، على العشاء، أو بعد ذلك، حين يقيمان وحدهما. وأحياناً يدعوه للشرب معه في جناحه الخاص خلف الحمايات والحراسات المشدّدة. ومن بين كلِّ التفاصيل التي تعرّف عليها علي لأول مرّة كان التفصيل الخاص بليلي قد فاجأه فعلاً.

كانت ليلى إذن خطيبة عبد العظيم حينما ذهب علي ونام معها. لقد نام مع الزوجة المستقبلية لصديقه المقرب. لماذا لم تكشف ليلى عن اسم خطيبها في ذلك الوقت؟ لماذا لم تكن باكراً إذن؟ وهل يعلم عبد العظيم بشيءٍ عن هذه العلاقة العابرية بين خطيبته وصديقه الفيلسوف؟ ربما كانت السبب في المشاكل بينهما.

هل استدعاءه إلى هنا من أجل الانتقام منه بشكلٍ ما؟ هل عليه أن يخشى صديقه القديم الآن؟ ظلّت الأسئلة من هذا النوع تتلاحق في

رأسه بينما يبدو مظهره الخارجي هادئاً في حالة إنصات عميقه لأحاديث صديقه «الزعيم».

كان علي قد أخبر أخاه بأنه انتقل للعمل مع الحكومة، ولكن من دون تفاصيل كثيرة. وتقبل عمار هذا الحدث الجديد بترحيب.

- أحسن من عملك السخيف بالاذاعة.

قال عمار بحماسة، كاشفاً لأول مرّة أمام أخيه الأكبر عن رأيه الصريح بعمله الاعاري. ولم يرغب علي بالاسترسال أكثر، إنه عمل مع الحكومة، سريٌ وليس من الجيد كشفه أمام الآخرين. تعهد عمار بإبقاء الأمر سراً متمنياً لأخيه النجاح والموفقية.

أول نصيحة وجهها علي بصفته مستشاراً لـ «الزعيم» هي أن يحاول الاتصال بالمؤسسات الاجتماعية التقليدية ويطمئنها على أهداف الانقلابيين، وأن الهدف هو محاربة الفساد وليس إلغاء العملية الديمقراطية، وأنهم سيعملون على تأسيس النظام الديمقراطي من جديد.

- ولكتنا لن نعيد هذه الوجوه القبيحة إلى الواجهة من جديد.  
قال عبد العظيم، وأكّد له علي أنه يقصد نظاماً جديداً هو بالتأكيد ليس إعادة تدوير لفaiيات النظام السابق.

ولكن هذا الكلام بدا مسترخيّاً ونظرياً جداً قياساً بالأحداث على الأرض. كان المحافظون في الجنوب قد اجتمعوا في الحلّة، وقرّروا تشكيل هيئة ائتلافية استشارية بين مجالس المحافظات التسع، تقوم بمهام الحكومة المركزية الملغاة، ريثما يعود الوضع إلى ما كان عليه. ويبدو أن المرجعيات الدينية والعشائرية كانت تؤيد هذا الأمر. كذلك الأمر شمالي وغرب بغداد، فعلى الرغم من سقوط أغلب مدن هذه المنطقة بأيدي التنظيم الارهابي إلا أن هناك شخصيات

كثيرة في أربيل وعمان كانت تتحدث بصفتها ممثلةً سياسيةً عن «شعب» هذه المناطق، وهم أيضاً قرّروا الاجتماع في مدينة تكريت المحروّرة من أيدي الإرهابيين، لإعادة تشكيل واجهتهم السياسية، وصاروا بسرعة يتقدّمون مع الهيئة الائتلافية الاستشارية للحلّة، بتجاهلٍ تام للضباط الانقلابيين في بغداد. وهو الأمر نفسه الذي عملته حكومة كردستان. فلا حوار مع المنقلبين على العملية السياسية. وقد أبلغوا الأطراف الدوليّة والإقليميّة كلّها بهذا القرار. بل وصدرت عريضة مطالب للامم المتحدة، وللولايات المتحدة التي ترتبط باتفاقية أمنية مع النظام السياسي المنهار، تجبرها على التعامل بحزم مع المنقلبين، وتحرير الطبقة السياسيّة الحاكمة من سجن المطار فوراً، بعملية كوماندوز وإنزال جوي إن طلب الأمر.

- سأقدمهم جميعاً إلى المحاكمة العسكريّة ونعدّهم ونخلص منهم... أليس هذا أفضل؟

قال عبد العظيم بعد ليلة سكر طويلة، وهو يتلقى الأخبار السيئة تباعاً من مستشاره الإعلامي، وهنا جفلاً علي في مكانه وهو يسمع كلمة إعدام. لا شك أن بعض المسجونين في المطار يستحقون الإعدام، ولكن علي لا يريد أن يكون شريكاً في أي إعدام. ليس هذا ما كان يفكّر به.

- يجب أن تستخدمنهم كورقة مساومة. لا أن تحرقها سريعاً.

- وماذا عن الكلام عن فرقة كوماندوز أميركية تحررّهم من السجن؟ لن يستطيع جماعتنا صدّهم. ستتعرض لخسائر كبيرة.

- ولماذا تُصدّق سريعاً هذه الشائعات؟ هل بدر من الادارة الأميركيّة ما يشير إلى أنهم متزوجون فعلاً من ثورتكم؟

- تصريحات سياسية فقط. لا يوجد إجراء حتى الآن.

هذا عبد العظيم قليلاً، وبدا علي وكأنه يؤدي دوره بشكلٍ جيد. إنه الفيلسوف الخاص بأعلى مسؤول في الدولة الآن، أو هكذا يريد أن يُوهم نفسه، فعبد العظيم، في وجه من الوجوه مجرد محافظ عسكري لبغداد. وليست لديه ولا لمجلسه العسكري أي سلطة فعلية على مناطق العراق الأخرى. ورغم السيطرة الظاهرة على الأوضاع إلا أن أحداً لا يعرف ما سيحدث غداً، وهو وضعٌ قلقٌ ولا يطمئن، غير أن علي كان يُوهم نفسه بأنه ما دام خلف الواجهة، وليس معروفاً بأي أدوار في العملية الانقلابية، فمن الممكن أن يكون آمناً، أو يجد مهرباً في اللحظة المناسبة، حين تسوء الأوضاع أكثر.

- ٤ -

صباح اليوم التالي، تم استدعاء علي بوقتٍ مبكر، فالزعيم يطلبه. لا شك أن هناك تطوراً ما حصل خلال الليل ويحتاج إلى مشورة. طلب الحرس من علي الذهاب إلى غرفة منام عبد العظيم، وليس مكتبه. فوجده هناك بملابس الداخلية ويبعد متعب الوجه في غرفة مليئة بضباب دخان سجائر كثيرة. طلب منه أن يجلس. ثم جاء جندي بصينية فطور وضعها على طاولة صغيرة وغادر. قال عبد العظيم لصديقه بأنه لم يستطع النوم خلال الليل، وأنه سيصاب بالجنون.

- ما الذي حدث؟

- ليلي ترفض الرد على اتصالاتي، أنا مشتاقٌ لولدي، وأريد أن أرجعها وهي ترفض.

- لم يكن هذا ما توقعه علي ، ولكنه يعمل كمستشارٍ خاصٍ عنده ، وعليه أن يساعدُه ، حتى لو كان في مسألة عائلية .
- أنت قلت إنك طلقتها منذ أكثر من سنة . ألا ترى أنه من المفيد نسيانها والالتفات إلى حياتك الجديدة .
- أيَّ حياة جديدة؟ أنت تندَّر جمعية المتحرّين التي أسسْتها . نحن الآن فيها يا صديقي . نحن متحرّون . سيتُّم القضاء علينا في أيِّ وقت . أرجو ألا تمانع بهذه الحقيقة .
- لا ... أنا أفكُر بهذا أحياناً . لقد كُتبَ علينا أن نحيا على حافة الموت دائمًا .
- أنا أريد إرجاع ليلي . لا أستطيع نزعها من دماغي ، أريدها أن ترى ما فعلت وما صنعت . أريدها بجواري . أخشى أن أموت قبل أن تعود لي . أشعر بضعف رهيب من دونها .
- اذهب إليها . إلى بيته .
- لا أستطيع الآن . وضعِي لا يسمح . وكأنك لا تعرف هذا التفصيل !
- نهض عبد العظيم من حافة السرير وارتدى بنطلونه العسكري الذي كان مرمياً على الأرض ثم جلس أمام صينية الإفطار ودعا مستشاره لمشاركته . وخلال الأكل تفاجأ علي من طلب صديقه . قال له إنها مهمة غير استشارية ، ولا علاقة لها بالعمل في الدولة ، وإنما هو طلب بين أصدقاء .
- عليك أن تذهب إليها وتقنعها بالعودة لي . أنت صديقنا المشترك القديم ، وهي تُقدِّرك كثيراً . أنت فيلسوف مجتمعتنا في الكلية ، أنسيت هذا؟! الكلُّ يحترمك ويقدِّرك . لا أعتقد أنها سترفض طلبك .

ظلَّ عليَّ خلال ساعات النهار يعيُّد تقليل هذه التفاصيل في ذهنه في محاولة لاستيعابها وفهمها واعتبارها واقعية وعادية، وفشل في ذلك. مازال ذكر اسم ليلي أمامه يشيرُ فيه شيئاً من الاضطراب. يتذكَّر أنه أخبر الدكتور واصف قبل سنوات بعيدة بأن هذه البنت مرسلة من أجل تعذيبه لا أكثر. تظهر في حياته ثم تخفي فجأة لتظهر لاحقاً وبشكلٍ مفاجئ أيضاً.

- أتذكَّر الوصف الدرامي لحال المنافقين في القصص الدينية. يتم الإعلان عن قبولهم كجزء من سكان الجنة، ويعبرون الصراط إليها، ويقتربون من بابها الرئيسي، الذي أتخيله مُذهبًا ومزخرفاً وبارتفاع شاهق. يحثُّون الخطى مبت Hwyin وحالما يصيرون في منتصف المسافة يرون الباب وهو يُفتح من تلقاء نفسه، وتنفرج فرداً نصف انفراجة. وتأتي ريح أشجار ونباتات عطرية فاغمة من داخل الجنة، وتخترق أنوف المنافقين وتملأ رئاهم بعبيرها وشذاها، وفي تلك اللحظة.. هووووب يتم سحبهم بسرعة من هذا المكان بوساطة خطافٍ قبيح الشكل ليتم رميهم في قعر الجحيم.

هذه كانت القصة المفضلة لعلي، والتي رواها أمام الدكتور واصف عدة مرات، وأمام أخيه عمار الذي يتجاوب مع القصص الدينية، رغم أنه لا يفهم المعنى من سرد قصة المنافقين مع الجنة، فمن المنافق في هذه القصة يا ترى، وما المقصود رمزيًا بالجنة هنا؟

- كأنَّ عليَّ أنْ أعيش عذابات مشابهة. لماذا أشم رائحة أشجار الجنة ولا أستطيع لمسها أو النوم بجوارها.

- هناك غابات كثيرة في الطريق، وروائح عطرية لنباتات لا تخيلها الآن.

كان الدكتور واصف يردد بهذه الطريقة كي يصغر من شأن الأزمة التي يغرق فيها صديقه الشاب. ونجح في ذلك نسبياً، ونسى علي معشوقته فترة طويلة، ثم اكتشف أنه في أوقات قوته المعنوية لا يعود مهتماً لسخافات فقدان العاطفي، غير أنه يعود، في أوقات ضعفه المعنوي، للسقوط تحت وطأة التذكرة. تبرز فجأة تلك التفاصيل الصغيرة التي تتوهّج وتتصبّح أكثر أهمية من أي شيء آخر. الصبغة المتقدّرة على ظفر إيمانها الأيسر بسبب أنها تعصّه دائماً خالل استغراقها في التأمل أو القراءة، ولا تنتبه أنها تُؤشر صبغة الظفر وتشوه منظره. دخول شعرة طويلة في فمها مع حركة الهواء أثناء كلامها، ودفعها لشعرها جانباً، لكنها تفشل في سحب هذه الشعرة من الفم، وتظل تتحدث لدقائق عديدة من دون أن يضايقها أن هناك شعرة ما في فمها، وقد يتجرأ من يجالسها إلى مد يده لسحب هذه الشعرة، وخشي علي في مرات كثيرة أن يقوم بهذا الأمر حتى لا تظن أنه يريد لمسها بحجة وجود شعرة في فمها، فهذه شعرة من شعرها هي وما شأنه بها.

يتذكّر الآن وكأنه يشاهد كلّ شيء على شاشة عرض على الحائط أمام سريره الوثير داخل المنطقة الخضراء، تلك القبلة المديدة المدوّحة في كابينة اللعبة الحديدية الدوّارة في مدينة الألعاب. أعظم قبلة حظي بها على الإطلاق، ثم الاختفاء الحاسم لليلي بعدها، حتى ظهورها مع عبد العظيم في حدائق بيت الدكتور واصف.

لقد بذل مجهوداً هائلاً لنسيانها، ونجح في ذلك، ثم أنسّته أجساد نساء آخريات المزايا الاستثنائية التي كان يفترضها لجسد ليلي. لا يستطيع حتى أن يقارن تلك التجربة البتّيعة بأشكال الألاعيب المجنونة التي قام بها مع زوجته في ستّهما الأولى. لقد

تدرّب عميقاً وصار أكثر معرفة، ولم يعد ذلك الشاب الأخرق الذي استخدمته ليلي لتجربة غامضة، كمن يستخدم منشفة وممسحة لمرة واحدة ثم تُرمى في المهملات. لقد حطّمته وأهانته، ولن تكون مناسبة لذكرى رومانسيّة جميلة أبداً. هكذا انتهت صورتها في ذهنه وهكذا تخلّص منها.

ولكن، ها هي تعود من جديد، بسبب طلب صديقه المقرب. بالتأكيد، بعد مرور أكثر من عقد وزواج وحمل لمرّتين ستكون مليئة بال بشور، سميّة بهيّة متعبّة. سيكون لقاوئه بها أشبه بالإطلاق الأخيرة على صنم كان معبوداً في يوم ما. إطلاقه ستحظّم هذا الصنم نهائياً وتبعثر أجزاءه في الذاكرة.

كان عبد العظيم قد أعطاها رقم هاتفها المحمول، وحين اتصل بها رغب لو أنها لا ترد أو يكون الرقم مغلقاً ولكن الاتصال تحقق وسمع صوتها في الطرف الثاني تسأله عن المتصل. أخبرها ب الهويّة، فضمنت لعدة ثوانٍ قبل أن ترد:

- أهلاً علي.. كأني أسمع صوتك في برنامجك الإذاعي. أنا مدمنة منذ فترة على سماعك.

- ها.. هذا شيء جميل.

- أخذت رقمي من عبد العظيم طبعاً.. لا أحد يعرف هذا الرقم غيره.

- أه.. هو من أعطاني إياه.

- يريده أن تتوسّط لارجاعي.. هذا من سبع المستحبّلات طبعاً.

- اعطني فرصة فقط ليلي.

- لا توجد فرصة علي .. إنـَّ هــذا المــوضــوع نــهــائــيــاً ، ولــكــنــ تــعــالــ لــأــرــاكــ فــقــطــ .

شعر على بالارتباك . أخذ العنوان منها ، ثم قبل أن يستعد لهذه المقابلة ، شعر بأنه من الضروري إبلاغ عبد العظيم بنتيجة الاتصال . وحين ذهب إلى مكتبه لم يعثر عليه ، قال له بعض الضباط المساعدين أن الزعيم غادر بطائرة مروحية إلى قاعدة عسكرية قرب تكريت ، لأن هناك معلومات عن انشقاق بعض الفصائل العسكرية بتحريض من الحكومة المحلية لتكريت وأعضاء سابقين في مجالس المحافظات الخاضعة لتنظيم الدولة الارهابية .

- ٦ -

وصل إلى بيت ليلي ، كان شقة واسعة رَّثَّة يلعب فيها طفلاً مشاكisan في عمر السادسة والخامسة . ففتحت له الباب ودعته للجلوس في الصالة ولم تكن مكتنزة على ما يبدو لأي ترتيب مبالغ فيه استعداداً لاستقبال ضيف . كانت متعبأً بمزاج رمادي ، ولكنها ما زالت تحافظ على بهائهما القديم ، حتى من دون مكياج على الوجه أو تسرية شعر مميزة .

قالت بأنها تعمل مُدرِّسةً في إعدادية للبنات قريبة من هذا المكان ، ولديها مسؤوليات كثيرة ل التربية الأطفال وإدارة حاجياتها ضمن حدود معقولة ، كما أنها تشتراك أسبوعياً في عمل منظمة نسائية للتوعية ومساعدة العوائل الفقيرة وإقامة بعض الفعاليات والنشاطات الثقافية والعلمية .

- أملاً كل ذرة وقت تائهة بأي شيء ، حتى أمنع نفسي من التفكير بهذه الحياة السخيفة .

قالت ذلك وكأنها تستعير جملًا رنانة من صديقها القديم. كانت أكثر حدةً ونرقاً مما كانت عليه سابقاً، وبيدو أنها غذّت عقلها جيداً، وهذا ما يمكن لمسه من الكتب المتناثرة على الطاولات الصغيرة أو على رفوف موضوعة بصورة ديكور وتكوينات جمالية متقطعة على الحائط.

- ما الذي تفعله الآن؟ لماذا توقفت عن البرنامج الاذاعي؟

لم يعرف علي بماذا يجيبها. كان الشق الثاني من سؤالها سهلاً. لقد توقف بسبب حادثة إطلاق النيران عليه. ثم صمتت عدة لحظات وشعر بعدها بأنه من غير السيئ إخبارها بالحقيقة. إنه مستشار زوجها الضابط الانقلابي الذي تحول إلى زعيم الآن.

- زعيم على نفسه. طول عمره كان يريد هذا الشيء. بس خلي يحط عصا التبغ الخاصة به بطيزه ولا يفكر أرجعله.

استمرّا بالكلام بايقاع متمهل، ورغم أن يؤدي الشقّ الخاص بالواجب في هذا اللقاء فصار يلُمحُ إليها ويؤكّد على ضمانات قطعها عبد العظيم على نفسه، ثم تبرّع بمديح صديقه القديم، وأهمية أن يكون في وضع نفسي جيد وهو يقوم بواجباته الخطيرة اليوم. استخدم علي كلّ ما لديه من أدوات لاقناع ليلى من دونفائدة، ثم أنهت ليلى هذا الشقّ من الكلام بدعوتها علي لتناول الغداء معها.

دخلت إلى المطبخ وظلّت هناك تُقرّقُ بالأواني، بينما علي يراقب الطفلين كيف انسدّحا على الأرض وهما يتبعان الرسوم المتحركة على التلفزيون.

قضي نصف النهار معها وهم يترثران، وفي داخله كانت تعتمل أستلة شخصية محرجة قد تخرّب السير المنتظم والمرريع لهذا اللقاء. لم يطلق عليها نيران أستلته وتركها تموراً في صدره. ثم أقنع نفسه بأنه من الجميل عيش هذه اللحظات العادبة مع ليلي، مهما كانت التداعيات. من الجميل أن يترك الأمور تسير بيقاع متوقع من دون مفاجآت، وعليه ألا يبدو مخبولاً ومختلاً أمامها، فيهجم عليها ليقبلها مثلاً أو يعترف مثل مراهق بأنه يحبُّها ويعشقها، على الأقل «كان» يحبُّها ويعشقها. من الأفضل ألا ينسى المهمة التي جاء بها، وإن الأمر كلّه مجرد عمل أو خدمة طلبها منه صديق حميم. عليه ألا ينسى أنها طليقة صديقه الزعيم الطارئ لبلاد محظمة.

- إن كان يحبني فعلاً فعليه لا أن يترك هذه اللعبة الانقلابية السخيفة التي أدخل نفسه بها فحسب، وإنما أن يستقيل من العسكرية كلّها.

- أنتِ تعرفين أن هذا طلب مستحيل يا ليلي.

- نعم، ولهذا أنا أطلب منه. دعه يُفاجئني بالاستجابة إن كان يحببني حقاً.

هذا ما خرج به علي من لقائه مع ليلي، وانتظر فرصة للقاء الزعيم لإبلاغه بنتيجة اللقاء شفويأً. انقضى جزءٌ كبيرٌ من الليل من دون أن يعرف مكان صديقه، هل سيعود إلى مقره أم يبيت في وحدة عسكرية ما نائية.

- ٧ -

كان علي مستلقياً على سريره الوثير في غرفته يتأمل السقف المشغول بنقوشٍ مغاربية بعدة ألوان وبمهارة عالية، حين رنَّ هاتفه

المحمول. فـّكّر بسرعة أنها ليلي، وأنها تريد أن تضرب معه موعداً جديداً لاستئناف كلامهما، ولكن حين رفع الهاتف شاهد على شاشته الرقم الجديد للدكتور واصف. جاءه صوت نشطٌ وقلقٌ في الآن نفسه:

- أنت مسترخي جداً يا ولد.. هل نسيت أن نسختك الأولى على شفا الموت. تموت هناك أثناء الغيبوبة فتموت هنا وفي كل مكان.

- أنا أفكر بهذا أحياناً يا دكتور. لن أكذب عليك. الأمر لا يشغل ذهني على مدار الوقت. الواقع اليومية العادية تفرض سطوطها على ذهني وتبعده هذه الحالات حتى لو كانت حقيقة.

- عرفت ذلك.. سيأتي يومٌ وتقول فيه مع نفسك؛ آه.. إنه أمر لم يحدث أبداً. وكلَّ ما مررتُ به مجرد أضغاث أحلام وكوابيس.

- وما الذي نفعله الآن يا دكتور؟

- لا تعجبني نبرتك يا ولد.. علينا أن نستعيد التعويذات السبع. علينا أن نصل إلى جرة أبو صلابيخ في المتحف العراقي بأي طريقة، نسرقها إن تطلب الأمر، وإن لا ستموت هنا عما قريب يا ولد.

## الفصل التاسع

### الحَمَاقَةُ الْكُبِيرَى

- ١ -

إنسَ كُلَّ شَيْءٍ وَاسْتَرِخَ تَامَّاً يَا عَلَىٰ. هَلْ تَتَذَكَّرُ الْفَقَاعَةُ  
الْزَّجَاجِيَّةُ لِلْدَّكْتُورِ وَاصْفَ؟ لَيْسَ عَلَيْنَا أَنْ نَنْتَظِرَ الدُّخُولَ إِلَيْهَا حِينَ  
تَكُونُ الظَّرُوفَ مُؤَاتِيَّة، بِإِمْكَانَنَا بِفَرْقَعَةٍ أَصَابِعٍ هَكُذا أَنْ نَدْخُلَ إِلَيْهَا  
وَقْتَ مَا نَشَاء. دَعْ رَأْسَكَ الْآنَ فِي حَجْرِي وَدَعْنِي أَمْشَطَ شَعْرَكَ  
بِأَصَابِعِي، لَنْ تَأْثِيرَ أَظَافِرِي وَلَنْ تَخْدُشَ فَرْوُتَكَ، لَأَنَّهَا لَمْ تَعْدْ مِثْلَمَا  
كَانَتْ سَابِقًا. أَنَا أَقْصَهَا الْآنَ بِسَبَبِ عَمَلِ الْبَيْتِ وَلَاَنِي مَا عَدْتُ  
أَكْتَرَثُ لِنَفْسِي كَثِيرًا. أَفْكُرُ بِهَذِينَ الْوَلَدَيْنِ؛ آدَمْ وَأَيْمَنْ. أَفْكُرُ أَحِيَانًا  
بِأَنَّ عَلَيَّ الْفَرَارَ مِثْلَمَا فَعَلْتُ أَخْوَاتِي قَبْلِي. الْذَّهَابُ إِلَىِ تُرْكِيَا وَالتَّقْدِيمِ  
هَنَاكَ عَلَىِ الْلَّجُوعِ الإِنْسَانِيِّ. لَمْ أَعْدْ قَوِيَّةَ مِثْلَمَا كُنْتْ سَابِقًا. هَلْ  
تَذَكَّرُ أَنِّي قَوِيَّةَ؟ سَتَقُولُ إِنِّي مَرْحَةٌ وَصَاحِبَةٌ وَأَشْرَبُ الْحَيَاةَ بِجَرْعَاتٍ  
كَبِيرَة. أَحَبُّ أَنْ تَعْتَقِدَ هَذَا عَنِّي، أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ مَتَّأْكِدَة.

إِنسَ هَاتِفُكَ الْمَهْمُولُ رَجَاءً، كَانْ يَرْنُّ عَلَىِ مَدِيِّ الْيَوْمَيْنِ  
الْمَاضِيَّيْنِ. دَخَلَتِ الْفَقَاعَةُ الْزَّجَاجِيَّةُ مَعِي وَغَبَنَا عَنِ كُلِّ شَيْءٍ.  
ضَابِطُكَ الْانْقلَابِيُّ الَّذِي لَا يُسْتَطِعُ التَّفْكِيرُ بِنَفْسِهِ وَيُطْلِبُ دَمَاغَكَ  
لِخَدْمَتِهِ، الدَّكْتُورُ وَاصِفُ وَخَطْطُهُ الْغَامِضَةُ بِشَأنِ تَعاوِيذِ سُحْرِيَّةِ  
وَأَشْيَاءِ مَجْنُونَةِ تَنَاسُبُ عَقْلِهِ الْخَرْفُ، وَلَيْسَ مَنَاسِبَةً لَكَ يَا عَلَىٰ.

إنسَ كُلَّ شَيْءٍ. بِإِمْكَانِي أَنْ أَغْلِقَ بَابَ الشَّقَّةِ وَلَا نَخْرُجَ مَدَّةً أَسْبَعَ . لَا تَقْلِقْ بِشَأْنِ الْطَّفَلَيْنِ . تَأْتِي سِيَارَةُ الرُّوْضَةِ لِأَخْذِ آدَمَ، وَتَأْتِي بَنْتُ الْجِيرَانِ ذَاتُ الْحَادِيَّةِ عَشَرَةً لِتَأْخُذَ أَيْمَنَ مَعَهَا إِلَى الْمَدْرَسَةِ الْقَرِيبَةِ كُلَّ صَبَاحٍ . هَلْ رَأَيْتَ الْطَّفَلَيْنِ حِينَ صَحُوتْ؟ لَنْ يَعُودَا قَبْلَ ثَلَاثَ سَاعَاتٍ مِنَ الْآنِ .

الْأَوْضَاعُ سَيِّئَةٌ، لَهُذَا جَثَّتْ لِي مِنْذُ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ كَيْ تَحْدَثْ . لَقَدْ اسْتَنْفَدْتَ كُلَّ وَسَائِلَكَ فِي عَمَلِ شَيْءٍ تَرَاهُ جَيْدًا، وَتَرَى نَفْسَكَ الْآنَ تَغْرِقُ، لَهُذَا عَلَيْكَ الْآنَ أَنْ تَجِدَ الْعَذْرَ لِي حِينَ أَصْرَرْتَ عَلَى عَدْمِ الْعُودَةِ إِلَى عَبْدِ الْعَظِيمِ . إِنَّهُ يَرْكُبُ فِي سَفِينَةِ مُثْقَوَةٍ . كَانَ قَدْ رَأَى الثَّقُوبَ فِيهَا قَبْلَ أَنْ يَصْعُدَ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَبَالِ وَلَمْ يَكْتَرُثْ . رِبِّما شَعَرَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى عَلاجِ هَذِهِ الثَّقُوبِ . لَقَدْ اسْتَخْدَمَكَ أَيْضًا كَصَمْعٍ فِي عَمَلِيَّةِ الْعَلاجِ . وَلَكِنَّكَ وَصَلَّتْ إِلَى النَّهَايَةِ، لَهُذَا هَرَبَتْ . لَمْ تَرْجِعْ إِلَى شَقْنَتِكَ وَلَا إِلَى بَيْتِ أَخِيكَ عَمَّارَ، لَأَنْ عَبْدُ الْعَظِيمِ سَيُعْثِرُ عَلَيْكَ . جَثَّتْ إِلَى هَنَا وَأَنْتَ تَسْأَلُنِي مَا الْحَلُّ . مَضَتْ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ هَنَا وَأَنْتَ تَتَنَاهُلُ الْحَبُوبَ الْمَهَدِيَّةَ وَتَشْرُبُ خَلَالَ اللَّيلِ، عَازِلًا نَفْسَكَ فِي غَرْفَةِ النَّومِ، حَتَّى لَا يَنْتَبِهَ لَكَ الْأَطْفَالُ أَوْ يَتْسَاءَلُوا عَنْ وَجْهِكَ . أَنَا لَا أَمْلِكُ الْحَلَّ يَا عَلِيٌّ . لَيْسَ عَنِّي سُوْيَ هَذِهِ الْفَقَاعَةِ الْزَّجاَجِيَّةِ، وَأَحْسَبُ نَفْسِي أَنِّي أَعْيَشُ فِيهَا مِنْذُ عَشَرِ سَنَوَاتٍ، أَعْيَشُ فِيهَا وَحْدِي مَعَ الْطَّفَلَيْنِ، وَأَنْتَ جَثَّتْ لِتَدْخُلَ فِيهَا بِيَارَادِتِكَ . تَقُولُ بِأَنَّكَ لَا تَعْرِفُ، وَلَكِنَّكَ مَرْتَأَخْ إِلَّا لَانْقِطَاعِكَ عَنِ الزَّمْنِ، لِرَائِحَتِي فِي السَّرِيرِ، ثَرَثَرَاتِنَا الطَّوِيلَةِ الْمُتَشَعِّبَةِ عَنِ تَفَاصِيلِ تَافِهَةِ لَا عَلَاقَةَ لَهَا بِمَصَائِرِ كَبِيرَةٍ . أَنْتَ وَأَصْدِقَاؤُكَ الذَّكُورَ تَهْتَمُونَ كَثِيرًا لِلْمَصَائِرِ الْكَبِيرَةِ، أَنَا أَهْتَمُ بِالنَّجَاهَةِ فَقَطَّ . لَا أَرِيدُ أَنْ أَضْعَفَ اسْمِي عَلَى شَيْءٍ عَظِيمٍ، حَتَّى لَوْ

كان شاهدة قبر فاخرة. أريد من الآخرين أن ينسوني تماماً، أريد الاستغراق في تفاصيلي التافهة والبساطة، والتي غدت منذ سنوات، تفاصيل تشمل الطفلين أيضاً.

إنسَ كُلَّ شَيْءٍ وَاسْتَرِخْ تاماً. دَعْ رَأْسَكَ فِي حَجْرِي. كَمْ أَحْبُّ أَنْ أَرَدَّ ذَلِكَ أَلْفَ مَرَّةٍ عَلَى مَسَاعِكَ. يَعْجِنِي أَنَّكَ تَسْتَسْلِمُ إِلَيَّ لِي وَلِكُلِّ مَاتِي، وَلَكُنِي أَخْشَى أَنْنِي أَرْتَكِبُ خَطِيئَةً جَدِيدَةً بِذَلِكَ. رِبِّيَا عَلَيْكَ أَنْ تَخْرُجْ لِمَوْاجِهَةِ مَسْؤُلِيَّاتِكَ. لَا يَمْكُنْ لَكَ الْفَرَارُ بِبِسَاطَةٍ هَكَذَا حِينَمَا يَتَغَيِّرُ الْمَزَاجُ أَوْ تَفْقُدُ الْفَضْولَ. لَقَدْ اسْتَمْعَتْ لَكَ جَيْداً خَلَالِ الْأَيَّامِ الْمَاضِيَّةِ، وَلَكُنِي آسِفَةُ، لَا أَسْتَطِعُ تَصْدِيقَ حَكَائِيَّاتِ الْأَبْوَابِ الْطَّبَاشِيرِيَّةِ مَا بَيْنَ الْعَوَالَمِ. إِنَّهَا فَكْرَةٌ جَمِيلَةٌ لِلْفَرَارِ السَّهْلِ مِنَ الْمَسْؤُلِيَّاتِ. تَنْفَعُ لِإِرَاحَةِ الدَّمَاغِ قَلِيلًاً. لَهَا مَفْعُولٌ مَخْدُرٌ لطِيفٌ، وَلَكُنْهَا لَيْسَ حَلًاً. بَلْ رِبِّيَا سَتَجْعَلُ مَوْاجِهَةَ الْمَشَاكِلِ الْقَابِعَةِ خَلْفَ الْأَبْوَابِ فِيمَا بَعْدَ أَمْرًا عَسِيرًاً وَصَعِيبًاً بَدْرَجَةٍ أَكْبَرَ.

- ٢ -

أَنْتَ تَعْرِفُ بِأَنَّ الْأَمِيرِكَانِ خَدَعُوكَ عَبْدُ الْعَظِيمِ وَزَمَلَاؤُهُ. كَانَ عَلَيْكَ أَنْ تَخْبُرَهُ بِذَلِكَ، لَا أَنْ تَهْرُبَ مِنْهُ. أَنَا مَسْتَأْتَهُ مِنْهُ لِأَسْبَابِي الشَّخْصِيَّةِ، بَيْنَمَا الْأَمْرُ مُخْتَلِفٌ بِالنَّسْبَةِ لَكَ. لَا مَعْنَى لِكَلَامِكَ عَنِ التَّنَاقْضِ الَّذِي صَرَّتِ تَعْيِشَهُ، بِسَبَبِ قَدْوَمِكَ خَفِيَّةً إِلَى بَيْتِي مِنْ دُونِ عِلْمِهِ. شَعُورُكَ بِالْخِيَانَةِ لِصَدِيقِكَ، أَوْ رِبِّيَا خَوْفُكَ مِنْ اِنْكِشَافِ الْأَمْرِ أَمَامِهِ. لَسْنَا زَوْجِينَ أَنَا وَهُوَ، وَلَسْتَ مَطَالِبًا بِاتِّخَادِ مَوْقِفٍ تَجَاهَ هَذَا الْمَوْضِعِ. أَنْتَ وَحْدَكَ مِنْ يَفْتَرِضُ أَنْ هَنَاكَ شَيْئًا مَا يَمْكُنُ أَنْ يَسْتَمِرَّ بَيْنَنَا، أَنَا وَأَنْتَ.

لَقَدْ نَثَرَ كَيْسَ أَسْنَلَتَكَ أَمَامِي، وَأَظَلْنِي أَجْبَتْ عَنْهَا كَلَّهَا.

لماذا لم تتجزأً سابقاً لقول هذا الكلام؟ لماذا انتظرت خمس عشرة عاماً لتكتشف لي هذه الأشياء؟ لا تُبخلق في وجهي هكذا، أنا لا أنتظر منك جواباً الآن. استريح فقط ودعني أمشط شعرك بأصابعِي وأثرثُر. استمع فقط. برج الجوزاء لا يتيح لأمثالنا الاسترسال هكذا بشكل متصل غالباً. إنها من التوادر.

أنت ترفضُ أن ترى كلَّ ما جرى بيننا على أنه سلسلة أخطاء. تراه قدرًا متسلسلاً. أنا لا أعرف بصرامة، ولكنني أخبرتك. قبل أن يترك عبد العظيم كلية الفنون بشهر تقريباً. جلس معي في كافترية قرية على الكلية. كنا خارجين بعد نهاية الدوام، وأعلن أمامي عن نوایاه. كان الشخص الوحيد تقريباً الذي لم يُحاول إغوايِّي. أعرف أنك لم تُحاول هذا أيضاً، ولكنك كنت تبدو لي خارج دائرة هذه الانفعالات التي تُحرِّك الآخرين. كنت نبيئنا النقي. حتى مع قُبْلَتي في كابينة اللُّعبة، كان جزءٌ شيطانيٌّ متنٌ يريد تخريب هذه الصورة النبوية. وكأنني أحبيت تدنيسك قبل أن يذهب كلُّ منا في طريقه بعد التخرج. رفضت عرض عبد العظيم طبعاً. لا أريد الارتباط بشخص من دون أن أكون بحاجة إليه وأرغب به بشدة. هناكأشخاص مؤهلون كثُر من حولي، ولكنني أوهمت نفسي على الأغلب بأن حاجتي ورغباتي الشديدة هي من ستحدد الشخص المناسب.

ظلَّ عبد العظيم يُلاحقني، أراه في الأسواق والشوارع، ثم فاجأني ذات مرّة وهو يتوجه إلى قرب حيّنا السكني وصار يُراقبني حتى المنزل. لم يكن يتطلب شيئاً، وحين كنت أخبره بأن هذه المحاولات لا تنفع وعليه أن ينسى الموضوع برمتته، كان يضحك قائلاً بأنها مجرد مصادفات، وعلى آلاً أحملها بتفسيرات مبالغ فيها. لم أصدقه طبعاً. ثم اكتشفت أن والده الضابط المتقاعد يعرف أحد أقاربنا. كان

معه في العسكرية، وبين ليلة وضحاها تشابكت علاقات تم إحياؤها في الخلف من دون علمي. وصار والدي يتحدث لي عن اللواء حامد محمد نعيم وأن هناك صلات قرابة بعيدة، ثم باغتني بسؤال عن ابنه الذي كان يدرس معي في الكلية نفسها.

ما الذي أقوله؛ لقد حاصرني تماماً. ووجدت عبد العظيم يقوم مع والده وبعض أقاربه بزيارة عادلة للاطمئنان على صحة والدي، وكأنهم كانوا فعلاً على علاقة تجيز هكذا زيارات.

كنت في تلك الفترة أحاول إكمال دراستي العليا، وفشلت في الأمر، ثم اتجهت إلى التوظيف. لم أجد عملاً سريعاً. كرهت أن أبقى جالسة في البيت، أو أتلقي مصروفًا من أبي. كرهت أن أكون ضعيفة أنتظر معونةً من أحد.

بعد ملاحقة لخمس سنوات زاد ضغطها في السنة الأخيرة مع التطور الذي حصل بتوظيف **البعد العائلي** وصلات القرابة والصداقه، ومع رؤيتي لوجه عبد العظيم أينما إلتفت، صرت مقتنةً بأنه الرجل المناسب. على الأقل لم يكن الأمر نزوة عابرة لدى عبد العظيم. إنه مصرٌ على الارتباط بي اصراراً ثابتًا ومستقرًا. ما الذي تريده البنت من الرجل أكثر من هذا يا ترى؟!

ما أريده أنا؟ لا تسألني هذا السؤال، لأن جوابي معقدٌ غالباً. أحب أن أصعد إلى صفة عامة تربطني بما تريده البنات الآخريات، هكذا أشعر بأمان أكثر. أن أنظر لنفسي ضمن معايير طبيعية عامة.

- ٣ -

كان عبد العظيم قد غدا ضابطاً يخدم في وحدة عسكرية نائية في منطقة ميخاس شمالي خانقين، وصرت متعددة على لقاءاته الدورية

المنتظمة. ولكنّا لم نتفق على إعلان ارتباطنا. كنتُ مذعورةً من الفكرة، وطلبت منه أن يحترم رغبتي، وهي الفترة نفسها التي قادني فيها إلى حديقة الدكتور واصف وشاهدتكم هناك بعد افتراق بضع سنوات.

كنت مؤمنة تماماً أن عبد العظيم نسوانجي ويغرق في علاقات متعددة عابرة، ولست واثقة من كونه سينقطع فعلاً عن عادته هذه. أنها تشكل مزاجه على مدى سنوات، فكيف ستقوم امرأة واحدة بتغيير هذا المزاج بشكل حاسم. إن كانت هذه القصة تنطلي على آخريات فلا يمكنها أن تخدعني أنا.

صارت أكثر سجالاتنا ترتكز على هذه النقطة تحديداً. مع اتجاهنا المؤكّد إلى الخطبة ثم الزواج. ما الذي يضمن أنه سيبقى وفيّاً لي. لا علاقة لي بما كان يفعله سابقاً. وأعرف بأنه لن يحب أيّ امرأة بمجرد نومه معها، ولكن كيف ساقنع نفسي بأن هذا الأمر لن يخدشني، ولن يؤثر على قيمتي في عين رجل سيكون رجلي الوحيد. فتحنا دفاتر بعضنا البعض الآخر، وتبادلنا كلاماً قاسياً. تحدث عن علاقاتي السابقة وأنكرت أيّ علاقة جدية، ما عدا قبلي وأحضان عابرة لا أهمية لها. لم أنم في حضن رجل ما بشكل فعلي، وهو لا يملك دليلاً على ذلك. ثم أجبرته على الاعتراف، وعدد أمامي أسماء نساء ارتبط بهنّ، كُنّ عشرة على حدّ زعمه. وبافتراض أنني صدقته، وقفت أمامه وقلت له؛ أنا لا أريد أن أكون الرقم أحد عشر في قائمه.

لم أكنْ جادة تماماً فيما أقول. كنتُ أشعر وكأنني أمثل دور بنت عادية في مثل عمري ممن أراهن حولي في الشارع والسيارة والسوق وما إلى ذلك. كرهتُ أن أجلس في الكرسي العميق المخصص لي

في ذاتي، وأن أرى الأشياء من خلال هذا الكرسي. سيكون المنظر مختلفاً تماماً. وربما سأركُلُ عبد العظيم بقوّة وأبعده من أمامي نهائياً.

قال بأنه يتقدّل فكرةً أن لي علاقات جدية مع شباب آخرين. إنه شخص متحضرٌ ويؤمن بالمساواة، ليس بفرص الحياة والعمل، وإنما حتى في هذا الجانب المحرج أيضاً. ولا داعي لأن أكذب بهذا الخصوص. علىَّ أن أعترف أنا أيضاً.

ضحكُتُ وقلتُ له؛ لو أنني مررت بتجارب مماثلة فلن أكذب عليه. لست أنا التي صرفت خمس سنوات في الملاحقة بهذه القضية. أتذكّر جيداً أن بعض هذه النقاشات كانت تنتهي بنهو ضمه وشعوره بالانزعاج الشديد وهو يشتم ويصبح بوجهي واصفاً إيايَ بأنني صعبة جداً ومحنة وساخره في نهاية المطاف.

الغريب أنني لم أكن اكتثر ولم يكن يتحرّك في شيءٍ. بل ربما سحبَتُ أنفاسي وشهقت بارتياح وأنا أراه يغادر. أعترف بأنني في العمق كنت ألعب به. لا فائدة من الإنكار، هناك جانبٌ شيطانيٌ في لا أستطيع ترويه.

في اللقاء اللاحق شعرتُ بأن شيئاً ما تغيّر فيه. قال بأنه سيتحدث بصرامة. ليست في قائمته عشر بناط سابقات ولا أي شيء من هذا الهراء، هنَّ كثيرات ولا يعرف عددهن أصلاً، وخلال الفترة الماضية كان على علاقة بامرأة مطلقة، ولم يستطع تركها إلا بصعوبة، وهو يعرف نفسه جيداً. لن يستطيع مقاومة الإغراء. لم يكن بحاجة لأن يشرح لي أن الأمر لا يتعلّق بالحب والعشق والغرام والرومانسيات، إنها غريزةُ الدين الذي يمْلِئ على أسطح الجيران بحثاً عن دجاجات جديدة. إن الحياة كلها في هذا البلد تافهة حداً اللعنة،

ولا شيء مهم فيها سوى الشعور بدقن الحياة الذي يسرع الاستمرار ليوم آخر. مجرد تأجيل فكرة الانتحار يوماً إضافياً لا أكثر. وظلّ يؤكد أن عليّ ألا أنسى أنه عضو في جمعية المنتحرين الذين لم ينتحروا بعد. وكأنها جمعية حقيقة لها بناء وأوراق انتساب ومنهاج وبرامج وأعضاء كثراً.

قال ذلك وكأنه يُعلن تعبي من هذه المبارزة التي استمرّت عدة أشهر، تقطع بسبب إلتحاقه إلى وحدته العسكرية ثم تتجدد بعد ثلاثة أسابيع وهكذا. وضعني أمام موقف حاسم ونهائي يلخص كلَّ الكلام الذي تبادلناه، وشعرت لأول مرة بأنه يُجازف بخسارتي فعلاً. قال بأنه لا يستطيع تغيير أمرين؛ الأول؛ حبه الكبير لي والذي لن يعرّضه أو يملأ غيابه شيء، الثاني؛ شهوته المفتوحة لأجساد النساء، بما يشبه الحالة المرضية. هل أستطيع التصديق بالشقّ الأول والتكيّف مع الشقّ الثاني؟

قلتُ له بأنني سأفكّر، ثم حملتُ حقيتي وغادرتُ غاضبةً، وفي الإجازة التالية، كان ينتظري على آخرٍ من الجمر. كنت قد فكرت طويلاً بكلامه الصريح، وحاولت تفهمه، ولكنني في الأيام الأخيرة ما قبل لقائنا تلبسي شعورٌ هائلٌ بالقرف. وأردت إزعاجه بشدة. ولم أفكّر بأنني أنا من دفعه لأن يكشف عن دواخله بصرامة شديدة. لماذا لم أنتبه أن دواخل كلِّ رجل فيها أشياء عفنة وقبح الرائحة، وهي أمر طبيعي، علينا أن نحترم محاولات الرجل لإخفاء هذه الرائحة والتغطية على القباحة التي تنثرُ من هذا الجانب أو ذاك. لماذا أجبرته على كشف نفسه وتعرّيتها أمامي ثم أقوم بردة فعل سلبية تجاه ذلك؟! لم أكن مؤهلة لأن أكون رحيمةً في تلك الأوقات. وحين التقيت به بعدها أخبرته بصرامة موقفي النهائي؛ أنا أنتهي هذه الازدواجية التي

تحدث بها. لا توجد امرأة أخرى حسب علمي قادرة على تقبّل ذلك.  
أقبل أن يكون رجلي وأن أكون محبوبته الوحيدة، وفي الوقت نفسه  
أن يكون هناك احتمال دائم بأنه يحتضن جسد امرأة مجهلة في مكان  
لا أعلمه. انفرجت أسارير عبد العظيم من الدهشة، وسارع إلى  
الشعور بالراحة من دون أن يتضررني وأنا أوجه له ضربتي الخاصة.  
رفعت يدي مانعةً أيّاه من التعليق على كلامي، فأنا لم أنتبه بعد.  
أكملت وقلت له؛ ولكن، في مقابل ذلك عليك أن تترك لي فرصة أن  
أجرّب أجساد رجال آخرين غيرك. أنت قلت في اعترافك الأول  
أنهن كُنّ عشر نساء، اللائي مارست الحبّ معهن. سأعتبر هذا العدد  
معياراً. أريدك أن تتركني أخوض علاقات عابرة مع عشر رجال،  
عشرة أجساد رجالية، قبل أن ترتبط بي.

قلَّب الطاولة الخشبية الصغيرة بيننا وانسكب واحدٌ من كوبِي  
الشاي على ملابسي، وتركني وغادر بسرعة من دون أن ينبعس بكلمة  
واحدة.

#### - ٤ -

اختفى لعدة أيام، وأنا قلت مع نفسي بأنه أخذ ما يكفي من  
جنون برج الجوزاء ولن يعود لي أبداً. صدقني كنت مرتاح تماماً.  
لم يكن الزواج بعد العظيم إنجازاً عظيماً. لم يكن فتحاً لباب  
الدهشة والعالم الملونة. ما عدت قادرة على تصديق عوالم مشابهة.  
إنه التفكير فحسب بعقل البنات في مثل عمري. عقلي أنا شخصياً  
ليس نافعاً بشيء. كنت أشعر بالمرارة من اعترافه بأنه يريد النوم مع  
نساء آخريات حتى بعد زواجنا، شعرت بالغضب، فانتقمت لنفسي  
وانتهى الأمر.

في اليوم الأخير من إجازته الدورية. جاءنا إلى البيت واستأذن والدي بخروجني معه. كانت عائلتي مطمئنة، ليس لنوايا شاب غريب، وإنما للأوصار بين عائلتينا التي تم تنشيطها في السنة الأخيرة. وكان الجميع يتصرف وكأننا مخطوبان فعلاً.

حين رأيته جالساً في الصالة شعرت بالضعف فجأةً وداهمني شيءٌ من الخجل. وكنت مستعدةً لتحمل الكلام القاسي الذي أجهله بعد قلبه للطاولة الخشبية في آخر لقاء بيتنا. لقد أزعجه وهذا يكفيوني الآن، وعلىي أن أعيد قواعد اللعبة والاتفاق إلى المتعارف عليه بين الفتيات بعمرى والشباب بعمره. ولكنه فاجاني. قذف بنفسه بعيداً، وبعد مما كنت أتوقعه. أخذني بسيارته وظلّ يدور بي من دون أن نرصن بجوار كافتريا أو مكان ما، وخلال الطريق كان ينظر إلى نظرات غريبة. بعدها انفتح بالكلام وقال بأنه مستعدٌ، إن كان هذا يساعد على اتفاق نهائي وحاسم، على تقبّل فكرة أنني سأناه مع عشرة رجال قبل زواجنا. ولكن بشرط ألا يسبب هذا الأمر أيّ فضيحة. يجب أن أقوم به بعناية، ومرة واحدة مع كلّ رجل. يجب أن يكون الرجال مجهولين، ومن خارج دائرة علاقاتنا المعتادة. وهو لن يفاتحني بأيّ أمر يخصّ علاقتنا حتى تنتهي قائمة الرجال العشرة. لن يسأل عن هوياتهم، ولن يستجوبني عن مشاعري وكيف قمت بالأمر وانطباعي عن التجربة، أو حتى احصائيات مفترضة عن أفضل الرجال العشرة في السرير. سيتعامل مع الأمر وكأنه لم يحدث أبداً، وعلىي أن التزم بذلك أيضاً.

لم أصدق كلامه طبعاً. كنت أراه يندفع معي في مضمار الجنون. يدفع فرسه لأن تقدم على فرسى، وكأنه يقول لي؛ أنظري لستِ المعجنونة الوحيدة في هذا. أنا أكثر جنوناً منك.

وافقت على كلامه، ثم قادني إلى مطعم وتناولنا الغداء فيه، وظلّ متوتراً طوال الجلسة، حاول أن يشير مواضيع وقضايا تتعلق بصحة والدي وعملي في التدريس الذي باشرتهُ حديثاً، وأشياء لها علاقة بالدكتور واصف والجلسات الأسبوعية في حديقة بيته. جمعية المنتحررين وما إلى ذلك، ولكنه ظلّ يمثل أمامي الاسترخاء. بدا وكأنه يتضرر مني كلاماً محدداً يريده. كان أقول له مثلاً؛ يا عبدو.. أنا آسفة، إنس كلّ هذه الخرابيط. أدع أهلك كي يخطبوني ولنتهي من هذه الحماقات التي نمارسها.

لم أنطق بشيء يزعج توتره. كنت قاسيةً، وشعرت بأنني أجده بسياط خفية، وكأني آخذ سلفاً ثمن النساء اللائي سينام معهن في المستقبل. هذه طريقي ربما للشعور بالراحة. أزعجه فارتاح أنا. أريده فائز عزوج.

فيما بعد أكد لي بسلوكي وكلامه معي أنه يأخذ على محمل الجدّ الاتفاق الذي حصل بيننا. كنت مستغربة، فما الذي فيّ أنا يميّزني عن غيري. لماذا يقاتل بشدة من أجل الحصول علىّي. لماذا لم يحاول إغوايي مثلما يفعل مع نساء آخريات. ينام معي ويروي ظماء مرّة ومرّتين، وربما يضعف اهتمامه بي لاحقاً. لم أكن منيعة ضد الإغراء، وفكّرت أحياناً بأن لعبة الزواج والارتباط مجرد جسر لهذا الهدف ليس إلا.

لست مجونة طبعاً لأذهب لاصطياد عشرة رجال مجهولين للنوم معهم. ربما أنا، تحت ظروف معينة، مع عشرة رجال، ولكن ساكتشـف لاحقاً أنهم غدوا عشرة رجال. لا توجد امرأة متوازنة نفسياً تفعل ذلك في وقت وجيز. إنها تجربة حياة كاملة. يجب أن يكون هناك مبرّر قوي لخوض تجربة مماثلة ضمن حيز زمني محدود.

لم أكن أخطط لذلك بشكل جدي. أعترف بأنني صرت أنظر في وجوه الرجال من حولي. ثرثرت مع زميل لي في المدرسة. تركته يتلامسُ معي أثناء الخروج أو الدخول من باب غرفة المدرسين. جعلته يشعر بالارتباك من سلوكِي تجاهه. ولكنني شعرت بالارهاق فجأةً من مجرد التخطيط لأن تقود كلُّ هذه الألاعيب إلى السرير. سيتطلب الأمر وقتاً طويلاً مع هذا الزميل المتخفّظ والخجول، وتکاليف نفسية وكلاماً وتحطيطاً، ثم سأعرض نفسي أمامه إلى إمكانية الاتهام بأنني مجرد عاهرة. سينتشر هذا الأمر سريعاً. لا يحتفظ الرجال بتجاربهم لأنفسهم، إنهم يستثمرونها سريعاً لتكوين سمعة ما بين أصدقائهم. لقد نمت مع هذه الزميلة، فعلت بها كذا وكذا. وهكذا سأتحول إلى عاهرة رسمية، حتى من مجرد علاقة عابرة. وربما سأضطر إلى ترك المدرسة.

أسوقُ هذا كمثال لصعوبات تطبيق فكرة الاتفاق المجنون مع عبد العظيم. يا له من مسكيٍن. علىَيْ أن أجلس أمامه وأعترف بأن الأمر كله مجرد مزحة خبيثة مني. علينا أن نطوي هذه الصفحة بسرعة. ولكن الجانب الشيطاني مني لم يقبل. لماذا علىَي التراجع مذعورةً من أيّ خطوة تخضني أنا، لا تخصن نمط الفتيات الآخريات من عمري؟!

- ٥ -

في تلك الفترة كنت أنت أمامي بلسعت عيونك اللامعة والذابلة. أحسستُ بك، وأنت ترمي لي بنظراتك من على كرسيك بجوار الدكتور واصف في ثرثرات الحديقة. ثم انتهى الأمر بیننا إلى ما تعرف.

لم يكن البيت الذي جلسنا فيه لأختي، وإنما لصديقة قديمة من أيام الدراسة الثانوية اسمها جيان. بذلت جهداً كبيراً من أجل الآ تظن بي السوء. الفُت قصصاً طويلة ومعقدة عنك وعنّي حتى تشعر فعلاً بأنني لست مبتذلة، وإنما هي علاقة جدية. وفي مساء اليوم نفسه بعد افتراءنا أحسست بخطأ رهيب. لقد أتعجبني ما حصل. أتعجبت به بشدة، إلى درجة أنني فكرت بتكراره مرة بعد أخرى.

شعرت بأن هناك شيئاً لم أستكشفه معك، يحتاج إلى تجربة ثانية لأعرفه، وفي الوقت نفسه كان الجانب الشيطاني مني يقول لي؛ يا بنت.. هذه الثغرة في الشيء غير المكتشف بعد ستزحف منك دائماً، ستتامين مع هذا الشاب مرتين وثلاثة عشرة وأنت تلاحظين الثغرة في محاولة ملئها ولن تنجحي بذلك. أنت تقعين في حب الشاب،نبيّ مجموعة الأصدقاء المقربين القديم، وسيتخرّب كل شيء من حولك بسرعة هائلة.

أنا اعتذر لك يا علي، ولكنني لم أكن واثقةً من أنك تريد شيئاً ثابتاً وواضحاً بالدرجة نفسها التي كان يbedo عليها عبد العظيم. لا يوجد أشخاصٌ من حولي مثل عبد العظيم. كنت قد بدأت أشعر بالجنين، وخشيتكِ إن فقدته أن أبقى معلقة به كمعيار للرجال الذين يمكن أن يرغبو في الارتباط بي. وكنت شبه متأكدة ألا أحد سينجح بالاقتراب من هذا المعيار. سأغدو وحيدة بشدة.

عاد عبد العظيم من إجازته الدورية مع خبر جيد. لقد انتقل إلى وحدة عسكرية جنوبى بغداد، سيكون في البيت ما بعد الظهر من كل يوم. في ذلك اليوم كان كل شيء واضحاً في ذهني بصورة لم أعهد لها سابقاً. وأحسست بأن فتاة برج الجوزاء الجالسة على كرسي الذات

العميقة عقدت هدنة مع فتاة المعيار العام للفتيات بعمرى واللائى  
يحيى حولي .

قلت له بأننى لن أقبل أبداً فكرة أن ينام مع نساء آخريات بعد زواجنا . وإن كان مضطراً لذلك فعليه إخباري بهذه المرأة . علىَّ أن أكون على اطلاع تام على كلِّ التفاصيل ، كما أني متنازلة بدورى عن حقّي في الاتفاق الأخير بالنوم مع عشرة رجال قبل الزواج .

شعر عبد العظيم بفرح هائل ، دفعه لإعلان جديد ، شعرت بأنه متوجه وغير حقيقي تماماً . قال بأنه لن تكون هناك من امرأة غيري في حياته . وأنه يعرف أنه سيلتزم بهذا الاتفاق . صرنا بعد هذا الكلام شخصين عاديين ، مثل مئات الشباب والشابات حولنا . متفقين على الوفاء لبعضنا في حياتنا العلنية ، مع حقّ شخصيٍّ بحياة سرية مملوءة باحتمالات الخيانة . عدنا إلى المضمار الرئيسي لحياة الآخرين . وهذا السبب ، كما يبدو واضحأً لك ، في أن تفاصيل حياتنا اللاحقة سارت بالمضمار نفسه ، وعلى وفق محطات يعيشها الآخرون أيضاً .

استمرّت خيانات عبد العظيم . وكان أحمق بدرجة سوبر ، لأنَّه يسكتُّ ويعترفُ لي كيف لَّم مؤخرة هذه الفتاة ، أو كيف قذَّفَ من دون واقِ ذكريٍّ في رحم امرأة متزوجة . كانت هذه مواد متفجرة يضعها في حجري بسذاجة بالغة .

إنه شخصٌ غير صالح للزواج وتكوين أسرة . والجزء الخاص بي من الحماقة أني أنجبت منه ولدين . وفي كلِّ الأحوال كان لهذه الحماقة عمرٌ معين وانتهى .

ثم أني بمرور الزمن صرت أتيقّن من نوع أكبر من الحماقة ، حماقة واحدة على الأقل ، يمكن أن أسمّيها «الحماقة الكبرى» . أتعرف ما هي؟ سأخبرك بها الآن يا علي . إنه الوقت المناسب

لذلك. لقد خفتُ من نفسي يا علي. صدقْتُ كلام عائلتي وصديقاتي بأنني مجنونة ولن ينفع جنوني في رسم حياة واضحة يمكن أن تتطور وتنمو. لذلك جبنتُ وصرتُ أبحث عن معيار حياة البناءات في مثل عمري من اللائي يعيين حولي.

الحماقة الكبرى أن زواجي من عبد العظيم كان بوعيٍّ من هذا المعيار، بينما قمعتُ بشدةً نداء صورتي الجالسة على كرسي ذاتي العميق. لم أتعُّ لها أن تعرَّف على الأقل على عالمها الذي تريده. لم أثق بهذه الذات، خفتُ منها وحاصرتها وقمعتها.

## - ٦ -

### أتدرى ماذا كانت تريد هذه الذات؟

كانت تريد العودة في اليوم التالي إلى حديقة الدكتور واصف والجلوس بجوارك. إمساك يدك وضغطها قليلاً، بينما أعينُ الآخرين تلاحظ ذلك. أفعل هذا الشيء عن عمد حتى يلاحظ الآخرون أن هناك شيئاً ما بيننا. ثم أنظر إليك، إلى عينيك، حتى ترى فيهما تلك النسوة الغريبة لتواظتنا، وكأننا كلما تبادلنا النظارات رأينا عُرينا السريّ في عيون بعضنا البعض الآخر.

كانت ذاتي العميقه تريدُ السير في المجهول الذي بدأ منذ أن مرَّ سانك على صدري وبطني، ثم شعوري بالبرودة الطفيفة لمرور الهواء على خطِّ لعابك. كانت ذاتي قد أعلنت لي في الليلة التي تلت لقاءنا أنها تستهيك بقوّة، ولكنني صفتها على وجهها وأجبرتها على الانزواء في العتمة.

لم يكن الأمر مصادفة أنني دعوتك للقائي هنا. كنت أتابعك من

بعيد على مدى أشهر. علمت بزواجهك، وهذا ما صنع حاجزاً نفسياً بيننا، ثم علمت بطلاقك. كنت أسمع ثرثراتك كل ليلة في برنامجك الإذاعي، وأتذكر حينها لماذا اخترت الذهاب معك كأول رجل بين العشرة رجال المفترضين. لم تكن تبدو مثل الآخرين، لن تستعمل انكشافي العاري أمامك كقصة للتسلية بين أصدقائك. هكذا شعرت، والسنوات اللاحقة أكدت هذا الشيء. لقد دفنت لقاءنا اليتيم عميقاً وكأنه لم يحدث، حتى كشفته أمامي الآن بعد مضي كل هذه السنوات.

كم تبدو أحمق يا علي. كان عليك مطاردتي. العلاقة الناجحة لا تأتي بقتال طرف واحد في سبيلها، لم يكن إختفائى حجة لتوقف البحث عنى. لديك الكلية وبقية أصدقائنا الذين أكملوا الدراسات العليا. لا بد أنك كنت ستتعذر على خبط يدلك علىَّ. لكنك استسلمت، هذه حماقتك الكبرى، لأنك كما يبدو لي، تشعر بأنك مؤهل للألم أكثر من أي شيء آخر. تتقبل أن تتجزأ حصة أكبر من الآخرين من الألم، ولا تكافح من أجل دفعه، لأنك تصدق بأنه قدرك. ولكن هذه مجرد أكاذيب وأوهام يا علي. لا يوجد ألمٌ كثير إلا بقدر تهاوننا في دفعه وإزاحته جانباً.

## - ٧ -

ها.. تقول إنني صرت فيلسوفة الآن وأخذت وظيفتك القديمة؟ يا عزيزي.. ألا ترى كم نحن متشابهان؟

لا، ليس كلامي هذا تعبيداً لطريق جديد يمكن أن نسير فيه معاً أنا وأنت. لا يمكننا الارتباط بشكل دائم الآن. ليس أمامك سوى أمرين اثنين؛ إما أن تبقى في الفقاعة الزجاجية إلى وقت غير معلوم.

تختفي من الحياة العامة وتبقى ها هنا في فقاعتي الخاصة وتنسى التفكير بما سيحدث بعدها والترتيب لأي خطوات لاحقة. تفرق بما تسميه الجنة، وأتعهدُ لك بأن أجعل أوراقي العطرية متشابكة فوق رأسك وأمنع أي خطاف أسود قبيح الشكل من العثور عليك. وهذا خيار صوري العجالسة على كرسي الذات العميق طبعاً.

أما الخيار الآخر فهو متعلق بمعيار البناء اللائي في عمري ويعشن من حولي، والذي يقول لك؛ من الخطأ الهروب من المواجهة مع عالم الرجال المجانين في الخارج، يجب أن تخرج لتواجه عبد العظيم والأخطاء التي شاركت في صناعتها وتحمل مسؤولياتك.

في كل الأحوال يظن عبد العظيم بأننا سنعود لبعضنا في المستقبل، وهذا ما يجعله صبوراً وهادئاً بشكل ما. أما إن علم بأنك تنام معه فسيقتلك ويقتلني. ثق بذلك، فأنا أعرف جيداً ذلك الجزء المجنون من عبد العظيم، ولن أنسنك بالتعرف عليه أبداً.

## الفصل العاشر

# مَا يَقُولُهُ التَّارِيخ

- ١ -

كان من جديد في سريره الوثير بمنامه داخل القصر الجمهوري. ورغم رفاهية المكان إلا أنه لا يشعر بالراحة. عاد إلى حفرة النار بخطاف شيطاني سحبه من الأحضان الدافئة ليلبي. لم يكن القرار سهلاً. شعر بأن عليه أن يعمل شيئاً، وحرضته ليلي على ذلك. قال عبد العظيم في اتصال هاتفي بأنه في عزلة ضرورية للتفكير، ولم يصدق عبد العظيم هذا الكلام. أي عزلة تبعده عن صديقه الذي يحتاجه في أحلك أسبوع مر عليه في حياته. وبعد سجال طويل عبر الهاتف رضخ علي لرغبة صديقه بالعودة سريعاً إلى القصر بشرط ألا يحقق معه عبد العظيم ولا يسأله أين كان وماذا فعل.

كان الجيش يتفلت من بين يدي مجلس الضباط. صار واضحاً أن الأمر يحتاج إلى أكثر من مجرد ثلاثة من الضباط المؤمنين بالتغيير والولاء للعراق. الجيش نفسه في المراتب الدنيا لم يكن مبنياً بشكل مهني، وكانت الولاءات الاجتماعية قوية وأثرت على جنود كثيرين، ما جعلهم يهربون، وتناقص عدد الوحدات العسكرية إلى النصف، بل إن بعض الوحدات لم يبق فيها سوى الضباط الصغار الذين كانوا

يلحُون باتصالاتهم بالقيادة العسكرية العليا لإرشادهم إلى التصرف الصحيح أزاء هذا الوضع الخطير.

كان المجلس العسكري في بدايات الانقلاب قد أصدر عدّة قرارات سريعة، منها ألا تقوم الوحدات العسكرية في المحافظات الجنوبية بأي عمل خارج وحداتها العسكرية وخارج مهامها الأمنية الروتينية. لا تذهب إلى مجالس المحافظات ولا تُسقط الحكومات المحلية. تبقى متحصّنة في معسكراتها بانتظار التطورات اللاحقة.

أما القتال ضد تنظيم الدولة الارهابية فكان قد تعرّض إلى هزة عنيفة أجبرت الوحدات المقاتلة على التراجع إلى الخلف في بعض الأحيان وتقدّيم خسائر مؤلمة. بينما لم يتحرّك الجيش في بغداد إلى المناطق التي تسيطر عليها الميليشيات، توفيرًا للطاقة والقدرة القتالية. خلال ذلك كان هناك مشغلٌ سياسيٌّ قويٌّ في مدينة الحلة، وطلب عبد العظيم من مجلس الضباط تخويلاً بأن يتحرّك لاسقاط الحكومة البديلة التي يتم تشكيلها هناك، بتفويض من الأحزاب الرئيسة المسيطرة على مجالس محافظات الجنوب. ولكن المجلس تردد في هذا الأمر. لم تكن مغامرتهم العسكرية تهدف إلى تقتل المزيد من العراقيين، وإنما لا يقف القتل.

ما حدث في الحلة تكرّر في تكريت، فالعشائر في المحافظة التي شاركت في تحريرها كانت مسيطرة على المدينة، وهناك تجمّع بقايا أعضاء مجالس المحافظات التي ما زالت ساقطة بيد الدولة الارهابية، وأعلنوا تشكيلاً سياسياً يحاول إقناع دول العالم وقواته العملي بتقدّيم الدعم العسكري واللوجستي للاستمرار بمقاتلة تنظيم الدولة الارهابية واسترداد الأراضي منها، بمعزل عما يقرّره مجلس الانقلابيين في بغداد.

الاتصال بين السفارة الاميركية ومجلس الضباط، كان قد أوصل رسالة مطمئنة، بأن العملية السياسية في بغداد قد انتهت وماتت، وكان من الضروري إحداث نقطة بداية جديدة، وصار بالحوار مع السفارة اتفاق على تجميع نخب عراقية من أجل كتابة دستور جديد، وأعلن عبد العظيم في بيان على شاشات التلفزيون أنه سيحدد في وقت قريب موعداً لإجراء انتخابات عامة جديدة، وسيتكلّل النواب الجدد بحق التصرُّف بالمعتقلين في سجن المطار. وكان يظنُّ أن هذه الخطوات ستساعد على كسب ثقة الجانب الاميركي الأمر الذي سيدفعهم لمساعدته عسكرياً لتشييـت الانقلاب العسكري كحقيقة صلبة وقوية لا يمكن التراجع عنها.

ولكن أيّاً من الامور الايجابية التي كان يتمنى رؤيتها عبد العظيم ومجلس ضباطه لم تتحققـ بل أدى الاتفاق الثلاثي في منتجع كويسنـجـقـ بين الـكـرـدـ وـتـجـمـعـ تـكـرـيـتـ وـمـجـلـسـ الـادـارـةـ الـمـرـكـزـيـةـ الـجـدـيدـ فيـ الـحـلـةـ، وـبـحـضـورـ مـمـثـلـ منـ الجـانـبـ الـامـيرـكـيـ إـلـىـ وـضـعـ خـطـةـ عـمـلـ عـسـكـرـيـ مضـادـ يـتـقدـمـ منـ الـمـحـافـظـاتـ بـاتـجـاهـ بـغـدـادـ لـتـحرـيرـ الـمـنـطـقـةـ الـخـضـرـاءـ مـنـ الـانـقـلـابـيـنـ.

كانت الخطة قد تمَّ الاعلان عنها ولم يبدأ تنفيذها بعد، بسبب جدية المعارك مع تنظيم الدولة الارهابية. وفي يوم الاعلان حدثت مواجهات بين قطعات عسكرية وميليشيات مجاهولة في بعض أحياء بغداد، وشعر عبد العظيم بالتوتر وأحسَّ بأن هناك علاقة بين الحدين، وصار يشتم ويطلق أوامر متسرعة ومن دون تفكير، ولم ينصت لنصائح صديقه الفيلسوف، بل تجاهله ودخل في اجتماع مغلق مع خلية ضباطه المقربين. سادت الفوضى في المدينة وتمَّ قطع بعض الشوارع الرئيسية. شعر علي بالخوف، ووجد نفسه يخرج من المنطقة

الخضراء ويتجه دون تفكير كثير إلى شقة ليلي من دون أن يعلم أحد بوجهته، ثم هناك قرر فجأةً أن هذه الفوضى ستتحول إلى جحيم حقيقي وأنه لا يرغب بالعودة إليه.

- ٢ -

الآن وهو يصحو، كان القرار الذي توصل إليه أن يعمل على دفع صديقه الضابط المتهاوّر إلى الهدوء قدر الإمكان ثم طلب المفاوضات من أجل تسليم المنطقة الخضراء، فهي المكان الوحيد الذي يمكن الادعاء بأنه يسيطر عليه فعلًا. عليه ألا يندفع أكثر ويترافق. لقد انتهى الانقلاب. وعبد العظيم يعرف الآن، على الأقل، أن حليفه الأميركي المفترض، غدر به.

- لا استطيع تصديق هذا... لا بدّ أن حضور الممثل الأميركي في مؤتمر كويزنجر هو من أجل الاطلاع على المجريات وليس للتنسيق مع هذه الاطراف.

- أنت تخمن لا أكثر. على حد علمي لم يحصل شيء يُلزمهم بدعم مجلس الضباط.

- لا.. حصل.

قال عبد العظيم وهو يقترب من النافذة العريضة في مكتبه وينظر باتجاه الحديقة في الخارج. وقف هناك لثوانٍ بدت طويلة، وظلّ على ينتظار تفسيراً أكثر. صار عبد العظيم يضع مسدسه في حزامه أغلب الوقت، وكأنه سيتعرّض لهجوم مفاجئ في أيّ لحظة. كان متوتراً حتى وهو يبدو مثل تمثال ساكن، لا يُحرّك رمثاً ولا ينطق بكلمة. ويبدو أن الأيام الماضية شهدت مشادات كلامية داخل المجلس

ال العسكري، واضطرباً في اتخاذ القرار المناسب تجاه ما سيحدث في الأيام المقبلة.

- هم من أعطونا قبل سنوات منظومة الاتصال، والشيفرات الخاصة بالتراسُل داخل الانترنت.

- من هم؟

- الامريكان.. هاي شبيك!

رَدَ عبد العظيم وهو يعود بخطوات سريعة إلى مكتبه، ليقوم باستخراج ملفٌ من أحد الأدراج ويضعه أمام الطاولة.

- إقرأ.. هذه المراسلات. كان هناك ضابط ارتبط باسم حركي اسمه جون ٣٠٠. طبعاً هذه ليست دليلاً قانونياً، ولكن لتعرف وتطلع على خلفية ما جرى.

ظلَّ عليٍ يُقلّب في الملف، ويقرأ بعض التفاصيل. ثم أعاد الملف على الطاولة، وشعر بأنه لا يملك وقتاً كثيراً لحضور صديقه على الاستسلام. عليه أن يُجاذف بالقطيعة معه في سبيل إقناعه:

- انتهى كلُّ شيء يا عبد العظيم. عليك أن تتوصل إلى تسوية تحفظك من المحاكمة أنت وزملاءك الضباط. هذا الأمر لن ينجح. أنت لا تحكم شيئاً. لقد دخلت المنطقة الخضراء فحسب.

- مستحيل علي.. ألا ترى الناس المتظاهرين في ساحة التحرير والشوارع. ألا ترى التأييد.. الناس ملأوا وترى تغييراً ما. وقد لينا نداء الناس.

شعر علي بالحزن، فصديقته يخوض في وحلِ رومانسيات ثورية بائدة، ولا يريد من أحد أن يمدّ له يد العون لانقاذه.

- الناس تتظاهر على أيِّ شيء الآن.. بضعة أشخاص يتظاهرون

لا يعكسون إرادة شعب، وبعدين وين أكو إرادة شعب أصلاً. نحن في ركام هائل صديقي.. أنقذ نفسك.

ظلَّ عبد العظيم صامتاً، ولم يُعطِ ردَّة الفعل التي توقعها على، لم يغضب أو يرد بحدة. ما شجع علي للتقدم بنقلة أخرى أكثر شخصية.

- ألا تريد العودة إلى ليلي؟ كيف تعود إليها إن حصل لك مكروه؟ إن تحول الأمر إلى مواجهات ودماء فلن يتوقفوا حتى يطلبوا رأسك.

نهض عبد العظيم مجدداً وظلَّ يدور في الغرفة بما بدا وكأنه المهمة الوحيدة التي كان يقوم بها منذ الصباح. يجلس وينهض، يشعل سيجاراً، يقف أمام النافذة، ثم يعود ليجلس. توقف فجأة في منتصف الغرفة وكانت ملامح الحزن والخيبة بادية على وجهه حين قال لعلي:

- خلي اشوف.. أفكِر وأشاور مجلس الضباط.

غادر علي عائداً إلى مكتبه. ظلَّ هناك نصف ساعة من دون أن يفعل شيئاً، ثم خرج عائداً إلى سكنه الخاص، وخلال الطريق رنَّ هاتفه. كان الدكتور واصف يتصل به.

- وينك يا علي.. لازم نفكِّر بالمعضلة مالتنا ونلكلالها حل.

- وشراح نسيوي؟

- تعال واني افهمك.

- ٣ -

عاد علي إلى سكنه. أغسلت ويدَّل ثيابه، ثم سأل بعض الجنود عن أحوال الطريق في الخارج اليوم، وهل هناك مواجهات، وهل

عادت السيارات إلى الشوارع مجدداً. لم يمنحوه معلومات وافية،  
واضطر إلى استكشاف الأمر بنفسه.

كان الموعد مع الدكتور واصف في بيته، وهناك في غرفة مكتبه  
شاهدته بملابس أنيقة وربطة عنق رمادية. دخلت زوجة الدكتور  
واصف فجأة وهي تحمل صينية مشاريب ساخنة. كانت امرأة سمينة  
بشر قصير وترتدي ملابس كاملة وكأنها ليست في بيتها. وضعت  
كوب الشاي على الطاولة وسط الغرفة وسلمت على علي وكأنها  
تعرفه، ثم غادرت. ومع تناول الشاي بدأ الدكتور واصف يتحدث  
عن المعضلة التي تواجهه علي:

- هل أعجبك هذا العالم؟

- لا أعرف.أشعر أنني في دوامة.

- ألا يوجد شيء معين أعجبك؟

- ربما هناك شيء واحد على الأقل جميل، ولكنه مشوب  
بالخطر مثل كل شيء آخر.

- آه.. الأشياء الثمينة تأتي مع الخطر غالباً.

ظلّ الدكتور واصف يرثّش الشاي وينظر إلى بعيد، وكأنه  
يحاول التركيز على شيء ما.

- زوجتي تطلب مني أن نغادر بغداد. على الأقل حتى تهدأ  
الأوضاع، ولكنني مشغول بقضيتك كثيراً. يجب أن نحصل على  
التعاويذ، وللأسف هي ما زالت مسطورة داخل جرة أبو صلابيخ  
المحفوظة وراء زجاج المتحف العراقي.  
مشكلة فعلاً.

- أنت لست متحمّساً بالمرة، ولا تبدو مهتماً يا علي. عليك أن

تتدخل لدى صديقك الضابط هذا. اجعله يمنحك رخصة للتعامل مع الجرّة. اجعله يعيد تعيني في المتحف إن استوجب الأمر. أو يأمر ضباطه بجلب هذه الجرّة لا أكثر.

ذُهِلَ على من هذا الطلب. أنه أمرٌ لا يناسب الدكتور واصف، لا شخصيته ولا مبادئه، ولكنه لم يرد عليه بشيء يزعجه، لأن هدف الموضوع كله هو مساعدة علي، ولا مصلحة للدكتور واصف في أي شيء من هذا.

- الأمر صعب يا دكتور. الوضع الآن متفرّج. ستحدث حرب مخيفة داخل بغداد خلال الفترة القادمة. ألا تقرأ الأخبار؟

- لهذا أنا أريد منك أن تستعجل.. قبل أن تحدث هذه الأشياء التي تقول عنها.

- صعب يا دكتور.. صديقي الضابط لا يسمع لأي شيء الآن، فضلاً عن طلب من هذا النوع لن يفهم مغزاً وهدفه.

بقي على مع الدكتور واصف لساعة أخرى وهمما يترثّران عما حصل لعلي خلال الفترة الماضية، ثم رغب بالخروج مع اقتراب الليل لكن الدكتور واصف قال له بأن هناك على ما يبدو حظر تجوال مبكر. وعليه أن يقضي هذه الليلة هنا.

اتصل هاتفياً بليلي وأبلغها بفشل مهمته. عبد العظيم يتوجه إلى الانتحار الفعلي ولم يسمع له، وهو لا يعرف الآن ماذا يفعل. كلما خرج من المنطقة الخضراء وارتاح على أريكة ما، كما هو الحال الآن في بيت الدكتور واصف، ضعفت دافعيته للعودة، ولكنه لا يريد أن يعمل قطيعة مع عبد العظيم بهذا الشكل. لا يريد أن يظن صديقه بأنه فرّ مثل فأرٍ من مركب غاري، وأنه جبان وتخلى عنه ولا يريد

مساعدته. لا يعرف ماذا يفعل. ظلت ليلي صامتةً على الطرف الثاني من الاتصال عدّة لحظات ثم رمت حسرة وقالت:

- تعال. لا تفعل شيئاً. أنا حمقاء تماماً لأنني تركتك تذهب. لا يبدو عبد العظيم بحاجتك فعلاً، كم قراراً اتخذه بالاستناد إلى مشروتك؟ أراهنك أنه لم يفعل ذلك. أنا أعرف عبد العظيم جيداً.

تعال يا علي. من الصباح غادر باتجاهي. اختفي في بيتي. لن يسأل عنك عبد العظيم، ولن تحدث مشكلة كبيرة. قلت إنه ذاهب إلى الانتحار. أنت لا تريد أن تنتحر معه. هذه ليست أوقاتاً مناسبة لجمعية المترحرين.

- ٤ -

ظلّ علي سهراناً غير قادر على النوم، وتوّقع أن يتصل عبد العظيم لتفقده في أيّ لحظة، ولكنّه لم يفعل، وبدا كلام ليلي صحيحاً. كانت الأخبار في التلفزيون وعلى فيسبوك من على الهاتف المحمول لعلي تشير إلى تحركات عسكرية فعلية. ضربات طيران أميركي فعالة على قطعات جيش الدولة الارهابية دفعتها إلى التراجع بعيداً، ما سهل التفّرّغ لعلاج مشكلة بغداد. لقد استخدم الأميركيان قصّة الانقلاب جيداً من أجل إنتهاء وضع مختنق في بغداد، والآن صار التقسيم أمراً واقعاً. لا وجود لحكومة مركبة في بغداد، وصارت هناك ثلث حكومات متّسقة نسبياً في ثلاثة أقاليم. وهؤلاء سيجتمعون في بغداد لتقدير الحصص والنفوذ والصلاحيات على وفق خريطة جديدة، أنتجها واقع الانقلاب.

لم يكن مقرراً أن ينجح هذا الانقلاب في خلق واقع جديد أفضل. وكلُّ ما كان يصدق به مجلس الضباط مجرد خيالات

تدور في رؤوسهم ورؤوس بعض المحتفين والمتظاهرين في الشوارع.

في الصباح، بدأ أن يذهب باتجاه شقة ليلي، شعر على بأن عليه إجراء محاولةأخيرة. سيجبر صديقه على ارتداء ملابس مدنية والخروج خفية من المنطقة الخضراء. لقد حصلت الفوضى التي يريدها الآخرون، ولا داعي أن يقدم عبد العظيم نفسه أضحيه على مذبح هذه الفوضى. كانت الشوارع مقطوعة بسيطرات عملتها مليشيات مجهرة، واستطاع المرور منها بصعوبة بسبب الزحams الشديدة، ثم وجد أن المنطقة الخضراء نفسها محاصرة بطوقين عسكريين، وحاول بكل جهده إقناع الجنود بأنه يعمل في الداخل من دونفائدة، ثم اتصل بعد العظيم لكنه لم يرد على اتصالاته. ثم دخلت عجلة عسكرية وتوقفت، وكان فيها ضابط صغير تعرف على علي، فصاح عليه وطلب منه الركوب معه.

دخل باحثاً عن صديقه ووجده في مكتبه، يجلس هادئاً بوجه حليق وقيافة عسكرية كاملة. كان هناك ضباط آخرون يتحدثون مع «الزعيم»، وبعد دقائق خرجوا وتركوا الزعيم مع مستشاره الفيلسوف.  
- سذهب إلى الدجيل. هناك معركة يجب أن تُحسم، ثم ننزل بعدها إلى جماعة الحلة. لن نجلس هنا مستسلمين مثل خرفان العيد ننتظركم ليذبحونا.

- ما الذي تقوله يا عبد العظيم. الطيران الاميركي معهم. ألم تعرف؟

- لا طيران ولا بطيخ. الاميركان ينتظرون من المنتصر كي يصفوا بجانبه. ولم نقطع كل هذه المسافة حتى اللحظة حتى نخسر

الآن. منذ البداية جازفنا بحياتنا، ولن ندخل بها الآن في سبيل الوطن.

ضحك علي ، من دون خشية من ردّه فعل صديقه الذي كان وجهه يكتسي ملامع بالغة الجدية .

- الآن مو وقت العدمية والسخرية من كل شيء. انتهى هذا الزمن، أكواشياء لازم الواحد يصدق بها ويعمل لا جلها على.

- اللعبة انتهت. عليك التفاوض لانقاذ نفسك. أو انزع هذه البدلة الآن وألبس ملابس أخرى ودعنا نخرج من هنا ونختفي.

- وماذا أقول لوالدي؟ وللناس التي صدقت بنا؟

- فليقولوا ما يقولون.

- لا.. أهـم شيء ما سيقوله الناس عنك. ما يقوله التاريخ.

نظر علي في وجه صديقه المقرب وشعر بالأسى، لأنهما في لحظة تاريخية فعلاً، ولكن هذا لم يعد مهمًا. ليس الحضور في لحظة تاريخية هو أمر مهم دائمًا. شعر بان عليه أن يقول شيئاً أخيراً، رغم عدم إيمانه بمدى تأثيره:

- دعني أحدثك عن التاريخ، بما أنني جئت إلى هنا وشغلت هذه الوظيفة لأنني فيلسوف، حسب ما تعتقد.. التاريخ لن يكون شأننا بعد أن نموت، ولن تكون موجودين في التاريخ بأيّ حال من الأحوال.. أفعالنا وأعمالنا وما قلناه وأنجزناه، كلُّ ذلك سيعرض لاعادة تفسير وتأويل وتشكيل، وسيغدو شيئاً مُلكاً للآخرين، ويمثلهم أكثر مما يمثلنا. وسنكون معهم مجرد أشباح فيها أشياء عن حقيقتنا، وفيها أشياء أخرى تمثل حقائق الآخرين.. لست مستعداً أن أدفع الآن عن مصلحة شبح سيكون أو لا يكون هناك بالمستقبل. فضلاً

عن أنني لن أكون بجوار هذا الشبح. ولن استفيد وقتها من شيء يخصّه، لأنني سأكون ميتاً.

- ٥ -

ترك علي صديقه وغادر إلى غرفة منامه كي يحزم أغراضه. لم يستجب لنصيحة ليلي. قام بهذا المشوار العبني من دون طائل. قبل أن يخرج بحقيبته التي تحوي ملابسه وبعض أغراضه، تلقى اتصالاً هاتفياً من دكتور واصف.

- لا .. لا أريد الحديث عن الجرّة وما إلى ذلك. ولكن أخي رافد معتقل منذ ليلة أمس في سجن المطار. صديقك الضابط تعرّف عليه واعتقله من دون أيّ تُهمة. رافد مؤمن بالانقلابيين فلماذا يعتقلونه؟

- عبد العظيم يكرهه. نصيحتي ألا نفعل شيئاً. ما دام معتقلًا في هذا المكان فهو آمن. الأمن الآن أهم شيء دكتور، والقصة متنتهية.

- عائلته تسأل عنه.. أريد أن أعرف أخباره.

- لا أعرف دكتور. وصدقني لن أتمكن من معرفة أية أخبار من مجلس الضباط. انهم يتوجهون إلى معركة ما الآن. دعْ رافد مرتاحاً في سجنه بعيداً عن الاطلاقات الناريه والمواجهات. ربما الله يحبه بهذا الاعتقال.

- ٦ -

وهو يقطع الساحة باتجاه بوابة المنطقة الخضراء المطلة على منطقة العلاوي، شاهد جندياً يركض باتجاهه، استوقفه وقال له بأن «الزعيم» يطلبه. كان هناك على رأس رتل من سيارات همر عسكرية.

ذهب اليه وما أن صار على بعد عدّة خطوات حتى أشار عبد العظيم لصديقه بأن يلتفّ ويصعد معه.

- من حقيبتك هذه أفهم أنك لن تعود.. اصعد، دعني على الأقل أوصلك إلى مكان قريب على بيتك.

ركب مع «الزعيم» واندفع رتل السيارات العسكرية بسرعة، خارجين من المنطقة الخضراء حتى منطقة العلاوي القريبة. وربما يفكّر عليّ ان ينزل هناك قبل أن يعبر رتل السيارات العسكرية على الخط السريع متوجهين شمالاً إلى خارج بغداد.

- أتعرف.. كل هذا بسبب ليلى.

قال عبد العظيم، وهو يسترخي في مقعده خلف الجندي السائق.

- لو أنها تجاویت معي وعادت لشعرت بأن هناك شيئاً يستحق الجبن والخوف من الموت. أناأشكرها لأنها لم تفعل ذلك.

- ماذا لو قلت لك الآن بأنها ترغب بالعودة إليك.

ضحك عبد العظيم وهو يدعوك ذقنه وكأنه لا يصدق بكلام صديقه.

- لقد زرتها مرات عديدة وفي كلّ مرّة كنت تعود بالنتيجة نفسها.  
هل زرتها مؤخراً؟

شعر علي بالحرج مع مزاج من مشاعر متناقضة وغير مريحة. كان يخونه، وقد يتجرّأ للاعتراف بذلك الآن إن كان هذا ينقد صديقه. هو مستعدّ لفعل أيّ شيء لجعل هذه السيارة تتوقف ليسحب صديقه من ذراعه كي يتسّكّعا كما كانوا يفعلان في عقد التسعينيات. يمشيان على غير هدى، لمجرد خلق جوًّا للكلام والثرثرة حول كلّ شيء. عن الاشياء التي لم يستطيعوا الحصول عليها، والاحلام

صعبه المنال، عن الكتب والقراءات الجديدة وأشياء تافهة صغيرة كان لها طعم مميز وخاص، الثرثرة عن الموت والانتحار بهدف إبعاده عن الذهن. نخرج فكرة الموت من الرأس ونحولها إلى قصّة نتداولها ونرويها لبعضنا حتى نتخلص من شبح الموت ويغدو بعيداً. ولكن كلَّ هذه الاشياء صارت الآن مستحيلة. طلب علي من سائق السيارة الجندي أن يتوقف كي ينزل. انحنى علي نحو صديقه وصافحه وقبلَه على وجهته، وظلَّ عبد العظيم يضحك وهو يهزُّ بكتف صديقه وكأنه يقول له؛ هون عليك لن يحدث مكروه.

- ٧ -

لكن المكروه الذي كان يتوجه إليه عبد العظيم هناك، في جبهة المواجهة المفترضة مع جيش قادم من الشمال، كان قريباً بدرجة لم يتوقعها.

كانت هناك سيارة أوبل بيضاء مركونة على الرصيف في المسافة ما بين بوابة وزارة الخارجية وكراج العلاوي، وما إن مررت بجوارها الهمر العسكرية التي كان يستقلُّها عبد العظيم مع صديقه الفيلسوف حتى انفجرت.

غابت معالم الأشياء بلمح البصر في ضباب كثيف مختلط من الدخان ونثار أشياء مختلفة. صمّ الصوتُ أسماع باعة الرصيف البعيدين والسابلة والسيارات التي كانت تستدير من منطقة الصالحيّة. كان انفجاراً هائلاً، وتوقع كلُّ من شهدَه، بسبب الزحام في الشارع في هذه الساعة، وغيمة الدخان الأسود المتتصاعدة، أن خسائره ستكون كبيرة.

## الفصل الحادي عشر

### عالَمُ السَّدِيم

- ١ -

تظنَّ أنك متَّ يا علي، وأنك الآن في الجنة أو أيٌّ تسمية أخرى تحبُّها. تتجول معي الآن على هذا البساط الأخضر الممتدُّ، الذي لا يتغيّر لونه مهما بحثت بيصرك يميناً أو شمالاً، وكأنه ملعب غOLF واسع. غير أنك في لحظة أخرى، وبسبب الملل من اللون الأخضر، تغمضُ عينيك وترى نفسك جالساً أمام مُنحدرٍ صخريٍّ يؤدي إلى شلالات مياه زرقاء ولازوردية تراكمُّ مع بعضها وتمتزجُ مع ألوان السماء شديدة الzerقة.

تحرّك في أيٍّ مكان يعجبك. تأكل وتشرب من أيّما موضع تشاء، تستعيد «الليل» حينما كانت في سن العادمة والعشرين وتأخذها بالأحضان، وهذا حقاً يشبه الجنّة، غير أنه في الحقيقة «عالم السديم»، عالم المنفى الذي تُقذف إليه الأرواح المغتربة، والعالم الذي تُصنع عنده الآلهة، عالم العزلة الشديدة. ومن الجيد أننا لا نُقيِّم فيه، إنما هي وسْنَةُ النوم التي قد تمتُّ لبعض ساعات خلال الليل، وحالما نصحو فقد الصلة مع هذا العالم، ويبدو لنا وكأنه مجرد حلم جميل.

الأشياء الجميلة، مثلما تعرف، تكون زائلة. قوّة تأثيرها في

زوالها، أمّا استمرارها فيؤدي إلى الاعتياد، ثم نفقد الشعور بها، لا تغدو مميزة ولا مؤثرة أو موحية. ومن السهل بعدها أن ننظر إليها، في حالات معينة، وقد غدت جحيناً وقيداً.

أنا وأنت الآن، ولو قت وجيز، في عالم السديم الذي عبرنا إليه من «الباب السادس»، ومن تراهم يجلسون متوزعين تحت الأشجار، أو يُحرّكون بكسلٍ موجات المياه بجوارهم، هم منفيون، لن يتمكّنوا من الهروب من هنا، فضلاً عن أنهم لو سألتهم لما رغبوا بالعودة إلى عوالمهم السابقة.

## - ٢ -

كان صديقك العجوز الدكتور واصف يرى في عينيك، في آخر لقاء بينكما في عالمك الأول، نظرة أسف وحزن، لأنك اعتنقت أنه أصيب بالجنون والخرف، فَعَنْ أَيِّ تعاوينْ وعوالم سبعة يتحدث؟!

لدينا ما يكفي من الهمّ بعالمنا الواقعي، كي يشغلنا عن مصائر أخرى، يمكن أن نعيشها في حيوات غيرها، ولدينا من الأوهام المتشابكة مع الحقائق، ما يكفي لشغلنا لوقت طويل بمهمة فك غزلها المتداخل، تقول ذلك مع نفسك.

إن عالمنا في الحقيقة كتلة متراءّة من الأوهام المنسوجة بشكل جيد، والتي تتخلّلها حقائق معينة، غير أننا لا نستطيع فرز هذه الحقائق عن محيط الأوهام بسهولة. والتفكير بهذه المعضلات يكفي لشغل حياتنا عن أيّ شيء آخر، خصوصاً إن كان هذا الشيء هو خزّانات رجل تجاوز السبعين من العمر، يُقلّب في الأوراق القديمة واللّقى الآثارية، ويتحدّث بكلام غير مفهوم.

ولكن قبل أن تحكم، أريدك أن تفكّر قليلاً. فما أنت في الحقيقة؟ ما هو الجوهر الذي يشكّل شخصيتك؟ هل هو بدنك؟ هل هي مجموعة الحقائق الواقعية التي تشارك بها مع الآخرين؟ هل هي اللغة والعادات والتقاليد والأعراف والقواعد العلمية والعملية التي تسير على ضوئها، وتعرف من خلالها أبعاد عالمك الواقعي؟

إنها أشياء تشتعل عند الجميع، ولا تُعطي خصوصية لك عن غيرك. إنها «الروبوت الداخلي» في كل إنسان. والروبوت لا يحدّد هوية الإنسان.

ما يحدّد هويتك، هي أوهامك الشخصية. ذلك السائلخيالي اللزج الذي يتخلّل في كل ذكرياتك ويعيد سبكها في وعاء الاستذكار وإعادة التحقيق والخلط. إحباطاتك ورغباتك، ذكرياتك الحميمة والسيئة. ما فشلت في تحقيقه، وما تطمح إليه. إن الغالبية من هذه الأشياء هي أشياء غير واقعية، إما لم تحدث بعد، أو فات أوان حدوثها، ولكنها تشتعل وتؤثر فيك، بل وتحدد شخصيتك وتفصلك، في المحصلة، عنمن يشابهك في ثلاثة أرباع المادة الحياتية، الفسلجية والاجتماعية والنفسية والتاريخية.

ماذا لو استطعنا وضع هذه الأوهام الشخصية في شريحة ذاكرة. نزعناها من دماغك وحملناها على شريحة الذاكرة. هل ستبقى أنت؟ أشك في هذا.

ماذا لو أرسلنا محتويات شريحة الذاكرة، عبر أثير كهرومغناطيسي إلى الفضاء، وفي زاوية ما من الكون، على بعد ملايين السنين الضوئية. يجري استقبال الرسالة، ويتم تحميلها في رأس إنسان من كائنات ذلك الجزء القصي من الكون.

برأيي، سيكون الأمر، وكأننا أرسلناك إلى ذلك المكان.  
ستصحو وتتجد نفسك في مكان جديد.

ماذا لو أننا لم نحتاج إلى أجهزة معقدة للقيام بهذه الرحلة. ماذا لو أن لدى الإنسان، وفي دماغه تحديداً، إمكانيات مصممة للقيام برحالة مشابهة. جسْرٌ كهرومغناطيسي ينفتح بعد تعطيل سيطرة العقل الوعي، ويمكن أن يحملنا «يحمل شريحة أوهامنا الالكترونية» إلى أماكن أخرى بعيدة عن عالمنا الذي نعرفه؟ العلم نفسه يقول إن الجزء الأكبر من إمكانات الدماغ البشري ما زال غير مستغل.

كون هذه الفرضية لم تتحقق بعد، ولم تتحول إلى ممارسة حياتية شائعة، لا يعني أنها مستحيلة أو غريبة. إنها مبكرة بالنسبة للغالبية من الناس، وأوان حدوثها لم يحدث بعد، ولكن يا عزيزي، أتعرف؟ حين يقوم الإنسان باكتشاف هذه الإمكانيات فإنه، كما توصلت وعرفت، لن يقوم باكتشاف شيء جديد، إنه يعيد اكتشاف ما تم اكتشافه قبل قرون سجدة.

لديّ ما يكفي من الأدلة التي تساعدنني على الإيمان أن البشرية كانت تقدم ثم تصل إلى ذروات عالية، لتهار الحضارة بعدها بسبب من الأسباب، نزول نيازك عظمى، أمراض وإيذاءات بسبب الأسلحة المتطرفة، ثم تعود البشرية لتبدأ من الصفر، لهذا هي تمر في كل مرة على محطات مرّت بها سابقاً. وكل ما يحدث لنا اليوم هو أمر كان يجري سابقاً. نزول الآلهة وصعودها. كل الأساطير القديمة، التي تعاملنا معها على أنها حكايات خرافية مسلية، هي تدوين بإمكانات اللغة والتعبير المجازي المتاح لأناس يحاولون توثيق ذاكرة أكبر منهم بلغة وعي بسيط كانوا قد بدؤوا معه من جديد. تدوين لحقائق عميقة لم تكن البشرية وهي تستأنف الرحلة من الصفر، مؤهلة لاستيعابها

وفهمها. واليوم نستطيع ذلك، بسبب قدراتنا العقلية المتطرّفة. نحتاج فقط إلى إعادة القراءة، والتخفّف قليلاً من صنمية الحقائق المنطقية كي نصل إلى الفهم الجديد.

لقد تمَّ مثلاً إرسال شريحة الذاكرة الخاصة بآدم وحواء من البستان الذي كانوا يعيشون فيه إلى نسخهم التي تعيش في أرض بور. تمَّ قذفهم خارج الجنة بهذه الطريقة. هناك نسخٌ من مصائر مختلفة، وهناك جوهرٌ لأنّا التي تحمل ضوءاً أكثر، يمكن أن ينتقل من نسخة إلى أخرى.

هل تحمل كلُّ النسخ وعيَاً بالدرجة ذاتها؟ هناك نسخة واحدة فقط تحمل ضوءاً أكثر، يمكن أن نسميه شعلة الآلهة، أو لمسة الإلهية، النسخة التي تحوي ثقباً يمرّ من خلاله التيار الكهربائي الإلهي. النسخة التي تعني مشكلة وجودها بدرجة أكبر من النسخ الأخرى. التي تفكّر فوق النسخ كلّها، وتقلق تجاه المصير.

لقد ارتحل كلّكامش، كشريحة ذاكرة، إلى نسخته الخالدة، بعد أن غاص في البحر وانتزع عُشبة الخلود، ثم نام على الجرف واستيقظ ووجد أن العُشبة اختفت، أو أكلتها الأفعى كما يُقال. لماذا لم يرجع ليغوص ثانيةً. العُشبة موجودة في أعماق البحر، ويستطيع الغوص ثانيةً للحصول على المزيد، ولكنه لم يفعل. أتعرف لماذا؟ لأن كلّكامش الخارج من البحر كان قد انتقل إلى الخلود فعلاً. ذهبت شريحة ذاكرته، خلال النوم، إلى نسخته المادية الموجودة على كرسي بجوار الآلهة. ذهب إلى الخلود، أما النسخة التي بقيت، الخالية من ذلك الإدراك العميق، والتي استفاقت على غياب العُشبة، لم تفكّر بأن تبذل جهداً أكبر. بكت، ورضيّت بما قالته لها لاحقاً صاحبة الحانة؛ عليك ان تمضي أيام حياتك كيفما اتفق، وانس هم الخلود وغمّه.

حصل كل كامش على الخلود، وبقيت قصته، ذات الثغرات، حتى يأتي الأذكياء كي يفسّروها بشكل صحيح، وليس وفق التفسير الشائع.

- ٣ -

تقول؛ وما هي قصة الدكتور واصف عبد المحيي ذات الثغرات؟ إنها أخوه الصغير راfeld. بعد أن اعتنى واصف به على مدى سنوات طويلة، صار هو المتسلط عليه. علِمَ متأخراً أن راfeld كان مرتاحاً لأنه لم ينشئ أسرة. لم يتزوج وينجب أولاداً، حتى تؤول أملاك العائلة كلها له. ثم صار واصف في شيخوخته حبيسَ البيت، وجعل راfeld الحراس والمرأة العجوز التي تقوم على خدمة أخيه العجوز أشبه بالعملاء والجوايسис له. وكثيراً ما ردوا زواراً يأتون للاظمنان عليه، زملاء عمل أو جيران. كان سجين بيته في السنوات الأخيرة. أنت نفسك لم تكن معنِياً بالتعرف على هذه الحال التي كان صديقك العجوز يعيش فيها. كنت غاطساً في مشاكلك وشؤونك.

الذي خف عن واصف، ولكن بعد أن هدَّ المرض وأعنته سنوات الشيخوخة، هو حصول راfeld على منصب رفيع في الدولة. كان في وقتها أشبه بمن تلقى جرعة مخدر قوية، فأهلل أخيه العجوز لفترة، وهي الفترة ذاتها التي عاودت بها أنت زيارة الدكتور واصف، والتقيتما لقاءً كما الأخير في حديقة بيته.

ما لا تعرفه أنك تسيّبت في تعجيل موته. لقد كنت تذَّكر راfeld في شتائمك وتتهمه باتهامات شنيعة، كانت تثير غضبه. وراfeld لم يتعرّف على هويتك في البداية. لم يعرف أنك صديق أخيه القديم الذي كان يراك في حديقة البيت أيام جمعيّة المنتحرين. ولكن حارس البيت

نقل له فيما بعد ما جرى من لقاء بينكما . وبعد أن تأكد من هوبيك جاء إلى دكتور واصف غاضباً . واتهمه بأنه من يزودك بمعلومات عن صفقاته وتحالفاته السياسية والتجارية ، وأن واصف بذلك ي يريد الانتقام منه وتخرير وضعه الحالي . ثم أنهى هذا اللقاء الصاخب بقرار غريب ؛ لقد رتب أمر نقل أخيه العجوز إلى مصحة في بيروت . رفض دكتور واصف طبعاً هذا الأمر ولكن راfeld علق بأن رأيه لم يعد مهمّاً . تركه وهو شبه منهار تحت وطأة مزيج من الغضب والحزن والشعور بالغدر والإهانة ، ولم يستطع بعدها العودة إلى وضع صحي مستقر . حتى حين اتصل الحراس بطبيبه الذي يسكن على بعد شارعين من البيت ، لم يستطع هذا الطبيب فعل شيء . وقد دكتور واصف في فراش ، وحين طلب من الحراس أن يتصل برافد لم يرجع له خبراً . لم يكن يرغب بالمجيء ، وهذا ما زاد من حزنه . كان راfeld يتنتظر ، كما كان يؤمن واصف ، خبر وفاته فحسب .

هل تريد الآن أن يؤمن واصف ويسلم لهذا العالم الخبر ؟ ! هل تلومه إن فَكَرَ بالخلاص منه ، ليس بالموت ، وإنما بحلول أخرى مهما بدت عجيبة وشاذة ؟ !

#### - ٤ -

أنت تقول الآن في نفسك ، وما شأني ، أنا محدثك ، بهذه القصة ، ولماذا أتكلّم لك بوجوه معتم ولا تكاد ترى ملامحي الغاطسة تحت ظلال الأشجار الداكنة . من أنا يا ترى ؟ !

ها أنذا أتقدّم لأخرج من الظل إلى النور فترى وجهي . تتفاجأ لأنني الدكتور واصف ، أو أنا أشبهه كثيراً . يزداد الأمر عندك غموضاً وتشابكاً ، ولكن دعني أوضح لك .

أنا نسخة الدكتور واصف في العالم الخامس، حسب ترتيب العوالم لديك. ولستُ الدكتور واصف، في عالملك الأول، الذي تعرفه.

قبل أن يلفظ أنفاسه نجح الدكتور واصف صاحبك، في الفرار من عالمه، وأنت رأيته في «حياته المثلثة» في العالم الرابع، حسب ترتيب العوالم لديك، متزوجاً ولديه ولدان، ويعيش بصحة جيدة ما تبقى له من سنوات.

جاء أخوه راfeld صباح اليوم التالي ليقف عند جثته الهاامدة على السرير في غرفة النوم. لم يذرث دمعة واحدة كما أخمن. لا يحتاج الأمر أن تكون شاهداً على ذلك كي تتأكد.

كيف أعرف ذلك؟ لأننا الآن هنا في عالم السديم، لبعض ساعات حتى شروق الشمس ونهوضنا من السرير، ها هنا تلتقي الأرواح كلّها وتتدخل، أرواحنا في العوالم السبعة، خلال النوم، تمنع روح ما لشقيقتها بعضاً من ذكرياتها كي تغدو بعد الصحو مجرد أحلام غريبة.

تخبر زوجتك على الفطور، أو صديقك الحميم الذي يوصلك بسيارته صباحاً إلى مكان العمل أنك تجولت في مكان غريب، وخضت تجربة خلال الحلم، ولا تعرف حينها أنك تبادلت الذكريات مع روحك الشقيقة القادمة بدورها من عالم آخر، وكان اللقاء في عالم السديم هنا، الذي تجتمع فيه أرواح كلّ العوالم، الأرواح الحية التي لم تغادر عوالمها إلى دار الفناء بعد.

هذا ما يجري غالباً للناس جميماً بشكل عرضي، ولكن، ماذا لو أنت توصلتنا إلى السيطرة على هذه الأبواب التي نعبر من خلالها إلى عالم السديم أو التعلق بأرجل الأرواح العائدة إلى عوالمها قبل

الصحو؟ فتعبر بشرىحة الذاكرة الأصلية العائدة لنا من عالمنا الأصلي  
إلى عالم آخر؟

هذا ما حصل معي. صلتك بي وما حكيمته عن تجربة مؤلمة  
للدكتور واصف مع أخيه رافد، هي ليست لي. إنها ذاكرة مستعارة.  
حصلت عليها عرضياً ومن دون قصد.

أنا الذي أتحدى لك الآن، أقيم في عالم آخر، عالم شاسع  
الأرجاء من صنعي وتحت سيطرتي. أنفقت وقتاً طويلاً في إنشائه.  
ومن خلال دراستي المكثفة مع باحثين آخرين على الرموز المبثوثة في  
النصوص القديمة التي خلقتها الحضارات الإنسانية البائدة. استناداً  
إلى فكرة أن البشرية لا تتقدم وأنما تعود بما يشبه «العود الأبدى»  
النيتشوي إلى لحظات البداية في كلّ مرّة تصل فيها إلى أقصى ذروة  
لها.

توصلت إلى اكتشاف جرّة التعاوين، وكنت أول من جربها.  
زرت في ربیع ٢٠٠٧ حياتي في العالم الذي تصفه أنت وحسب  
ترتيبك الخاص بـ«العالم الأول»، ذلك الذي جئت أنت منه. وحلّت  
بشرىحة ذاكرتي الخاصة المرتحلة في روح وجسد الدكتور واصف  
هناك. وهنا حدثت المشكلة. كنت أتجول وأзор العوالم السبعة  
لأتعرف أكثر على إمكانيات هذه التعاوين، وكيف هربت بعض أفضل  
العقل من الدمار الذي حصل في عوالمها بسبب النيازك أو الحروب  
النوية الشاملة.

كنت مع فريقي الخاص في ديترويت، نتنبأ بحدوث نهاية العالم  
عمّا قريب، وشعرنا أننا نتحمّل مسؤولية ايجاد حلول معينة، إن لم  
تكن لعلاج الأسباب التي ستؤدي إلى الكارثة المقبلة، فعلى الأقل  
لحماية العقول الأساسية التي ستكون خميرة بناء عالم جديد بعد

الخراب. أعرف أن توقعاتي كانت كبيرة ومباغٍ فيها، وكنت أعول على نفسي ودوري، ولكن هذه التوقعات لم تحدث أو على الأقل كانت مؤجلة وبعيدة بالزمن، غير أن هذا كلّه لم يُعطل مشاريعي وإنما عدّل مساراتها باتجاه آخر. حتى جاءت ورطتي مع دكتور واصف في عالمك الأول.

أنت تعرف ربما، من خلال أحاديث نسختي في عالمك الأول عن باب الطباشير والعالم السبعة؟ وإن لم يُخبرك بدقة فسأوضح أنا بدقة أكبر، وللاختصار والتسهيل ستحكي حكاية افتراضية عن «خالد».

- ٥ -

خالد يتواجد في العالم السبعة بالقيمة الوجودية ذاتها. لدينا سبع «خوالد» منفصلين، وفي كلّ عالم يتحرّك خالد بوحىٌ من عقله الوعي فضلاً عن ذاكرة أوهامه الشخصية التي تجعله مميّزاً ولا يشبه أحداً غير نفسه. يخوض خالد في كلّ عالم حياة متمايزة و مختلفة عن حيوانات نسخه الشخصية في العالم الأخرى. وهذا يعني أن «كلّ خالد» له تجربته الخاصة وحياته المميزة.

خلال النوم تنفلت شريحة ذاكرة الأوهام الشخصية وترتحل بشكل عشوائي، واختصاراً يمكن أن نسمّي هذه الشريحة باسم «الروح». يقرأ خالد التعاوين السبع ويفتح باب الطباشير خلال الحلم وتنتقل روحه من العالم الأول إلى العالم الثاني. لا تفقد نسخة خالد في العالم الأول شيئاً سوى ما يميّزها عن الآخرين. سيصحو وهو يرى نفسه أكثر إذاعاناً ومداهنة واستسلاماً لتأثير القوى الاجتماعية من حوله. ستتحمّي شخصيته المميّزة ويغدو مجرد «خرف» في القطيع.

حين يستيقظ «خالد العالم الثاني» من النوم، سيكون بوعيin متزاحمين؛ وعي وافد وآخر مقيم. إن كان الوعي المقيم أقوى، فإن التشوش في ذهن خالد يستمر عدّة لحظات، أو بعض دقائق وسرعان ما يتتصّر الوعي المقيم على الوعي الوافد ويدفعه إلى الخلف. يغدو وعيًا عبداً. حينها سيقول خالد لأصدقائه أنه مرّ بحلٌّ غريبٍ. وتبقى الروح الوافدة تُصارع، في كلّ مرّة ينام فيها خالد، من أجل الانفلات والتحرّر، ولكن الروح المقيمة القوية تنتصر عليها حتى تنهكها وتُقصيها، أو يخبره أناس ما بأنه يعاني من تلّبّس ما.

في الحالة الثانية تنتصر الروح الوافدة على الروح المقيمة، حينها يعرف خالد أنه قادم فعلاً من عالم آخر إلى عالم جديد. تستخدّم الروح الوافدة البيانات والمعلومات المخزنة في ديتا الروح المقيمة من أجل ادارة حياتها. يعرف خالد وحده أنه جاء من عالم آخر، ويكون قادرًا على السيطرة على ذاكرة العالمين، وقد يقرر من ذاته أن يرجع، عن طريق تعويذة العوالم السبعة، إلى عالمه الأول، ويحرّر الروح المقيمة من عبوديتها تحته.

في الحالة الثالثة تملك الروح الوافدة والأخرى المقيمة قوّة متكافئة، ولا يؤدي الصراع بينهما إلى سيطرة روح على أخرى، وهنا يبدو خالد أمام الآخرين وقد أصيب بالجنون. وقد تساعده بعض العقاقير أو الصدمات الكهربائية على انتصار روح ما على أخرى ويستعيد خالد السيطرة من جديد، بغض النظر عنمن انتصر من هاتين الروحيين.

وبشأن التعويذات، إن كان خالد قد حفظ عن ظهر قلب التعويذات السبع قبل أن يستخدمها للسفر بين العوالم، فإنه يستطيع في بحر أربع وعشرين ساعة من وجوده في العالم الثاني أن يستظهرها

ويذوقنها، ولكنه ما إن ينام في العالم الجديد ويصحو في اليوم الثاني فإنه سينساحتاً تماماً.

- ٦ -

ما الذي حصل معي؟

كنت أتجول، كما أخبرتك، بين العوالم، ودائماً ما كانت روحى الوافدة تتصر على الروح المقيمة، و كنت أستذكر التعويذات السبع وأذونها بسرعة لاستخدامها لاحقاً من أجل العودة، حتى حللت في نسختي في عالمك الأول، وهنا بدأت المشكلة. كانت روح دكتور واصف في هذا العالم أقوى من روحى. بقينا نخوض صراعاً لعدة ساعات خلال النهار، الأمر الذي أثار المعحيطين به في بيته، فهو بدا لهم وكأنه أصيب بالجنون، وجرى استدعاء طبيب من أجل إعطائه مهدئاً ما لدفعه إلى النوم، وحسناً أنه رفض أخذها، وإلا كنت فقدت طريق العودة إلى الأبد.

ظلّ صراعنا على وثيرته حتى الليل رغم إنهاكه البدني، واستغرق في الشرب، وصار يتصل باصدقائه وعارفه، وتم إخبار أخيه بأنه أصيب بحالة من حالات الفصام، وقبل أن يذهب للنوم، استطعت الانتصار عليه لبرهة وجيزة، بسبب تراخي وعيه تحت وطأة الشرب، وأجبرته على تردید التعويذات السبع. وخلال النوم استطاعت الفرار والعودة إلى عالمي.

كانت تجربة فظيعة، علمتني خطورة هذه التعويذات، وأنهت بشكل حاسم فضولي للتعرف على عالمي الأخرى. غير أن الحكاية لم تنته عند هذا الحدّ. دكتور واصف الذي

تعرفه في عالمك الأول، حين استيقظ صباح اليوم التالي، لم يطمئن إلى أن ما جرى معه مجرد نوبة انهيار عصبي، أو حالة جنون مؤقتة. هلاوس وكوابيس نهارية، أو حالة فضام كما أخبره الطبيب.

كان مؤمناً أنه مرّ بتجربة مثيرة ومميزة. عزّزت بعض شكوكه، التي كان يواجهها في مجال عمله على اللُّقى والآثار القديمة. لذلك اندفع بجدية أكبر في عمل محموم، لم يتعرف عليه أحد من المقربين له، لاستكشاف التعويذات، حتى تمكن من الوصول إلى ما توصلت إليه. وأخبرك كاذباً بقصة الموظف في دائرة الآثار الذي جلب له جرّة أبو صلابيغ المكسورة، غير أن الحقيقة أنه سرقها قبل وقت طويل من أحداث النهب والسلب في نيسان ٢٠٠٣ من خزانات المتحف. وعلى الرغم من كلّ جهوده الحثيثة إلا أن الزمن لم يمهله لاستكشاف كامل الامكانيات الموجودة في هذه التعاوين، ما عدا موضوع الانتقال من باب الطباشير.

وهو أمر ساعده على الفرار من عالمه إلى عالم أفضل، وأنت أتيحت لك الفرصة للتعرّف عليه في عالمه الأفضل. لا أخفيك أني معجب بشجاعته وإصراره وإيمانه بنفسه. لقد استمر غزوتي له لصالحه. وربما لهذا السبب أتعترف أن روحه أقوى من روحي، والى هذه الحدود فالامر لا يعنيني كثيراً. لكنه تسبب، بإعطائك الدفتر الأسود الصغير الذي يضمّ التعويذات، بفتح الباب لشخصين، أحدهما أنت والثاني ممرض عجوز اسمه محمد سدخان.

استطعت السيطرة على محمد سدخان وصار يعمل في خدمتي الآن، غير أن ارتحالك إلى عالمي أسهם في عرقلة خططي ومشاريعي. لقد جعلتني أخسر «علي ناجي» الذي يخصّني.

أنت ما زلت مسجّى على سريرك في المستشفى في عالمك الأول، تغطس في غيوبية طويلة. وستبقى عالقاً في دوامة العوالم، تخرج من عالم لتدخل إلى آخر، دون إنذار مسبق، ودون سيطرة منك، بسبب الأبواب المشرعة والتي لا تستطيع إغلاقها ما بين العوالم، وستظل هكذا ما لم يحدث شيء يجعلك تستيقظ من غيبوبتك.

لقد بعثت محمد سدخان كي يساعدك على النهوض في عالمك الأول. لديه تعليمات محددة من أجل علاجك. سيفعل المستحيل من أجل هذا الهدف. ولكنني آسف لأنني سأخبرك بما سيأتي. هنا هنا في عالم السديم ليس بإمكانني إلا أن أكون صادقاً، ولا أستطيع توسيع المسافة بين ما أفكّر به وما أنطقه. كلّ شيء يجري في الوقت ذاته التفكير والكلام. أنا اعتذر منك يا علي. فمن ضمن التعليمات المحددة لمنقذك المبعوث إليك؛ أنه في حال فشل محاولاته بإيقاذه، فعليه أن لا يتركك تسبح في المنطقة الرمادية.

لست متأكداً تماماً من النتائج، ولكن من مصلحتي أن لا تبقى ما بين الموت والحياة طويلاً. يجب أن تكون في وضع محسوم ونهائي. إما حياً مثل غيرك من الأحياء فاستعيد على ناجي خاصتي، أو ميتاً فنموت نسختك الأولى، ويتحرر صاحبي منك.

قد أجازف بخسارة كلّ شيء، ولكن منقذك سيضطر، كحلٌّ أخير، إلى قتلك يا علي.

## الفصل الثاني عشر

# في المَحَكَّة

- ١ -

كانت قاعة الترويج والتربيض واسعة جداً، على شكل مستطيل ممتد، بأرضية تتناثر عليها حشائش متفرقة وذابلة في أكثر من مكان. وكان النزلاء هنا، من دون سبب منطقى، ينحشرون في مربع صغير قريب من باب القاعات الذي يخرجون منه إلى الساحة. ولا يكاد أحدهم يبتعد كثيراً ليذهب، مثلاً، إلى ذلك الحائط البعيد في نهاية المستطيل الممتد، والذي يفصل المركز الصحي هذا عن العالم الخارجي.

هناك ألعاب تشبه الألعاب الحديدية للأطفال في الحدائق العامة. عوارض معدنية للتأرجح منها باستخدام اليدين. لعبة تزلج بارتفاع مترين ونصف، عمود يتذلّى منه جبلٌ ثخينٌ ينتهي بإطار شاحنة. كُرات قدم بلاستيكية وأشياء أخرى مبعثرة لم ينتبه لوجودها علي، أو لم يرغب بأن يبحث عنها بعينيه. كان مع الآخرين في المربع الافتراضي الصغير القريب من بوابة القاعات، يراقب فحسب انحدار النهار وتساقط ساعاته من خلال الضوء القادم من صفّ النوافذ العلية في الجملون الزجاجي الذي يشكل سقف الساحة، ويتذكر تفصيلاً صغيراً يطرأ كي يخدش رتابة الحركة والمملل من متابعة هذه التفاصيل.

قبل دخول الممرضين لتنبيه النزلاء ودفعهم بالأيدي ، إن تطلب الأمر ، للذهاب إلى قاعة الطعام في ساعة الغداء . كان هناك عجوز ضامر بجلد متغضّن وشعر يدين يخالطه الشيب ، يبتعد عن حشد المرضى ويذهب بخطوات منتظمة وحماسية ، وكأنه يتقدّم في صفة عسكري ، إلى الطرف البعيد من القاعة ، إلى ذلك الحائط في نهاية مستطيل قاعة الترويج . ظلَّ يبتعد حتى بدا بحجم الإبهام ، حين رفع على إبهامه وجعله بجوار صورة جسد العجوز المبتعد .

توقف الخطوات الحماسية للعجز أمام الحائط ، يضم ساقيه إلى بعضهما في تقليد للوقفة العسكرية ثم يخرج قطعة طباشير حمراء وبدأ بالرسم على الحائط . يقوم برسم شيء واحد بسيط ولا يحتاج إلى مهارات خاصة . ينزل ليرفع خطأً طبشورياً حاداً إلى الأعلى وكأنه يحفر الحائط به ثم يلتف بالخط يميناً ثم ينزل بزاوية حادة إلى الأسفل حتى ترتطم قطعة الطباشور النافدة بالأرض . يرسم باباً ويضع قفلًا في منتصف الجهة اليسرى من الباب الافتراضي مع مقبض ملتوٍ . يتراجع عدة خطوات إلى الوراء كي يأخذ نظرة شاملة إلى بابه ، ثم يعود إلى المجموعة المحشورة في الزاوية في الطرف الآخر من القاعة ، ولكنه يعود بخطوات هادئة متباطنة تفتقد الحماسة الأولى .

ظلَّ العجوز الضامر يكرر ذلك كلَّ نهار ، أثناء ساعة التريض ، وقبل الإعلان عن موعد الغداء . وغالباً ما كان موظفو هذا المركز الطبيعي النفسي يتركون هذه التخطيطات الطفولية على الحائط ، فصارت الأبواب تراكم ، بألوان طباشير مختلفة . باب أصفر باهت لا يكاد يُرى من بعيد . باب أزرق داكن ، باب أحمر أكبر من الأبواب الأخرى . وحين يتثنّى الحائط البعيد ، يتم غسله باستخدام خرطوم

سقى يقذف ماءً حاداً. إنها أبواب من الطباشير على أيّ حال، يمكن إزالتها دائمًا بالسرعة نفسها التي رسمت بها.

- ٢ -

ما عدا الأبواب الداخلية التي توصل قاعة التريض ذات السقف المقبب ذي الشبابيك الواسعة الكثيرة بالأقسام الأخرى للمركز الصحي، وقاعات المنام والطعام والمكتبة على الممرات الداخلية، فإن الأبواب التي تصل المركز بالعالم الخارجي مسيطرة عليها بشدة. وتکاد تبدو أحياناً لعلي، الذي يمرّ بجوارها لصدفة ما، وكأنها أبواب سجن أو كأنها مثل الأبواب الطباشيرية للعجز الصامر؛ موجودة ولكن لا يمكن فتحها أبداً.

يبدو الانتظام في الحركات والواجبات والاستسلام التام لأوامر المرضى وكأنه نتيجة لإقامة طويلة جداً بالنسبة لغالبية النزلاء، وما عدا الرجل الصامر صاحب الطباشير، فلم يكن هناك شيء ملفت في الآخرين. هذا على الأقل ما اكتشفه علي خلال أسبوعين من الاقامة هنا اضطراراً ودون إرادته.

لا يعرف بالضبط كيف ولماذا جاء إلى هنا، غير أنهم أخبروه بأنه يعاني من ضرر في الدماغ بسبب إدمانه على عقار الشيلكسود الخطر، وهم هنا يرغبون بمعرفة هل كان علي يستخدم هذا العقار بإفراط بسبب حالته النفسية الصعبة، أم لجأ إليه كنوع من المخدر. لقد دخل في غيبوبة لعدة أيام بسبب آخر جرعة تناولها من هذا العقار. وستكون المرة المقبلة التي يفعل فيها شيئاً مماثلاً دون شك.

لماذا يفعل شخص مثل علي هذا بنفسه؟!

الجواب سهل؛ بسبب موت زوجته وولده الرضيع المفاجئ في حادث سيارة، وعدم قدرته على التكيف وتجاوز الصدمة. هكذا تقول تقارير طبية سابقة في ملفه الصحي.

غير أنه في استلقائه على سريره المغطى بشرشف أبيض في غرفته فقيرة المحتوى صار يتذكّر أشياء أخرى بدقة ووضوح، وفي أوقات الاستحمام اليومية في الحمام الجماعي يستطيع أن يرى في مرآة كبيرة آثار جروح وتشوهات على جسده، وكأنه خرج من حريق أو من إصابات بالغة جراء معركة أو حرب ما.

- ٣ -

يتذكّر بوضوح اللهب الذي هجم بأجزاء من الثانية من نوافذ السيارة الهمر وغطى كلّ شيء. يتذكّر الأيدي التي حملته بعد أن انقذ من النافذة المهاشمة في السيارة ليسقط على الرصيف، وهذا ما أدى إلى نجاته من فرن الشواء الهائل الذي تحولت اليه سيارة الهمر العسكري.

لا بدّ أن هذه التشوهات في ذراعه اليمنى وجزءاً من رقبته والثقوب الملتحمة والتتواءت في أرجاء أخرى من جسده، هي بسبب هذا الحادث الرهيب. لكن الأطباء يقولون إنها جروح صنعتها هو بنفسه، كنوع من التعذيب الذاتي، أثناء ما كان واقعاً تحت تأثير عقار الثيلكسود.

أعطت العقاقير المضادة على مدى أسبوعين تأثيرها في طرد السموم من جسده وعقله. كان يتحسن، ولذلك انتبه من يومين إلى تجمع المرضى في زاوية واحدة من قاعة التريض وشم الهواء، والحركات العسكرية الغريبة للعجز الضامر صاحب الطباشير. انتبه

إلى أنواع الطعام المقدمة على الغداء وصحن الفواكه المقطعة على العشاء، وتفاصيل أخرى تتعلق بحركة الطيور وأنواعها خلف التوافذ العريضة، أو في برامج شاشات التلفزيون.

تواجه مع العجوز الضامر وهو يحاول الخروج من باب قاعة المطعم. أمسكه من كفه وقال له:

- نحن هنا مجرد مجانين، فمن يعرف الحقيقة أو يقولها مجنون. انتظر للحظات حتى يرى ردّة فعل علي، ثم تركه ودخل قاعة الطعام. وفي المساء كان علي يجلس على كرسي في آخر قاعة التلفزيون ويتابع البرامج على الشاشة حين انتبه أن العجوز ينظر اليه من بعيد، ويقوم بحركة ما إلى رأسه ياصبع يده اليمنى، يلْفُ إصبعه في حركة دورانية على الرأس، كإشارة إلى الجنون، ثم يرسم بذات الإصبع علامات أكس كبيرة في الهواء. لم يفهم علي المغزى من هذه الحركات. وأحسّ مع نفسه بشيءٍ من الانزعاج لأنَّه صار محط انتباه واهتمام هذا العجوز المجنون.

#### - ٤ -

في نهار اليوم التالي اكتشف أن ذكريات أخرى بدأت تعود له، وحين خرج إلى ساعة التريّض، جلس على مصطبة خشبية عريضة موضوعة بالقرب من مدخل القاعة الواسعة، ووجد نفسه يبحث بعينيه بين الموجودين عن الرجل العجوز، ولم يره. لم تمضِ سوى دقائق قليلة حتى دخل العجوز ووقف وكأنه يستكشف المكان أو يبحث عن شيءٍ معين. لم يتوجه كعادته إلى الحائط في نهاية القاعة. كان الحائط نظيفاً هذه المرة ومهيناً لأبواب طباثيرية جديدة، ولكن العجوز لم يبدُ مهتماً بالقيام بهوایته المفضلة، وبدلأً من ذلك صار ينظر إلى علي في

جلسته على المصطبة، ثم اقترب وجلس بجواره. أدخل يده في جيب قميصه وأخرج قطعة طبشور حمراء وأعطها لعلي. ظلَّ علي يتأنَّ لها ثم أعادها إلى العجوز. لم يكن لديه ما يكفي من طاقة لمسايرة جنون أحد، وتمتنَّ لو يتركه هذا العجوز بحاله. لكن العجوز تكلَّم:

- يبدو أن حالك صارت أحسن، أشعر بهذا، ولكنك لم تعرِف إلىَّ حتى الآن. وهذا من حُقُّك. لم تلتقي بي وجهًا لوجه، على الأقل وأنت واعٍ. بالنسبة لي أنا أتذَّكر وجهك جيداً.

- أين التقينا؟!

- في غرفتك بالطابق الثالث في مستشفى الحريري بمدينة الطب، هناك في «العالم الأول».

كانت ذاكرة علي أشبه بلعبة ميكانو مفرقة الأجزاء، وجاء كلام العجوز الضامر ليعيد قطعة من اللعبة إلى مكانها المناسب. عاد لينظر إلى ملامح العجوز، وبدا له أنه يتذَّكر أشياء أخرى ضبابية، من دون أن يكون متأكداً.

- لقد بذلت جهداً كبيراً. عليك أن تصدق. لا أحد يقوم بما قمت به أنا، وكل ذلك في سبilk. أردت إنقاذه. حتى أنا نفسي لا أصدق ما قمت به، ولكني فشلت في مهمتي. ما زلت أنت هناك في الغيبوبة، ولحسن حظك أنت لم أقتلنك، كما كان يُراد مني. ولهذا أنا أقضي هنا نوعاً من العقوبة.

- تقتلني!

ردد علي مستغرباً، ثم استغرق مع نفسه قليلاً قبل أن يتذَّكر شيئاً جديداً ليسأل:

- وماذا عن الانفجار؟ كنت أنا وعبد العظيم في سيارة الهمر العسكري.

- أنت تخلط هنا ومشوش الذهن. لحسن الحظ أنا كنت أتجول بحرية بين العالم. ما تتحدث عنه كان في عالمي المثالي، أعمل طبيباً هناك في المستشفى الذي جئت إليه بعد إصابتك في الحادث الإرهابي.

قال العجوز ذلك ثم رمى حسراً وهو يُكمِل:

- كم بودي أن أرجع إلى هناك.

- ما الذي حدث لي؟ هل مت أم ماذا؟

- لا.. قُطعت ثلاثة أصابع من يدك اليمنى، وأصبحت بحرائق متعددة وتشوهات بسيطة، يعني صرت أقبح مما كنت عليه قبل الحادث، ولكنك حي.

نهض العجوز، وكأنه تذكر واجباً ضرورياً، واتجه بخطواته العسكرية الثابتة إلى الحائط البعيد، وقف هناك ورسم باباً طباشيرياً أحمر واسعاً، وظل متشغلاً به بينما استمر علي في جلسته مع رأس لا يكفي عن الدوران، وصارت الأفكار والصور الجديدة تتلاحق بسرعةٍ لديه.

في صالة الطعام جلسا بجوار بعضهما، واستأنف العجوز محمد سدخان أحديه. استمر بالكلام حتى في عودتهما مع بقية النزلاء إلى صالة التلفزيون. ثم انقطع الكلام عند الساعة العاشرة، وهو الموعد الإجباري لعودة النزلاء إلى مناماتهم المنفصلة.

- ٥ -

على سريره، وقبل أن يغفو بصعوبة، استرجع علي مرةً بعد أخرى دون إرادة منه كلَّ الكلام الذي أدلَّ به العجوز الضامر.

بحسابات معينة، وحسب كلام العجوز، يمكن أن يكون علي في  
عالم خامس الآن.

في العالم الأول ما زال في غيبوته العميقه، وهو هنا، في هذا  
العالم الذي لا يكاد يعرفه، محبوسٌ في مصحّة للامراض العقلية،  
يجهلُ كيف انتهى إليها.

قاله له العجوز سدخان إن فوضى هائلة حدثت بعد مقتل الزعيم  
والقائد الأعلى لمجلس الضباط الانقلابيين، ووصلت القوات  
الشمالية في اليوم نفسه إلى جانب الكرخ من بغداد وسيطرت على  
معظم أحياه بالكامل من دون أن تحدث أي مواجهات عسكرية  
فعالية، بينما انتشرت قوات عسكرية جنوبية لتأمين معظم أحياه  
الرصافة، وعبرت مجموعات مسلحة رئيسة لتطوق المنطقة الخضراء  
بالكامل. وفي هذه الأثناء أنتخب مجلس الضباط على عجل قائداً  
جديداً كانت لديه مهمة واحدة فقط؛ التفاوض مع القوات التي تطوق  
المنطقة الخضراء وتهدد باقتحامها في أي لحظة. ثم انتهى كل شيء  
بالاستسلام بعد أربعة أيام صعبة. واكتشفوا حدوث مجرزة قام بها  
العقيد عبد العظيم بكل الطاقم السياسي السابق الذي كان محتجزاً في  
سجن المطار. اختفت بضررية واحدة كل التشكيلة السياسية التي  
أدامت النظام السياسي من ٢٠٠٣ إلى اليوم. وانتهى عندها أي وجود  
لسلطة مركزية في بغداد، وتتم توزيع أحياي المدينة، حسب الانتساب  
الطائفي، ليكون جزء منها تابعاً للمجلس التشاوري للمحافظات  
الجنوبية التسع، وأخرى للإدارة الانتقالية المؤقتة لمجالس  
المحافظات العربية، الغربية والشمالية. وجرى إخلاء السفارات  
والقنصليات من موظفيها، بما فيها السفارة الأمريكية. وبعدها ببضعة  
أسابيع تم القضاء بسهولة، من قبل حكومة تكريت على وجود الدولة

الإرهابية في الموصل والرمادي، ودخلت البلاد في منعطف جديد مليء بالاحتمالات المفتوحة.

بالنسبة لعلي، وحسب معلومات العجوز سدخان، فإنه قضى في المستشفى وقتاً طويلاً قبل أن يكون قادراً على النهوض والعودة إلى إيقاع حياته الطبيعية، وكانت هناك امرأة، بدت أوصافها مطابقة لما يعرفه علي عن ليلى، كانت تزوره في المستشفى بشكل منتظم، ثم خرج علي بمعونتها على كرسي متحرك، لتأخذه إلى البيت.

خمنَ علي بأن انتقاله من بوابة الطباشير من ذلك العالم، كان أثناء غيبوته القصيرة ما بعد الانفجار. ليجد نفسه مغيباً عن الوعي جزئياً ها هنا بسبب تأثيرات عقار الثيلكسود، وكان العجوز سدخان يحاول استشعار عودته إلى الوعي بالكلام معه بين فترة وأخرى، حتى تخلص علي من تأثيرات هذا العقار وصار ينتبه لما يجري حوله، وحينما تأكّد العجوز سدخان من هذا شعر بأنها أوقات مناسبة لبدء الكلام الجدي مع علي.

## - ٦ -

هناك في «العالم الأول» كان العجوز محمد سدخان قد خبأ دفتر التواويد الخاص به في غرفته في مستشفى الحريري بمدينة الطب، وكان قد استخدمها في البداية للعبور إلى العالم الحالي الذي هو فيه الآن، ولكن الدكتور واصف كلفه بمهمة العودة إلى العالم الأول لإنقاذ علي ناجي. وخلال ذلك فهم الآلية التي تتحرّك بها التواويد واستطاع التجوال ما بين العالم وعرف بأنه يفضل ذلك العالم الذي يعيش فيه حياة جيدة ومحترمة بصفته الدكتور محمد سدخان. وهو عالم الانقلاب العسكري حسب علي ناجي.

وصل سدخان إلى طريق مسدود بشأن علاج علي في «العالم الأول» ورفض أن يقتله، ما أثار غضب الدكتور واصف حين عاد إليه هنا، في هذا العالم.

عاد سدخان إلى هنا، ولكنه استقبل بالصعقات الكهربائية وعقاقير الهلوسة. وجرى حجزه في هذه المصحّة منذ عدة أسابيع.

- ما خلف الأبواب محكمة الإغلاق في هذه المصحّة يمكن الجنون بعيشه. ستخرج لاحقاً وترى بعينيك.

قال سدخان، في آخر كلامه لهذه الليلة قبل الموعد الإجباري للنوم الجماعي.

- لو لا أنتي مجانون ما عملت هذه المجازفة الخطيرة من أجلك، وهذا أنتا أجد نفسي مسجوناً أتعرّضُ لعمليات محو ذاكرة. ولكنني أعرف أن الأبواب الطباشيرية ليست ملكاً شخصياً لدكتور واصف. هو لا يستطيع حرمان أحد من المرور عبرها إن أراد ذلك. وسأجد طريقي الخاصة للوصول إليها للرجوع إلى عالمي المثالي، عالم الانقلاب العسكري، وكذلك من أجل تحرير نسختي هنا من ضغطي كي تعود إلى عملها وحياتها.

- يا الله.. كلامك يُصيّبني بالدُّوار.

- يجب أن يفعل ذلك... الحقيقة دائماً أكبر من الاستيعاب.

قال سدخان، فرفع علي وجهه من بين يديه:

- أنت بهذا الكلام تحوّل إلى مجانون رسمي.

- لقد قلت لك ذلك قبل قليل!

رَأَنَ صمتُ بينهما، وشعر علي بأنه ربما عليه أن يهتمُ بكلام هذا العجوز، الذي قد يكون صلته الوحيدة المتاحة حالياً بينه وإمكانات فهم هذا العالم الذي وجد نفسه فيه.

- أنا آسف، ولكن لا يمكن لرسوم بالطبashir على حائط قاعة التريض أن تكون أكثر من أبواب مرسومة بالطبashir. لا تزعل منّي.

استمرَّ صمتُ العجوز سدخان، ثم بعدها بلحظات تعَكَّرت ملامحه دون سبب واضح قبل أن يرَدَّ بثقة:

- نعم، ولكنني أحافظ بهذه الطريقة على إصراري. لا أريد أن أ Yasas.

قال لعلي بأن زوال سموم الشيلكسود من جسده، سيتيح له الخروج خلال أسبوع من هذا المكان، وعليه أن يتكيّف مع حياته الجديدة مهما رأها مجونة في الخارج. لقد بذل المستحيل من أجل مساعدته وما زال مُصرًّا على الاستمرار بهذه المساعدة، ولكنه محكومٌ بقوانين وظروف جديدة تنتهي إلى هذا العالم الذي يحيون فيه. وعليه أن يشكر المصادرات التي جمعتها في هذه المصحَّة.

حسب التقارير الطبية الخاصة بمحمد سدخان فهو لن يخرج من هذه المصحَّة قريباً. بينما لم يمضِ على دخول علي إلى هنا سوى بضعة أيام.

في الأيام اللاحقة جلس علي مع رفيقه العجوز لأوقات طويلة وعادا بالكلام إلى التفاصيل نفسها مرّة بعد أخرى.

- سيتُم القضاء علىي هنا، أتفهم يا علي. إنهم يعطونني عقاقير النسيان بالإكراه. أنا الذي كنت أقيم معك في العالم الأول، سيجري محوي من هنا. وعليك أن تستفيد من وجودي قدر ما تستطيع قبل أن أختفي فجأة.

سيخرج علي بعد شفائه من عقار الشيلكسود، وفي الفحوص الدورية على المرضى، سيُعرض محمد سدخان بشكل روتيني على لجنة طبية، وربما يكتشفون أن وعيه وعقله عادا إليه من جديد، ما يعني أن وعيه الزائر قد انتهى وأزيل تماماً، وكلّ هذا مرهون بتخلّيه عن قصبة العوالم والبوابات الطباشيرية والانتقال بينها عبر الحلم، وحينها سيكون مؤهلاً للخروج من المصحة أيضاً.

- أنت ترى. لا يسمحون للتزلاء بمشاهدة الأخبار. مجرد برامج وثائقية وأفلام، ولكنني أؤكد لك، هناك، خارج المصحة، عالم مختلف تماماً. ستتعرف عليه. سأحاول إنقاذه نفسي من هنا، وحين أخرج سأبحث عنك.

- حتى نعثر على التعويذات السومرية من جديد.  
- آه طبعاً.

- ماذا لو حصل كلّ هذا ثم انتقلنا إلى عالم خامس وسادس وسابع. ماذا لو عدت أنا إلى جثتي الهاامة في العالم الأول؟ لقد انتقلت اضطراراً بسبب تفجير الهمر العسكري إلى هنا. ولست واثقاً أن الحظ الجيد سيرافقني في كلّ مرّة.

شعر سدخان وهو ينصت إلى كلام علي بأنها وجهة نظر معقولة.  
- هذا تفكير سابق لأوانه الآن.

قال سدخان ثم أخرج قطعة طبشور زرقاء وأعطها لعلي. ظلّ علي ينظر إلى قطعة الطبشور بيده. بدث له وكأنها تلخص بهشاشتها كلّ شيء. شعر بالاختناق فجأة. فتحرّك بخطوات بطيئة وكأنه يريد مغادرة الفكرة السيئة التي نطق بها سدخان.

- إن وجدت ليلى في هذا العالم، إن كانت قريبة مني فلن أقوم بأي شيء. سأبقى هنا، حتى لو كان عالماً من الجحيم.

- تقصد المرأة التي أخذتك على الكرسي المدولب من المستشفى؟

- آه.. لا شك أنها هي من فعلت ذلك.

- وان لم تكن موجودة هنا؟

- لا أعرف.

قال علي وهو يقترب مع صديقه العجوز من الجدار البعيد في آخر قاعة التريض.

كانت صورة ليلى في ذهن علي تستعيد وهجها السابق، وهذا ما يدل على التعافي المضطرب من السموم التي كان يتناولها. تذكّر بوضوح بعض تفاصيل اللقاء الأخير بينهما قبل أن يعود مضطراً إلى عبد العظيم في القصر الجمهوري، وكيف أنها تعاملت بلطف بالغ مع كسله وعدم رغبته الواضحة بالعودة، فجلبت ملابسه وصارت تلبسه أيّاًها قطعةً فقطً وكأنه مجرد طفل. ألبسته جواربه وربطت أشرطة حذائه. قبّلته على ركبته.

«أنت من تسبّب بكل هذا يا ليلى، يا لحماتك»

قال ذلك مع نفسه وشعر بدفقة حزن عميقаً تغزوه، وكأنه خرج للتو من شقة ليلى. التفت إلى سدخان وقال له:

- انت قلت اني كنت سليماً ومعافى في ذلك العالم بعد خروجي من المستشفى؟

- نعم، قبيح ومعافى.

- إذن، هذا شيء يستحق المجازفة. ربما هو العمل الانتحاري الوحيد الذي يستحق أن أقوم به؛ أن أعود إلى ليلى.

وصل إلى الحائط في آخر قاعة التريض، أخرج العجوز سدخان قطعة طبشور زرقاء متعرّقة من جيده، وانحنى على الحائط وبدأ برسم بابه المعتاد. نطق علي بكلماته الأخيرة في الوقت الذي أنهى فيه رفيقه العجوز رسم الباب الطباشيري المعتاد. نظر العجوز إليه ملياً ثم علّق مختتماً هذه الحوارية:

- آه. لا بدّ من المجازفة، ولكن إن كانت هناك تعاوينٌ سحريةٌ في هذا العالم حقاً.

## الفصل الثالث عشر

### حُفرَةُ الأَرْنَبِ

- ١ -

حدثت المذابح الدامية بين أعوام ٢٠٠٢ و ٢٠١٠ بعد بضعة أشهر من الضربة الأمريكية المدروسة لقصر الرئيس التي أنهت حياته وكلّ طاقمه الحكومي. وأدت الأحداث العنفية التي اندلعت لاحقاً وبالتالي وعلى مدى ثمان سنوات إلى هجرة ما يقارب العشرين مليون عراقي خارج البلد، ومكوثهم لفترات طويلة كلاجئين في معسكرات أقامتها الأمم المتحدة على عجل عند الحدود المشتركة مع تركيا وايران وسوريا وال سعودية، ولم تنفع جهود المنظمات الأممية في إيقاف الحرب الأهلية، أو إقناع الأطراف المشتركة فيها بالجلوس إلى طاولة مفاوضات.

في النهاية استقرّ المهاجرون في دول المنافي، وسحب هؤلاء عوائلهم وأقاربهم الذين ظلّوا في العراق، وبقي نحو سبعة ملايين نسمة، الجزء الأكبر منهم مؤمنون عقائديون، مصرّون على النصر مهما كلف الأمر، ولم تكن المحاججة معهم تؤدي إلى نتيجة، لأن لديهم دائماً أجيوبة جاهزة، رومانسيّة الطابع، تتحدى عن النضال وحيداً والبقاء في الساحة وكثرة المتخاذلين، وأن الحقّ أنصاره قليلون، ولا يترك الحقّ لأحد صديقاً ولا قريباً وما إلى ذلك من

مثاليات تُبقيهم صامدين أقوىاء في مواجهة مصائرهم التي لا تكون غالباً مصائر سعيدة.

كانت شخصيات من الجالية العراقية في ديترويت بأميركا هي صاحبة الفكرة التي بدت جنونيةً في بدايتها، ثم سرعان ما تبنّاها آخرون، خصوصاً من رجال الأعمال والتجار والشخصيات الاجتماعية النافذة.

تتلخص الفكرة بالتالي؛ تراجعت صادرات النفط العراقي بدرجة كبيرة، مع تلکؤ عالمي في استحداث مصادر طاقة بديلة، وبقاء الحاجة قوية للوقود الأحفوري «النفط والغاز»، ويسبب بطء الاستثمار في الحقول النفطية العراقية استكشافاً أو انتاجاً فإن العراق صار هو الخزان رقم واحد في العالم للوقود الأحفوري. يأتي هذا مع تراجع المخزون في الدول المعروفة بالانتاج المرتفع والتي تعتمد عليها سوق النفط غالباً. كان هناك بالمجمل مأزق يلوح في الأفق، وما لم يتم وضع اليد بشكل جدي على المخزون النفطي العراقي واستثماره فإن العالم مهدّد بأزمة نقص بالوقود حادة.

هذه القضية المتعلقة بالنفط كانت مجرد خلفيّة لشيء آخر؛ فالكثير من المهاجرين استقرّوا الآن فضلاً عن نحو خمسة ملايين مهاجر سابقين تدفعوا إلى المنافي عبر العقود الماضية. إنهم شعب كامل، أكثر من بقي في البلد، يشعرون بإنسانيتهم، وأنهم أحرار في قول وفعل ما يشاورون، لأول مرة في حياتهم ربما. وهذا الشعب الحرّ المقيم خارج بلده آنَّ له، بعد أن هدأت النفوس واستقررت أن يعمل شيئاً لصالح بلده الذي تركه.

كانت الفكرة هي تجميع أصوات الجاليات العراقية في مختلف

الأصقاع، ودفعها إلى تنظيم نفسها في روابط، تمهدأً لاتحاد هذه الروابط مع بعضها البعض الآخر. ورفعت لواء هذا النشاط جمعية «الأمة العراقية المتحدة»، وسرعان ما انتشرت مقارُّ الجمعية في مختلف أنحاء العالم، وأينما يتواجد عراقيون، وتشكلت خلال أربع سنوات قوّة ضغط مهمة، مؤلّت نفسها بأموال تجار ورجال أعمال عراقيين مقيمين في أميركا وأوروبا.

في النهاية رفعت جمعية الأمة العراقية طلباً إلى الأمم المتحدة لتمثيلها كمنظمة مراقبة، وتمَّ قبولها، ثم سرعان ما بدأت العمل على خطَّة تتعلق بنزع الشرعية والأهلية من السبعة ملايين نسمة المقيمين في العراق والاعتراف بحكومة منفى سيتمُّ تشكيلها من كونفرنس يجتمع أعضاؤه في ديترويت لاختيار المناصب العليا. وهذه الحكومة لن تعود إلى أرض الوطن، وإنما تباشر عملها من هناك، من منافيها. وتضمن للمجتمع الدولي خروج العراق كبلدٍ من دائرة التهديد الإقليمي، وتضمن إنشاء إدارة كفؤة للموارد النفطية بما يخدم مصالح المجتمع الدولي، ويتمُّ توزيع العائدات على إعمار البلد وأيضاً على مشاريع تخصُّ الجاليات العراقية وقوّة حضورها في بلدان الإقامة، ومساهمتها في الحركة الاقتصادية لهذه البلدان.

كان مشروعًا معقدًا ويتضمن تفاصيل كثيرة، ودخلت فيه صفات ولوبيات وشركات كبرى، وتمَّ، وسط مفاجأة عقدت السنة المتحاربين على أرض الوطن، إقرار مشروع حكومة العراق العالمية. جرى استحداث قوّة أممية بقيادة عراقيي المنفى، وفتح باب التطوع لها بأجورٍ عالية، واستؤجرت لهذا الغرض معسكرات مؤقتة للتدريب ومخازن تسليح في أكثر من بلد، ثم سرعان ما نزلت هذه القوّة العراقية الأممية على أرض العراق وبدأت أعمال تحرير وسيطرة

على الأرض، أمنت في البداية حقوق النفط ثم طوقت المدن وبدأت حرباً صعبة سرعان ما انتهت بالسيطرة على كامل البلاد.

- ٢ -

كان من ضمن تفاصيل الخطة إعطاء شركة النفط الوطنية إلى إدارة تمثل اتحاد شركات عالمية، وكان من الواضح أن اتحاد الشركات هذا هو من سيتولى، ليس إدارة القطاع النفطي فحسب، وإنما البلاد بأسرها.

ظاهراً كانت الفكرة الأساسية أن أبناء البلد المقيمين فيه غير قادرين على إدارة بلدٍ موحدٍ لا يُشكّل تهديداً لغير أنه، وهذا ما يعطي لفكرة الحكومة البديلة في المنفي شرعية وجودي، خصوصاً حين تكون هذه الحكومة ممثلاً لغالبية الشعب المنفي، وباطناً كان من الضروري أن تستمر هذه الحجّة بالعمل، حتى يستمر المشروع ناجحاً ويدرّ على الأطراف الراعية له أرباحاً طائلة.

كان من الضروري أن يبقى البلد غير مؤهّل لشيء، حتى لا يكون هناك مبرّ منطقي للعودة، أو إنشاء حكومة فعلية على الأرض الوطنية.

لا أحد يعرف بهذه التفاصيل «الباطنية»، لأنها غير معلنة، ما سوى أقلية صغيرة، وما سوى تكهنات واستنتاجات، يقوم بها أفراد، أثناء جلوسهم مع أصدقائهم في مقهى ما، وعلى الرغم من أنها استنتاجات لا تستند إلى أدلة قوية، غير أن المتحاورين على طاولة المقهى لا يعرفون أنهم يصيرون، بخيالهم الجامح، كِيدَ الحقيقة، وإن كانت حقيقةً عامة من دون تفاصيل.

بعد استيلاء اتحاد الشركات على كلّ شيء في البلد، كان من

الواضح أن على الأطراف الإقليمية التي كانت تسترزق بالحرب الأهلية في الداخل أن تعامل الآن مع ممثلي هذه الشركات، وتهمل الفصائل المسلحة على الأرض التي تم نزع أنيابها بقسوة، ولكن لم يتم القضاء عليها بشكل حاسم. ليس من الضروري، بالنسبة للمخطة الباطنية، أن يتم قتل الوحش، وإنما السيطرة عليه جزئياً واللعب معه. كانت الأوضاع مستقرة نوعاً ما، لأول مرة منذ عقود، مع انتشار فكرة غريبة، مفادها أن الأرض نفسها، تلك التي يسير عليها الناس، ويُقيمون بيوتهم ومنشآتهم. هذه الأرض المليئة ببرفات وأرواح ملايين البشر الفانين على مدى قرون سحرية، هي من تبُث، عبر موجات تلبيسية، هذه الطاقة السلبية. وكان الأرواح المتقاتلة سابقاً والتي ربخت أو خسرت حروفيها وذهبت إلى العدم، تعود في كلّ مرة من جديد لتلبّس أجساد الأحياء وتُمارس من خلالهم، من جديد، حربها التي لم تنتهِ سابقاً. فيؤدُّ المهزوم أن يُصحّح المعركة الخاطئة، لتعود عجلة العنف والقتل للدوران من جديد، وإن كان ذلك من خلال قصة جديدة، وأشخاص جدد، ليس لديهم علاقة واضحة بأسلافهم الذين قد لا يعرفون من هم على وجه الدقة.

لو استحققت هذه الفكرة بعقول الجميع فإنّها ستدفعهم، على الأرجح، للهروب من هذه الأرض الملعونة المتعطّشة للدماء، ولكن، من حسن الحظّ، أن نسبة كبيرة لا تُصدق بهذه الخزعبلات، وتُفضّل عليها خزعبلات أخرى مألوفة ومريحة للذهن، لأنّها نشأت معها وتنفسّتها في أجواء عائلية حميمة، حتى لو كانت خزعبلات ديناميتية خطيرة، فهي خزعبلات العائلة، وفيها جانبٌ حميمٌ ولطيفٌ في كلّ الأحوال.

كما إن إدارة الشركات التي بثت هذه الخرافة المسيئة للأرض

الوطن، كانت تستهدف تبرير الهرب وعدم العودة بالنسبة للملايين العديدة من العراقيين، وليس تشجيع من بقي في أرض الوطن على الهرب. فمن غير النافع إفراغ البلد تماماً من سُكّانه. يجب أن يبقى هناك عدد كافي للشعور بوجود مجتمع عراقي، وثانياً لإدارة القصة العراقية المتعلقة بعدم قدرة العراقيين على العيش المشترك وشهوتهم الغامضة لشرب دماء بعضهم البعض الآخر من دون التدقيق كثيراً بأسباب مُقنعة للقيام بذلك. يجب أن تستمر هذه القصة حتى نستطيع رؤية العراق الذي نعرفه.

- ٣ -

كان «عمّار» من الذين تحصّنوا فترة طويلة بإحدى الجماعات المسلّحة النافذة واستطاع إدارة عمل تجاري ناجح لوقت طويل، حتى عودة أخيه علي مع الفرق الفنية الساندة، التي كانت مع طلائع القوة العراقية الأممية التي أعادت السيطرة على البلاد. وبعد سحق الجماعات المسلّحة، وجد عمار بحسه التجاري أن هناك فرصة لاستمرار عمله مع السلطة الجديدة، وخمنَ بأن هذا الوضع ليس طارئاً، مما يمهد له أن يُجاذف بكلٍّ ما لديه بالتعوّيل على السلطة الجديدة وقطع كلٍّ خيوط له مع الجماعة المسلّحة السابقة التي كان يعمل تحت حمايتها، ويهنّجهم ضريبة شهرية لقاء ذلك.

كان علي متّحمساً للعمل في الجهاز الدعائي الجديد لفكرة إعادة خلق البلد، وبثّ الروح الوطنية، والتحشيد لإعادة الإعمار وما إلى ذلك، حتى تخيل أنه من الممكن أن يكون فارساً ما، وصانعاً كبيراً للأحداث، إلا أنه وجد نفسه في زاوية ضيقة، بحكم تقسيم العمل والتخصص، ولا يكاد يعرف بدقة ما يجري في أجزاء وأقسام العمل

الأخرى، ثم ما هو أهم؟ هو لا يعرف ما هي التسليمة التي يؤدي إليها العمل الجماعي الذي كان يُسهم فيه بقطعة صغيرة.

حين حاول المعرفة، تم قمعه بنعومة وهدوء، من خلال إحالته إلى متأله من القوانين والأنظمة الصارمة، ولم ينس أحد رؤسائه في العمل، وهو تايلندي مُشتَغِرٌ، أن يخبره بما بدا أنشودة عراقية مملةً :

- لا تنس أن مشكلة هذا البلد هي عدم احترام القانون. القانون يغدو ضعيفاً ليس بسبب ضعف الهراءة التي خلفه، وإنما بسبب سقوطه بأعين الناس، وعدم احترامه من قبلهم. أنت لا تريد أن تعطيني مثلاً، من خلال فضولك غير المبرر، على الحالة العراقية؟! في النهاية، وبعد شعوره بأن أحداً لا يريد تغيير الأوضاع فعلاً وإنما محاولة الاستفادة منها، أخبر أخيه بأنه سيترك العمل مع الفرقة الفنية الساندة ويعود إلى منفاه في ديترويت بأميركا.

- لماذا تعود؟! قدْ استقالت من هذه الدائرة وتعالَّ معي، تولى إدارة الحسابات في شركتي.

- شركتك التي تعمل مع اتحاد الشركات، والتي من أقسامها الفرقة الفنية الساندة.

ردَّ علي على عرض أخيه بتهمُّ. هو لا يريد الخروج من الباب ليعود من الشبّاك، وإنما مغادرة هذا المشروع الذي صار يبدو غامضاً أكثر فأكثر. ولكن، هل يملك هو حقاً قرار المغادرة؟

رفض رئيسه في العمل طلبه، وقال له بأنه الآن يملك جنسية عراقية اتحادية.

- أنت الآن عضُّ في الكوميونتي النيوغرافي، وأنت تعرف هناك

حسابات رياضية دقيقة. أنت حللت الآن هنا بديلاً، من الناحية العددية الصرفة، لشخص قتل في «ميدان التفريغ الطائفي». لا أملك أنا قرار التلاعب بالأعداد، فضبط sistem هو جوهر sistem. لن أكون مخرباً هنا. كما أنك حسب الجنسية التي وقعت على استلامها، لا يحق لك الخروج من البلد والعودة إلى أميركا إلا بإذن خططي من الشركة.

- سأذهب لأقطع تذكرة وأخرج إلى موزمبيق.

- لن يمنحك أي شيء. كله بإذن الشركة. لماذا صرت تكره العمل هنا؟ الأجر ليس جيداً؟!

- أنا أقوم هنا بالشيء الذي هربت من البلد حتى لا أقوم به. أنا أسمهم في التخريب الآن، ولكن بطريقة أنيقة.

- أنت فقط تمرّ بوضع نفسي خاص، ربما تحتاج إلى إجازة. انتظر أسبوعين حتى يحين موعد الإجازات الدورية. لست تخلي بيتك، تذهب إلى المتجمعات التي أنشأتها الشركة هنا.

- لن أنتظر. سأذهب إلى شقتي ولن أعود إلى هنا أبداً.

كانت هذه نهاية مفضلة عنده حين يضطر لمواجهة وضع مشابه. الانسحاب والاحتجاج. الاعتصام في حفرة الأرنب الخاصة به، كما يسميهما. وهو شيء فعله سابقاً أكثر من مرّة، آخرها حين قُتلت زوجته وابنه الرضيع في حادث سيارة قرب ملعب فورد فيلد بدمشق. لم يتم العثور على الشاحنة التي صدمت سيارة زوجته وقدفتها على جانب الطريق. لم يحصل على تعويض من شركة التأمين على السيارة التي تحولت إلى علبة مكسورة. لم تقبل عائلة زوجته اعتباره بريئاً من المشاركة بالنهاية المؤسفة لابنته. أتهمه بعض أصدقائه، بود

ومحبةً، أنه كان يتمنى هذه النهاية. وأحياناً قوة التمني تكون مخيفةً بحيث تحرّك عتلات خفية لتحقيق رغبة المتمتنى.

كان كلاماً سخيفاً يُراد منه معاقبته على شيء لم يفعله. وقف في لحظة ما وشاهد بسطوع كبير كامل المشهد. صار يحتقر الجميع، ووجب أن يردهم عليهم. ترك كلّ شيء وانسحب عائداً إلى حفرة الأرنب الخاصة به. أقفل على نفسه في شقته قرابة الستة أشهر، من دون الاتصال بأحد. جعل نفسه خفياً بشكل تام. أغلق حساباته على السوشيال ميديا. قطع خطّ الهاتف والنت وكلّ شيء. صار غير موجود تماماً، حتى أنه تخيل أن يحدث له ما حدث لبورخس حين نظر إلى مرآة المغسلة فلم ير أحداً.

كان يدير ورشة للتدريب على الكتابة الفنية والخطابة والتحدث في الأماكن العامة، وكيفية استخدام الكلام في عرض الشخصية، واستثمار إمكانيات النطق بالنبرة الصحيحة للصوت مع كامل المنظومة الإشارية لحركات الجسم واليدين وملامع الوجه، وأشياء أخرى من هذا القبيل.

#### - ٤ -

في نهاية أشهر العزلة الستة، اكتشف أنه صار بديناً بشكل ما، وأنه لم ير «لا أحد» في مرآة المغسلة، وإنما شخصاً بملامح يعرفها جيداً ولا يحبها، شاهد وجهه المناسب لحالة الانسحاب والانهزام وعدم المواجهة. ثم جاءت عينةً منتقاةً من أصدقائه، ورفسوا الباب في شقته ودخلوا عليه وأجبروه على الجلوس في الصالة والاستماع إليهم.

كانوا يعرفون، لأنهم أصدقاءه، بخرافاته الخاصة، واستশروها

للتأثير عليه، لذلك جاؤوا سبعة أنفار، تتدخل فيهم الهويات الفرعية؛ السنّية والشيعيّة والعربية والكرديّة والتركمانية والمسحيّة الكلدانية والأثوريّة والصابئيّة.

نظر إليهم وعرف بهذه الخطة المحكمة لأنّه يعرف خلفياتهم الاجتماعيّة جيداً، وقال لهم باستسلام:

- أه.. فهمت.. أنتم جلبتم معكم أجزاء الجنريتر كلّه وركبتموه على أرائك صالحـي الآن. ستضرـبونـي بـتيـارـ كـهـربـائـي قـويـ وـتـحرـقـونـيـ.  
- لا.. الأمر أشبه بالمقاييسـ الـلـيـنـةـ لـلـصـدـمـةـ الـكـهـربـائـيـ لـإـنـعـاشـ القـلـبـ. والـفـرقـ هـنـاـ أـنـهـ إـنـعـاشـ دـمـاغـ نـاـشـفـ وـمـتـحـجـرـ.

قال أحدهـمـ، ثمـ زـحـفـ آخرـ عـلـىـ الأـرـيـكـةـ الـجـلـدـيـةـ بـضـعـ سـتـيـمـاتـ إلىـ الأـمـامـ كـيـ يـخـتـصـرـ الـحـكـاـيـةـ بـسـرـعـةـ:

- أـنـتـ مـاسـتـرـ اوـفـ توـكـ. ولـدـيـناـ حلـلـ لـكـ سـيـعـجـبـكـ. أـنـتـ تحـبـ سـوـالـفـ وـحـكـاـيـاـ الـوـطـنـيـةـ، وـهـنـاكـ مـهـمـةـ وـطـنـيـةـ جـبـارـةـ سـيـهـمـكـ أـنـ تكونـ جـزـءـاـ مـنـهاـ.

بهـذـهـ الطـرـيقـ تـمـ عـرـضـ الـعـلـمـ فـيـ فـرـقـةـ الإـسـنـادـ الـفـنـيـ الـمـصـاحـبةـ لـعـلـمـ الـوـحدـاتـ الـعـسـكـرـيـةـ الـعـرـاقـيـةـ الـأـمـمـيـةـ وـالـتـيـ أـشـرـفـ عـلـىـ تـموـيلـهاـ وإـدارـتهاـ اـتـحـادـ الشـرـكـاتـ. لـمـ يـكـنـ عـلـىـ مـعـنـيـاـ بـمـعـرـفـةـ كـلـ هـذـهـ التـفـاصـيلـ فـيـ وـقـتـهاـ. كـانـ يـرـيدـ يـدـاـ مـاـ تـسـجـبـهـ مـنـ حـفـرـةـ الـأـرـنـبـ، لـأـنـهـ لـمـ يـكـنـ قـادـرـاـ عـلـىـ الـخـرـوجـ بـنـفـسـهـ، وـحتـىـ لـوـ قـيـلـ لـهـ أـنـهـ سـيـشـارـكـ فـيـ فـرـقـ تـلـقـيـعـ ضـدـ الـكـولـيرـاـ فـيـ غـيـنـيـاـ الـأـسـتوـانـيـةـ لـقـبـلـ بـالـعـرـضـ، فـمـاـ بـالـهـ وـهـوـ يـشـارـكـ بـعـلـمـ «ـوـطـنـيـ»ـ أـخـيـرـاـ، يـعـيـدـ الـحـيـاـةـ إـلـىـ بـلـدـهـ الـمـنـكـوبـ الـذـيـ تـمـ نـسـيـانـهـ فـتـرـاتـ طـوـيـلـةـ، حـتـىـ كـادـ يـخـتـفـيـ مـنـ الـخـيـالـ الـعـامـ.

نهض رئيسه التايلندي المستعرب وتقدم عدّة خطوات باتجاه  
أدراج رمادية اللون وفتح أحدها وأخرج ملفاً ليريه لعلي من بعيد ثم  
يُعيده سريعاً قبل أن يقول له:

- أنت تعاني من انتكاسة بسبب حادثة مقتل زوجتك وهذه  
القضايا القديمة. أنا أعرف كلّ شيء عنك. حتى عن أخيك صاحب  
شركة الدجاج المعلّب، وعلاقاته السابقة مع رئيس عصابة مسلحة،  
كانت صاحبة أكبر جرائم عنف طائفية في البلد قبل مجيء اتحاد  
الشركات للعراق.

- هل تهددني هنا؟ ما علاقة أخي بالموضوع؟  
ضحك التايلندي المستعرب وصارت عيناه كأنهما خطايا دقيقان  
مرسومان بالحبر على صفحة وجهه الملمس:

- هذه هي الروح العدوانية التي كنت أنتظر رؤيتها. هكذا أنت.  
اذهب وأنظر إلى نفسك في مرآة التواليت. هذا هو الشخص الذي  
نعرفه، لا المنسحب إلى جحر الجرذ.

- حفرة الأرنب.

- آه.. الحفرة..

- عليك أن تأمر باعتقالي الآن إن أردت إيقافي. لأنّي سأخرج  
من هنا إلى شقتي. يعني.. أستخدم الروح العدوانية للعودة إلى حفرة  
الأرنب.

- نعم. كما ترغبه.

خرج علي وهو يشعر بالقرف من محاولة رئيسه التعامل معه  
وكأنه تجربة مختبرية، يستهض روحه العدوانية وما إلى ذلك من هراء  
مزعج يعزز لديه فكرة غير مريحة عن السيطرة. فمن الذي يسيطر في

النهاية، هو أخ أورويل الأكبر هو من يضع أمامه ثلاثة خيارات، مؤمناً بأن علي سيختار أحدها، وقد وضع الأخ الاوروبي مسبقاً نوع الاستفادة من كلّ الخيارات الثلاثة.

عاد علي إلى شقته، وبما أنها حفرة فكان كلّ شيء ينسكبُ إليها سريعاً. في تلك الأوقات صار مدمّناً على عقار الشيلكسود. وفي لحظة من الطريق الهلامي الذي عبَّدَهُ هذا العقار في ذهنه، كان يرى بوضوح أنه لا يريد العودة إلى أميركا، لأنَّه لا يريد العودة إلى حفرة مماثلة هناك. ما يُريدُه حقاً هو الموت، ثم شعر لاحقاً بأنه عبر الحاجز الشفاف غير المرئي ما بين الموت والحياة، وصار يتتجوَّل في أصقاع جرداء خالية من أيِّ شيء تمثّل نوعاً من الإعلان للزائرين الجدد عن دخولهم إلى أرض الموت فعلاً.

لقد مات، أو هكذا أحس بنفسه، حين صار يرى حائطاً كبيراً، ورجلًا عجوزاً ضامراً يتقدَّم إلى الحائط ويرسم بالطبشور الأحمر أبواباً واسعة، ثم يدعوه بحركة من يده إلى التقدُّم وفتح باب منها إن استطاع. فهناك في الخلف يستطيع أن يرى عالماً أفضل. مع ملاحظة مهمة لتعريف هذا الوصف العام «عالم أفضل»، فهو بالتحديد؛ ذلك العالم الذي ترى فيه أنك قادرٌ على القيام بشيء، هو العالم الذي تملك فيه دوراً واضحاً ويُقدر الآخرون جهداً الذي تبذله، وتشعر أنك تُسهم في الخير وتحصيلة الأعمال الجيدة. هو العالم الذي يغدو فيه تقدُّم الزمن وبذل الجهد طريقاً معبَّدة باتجاه «معنى الحياة». وهذه كلُّها أشياء صار علي يفتقدُها أو غير واثق من أنه على صلة بها.

بعدها صار واضحاً أنَّ الجدار وباب الطباشير والرجل العجوز الضامر وأشخاص آخرين يتخطَّطون بسيرهم من حوله، ليسوا جزءاً من عالم آخر وإنما هو مجرد مكان منعزل جنوبى ببغداد. مصححة

مقامة بالقرب من آثار أبو صلابيخ، ترعاها وتمويلها إدارة الشركات المتحدة، وهي مخصصة لموظفيها تحديداً أو عوائلهم المقيمين في العراق.

- ٦ -

قال علي لأخيه الذي جاء لأخذه من المصحة بأنه يحتاج إلى زياره المتحف العراقي، والسؤال عن الدكتور واصف عبد المحبي. ظلَّ عمَّار صامتاً، وهو يُحاول الانتباه للطريق. أراد أن يتذكَّر شخصاً ما بهذا الاسم، ثم فضَّل أن يُعلق على قضية المتحف:

- لا يوجد متحف عراقي. أنت تعرف هذا. كلُّ الآثار العراقية التي يتمُّ استخراجها يتمُّ نقلها إلى ديترويت، إلى المتحف العراقي في ديترويت. يفترض أنك تعرف هذا، أنت تُقيم هناك!

لا يعرف علي هذا، أو لا يتذكَّر، وأراد أن يُخبر أخيه الصغير عن قضية الأبواب الطباشيرية، وكيف أنه جاء من عالم آخر وما إلى ذلك من قضايا، ولكنه خشي أن يستدير أخوه، إن سمعه يتحدث بجدية بمواضيع مماثلة، ليلتفَّ على الطريق العام عائداً به إلى المصحة.

تأكد علي لاحقاً أنه لا يوجد متحف عراقي فعلاً. لقد جرى تدميره خلال الحرب الأهلية الطاحنة. وما تمَّ استرداده من الآثار المسروقة نقل إلى المتحف البديل الذي أقامه عراقيون المنفي في ديترويت.

- يجب أن تعود إلى عملك. لا ينفع أن تبقى لوحدك في البيت. أو تعالَ واعمل معي في الشركة.

قال عمَّار ولم يُعلق على شيء، لأنَّه شعر أنها حوارية مكررة،

جرث سابقاً، وليس لديه دافعية لاستئنافها مجدداً أو تكرار أجوبته القديمة نفسها.

حين رجع إلى شقته وجدتها نظيفة مرتبة. كانت زوجة عمار مع موظفات خدمة يعملن في اتحاد الشركات قد قمن باللازم، ووجد أن الفريزر وخزانات المطبخ مليئة باللحوم والأطعمة المجففة والماء الصالح للشرب ومعلبات وخضراوات.

قال شيطان الثيلكسود الذي انبثق فوق رأسه بمجرد خطوه على كاربيت الصالة في شقته؛ إنها مؤونةكافية لعدم الخروج من الشقة لأسبوعين. أغلق الباب جيداً وعطل جميع أجهزة الاتصال. أغرق من جديد، وهناك، في محطة من رحلتك نحو الأعماق ستجدني بانتظارك، لأخذك من يدك إلى مناطق أعمق لم ترها سابقاً. ستكون الرحلة ممتعة، خصوصاً وأن لا شيء في هذا العالم يستحق المتابعة والاهتمام. إلا إن كنت مازوشيأ تستمتع بمراقبة ما يجري من مصائر كابية لكل الأشياء التي تحبها في هذا البلد أو في حياتك كلها.

ظل شبح الثيلكسود يطوف حوله أينما تحرّك في الشقة. ثم تلقى اتصالات هاتفية من أصدقاء المعادلة الكيمياوية الوطنية من أميركا، للاطمئنان عليه، وفي الليل اتصل عمار كي يتتأكد من أنه بحال جيدة: - لقد نظفنا الشقة جيداً. لا توجد أي مخدرات من هذى اللي كنت تشربها، فلا تتعب نفسك بالبحث في المخابئ السرية. استريح جيداً يوماً أو اثنين، مدراؤك في الشركة يعلمون بهذا، ولكن عليك العودة سريعاً للعمل. أنت نفسك كنت تقول لي عن الفوائد العلاجية للعمل والانشغال بشأن من الشؤون.

كان يرى شبح الثيلكسود بجواره، ولكنه ليس ضعيفاً إلى درجة التعرّض للتهديد. ليس هناك طريق عودة إلى الدرس الضبابي للغيبوبة

بالعقاقير. لقد انتهى هذا الفاصل، ولا يريد إخراج نفسه مع أخيه أو الآخرين أكثر مما حصل. سيحاول الفرار من البلد من جديد. تماماً مثلما فعل ذلك قبل خمس عشرة سنة. الخروج قاطعاً الحدود سيراً على الأقدام. هل لديه طاقة كافية لعمل مشابه الآن؟ لا يعرف، ولكنه لن يبقى هنا.

وماذا عن التعاوين السبع وباب الطباشير، وحياته في النسخ  
الست الأخرى، ومحمد سدخان العجوز الضامر؟

إن كان عليه مسايرة هذه القصة فهي لن تقدم له الشيء الكثير أيضاً. لا يوجد متحف عراقي، ولا يعرف ما مصير جرّأ أبو صلبيخ، ولا يعرف طريق الدكتور واصف عبد المحيي، وهل هو حتى أُم ميت.

لم يستطع النوم، وظلّ يتقلب في فراشه، شعر بالإنهاك الشديد ورغبة حرّقة بالنوم ولكن رأسه ظلّ يشتغل مثل محرك طائرة نفاثة. نهض وذهب بتصميم إلى غرفة مكتبه. بحث عن سماعة أذن بوسادتين مكوتين. وجدها في أحد الأدراج، ويلقّة سريعة من أصابعه فتح أحدى الوسادتين، وعثر مثلما توقع على كيس صغير يحتوي حبوب الثيلكسود. أخذ الكيس معه إلى المطبخ وخجاًه خلف أكياس مسحوق الكيك في أحد الأدراج العليا. بلع حبتين وشرب الماء ثم عاد إلى سريره. انتظر بعض دقائق ليشعر بتأثير الحبتين. ها هو يستردُّ استقراره النفسي، ها هو يهدأ، ثم يغرق في نوم عميق.

كان من الممكن أن يستمرّ بعمل ذلك في الأيام اللاحقة، على الأقل حتى ينفد الكيس الصغير، غير أنه صباح اليوم التالي سمع جرس الشقة يرنُّ. قال في نفسه إنه أخوه عمار القلق والذي لا يثق بأن أخيه الكبير سيتصرف بشكل جيد. وكانت المفاجأة التي لم

يتوقعها. فتح الباب ووجد «اليلي» بكمال بهاها الذي مازال يتذكّر. شعرها الأسود الفاحم وهو ينزل ناعماً على كتفيها، عيناهما الحادتان بكحل زائد، وهندام أنيق يناسب عمرها، فهي الآن في السابعة والثلاثين، إن كانت حساباته دقيقة. لم تكن مختلفة كثيراً عن آخر مرّة رأها فيها. ولكن مهلاً. كانت آخر مرّة سيّنة جداً. لقد تسبيّبت هذه المرأة، بشكل ما، في المنعطف الذي غير علي بشكل كامل والى الأبد. كيف؟

كانت حبّة الأول الذي لم يكتمل، بسببها هي. أو ربما لم يكن على مؤهلاً لاقناعها بجدوى الحبّ. ذهبت لتتزوج غيره. وربما لهذا السبب ولبواحد الحرب الأهلية الطاحنة، وضع حقيبته على كتفه ورافق مجموعة من المهاجرين غير الشرعيين عبر الحدود إلى سوريا ومن هناك إلى لبنان ومنها عبر قوارب صيد خطرة إلى جزيرة قبرص، وابتدأت رحلة طويلة شاقة لعدة سنوات انتهت به في ديترويت بأميركا.

- ٧ -

ها هي تظهر أمام باب شقّتها من جديد.

- لقد أخذت عنوانك من الشركة. ألم تعرف بأننا نعمل معاً؟ قالت له، وهي تخطو داخل شقّتها وتتفحّصها من دون أن تُملّت حامل حقيبتها الجلدي. ثم تلتفت إليه منتظرةً ردّاً منه. كان مزاجه سيّناً لأنّه اكتشف حين استيقظ صباحاً بأنه ليس بالقوّة التي تصور بها نفسه، وربما من الأفضل له وللآخرين أن يعود سريعاً إلى المصحة. على الأقل هناك رجلٌ عجوزٌ يتعامل معه بصدقٍ على أنه صديقه ويريد مساعدته. ليس لديه هنا أيّ أحد. أوصله أخوه إلى باب الشقة وتركه

لينشغل بدمجاته المثلج. لقد ترك أعزل أمام كيس حبوب الشيلكسود. إنه شيء سيئ تماماً. ثم ها هي كائن من الذاكرة السحرية ينبعشق أمامه. هل تنتظر أن يحتضنها، ويبيكي على كتفها، ويقول لها بأنه ما زال يحبها أو ما شابه من هذا الكلام؟ ما الذي تريده؟

- لا أعرف أي شيء، ولا يهمني. لماذا جئت إلى هنا؟ رد عليها، وهو يشاهدها تجلس على الأريكة في وسط الصالة. رمت حقيبتها جانباً وابتسمت وكأنها شعرت بأنفاسه العدوانية، أو توقعت أن يواجهها بهذه الطريقة.

- هناك صلة خفيفة في مؤخرة رأسك، انتبهت لها أول ما دخلت، ما سوى ذلك لا يبدو أنك تغيرت كثيراً.

- هل تريدين شيئاً يا ليلي؟

- إن كان ممكناً فنجان اسبريسو.

قالت ضاحكة، ولم يتقبل على الأمر كنكحة.

- أجلس يا علي، لا تشنّج أرجوك. لن أبقى هنا طويلاً.

أخبرته بأنها تعمل في دائرة تابعة لفرقة الدعم المرتبطة بإدارة الشركات المتحدة. هي لم تُغادر العراق أبداً. وخلال مرحلة مبكرة من الحرب الأهلية الطاحنة قُتلت زوجها الضابط، تاركاً لها طفلين صغارين، وظلّت تُكافح من أجل إعالة نفسها وأولادها بأي طريقة. وحين دخلت الشركات المتحدة، وجد لها بعض أقاربها عملاً في دائرة سرية، لا تريده أن تكشف عنها. وهي تقضي جيداً وتعيش، بعد انتهاء أعمال العنف في الشوارع، بشكل لا يأس به.

- لم أعرف بأنك هنا في العراق إلا منذ يومين. اتصلوا بي من الإدارة العليا وأخبروني عنك وأعطوني عنوانك.

- لماذا اتصلوا بك؟

- هذا جزءٌ من عملي يا علي. هم علموا بأننا أصدقاء وقالوا ربما أكون أنا أفضل شخص للقيام بهذه المهمة. مهمّة إخراجك من حفة الأرنب.

- أنا فقط من استخدم هذا التعبير. من أين سمعته؟

- أنت لا تستخدمه وحدك، إنه وصف طبّي يستخدم في المصحة التي كنت فيها. الأشخاص الذين يتخلّون بإرادتهم عن القتال في هذا العالم. يقفون بانتظار السّهام التي ربما ستأتي من العدو. ينتظرون الموت.

- وكيف ستخرجيني من حفة الأرنب يا ترى؟

- لن أفعل شيئاً. أنا لست ملزمة بما يقولون يا علي. مجرد أنني علمت بوجودك كدت أطير من الفرح، واستمررت الأمر لرؤيتك ليس إلا.

ذهب علي إلى المطبخ وحاول فعلاً أن يصنع أسبريسو أو أي شيء مشابه. عمل كوبى نسكافيه كبيرين في نهاية المطاف، ووضعهما على الطاولة أمام ليلى.

ظلاً يُثرثان. حدّثه عن حياتها والمصاعب التي مرّت بها، وحدّثها عن رحلته الشاقة إلى أن انتهت به المطاف في أميركا ثم عقد العمل الذي جلبه إلى بلده من جديد.

انتهى كوبا النسكافيه، واكتشف بأنها صارت تدخّن، ولكنها تقول بأنها سجائر لقطع التدخين. تجربها منذ مدة للتخفيف من آثار السجائر وتمهد لتركها.

عند الباب احتضنته وقبّلته على خدّه، وقالت له بأنها ستعود إليه لاحقاً كلّما توفر لديها وقت، وترجو أن لا يُمانع بذلك. خرجمت وعاد علي إلى الصالة مشوّش الذهن.

ظللت تتردد عليه في الأيام اللاحقة، وفي كلّ مرّة لا يستغرق جلوسها في الصالة أكثر من ساعة. ثم شعر علي بأن هناك دماء تتدفق في شرايين يابسة ومنسية في صدره. تجاهل كلّ الأشياء التي كانت تسيطر على ذهنه، وأهمل أيّ رواذع من شخصيته التي خبرت هذه العلاقة سابقاً وآثارها ونتائجها. وجد نفسه ينزلق بالزمن إلى الوراء، وكأنه ما زال في كلية الفنون في السنة الأخيرة، وكأنه يمسك بيد ليلي ويُحاول سحبها إليه ليقبّلها، قُبّلة فتح بكاره شفتيه.

قالت له بأنها لا تزيد أن تخرّب أيّ شيء هو فيه. تعرف تماماً أنها انبثقت فجأة أمامه وكأنها جنيّ مصباح سحريّ، وتعرف أن هذا غير لائق، ولكنه لم تتحمّل فكرة أنه موجود معها في المدينة ذاتها من دون أن تراه.

قال لها بأن هذا غير مهم. هو سعيد بأن يثرثر بين وقت وآخر مع صديق قديم.

- لا تكذب عليّ يا علي. أيّ صديق قديم هذا؟ أنا أعرف هذه الالتماعنة في عينيك.

- إذن أنت تعرفين كلّ شيء لماذا تسألين إذن؟

- عذّ إلى عملك، عذّني بذلك. هل تتذكري آخر حوار بيتنا قبل أن نفترق؟

- أيّ افتراق تقصدين؟ في الكلية، أم في بيت صديقتك في أواخر التسعينيات؟

- أنت الجالس هنا والذى تتعاطى عقار الشيلكسود من جديد كما أخمنّ، هو نفسه علي الذي أعرفه، والذي كنت أعرف -. ارتبطت به أنتي ساكرهه في نهاية المطاف.

- إبقي الليلة معي يا ليلي.

- لا أستطيع. الأولاد وحدهم مع المربية.
- هم مع المربية إذن. إيقى هذه الليلة.
- ليس بهذه الطريقة يا علي. عُذْ غداً إلى عملك وساكون بجانبك.

قالت ذلك ثم نهضت، وكأنها أتمّت عملها على وفق جدول معلوم، مع توقعات محسوبة جيداً تحققت على الأرض فعلاً. لقد حرّضته لمدّ يده إلى الأعلى، ثم أمسكت به وصارت تسحبه من حفرة الأرنب شيئاً فشيئاً وهو الآن يقف بطوله خارج الحفرة.

ذهبت إلى المطبخ، وفتحت أحد الأدراج العليا، ومن خلف أكياس مسحوق الكيك أخذت الكيس الصغير لحبوب الثيلكسود ووضعته في جيبها. اندهش علي من ذلك. أراد سؤالها؛ كيف علمت بهذا المخبأ، ولكنها حملت حقيقتها، ومثل كلّ مرة احتضنته برفق وطبعت قُبلة على خده وغادرت، تاركةً إياه مشوشاً وحائراً.

## الفصل الرابع عشر

### مَيْدَانُ التَّقْرِيرِ

- ١ -

حصلتُ على عنوانك من أخيك «عمّار». أنت لا تعرف أنه كان موضوعاً على قائمتي منذ سنوات لجباية الضرائب. وكنت أعلم أنه أخوك، لذلك كنت حريصاً على أن أكون أنا، وليس غيري من مجموعتنا المقاومة، من يكون على صلة به، ولو كانت هذه الصلة، ظاهراً؛ جباية الضرائب.

هو لا يحببني لهذا السبب، ويتعامل معي برببة وخشية، ولا يعرف أنني كنت أحمي وأحمي أعماله، حتى حين تركنا وصار يتعامل بصلاحية مع مجموعتنا، بعد حصوله على عقد عمل مع اتحاد الشركات.

كان يعتقد أن الحماية التي توفرها قوات شرطة اتحاد الشركات هي من يحميه، ولا يعرف أنني أنا من كنت أمنع زملائي المقاومين من التقرب له، أو التعرض لمصالحه وأعماله. كل ذلك طبعاً لسبب واحد لا غير؛ أنه أخوك أنت يا علي.

صرتُ ملزماً أن أتعامل معه بشدة في الفترة الأخيرة. فليذكرهني، ولكن ليبق هو وعائلته بأمان. لا أضمن ما سيحدث له إن حصل لي مكروه، حين يحلُّ في مكانني شخص آخر فلن يتعامل معه بوداً أبداً.

فالمسألة هنا لا تتعلق بالعلاقات الشخصية، وإنما بإمكانية أن تستمرّ أعمال المقاومة. واستمرارها لا يكون من خلال تنفس الهواء فحسب. يجب الحصول على أموال من مجتمعنا المحلي لاستمرار عملنا الذي يهدف في نهاية المطاف إلى حماية مصالح مجتمعنا، حتى وإن كان هذا المجتمع متخاذلاً وجباناً ويدخل في عمالة مع المحتلّ من دون أن يشعر أحياناً، أو تأخذه الحماسة للقيام بهذه الأعمال ظناً منه أنها تصب في مصلحته. وأنا وأنت نعرف جيداً إلا مصلحة للعراق اليوم، و«جماعتنا» بالذات مع المشروع الاستعماري الخطر لاتحاد الشركات.

كنت أتجادل معه وأتحمل صلافته حتى يُسلّمني حصّته من الضريبة المرسومة على كلّ أصحاب الأعمال والشركات والمحال التجارية من «جماعتنا»، حين جاء على ذكرك عرضاً، وأنه ينفق أموالاً كثيرة على علاج أخيه، وحين سأله من يقصد بأخيه، ذكر اسمك.

- ٢ -

فاجاني أنك موجود في بغداد. لا أعرف متى رجعت، وكنت أتوقع أنك بمجرد عودتك ستسأل عن أصدقائك القدامى. أنا كنت أظنّ أننا صديقان مقرّبان يا علي، أليس كذلك؟!

الشيء الذي أحزنني أكثر أنك جئت لتعمل مع اتحاد الشركات، مع القوة المحتلة لبلادنا. كيف رضيت لنفسك القيام بهذا الدور؟!

نعم، أنت تقول بأنك كنت تتوقع شيئاً آخر، ولكن يفترض بك حالما عرفت الحقيقة أن تتركهم على الفوز. استمرارك وأنت تعرف

الحقيقة الآن هو نوعٌ من التواطؤ والاشتراك بدرجة أو بأخرى بكلٍّ ما ترتكبه هذه القوّة المحتلة من جرائم وأخطاء وتجاوزات.

أنا لم أتغيّر يا علي. أنا عبد العظيم نفسه الذي تعرفه، ولكنني نضجتُ مثل طبخة على نار هادئة وقدوها هذى الصراعات والحروب على أرضنا منذ عقدين. كيف تتوقع مني أن أبقى ذلك الشاب الساذج في نقاشات «جمعية المترحرين»، أو جلسات الاسترخاء والتفكير بالعدمية كرافاهية وترفٌ في حديقة الدكتور واصف.

هل تعرف أن الدكتور واصف الحقير هو من يقف خلف كلٍّ هذا الخراب الذي نعيش فيهاليوم؟ طبعاً لا تعرف. أنت مهتمٌ بأفكارك الفلسفية والاستغراق مع خيالاتك، من دون فضول كافٍ للتعرُّف على ما يجري في العالم الواقعي فعلاً. لا تزعل مني. أنا كنت أخبرك هذا دائمًا. ولا يبدو أنك تغيّرت كثيراً، ما سوى صلعة دائرة في قمة رأسك.

### - ٣ -

تجري ملاحقي اليوم بشكل حثيث. هم لا يعرفون اسمي ولا وجهي، وإنما فقط اسم رمزي «عبد السيف». أنا متهمٌ بأنني أحد قادة الحرب الأهلية ما بين ٢٠١٢ و٢٠٠٢. ولكنني كنت أدفع عن نفسي وأهلي ومدينتي لا أكثر. وإن كان الدفاع عن النفس جريمة فأنا مجرمٌ ولا أخجل من هذه الصفة.

لقد جمعت معلومات كافية عنك وعن تحركاتك، وعلمت بأنك لم تخرج من بيتك منذ أسابيع. ويا ليتك لا تخرج لتذهب إلى عملك في اتحاد الشركات. أن مصيرًا أسود يتنتظر هذا الاتحاد خلال الفترة المقبلة، ولا أريدك أن تكون موجوداً هناك.

ما زلت أتذَّكِرُ جيداً الكثير من حواراتنا عن التغيير والمساهمة في الحدث العام وما إلى ذلك. أتذَّكِرُ كلماتك أنت بالتحديد، فعلى الرغم من كوننا أصدقاء ولكنك كنتَ فيلسوفنا، وأعجب أحياناً كيف تصوَّرُ العبارات وتتحدث عن أفكار بسيطة ولكنها عميقة ومؤثرة. ربما لا تذَّكِرُ ولكنني أتذَّكِرُ جيداً، وأجد نفسي أحياناً، وأنا أتحرَّك وأقوم بما أشعر أنه واجبي، وكأنني أطبق وأمثل لكلماتك الموحية القديمة. لهذا السبب فأنت لم تغادر ذهني أبداً، ولهذا السبب سأقدِّم حياتي دفاعاً عنك، حتى لو بذوقٍ بالنسبة لآخرين من مجموعي اليوم، وكأنك في صفتِ الأعداء.

أنا مُؤمِّنٌ بعمقَيْكَ لأنك لستَ في صفتِ الأعداء. لن أجبرك على شيءٍ، ولكنني أطلب منك كصديق أن تستجيب لنداء ضميرك الذي ما زال حاضراً كما أعتقد. وتعهَّد لي بقطع علاقتك نهائياً مع اتحاد الشركات الشريرة.

- ٤ -

### هل تعرف ماذا يفعلون؟

إنهم لا يُ يريدون بناء شيءٍ ولا تغيير شيءٍ من هذا الواقع المزري، إنهم يُسْمِدون هذا الواقع المزري ويرعنونه ويجعلونه قوياً وثابتاً، ويدفعوننا جميعاً إلى اليأس من تغييره. ولو بقيينا مساملين فسنندو سماذا مضافاً لحقلهم المسموم.

لقد علمت أن «ليلي» زميلتنا القديمة، تعمل في دائرة سرية تابعة لاتحاد الشركات، تسمى «دائرة إدارة النزاعات الطائفية». هل تُصدق هذا؟ إدارة النزاعات الطائفية، وليس القضاء عليها.

هذه الدائرة تقوم بعمل دعائي واجتماعي وثقافي سري وغير

مبادر يشبه عمل ممْرض يُمسك بحقتين من المصل، يتم استخدامهما عند الحاجة. حين ينخفض منسوب الطائفية في الشارع يجري اعتماد الحقنة السمية الأولى لتأجيجها، وحين ترتفع الطائفية إلى درجات خطيرة يتم اللجوء إلى حقنة العلاج لتخفيف مستواها.

هذا ما توصلنا إليه بجهدنا الاستخباري الخاص. كما أنهم يرعون مجموعة من النشاطات التي تبدو في ظاهرها إنسانية وتخدم المجتمع، ولكنها في العمق تعمل على زيادة التحريض.

لقد توقفنا عن العمل المقاوم بضع سنوات، بسبب الضغط الشديد لشرطة اتحاد الشركات. ولكننا أعدنا تجميع أنفسنا من جديد، بعد أن صرنا أكثر وعيًا وخبرةً. صرنا اليوم نعمل من داخل

النظام الذي فرضه اتحاد الشركات بالقوة على المجتمع.

صرنا نستثمر كلَّ الإمكانيات المتاحة من خلال مؤسسات اتحاد الشركات، من أجل التدريب واكتساب المهارات العالية، استعداداً للحظة الحاسمة التي سنضرب بها ضربتنا القاصمة. وأستطيع أن أثق بك لأنني أعلم بأن موعد هذه الضربة بات قريباً.

أنا لن أجازف لأطلب منك الانضمام إلى العمل المقاوم، أعرف مزاجك، ولن يكون من السهل عليك القيام بعمل جريء داخل الدائرة التي تعمل فيها الآن. لذلك فالإسلام أن تغادرها. هذا يُرضيني كثيراً.

كلُّ المعلومات التي أدليت بها أمامي عن دائرك وعملك وما تعرفه عن اتحاد الشركات لا يُضيف لي شيء الكثير، ولكن بإمكانني أن أعلق على شيء واحد ورد في كلامك.

أنت تقول أن مديرك التايلندي **المُستَغْرِب** قال لك بأنك، من الناحية العددية حللت محل شخص قُتل في «ميدان التفريح الطائفي».

يامكاني أن أحكي لك عن هذا، لأنني كنت على صلة به فترة من الزمن. وسأترك لك أن تحكم على مستوى الجنون الذي يتصرف به اتحاد الشركات.

- ٥ -

سيقولون لك، لو صارت فرصة لا أثق بأنها ممكنة، للدفاع عن أفكارهم، بأنهم استحدثوا «ميدان التفريغ الطائفي» كنوعٍ من التسلیم بالحقيقة الدموية العنيفة للشعب العراقي، وحتى يتم تفريغ شحنات العنف الكامن، وتهذئة الشهوة للدم قليلاً، من دون الحاجة إلى حروب وصراعات مخربة، فلا بأس باستحداث شيء يشبه الألعاب الأولمبية. تذكّر بميادين القتال الرومانية.

لقد بناوا لأجل هذا الأمر ملعباً كبيراً على أرض واسعة في منطقة الزعفرانية جنوبي بغداد. كان البناء المعلن أنه ملعب لكرة القدم، ولكنه الأمر السري أنه «ميدان التفريغ الطائفي».

يجري من خلال برامج إذاعية وتلفزيونية متفرقة، إذاعة أرقام هاتفية للخدمة العلاجية، موجهة إلى أولئك الذين لا يستطيعون التخلص من الكراهيات العنصرية، ورغبتهم المرضية باستهداف الآخرين. أن المتصلين على هذه الأرقام يرغبون بأخذ علاج لما يرونـه مشكلة تمنعـهم من العيش بسلام، ثم يجدون أنفسـهم لاحقاً مشترـكـين ببرامج قتـالـ حـيـيـ. يـصـدـقـونـ أنهاـ جـزـءـ منـ العـلاـجـ.

وبانتشارـ حـقـيقـةـ هـذـاـ العـلاـجـ، ووـجـودـ أـفـرادـ كـثـيرـينـ يـرـغـبـونـ لـيـسـ بمـجـرـدـ القـتـالـ وإنـماـ القـتـالـ، خـصـوصـاـ حـينـ يـكـونـ مـرـعـيـاـ منـ الدـوـلـةـ ولاـ يـرـتـبـ أيـ تـبـعـاتـ جـنـائـيـةـ، فإنـ البرـنـامـجـ اـنـتـشـرـ وـصـارـ مـعـرـوفـاـ. ثـمـ اـسـتـقـرـ لـاحـقاـ عـلـىـ صـورـةـ مـحـدـدـةـ. فـهـنـاكـ كـثـيرـونـ صـدـمـوـاـ مـنـ مـواجهـةـ الدـمـ.

وراح ضحايا كثيرون، تمَّ التغاضي طبعاً أمام ذويهم ومعارفهم عن السبب الحقيقي لمقتلهم.

صار البرنامج يتحرك ويستمرُ بالنشاط من خلال أفراد محدّدين، هم المستعدون للقتل، أو من كانت لهم تجربة سابقة مع القتل. صار برنامجاً للقتلة المحترفين. وكان يسقط تباعاً، في كلّ جولة مباريات تُقام بشكل سريّ، عددٌ جديدٌ من هؤلاء القتلة، لصالح ارتفاع نجم قتلة آخرين.

أتف بذكائك، وسأخمنُ أنك عرفت أنتي لا أعرف هذه التفاصيل من خلال الشائعات أو حكايات من اشتراكك بهذا البرنامج، وإنما لأنني أنا كنت بطلاً من أبطاله.

لقد اشتراكُت بأربع وعشرين دورة منه، حتى توقفت في لحظة معينة، حين صارت هناك مقاربة بين شخصيتي المعروضة في البرنامج وشخصية «عبد السيّاف» المطلوب أمنياً. ولكنني خلال هذه الدورات الأربع والعشرين صرُّت بطلاً حقيقياً، وهذا ما كانت قيادات المجموعة المقاومة، التي أنتسب إليها، تريده تحديداً.

لا ينجو شخصٌ ما من نزالات بالأسلحة البيضاء فيبدو خاسراً. الخاسِرُ يخسر لأنَّه مات. وقد قتلتُ أشخاصاً كثيرين لذلك نجوت. وهم بالتأكيد يستحقُون الموت، إنهم قتلة طائفيون، ساهموا دون شكٍ في قتل أهلي وناسِي خلال السنوات الماضية، وقادهم القدر كي يخرجوا من مخابئهم ويطرحوا أقنعتهم التي تخفوا خلفها طويلاً، ليقفوا أمامي ثم يسقطوا صرعى تحت سكيني.

كان البرنامج ابن كلب حقيقي. صمَّمه دون شكّ شخص ذو خيال إجرامي. يتمُّ عرض كليشة مكررة من التعليمات والإجراءات على المشاركين، ويجري قبل كلّ نزال التوقيع على رزمة أوراق تمثل

عقداً ما. ويتلقي الأحياء بعد كلّ نزال أجوراً محدّدة، تُمثل حسب رأيي إغارة للمشاركة مرة أخرى.

هناك غالباً جمهوراً من المتفرّجين، يجري انتقاوهم بعناية، وسحب كاميراتهم وهوافتهم المحمولة في استعلامات الملعب. وفي الدورات الأولى حين كان يسقط بطل في الحلبة، تثور ثائرة مؤيديه فيستديرون إلى أفراد من جمهور المؤيدين للبطل المنتصر، وتحدث مشادات تتطور إلى عراك بالأيدي وربما تخريب موجودات الملعب. لذلك تمّ لاحقاً تقسيم الملعب إلى لونين أحمر وأزرق، يُمثل كلّ لون جمهوراً طائفياً محدّداً، يعزل بينهما سياجٌ من البي بي آر سي.

كانت حلبة المجالدة مسرحاً فعلياً، وشعرت حين وقفت فيها أول مرة، بأنني وجدت مكانى الذي كنت أنتظره طوال سنين، التمثيل الحيّ أمام جمهور ومتفرّجين. ولستُ أمثل هنا قصصاً متخيلة، وإنما أنا أصنع هذا الحدث كنسخة أصلية، غير قابلة للتزوير، لأنها ممهورة بالدم، وهي، مثل كلّ مسرح آخر، لعبٌ بالمصائر، ومراهنات على الموت والحياة. ولكنها مسرحية جادة جداً ومخيفة لأنها لا تقلد شيئاً إلا نفسها. والممثل الذي يموت على هذه الحلبة يموت فعلياً، ويخرج من مسرح الحياة إلى غير رجعة.

## - ٦ -

كانت المعارك مصمّمة، بما أنه صراع طائفي مباشر وصريح، على وفق حكايات منتزة من التاريخ، حكايات ذات طابع طائفي، أو يمكن القول بأنها الحكايات التي تؤجّج دائماً الصراع الطائفي. واقعة الطفّ، الشمر أو عمر بن سعد بمواجهة الحسين والعبّاس. المختار الثقفي بمواجهة عمر بن سعد أو عبيد الله ابن زياد. معاوية

بمواجهة علي بن أبي طالب، وفي نسخة أخرى عمرو بن العاص بمواجهة علي بن أبي طالب، أو مواجهة مع عمّار بن ياسر أو مالك الأشتر. صلاح الدين الأيوبي بمواجهة قائد فاطمي.

كنا نرتدي الأزياء المناسبة للشخصيات التاريخية، كما فرض علينا ارتداء أقنعة خاصة، لاحفاء هوياتنا الأصلية، وأيضاً للشعور بالاندماج أكثر مع الشخصية التاريخية، إن كان بالنسبة لنا أو للجمهور المترفرج.

طبعاً كانت هناك مشكلات في هذا التقسيم، أهمها ألا أحد يرغب باختيار دور الشخصية التاريخية، الكل يحب أن يمثل دور المنتصر، على الأقل كنوع من التفاؤل السابق على الدخول إلى حلبة المعركة، التي لن يحدد المنتصر والخاسر فيها، بالحقيقة، لا كاركتر الشخصية التاريخية ولا كل حوادث التاريخ، وإنما من كان أكثر تدربياً ومهارة.

المشكلة الثانية تتعلق بالهوية الطائفية الواضحة لشخصيات الأبطال. فالمقاتلون من كلا الطائفتين يمجدون الحسين، ولا أحد يتقبل بأن يكون الشمر ممثلاً لطائفته، أو أن يدعى أن قتله للحسين كان عملاً مشرفاً. كما أن الكثير من المشاركين الشيعة لا يشعرون بتعاطف كبير مع البطل الفاطمي، لأنه لا ينتمي بشكل مباشر إلى المذهب الشيعي العراقي.

حسمت إدارة الملعب الأمر من خلال القرعة، و كنت سعيداً أن الدور الذي وقع علي في مباراتي الأولى هو دور العباس. ضربت خصمي في نهاية الجولة المتuba معه ضربتين بالسيف على كتفه ورقبته أرداه قتيلاً. قتلت عبيد الله ابن زياد وهلل لي الجمهور فرحاً. وانتابني مشاعر غريبة، لقد قمت، وإن بشكل افتراضي، بتصحيح

التاريخ. خرج العباس من واقعة الطف الجديدة بذراعين وعينين سليمتين، وقضى على عدوه وعدو أخيه الحسين. آه لو كانت هناك إمكانية فعلية لتصحيح كلّ مجرى التاريخ بهذه الطريقة، لربما ما انتهينا إلى ما نحن فيه اليوم.

في المباريات اللاحقة اضطررت لقتل الحسين أربع مرات، والعباس مررتين. قلت الإمام عليٌّ مرّة واحدة. وحظيت الشخصيات الأخرى، التي أحبّها أو لا أحبّها، بمصائر مشابهة بغض النظر عن هويتها. ولهذا أنا حيٌّ أمامك الآن وأتحدث.

لم يكن يتهيأً للكثير من المشاركيـن أن يكونوا حسني الحظّ مثلـي. بعد أربع أو خمس جولات يسقط البطل صریعاً. أنا واثنان آخران ربما استمررـنا إلى أربع وعشرين جولة. ولكنـي انقطعتُ كما أخبرـتـك، ولا أعرف ربما قـتلـ الآن هـذـاـنـ البـطـلـانـ. في كلـ الأحوال صارتـ لدينا سمعـةـ مـمـتـازـةـ بـيـنـ جـمـهـورـ الـحـاضـرـينـ، وـسـرـعـانـ ما انتقلـتـ هـذـهـ السـمعـةـ إـلـىـ جـمـهـورـ الشـارـعـ.

كانت مجـمـوعـتيـ المـقاـومـةـ تـعـتمـدـ عـلـىـ هـذـهـ السـمعـةـ فـيـ تحـشـيدـ المؤـيـدـيـنـ، وـلـكـنـ، مـثـلـمـاـ صـرـتـ مـعـرـوفـاـ بـيـنـ مؤـيـدـيـ وـمـحـبـيـ، صـرـتـ مـعـرـوفـاـ لـأـؤـلـئـكـ الـذـيـنـ كـانـوـ يـبـحـثـونـ عـنـيـ، لـأـنـيـ قـتـلـتـ أـبـنـاءـهـمـ وـإـخـوـانـهـمـ فـيـ حـلـبةـ المـجـالـدةـ.

لم يكن من السهل الالتزام بقوانين الحلبة، ولن يتمكـنـ شخصـ ماـ بـسـهـوـلـةـ مـنـ تـقـبـلـ مـقـتـلـ أـخـيـهـ أوـ أـبـنـهـ، ثـمـ يـتـرـكـ قـاتـلـهـ حـيـاـ يـتـنـفـسـ. صـرـتـ مـلاـحـقاـ الآـنـ فـيـ هـذـهـ الـفـتـرـةـ الـحـرـجـةـ مـنـ قـبـلـ جـهـتـيـنـ؛ استـخـبارـاتـ شـرـطةـ اـتـحـادـ الشـرـكـاتـ، وـأـنـاسـ يـطـلـبـونـيـ بـثـأـرـ سـاحـةـ المـجـالـدةـ.

تعرَّضتُ لمحاولتي اغتيال جرَأ ذلك، واضطربتُ في واحدة منها لقتل أحد طالبي الثأر، وتميَّزت أن يفهم أنها كانت مجرد لعبة، وأن إمكانيات أن أُقتل على يد قريبه كانت مكافئةً لإمكانيات موته الذي حصل بمصادفة. كما أن هذا القريب مسؤولٌ عن موته الشخصي. ولم آت أنا لأغدره برصاصة في زقاق مظلم مثلًا. ولكن، كيف أتمكن من الشرح بهذه الطريقة لشخص اكتشف وجوده في اللحظة ذاتها التي يطلق فيها النار عليَّ؟!

هذا الموضوع يُقلقني ولكن ليس إلى درجة كبيرة. لست خائفًا على حياتي الشخصية، ولكن بما هي مفيدة لهدفنا القادر. لا أريد الموت الآن بعث على يد طالب ثأر سخيف، أو أقعُ بيد استخبارات اتحاد الشركات، لأن هذا سيُمثل نكسةً لمجموعتنا المقاومة بعد كلٍّ هذا الجهد والوقت الطويلين. فمن خلال الأشهر التي قضيتها بالتعامل مع الجهة المنظمة لحلبة التفريغ الطائفي، صرت أفهم أشياء كثيرة عن عمل اتحاد الشركات، وما تريده على وجه الدقة وكيف تتصرَّف، وقد فعل زملاء لي أشياء مماثلة في أماكن ودوائر أخرى تابعة لاتحاد الشركات.

وهذا كُلُّه في إطار الاستعداد لتحرّكنا القادر. ستكون ضربة قاسمة، وإن فشلت فستقضي علينا بشكل حاسم. هذا هو العمل الوحيد الذي نستطيع القيام به اليوم كي نتجاوز التشبيط وتزعزع القوة من أنفس الناس وبثِّ الخيبة والشعور باليأس من خلال جهد منظم تقود به منذ سنوات جهات غامضة تعمل لحساب اتحاد الشركات، كم هي الجهة التي تعمل فيها ليلي، أو الدائرة التي تعمل فيها أنت. أنت لا تُصدق بأنك تعمل في دائرة تُقدم خيراً للناس؟! حتى لو

كنت لا تعرف، فأرجو أن تُصدق أنه لا يوجد خيرٌ يقام به اتحاد الشركات. حتى لو كان في ظاهره يبدو حسناً أو غير مؤذٍ.

لقد انتصف الليلُ الآن، وأشعرُ بأنني أتعبتك بهذه الحوارية على مدى الساعات الماضية. ولكنني أحببُت أن أخرج كلَّ ما في صدري من كلام، تحسباً لعدم توفر فرصة مماثلة في المستقبل. سعيدُ أنني رأيتكم بصحة جيدة، وشعرتُ خلال الوقت الماضي بأنني أيقظتُ جانباً نائماً من ذاتي. جانباً أحبه. ولا أعرف متى تتاحُ لي فرصة أخرى لتكرار التجربة.

إترك العمل في اتحاد الشركات يا صديقي.

## الفصل الخامس عشر

# خَرُوفٌ فِي الْقَطِيع

- ١ -

شَعَرَ عَلَيِّ، مِنْ دُونِ حَاجَةٍ لِتَفْكِيرٍ كَثِيرٍ، بِأَنْ هُنَاكَ كَامِيرَاتٍ مَراقبَةٌ فِي شَقَقِهِ. وَإِلَّا كَيْفَ تَمَكَّنْتُ لِيَلَى مِنَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ كِيسَ حَبوبِ الشِّيلِكْسُودِ، وَكَانَ قَدْ وَضَعَهُ فِي مَكَانِهِ لِيَلَّا مِنْ دُونِ وَجُودِ أَحَدٍ. لِهَذَا السَّبَبِ رَبِّيَا صَدَّتْ لِيَلَى مَحاوِلَاتِهِ فِي زِيَارَاتِهِ الْآخِيرَةِ لِلتَّقْرِبِ مِنْهَا. لَمْ تَرْغَبْ أَنْ تَظْهُرْ كَمَمْثَلَةٍ فِي فِيلِمِ بُورِنُو مَعْجَانِي أَمَامَ كَامِيرَاتِ الْمَرَاقِبَةِ. لَا يَوْجُدْ تَفْسِيرٌ آخَرَ.

قَالَتْ لَهُ فِي زِيَارَتِهِ الْآخِيرَةِ:

- صَحِيحٌ أَنَا اسْتَثْمِرَتْ فَرْصَةَ الْوَاجِبِ الَّذِي كُلْفُتُ بِهِ كَيْ أَلْتَقِي بِكَ. وَلَكِنْ إِنْ لَمْ أَحْقِقْ تَقدِّمًا مَا فَسِيمُنْعُونِي مِنْ زِيَارَتِكَ. إِنْ تَجَاوِبْتَ مَعِي سَأَضْمِنْ أَنَا نَسْتَطِعُ الْلَّقَاءِ فِي أَيِّ وَقْتٍ نَرْغَبُ.

ذَكَرَتْ مِنْهُ وَدْفَعَتْ لِيَضْعِفَ رَأْسَهُ عَلَيِّ كَتْفَاهَا. صَارَتْ تُدَاعِبُ شِعْرَهُ الدَّاكِنَ ثُمَّ قَالَتْ لَهُ بِنَبْرَةٍ حَمِيمَةٍ وَكَانَهَا تُسْرِهُ بِشَيْءٍ:

- أَلَا تَذَكَّرُ التَّعْوِيذَةُ الثَّانِيَةُ؟ «أَنْتَ مَحْكُومٌ بِمَا تَرَاهُ عَنِ الْعَالَمِ». غَيْرُ مَا تَرَاهُ يَتَغَيِّرُ الْعَالَمُ». لَا تَبْقَ مُتَشَبِّهًًا بِمَا تَرَاهُ أَنْتَ فَحَسْبٌ يَا عَلِيٌّ. لَمْ يُعْلَقْ عَلَى كَلَامِهَا بِشَيْءٍ جَدِيدٍ. كَرَرَ كَلَامًا سَابِقًا، وَطَلَبَ مِنْهَا بِشَكْلِ مَعْكُوسٍ، أَنْ تَمْرَدَ هِيَ عَلَى أَوْامِرِهِمْ وَتَبْقَى مَعَهُ. لَمْ

تحمّس كثيراً لذلك بالطبع، ورفعت رأسه من كتفها ثم نهضت. حتى أنها قبل مغادرتها لم تحتضنه وتطبع قبّلـة على خده. وشعر علي بأن هذه إشارة معينة لنهاية الطريق، ثم جاء عبد العظيم بزيارته المفاجئة ليرمي عليه قبلة من التفاصيل التي لم يكن يعرفها، ولا يعرف مدى دقّتها، وهل هي واقعية حقاً أم إن عبد العظيم يبالغ، ولكنه من دون شك لم يكن يبالغ بشأن جماعات المقاومة، والتهديد القادم لمصالح اتحاد الشركات والموظفين العاملين معها.

عزّزَت زيارة عبد العظيم من رغبة علي بالبقاء في البيت دون أن يعمل شيئاً. ولكن، إلى أي حدّ يمثل هذا سلوكاً قابلاً للاستمرار؟! استجابة لطلب صديقه القديم وأكّد له بأنه لن يعود إلى عمله في الدائرة، غير أنه لم يعرف ما هو مصدر الرزق البديل؟ هل يتوجه إلى أخيه الذي يعمل بدوره مع اتحاد الشركات؟ هل يُستَدِّيُّنُ من أحد ما؟ هل هناك فرصة للعمل اليوم في هذا البلد من دون أن يكون العمل على صلة باتحاد الشركات؟

إنهم يحسبون كلّ شيء بدقة. حتى أرواح البشر، ولهذا حلّ علي، كما قيل له، بديلاً عن شخص قُتل في ميدان التفريغ الطائفـي. لهذا لا يوجد شيء يفلت من قبضة اتحاد الشركات. وبما أنه ممنوع من السفر بأيّ شكل كان، فهم يحصرونـه الآن مثل جُرَذٍ في زاوية، سيجعلونـه يموت جوعاًـ هنا إن لم يرجع للعمل معهم.

ولكن، ما هي الأهمية لعمل بُرغـيٍّ صغير في ماكـنة هائلـة معقدـة التفاصـيل اسمـها اتحـاد الشـركـات؟ يعتقدـ علي بيـقـينـ شـبهـ كـامـلـ أنه مجرد بُرغـيٍّ صـغيرـ، بالإـمـكـانـ استـبدـالـهـ والـاسـتـغنـاءـ عنهـ دونـ مشـقةـ. لماـذاـ يـتـبعـونـ أنـفـسـهـمـ فيـ مـحاـوـلـةـ تـرـويـضـهـ؟ـ هـنـاكـ العـشـراتـ وـرـبـماـ المـئـاتـ منـ عـراـقـيـ الـمـهـجـرـ الـذـينـ يـتـمـنـونـ شـغلـ وـظـيفـتـهـ بـامـتنـانـ وـشـكرـ،

وربما يكونون أكثر كفاءة منه. لماذا لا يتركونه يغادر جنتهم ونعيشه!  
العمل معهم؟!

زاره أخوه عمار بضع مرات، ولم يأت على ذكر عبد العظيم أبداً، وتلقى اتصالات هاتفية من أصدقائه القدامى في أميركا، وظل ينتظر عودة ليلي لزيارته من جديد ولكن من دون طائل. لم تتوافق على إعطائه رقم هاتفها، أو تدله على سكنها، أو أين تعمل. كانت تقول إن هذا من أجل حمايته.

- ٢ -

ها هو وبعد بضعة أحداث مثيرة جراء زيارات ليلي وعبد العظيم، شعر بأنه يعود من جديد إلى حفرة الأرنب، ولكن هذه المرة من دون حبة واحدة من عقار الثيلكسود. واكتشف سريعاً المفارقة في الموقف؛ فهو كان يحصل على هذا العقار بشكل منتظم مع زملائه في العمل من صيدلية الدائرة. باعتباره عقاراً ضرورياً لعمل المدرّبين، الذي يشغل على مكانه بينهم. واليوم، عليه من أجل الحصول على عقار الثيلكسود الذي يدفعه بعيداً عن هذا العالم، أن يعود للعمل الذي يريد الهرب منه.

لا توجد وسيلة أخرى للحصول على هذا العقار غير المدون ضمن لوائح الأدوية العالمية، ولن يعثر عليه في الصيدلية أسفل العمارة التي يُقيم فيها مثلاً. ومع شعوره بالتوتر وفشلها بالنوم السريع والمريخ، حاول إشغال نفسه بشيء ما. فكَر بإجراء عملية تفتيش واسعة للعثور على كاميرات المراقبة. انشغل نهاراً كاملاً بهذا الأمر ولم يعثر على شيء، وكان من المصادفات الايجابية عثوره على حبة بيضاء محززة بين طيات كارت الصالة، تشبه حبوب الثيلكسود.

شربها ليلًا، من دون أن يعرف هل هي الحبة المنشودة أم مجرد علاج للصداع. أُوْهَمَ نفسه بأنها فعلت فعلها، واستغرق بالنوم أو كاد، حين سمع هاتفه المحمول يرنُ.

- كيفك يا ولد؟

- أنا بخير يا دكتور.

رَدَّ عليَّ مباشِرَةً، رغم أنه كان ينزلق ببطء إلى حفرة الأرنب.

- كيف أنت وماذا تفعل؟ لماذا لا تخرج من شقتك؟ هل لديك مؤونة سردادب من سراديب التحصين ضد الحرب النووية؟ أم أنت لا تأكل أبدًا؟

- أنا سألت عنك وبحثت، ولم أحصل على نتيجة.

- بما أنك ما زلت تأكل. هل أعزوك على غداء؟ تعرف مطعم التنين بشارع الرشيد؟ ممكن نلتقي هناك غداً عند الثانية عشرة ظهراً. كان هذا هو الاتصال الأول بين علي ودكتور واصف في هذا العالم. ولم يخلُ ترُقب علي للقاء صديقه القديم من إثارة معينة.

كيف سيكون شكله هنا، ما هي طبيعة مهامه؟ لماذا يريده لقاءه؟

ظلَّ علي يسأل بينما الدكتور واصف يتجلَّب الشرح وكأنه على عجلة من أمره، وقال له في النهاية بأنه سيعرف كلَّ الأجرة غداً. تذَكَّر علي فجأة صديقه العجوز الضامر في المصحَّة. وكلَّ الأحاديث التي تجاذبها معه، ثم حضر الوصف السلبي الذي استخدمه عبد العظيم بشأن الدكتور واصف. وفي اليوم التالي ارتدى ملابسه وخرج من شقته مبكراً، لأول مرَّة منذ بضعة أسابيع.

الكسول بسبب كثرة الجلوس غير متعدّد على السير والتنقل لمسافات طويلة. أو ربما هي آثار متبقية من رحلة العلاج الطويلة. وجد الدكتور واصف يحجز طاولة عند الشبّاك في هذا المطعم الذي أقامه صينيون منذ بضع سنوات بتمويل من بوذيين عراقيين.

شرح له الدكتور واصف شيئاً من مفارقات هذا المكان، وبدأ وكأنه يريد تأجيل الإجابة عن التفاصيل التي تدور في ذهن علي إلى وقت آخر. كان الدكتور واصف يُهيم نفسه لجلسة طويلة مع صديقه الشاب.

تناول الغداء وهو طعامٌ بحريٌّ مع رزٌّ مطبوخ على الطريقة الصينية. وخلال ذلك كان الدكتور واصف لا يتوقف عن التعليق على الأكل ثم الاستطراد إلى قضايا تتعلق بالصينيين في العراق اليوم:

- أنت لا تعرف ربما أن لدينا مشكلة تتعلق بالبوذيين العراقيين. هناك حوالي مليوني عربي تحول إلى البوذية منذ سنوات، كردة فعل كما أفسر على جو المشاحنات الطائفية. ولكنني لم أكن أتوقع أن يأخذوا عقيدتهم الجديدة على محمل الجد. تصور هم الآن بصدده إنشاء معبد بوذي في مكان قريب من هنا، في شارع الرشيد، يقولون إنه كان يحوي خاناً لمنام المسافرين في أواخر العصر العباسى، وكان مقرًا لزيارات سنوية قام بها تاجر صيني يجلب الورق إلى بغداد، وهو في الوقت نفسه عالمٌ ومتصوفٌ بوذيٌّ كبيرٌ نسيت اسمه.

انهمك الدكتور واصف بمضغ لقمه قبل أن يُكمل ساخراً:

- طبعاً أي بوذي في العالم لن يشغل نفسه بأشياء من هذا النوع. إنها الأنفاس العراقية والهوس بالمقامات ومحاولة تأصيل الوجود بالأرض. وكأن هذا البوذي العراقي لن يكون بوذياً فعلاً من دون أن يكون له في بلده معلمٌ بوذيٌّ وقبةٌ ومقام.

انتهى الغداء وصارا يشربان شاياً خفيفاً، ولم يتتبه علي أن عدداً من الطاولات المجاورة كان يشغلها حرّاس شخصيون للدكتور واصف. كان المطعم شبه محجوز لهذا اللقاء.

ظلَّ الدكتور واصف يسأل علي عن وضعه وعمما يشغلة. تكاثرت الأسئلة بما يشبه الاستجواب، وعلى يربُّ عليها تباعاً متحيِّناً الفرصة التي سيسأله فيها عن التعويذات السبع وأبواب الطباشير ومحمد سدخان والطريقة التي جاء بها إلى هذا العالم وما إلى ذلك. لكن الدكتور واصف لم يعطه فرصة، وكأنه أعدَّ أسئلته مسبقاً وتمَّنَ عليها طويلاً.

- هل فقدت الإيمان بقدراتك وإمكانياتك؟

- لا أشعر بأن المكان الذي أعمل به يقوم بشيء جيد.

- لا تشعر؟

ردَّ دكتور واصف مستنكراً، ثم رمى حسراً مد IDEAً وأكمل:

- إن استسلمنا لمشاعرنا فنحن في هذه الحياة لا نقوم بشيء جيد يا علي. الشيءُ الجيدُ الوحيدُ، إن أردت الحقيقة، هو دفع الموت بعيداً. مقاومة الموت، إلتهام شيءٍ يشبه عُشبة خلود جلجامش وعدم الموت بعدها. هل نقوم بهذا؟ هل يُتاح لنا أن نقوم بشيءٍ مستحيل مثل هذا؟ أبداً. ثم ألا تتذَّكر التعويذة الثالثة؟ «إن لم تكن لديك القدرة على إسعاد نفسك، فعلى الأقل في بدنك وروحك ولسانك ما يُسعد الآخرين» إسعاد الآخرين وسيلةٌ فعالةٌ للحصول على السعادة الذاتية، وأنت لديك هذه الفرصة هنا.

لم يفهم علي جواب الدكتور واصف. وصار الكلام بعدها ضبابياً أكثر.

- أريد مغادرة هذا العالم يا دكتور.

رَدَّ علي وهو يقاطع كلام دكتور واصف، وشعر الأخير بأن صديقه الشاب صار مشوشًا ومتضايقاً.

- لم أكن أرغب بأن تعيش في محنة. إنها وظيفة مناسبة لك. أنت لا تعرف طبعاً ابني أنا من عينك فيها. كنت أفترض بأنني لن أكون بحاجة إلى هذه المصارحة.

قال доктор واصف بنبرة أسف قبل أن يبدأ مع صديقه الشاب جولة أخرى من المشاريب الدافئة. نظر доктор واصف إلى ساعته اليدوية، وكأنه يحدد الوقت المناسب لكل موضوع يتحدث به، ثم استرسل في شرح الأشياء التي جاء على أصلًا من أجل معرفتها.

## - ٥ -

لا يُقيم доктор واصف في بغداد، ومنذ أحاديث الحرب الطائفية الطاحنة صار يُقيم في أمريكا، وهو من عمل حديثاً على إقامة متحف عراقي بدليل للآثار هناك. يذهب ثم يعود إلى بغداد بصورة دائمة، تبعاً لمتطلبات عمله. ولذلك هو لن يكون متوفراً بشكل دائم خلال الفترة القادمة، ومن الضروري أن يضع على في الصورة المطلوبة منه، فهو من جلبه إلى وظيفته الحالية، وهو مسؤول عن عمله وعن نتائج عمله وعمل زملائه المشابهين، ولكن هناك خصوصية ما لعلي. لم يكن لمشروع الأمة العراقية الجديدة والإدارة السياسية الدولية لاتحاد الشركات أن يجري من دون موافقات صريحة وثابتة من قبل الغالبية من مواطني الجاليات العراقية في الخارج، الذين يُمثلون أكثريّة السكان، قياساً بمن بقي في الداخل. وخلال أشهر طويلة ما كان لهذا المشروع أن يرى النور بسبب الاختلافات والتقاطعات التي

شابث كلَّ نقاشات رابطة الأمة العراقية مع ممثلي الجاليات في مختلف المدن والدول التي زاروها. كان المشروع على شفا الفشل الذريع. لم يكن العراقيون قادرين على الاتفاق وهم داخل وطنهم، ومن غير المفاجئ أن يقروا على اختلافهم وهم في الخارج، حتى مع شعورهم بالأمان والاستقرار والتخلص من تهديد الخصم الطائفى.

كان الدكتور واصف قد اكتشف حينها جرَّة أبو صلابيخ واستخرج منها التعاوين السُّومرية السبع. وظلَّ يعمل عليها لمدة حتى فهم أبعادها وتأثيراتها كافة. ولم يكن من السهل إقناع الآخرين بأن هذه التعاوين التي كتبها أنسُ بدائيون يمكن أن توفر حلًا لمعضلتهم.

- السُّرُّ هو في «الباب السادس». كلُّ الأبواب الأخرى تنقل صاحب النسخة الأصلية ما بين العوالم، لكن الباب السادس يؤدي إلى الفناء، فناء النسخة الأصلية، موت الذات المفتردة.

- لم تُخبرني بذلك سابقاً.

- لا أتذَّكر أننا تحدَّثنا بهذا الموضوع.

- أقصد.. الدكتور واصف في نسخة عالم آخر.

- هنا المشكلة، وأتذَّكر أنني أخبرتك بها سابقاً.

تجاهل الدكتور واصف اعتراض علي واستمرَّ في حديثه.

- كان علينا أن نقرأ تركيبة من هذه التعاوين على مجتمع الجاليات العراقية، بأدءاء أنا نُغنى أغاني قديمة تمثل روح الأمة العراقية وما إلى ذلك. كانوا يسمعونها ويتفاعلون معها، وخلال النوم تعبِّر الذات المفتردة للواحد منهم عبر الباب السادس وتتفنى. وهذا صرنا نتخلص من التمرُّد وأسباب الخلاف وعدم الاقتناع، ونحصل على خرافِيَّة تبحث عن الدفء في المجتمع. ولم يُصدق القائمون على مشروع الأمة العراقية الجديدة الناتج التي توصلنا إليها

في البداية. هكذا حصلنا بعد بضعة أشهر صعبة على موافقات جماعية على المشروع وصار ممكناً التحقيق على أرض الواقع.

- ٦ -

كان علي بالطبع، وكما استتتج سريعاً أحد «قراء التعاوين» الذين أنتجوا خراف المموافقة على المشروع. وهو عملٌ كان يُواجه مصاعب معينة، فالكثير من الموظفين بصفة «قراء تعاوين» كانوا يتحولون إلى ضحية للتعاوين التي يقرؤونها، فينفصلون سريعاً عن مجتمع العمل الخاص بالادارة الفنية الساندة لاتحاد الشركات، ليتحولوا إلى خراف، ويفقدون أصالتهم المطلوبة لعمل قراء التعاوين، فلا يعودون جزءاً من مجتمع القيادة الصغير. كانت إدارة المشروع الذي ترأسه الدكتور واصف تفقد موظفيها بشكلٍ متزايد بهذه الطريقة، ما سوى علي. ظلَّ صامداً ولا يخضع لتأثيرات التعاوين التي يقرؤها. كان مميِّزاً لسبب غامض، ومن هنا جاءت أهميته. هذا على الأقل منذ أن بدأ العمل بشكلٍ فعلي قبل بضعة أشهر.

في الفترة ذاتها تم اكتشاف تأثيرات عقار كان يستخدم لعلاج بعض الأمراض النفسية، وجرى تطويره باتجاه وغرض محددين؛ لحماية قراء التعاوين من الباب السادس. وبعدها بمدة صار من الممكن الحديث عن دائرة خاصة بالأناشيد السُّومرية، التي هي في باطنها تعاوين الفناء عبر الباب السادس. وكان علي من بينهم من لا يحتاج إلى هذه العقاقير لأداء عمله.

ظلَّ علي يعمل مع هذه الدائرة، ثم انتقل إلى بغداد، وخلال مدة عمله التي استغرقت ستة أشهر تقريباً، كان يرى الكثير من زملائه ينتكسون بسبب كثرة تناولهم لعقار الشيلكسود، ويتم إيداعهم في

المصححة جنوبى بغداد. يجري هناك تخلصهم من السموم بشكل دوري وتأهيلهم للعودة إلى العمل، ما سوى على، الذى كان يتناول أقراص الثيلكسود كنوع من العادة مع زملائه. ثم بسبب شعوره بالملل من عمله الذى قيل له أنه نوع من الإدارة الاجتماعية وتحريض الآخرين على كشف شخصياتهم وما إلى ذلك، وحين اكتشف بأنه لا يُفهم في عمل جيد، وأنه كبرغىٌ ربما يعمل في تحريك عتلات ومسننات في آلة ضخمة تصنع الشرّ، صار يشعر بالمازق وانتهى به المطاف لladman على الثيلكسود.

- كانت روحك المقيمة هنا قوية جداً، ولا أفهم لماذا استسلمت لروحك الوافدة. هذه الروح المتشكّكة، والتي تمّرّدت على عملنا، ما اضطرنا لايداعك في المصححة من أجل محو ذاكرة الأسبوع الماضية، الذاكرة التي أنتجتها روحك الوافدة.

قال الدكتور واصف بنبرة حميمة وكأنه يتحدّث مع ابن أو أخيه. وضع يده على كتف علي ثم أكمل:

- أنت صديقي، ومن أقرب الأشخاص إلى نفسي، ولكن عملنا في خطر. كل فراء التعاوين ينهارون بسرعة. أنت الوحيد الذي بقيت بجواري وتعمل بكفاءة. أعتذرني لأنني أرسلت من يحاول إيقاظك من غيبوبتك في العالم الأول، حتى أسترجع على ناجي خاصتي. لقد كلفته بقتلك هناك في حال فشله في العلاج. لكن المجنون تردد ولم يفعلها.

- قتلي؟!

- ليس أنت.. وإنما ذاتك التي في العالم الأول. على أي حال ما زلت هناك على حالك. أنا أتحدّث معك بهذه الطريقة لأنني أشعر بالفشل والإخفاق. أتمنى أن تقدّر ما أنا فيه حقاً.

رَأَنَ صَمْتُ بَيْنِ الرَّجُلَيْنِ، وَجَاءَتْ عَامِلَةٌ خَدْمَةٌ صِينِيَّةٌ صَغِيرَةٌ وَرَفَعَتْ الْأَطْبَاقَ وَالْأَقْدَاحَ مِنَ الْمَائِدَةِ، فَانْتَهَزَ دَكْتُورٌ وَاصِفُ الْفَرَصَةِ وَطَلَبَ مِنْهَا فَنجَانِي قَهْوَةً.

- أَنْتَ تَرِيدُ قَهْوَةً، أَلِيسْ كَذَلِكَ؟

سَأَلَ فَأَوْمَأَ عَلَيْهِ بِالْإِيْجَابِ. ثُمَّ لَفَتَتْ اِنْتِبَاهَ عَلَيْهِ حَرَكَةً فِي شَارِعِ الرَّشِيدِ، مَجْمُوعَةٌ مِنْ عَشَرِينَ إِلَى ثَلَاثِينَ شَخْصًا، مِنْ حَلِيقِ الرَّأْسِ، تَرْتَدِي مَلَابِسَ صَفَرَاءَ وَيَسِيرُونَ بِهَدْوَءٍ وَصَمْتٍ خَلْفَ بَعْضِهِمْ الْبَعْضِ الْآخِرِ.

- إِنَّهُمْ الْبُودِيُّونَ الْعَرَبِيُّونَ. يَذْهَبُونَ كُلَّ يَوْمٍ لِلصَّلَاةِ فِي الْمَوْعِدِ الَّذِي يَطَالِبُونَ بِتَحْوِيلِهِ إِلَى مَعْبُدٍ.

ظَلَّ عَلَيْهِ صَامِتًا، وَهُوَ يَشْعُرُ بِالْمَأْزَقِ الَّذِي وَجَدَ نَفْسَهُ فِيهِ مِنْ دُونِ إِرَادَةٍ وَلَا رَغْبَةٍ. وَاسْتَمَرَ دَكْتُورٌ وَاصِفُ بِالْكَلَامِ.

- مِنَ الضرُوريِّ أَنْ تَؤْمِنَ بِأَهْمَيَّةِ الْعُودَةِ إِلَى الْعَمَلِ بِأَسْرَعِ وَقْتٍ. لَدِينَا اِنْتِكَاسَاتٌ دَاخِلِ الْمَجَمُوعَ تَحْصُلُ دُونَ مَعْرِفَةِ السَّبِبِ لِأَشْخَاصٍ عَبَرُوا سَابِقًا الْبَابَ السَّادِسَ، فَضْلًا عَنْ أَجِيَالٍ جَدِيدَةِ، وَأَشْخَاصٍ كَانَ مِنَ الصَّعُبِ السَّيْطِرَةُ عَلَيْهِمْ وَاجْلَاسُهُمْ أَمَامَ مَدْرِبِيِّ قِرَاءَةِ التَّعَاوِيدِ. وَعَمَّا قَرِيبٌ سَتَمْتَلِئُ الْمَصَحَّةُ بِكُلِّ موْظِفٍ دَائِرَتِكَ، وَلَنْ يَكُونَ لَدِينَا مَدْرِبٌ مُؤْهَلٌ. أَنْتَ تَعْرِفُ الْآنَ حَرَاجَةَ الْمَوْقِفِ.

- ٧ -

كَانَ عَلَيْهِ الرَّدُّ بِجَوابٍ مَطْمَثَنٍ وَإِلَّا لَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ هَذِهِ الْجَلْسَةِ الطَّوِيلَةِ مَعَ صَدِيقِهِ الْعَجُوزِ. وَهِيَ جَلْسَةٌ صَارَتْ تُشْعُرُهُ بِالضَّيقِ. لَمْ يَشْعُرْ أَنَّهُ يَحْبُّ الدَّكْتُورَ وَاصِفَ هَذَا. إِنَّهُ اسْتَنَادًا إِلَى كُلِّ مَا تَحْدَثَ بِهِ يَبْدُو كَائِنًا شَرِيرًا. كَانَ مُسْتَعْدًا لِقَتْلِهِ. إِنَّهُ السَّبِبَ فِي

ولادة هذا المشروع المجنون. عند هذه النقطة صار يفهم جيداً كلام عبد العظيم، من بعدهما كان يظنه يبالغ أو تحت تأثير لوثة ما.

وَعَدَهُ بالعودة إلى العمل وافتراقا. ظلَّ يتَسَكَّع في الشوارع من دون رغبة بالعودة سريعاً إلى شقته. شاهد التغييرات التي حدثت في المدينة. كانت وعلى خلاف الصور التي اخترنها في ذاكرته، نظيفة وبراقة، وهناك اهتمام واضح بواجهات المحال، ومعالم تعكسُ الهوية العميقَة لهذه المدينة. هناك جهدٌ جبارٌ لجعل بغداد هذه تبدو للناظر إليها وكأنها مدينة من طبقات، تُحيل إلى كلٍّ مراحل تاريخها السُّبْحَانِي. هذا شيءٌ مهمٌ دون شكّ، ويبدو أن دكتور واصف وفريقه عملوا بشكل جيد وقدموا حلّاً في وقت انتفاء الحلول. حين عاد إلى شقته بعد ساعة من التجوال والتَّنَقُّل بالسيارات من مكان إلى آخر دون هدف محدد، وحاول خلال هذه الساعة أن يجد أيّ مُبَرِّئ يُساعد على التصديق بجذور العمل الذي يقوم به بجوار الدكتور واصف، شعر بإحباط شديد من نتيجة هذا التفكير الطويل. دخل إلى الصيدلية أسفل العمارة التي يُقيم فيها، وطلب حبوبًا منومة، لكن صاحب الصيدلية قال بأنه لا يمنع علاجات من دون وصفة طبية.

عاد إلى شقته، وأخرج المشروبات التي لديه في الثلاجة. كانت بواقي وأرباعاً، وضعها كلّها على الطاولة، واستغرق في شرب أراده أن يكون مفرطاً، يدفعه لنوم عميق.

## الفصل السادس عشر

### المُفتَح

- ١ -

لم يتبق في القسم الذي يعمل فيه علي سوى ثلاثة موظفين، بالإضافة إلى المدير التايلندي المستعرب. أما البقية فقد أودعوا على مراحل في المصحة. وقع علي في سجل المباشرة بالعمل، وكان المدير التايلندي سعيداً بروبة موظفه المميز وهو يبدو بصحة جيدة. ومثلكما توقع فإن النقص بالموظفين سيفرض عليه عملاً مضاعفاً.

كانت القاعة التي تشبه مسرحاً صغيراً ممتلئة بأناس مختلفين تم جلبهم بالإكراه لسماع محاضرة علي، التي تتضمن قراءة تعاوين على شكل قصائد قصيرة، يقول لهم عادةً بأنها تتضمن علاجاً نفسياً غير مباشر، يساعد على التهدئة وتخفيف الضغط النفسي، غير أنه بات يعرف العمل الحقيقي لهذه التعاوين. أنه، مثل خازن النار، يقذف بخطافه العريض الأسود هؤلاء الجهلة إلى قعر الجحيم، من دون أن يعرفوا أو يشعروا بذلك. سيُفْنِي ذواتهم المتمردة والتي تُسبِّب القلق وتشير المشاكل لسلطة اتحاد الشركات.

كان علي يقاوم كلَّ هذه الأفكار السوداء ويحاول التركيز على شيء محدد؛ لقد عاد إلى العمل حتى يطمئن الدكتور واصف ويتركه في حاله، وحتى يتمكَّن هو من الوصول إلى عقار الثيلكسود.

شعر بعدم الارتياح وهو يقرأ التعاويد التي تفتح الباب السادس على العدم، ثم ظلَّ هذا الشعور يُرافقه لما تبقى من النهار، وتحول إلى شيء يضغط على أمعائه، ومنعه من تناول وجبة الغداء.

خرج الأناس الذين شغلوا قاعة المسرح الصغير في أحد طوابق الدائرة، وهم مبتسمين، وأبدى بعضهم ملاحظات عن شعورهم بالارتياح بسبب هذه القصائد القديمة، وهذا ما زاد من حالة الضيق والغم الذي على. «سيتغير كلُّ شيء بعد أن تناموا أيُّها المغفلون» كان بوذه أن يقول لهم ذلك، ولكنه سيخرب بهذا كلُّ خططه السرية. هو يعرف تماماً بأنها خطط أنانية، تستهدف خلاصه الشخصي وعليه ألا يُفكِّر الآن بمصائر الآخرين. لكن الكلام سهل.

## - ٢ -

قبل نهاية الدوام ظهرت ليلي أمامه. كانت باللغة الأنفقة وكأنها ذاهبة إلى حفلة. قالت له وهي مبتهجة بأنها كانت متأكدة من عودته إلى العمل. لا أحد يصدُّ لوقت طويل في عزلته. يجب عليه أن يخرج في النهاية ويُواجه الناس. ظلَّ علي يتجادب الكلام معها أثناء خروجهما من بناية الدائرة، ولكنه، ولأول مرَّة، ومن بين كلُّ نسخ حيواته التي مرَّ بها، لا يشعرُ بأيِّ تفاعل مع هذه المخلوقة. حتى حين احتضنته على الرصيف، وطبعث قُبَّلة مديدة على شفتيه، لم يشعر بشيء محدَّد. قالت له بأنها ستتنشغل مع أولادها في الساعات القادمة، وتحاول أن تزوره في الليل.

- كاميرات المراقبة الموجودة في شقتي؟!

- الكاميرات في رأسك يا علي. عمَّاذا تتحدَّث!

تركته ملوحةً بيدها وهي تسير مبتعدة على الرصيف، وتحسَّن

هو جيبيه كي يتأكد من الكيس الصغير لعقار الثيلكسود. كان قد أخذ حصته المقررة، ولكنه يحتاج إلى ما هو أكثر.

- ٣ -

خطا عدّة خطوات قبل أن يرى سيارة مارسيدس سوداء توقف عند الرصيف على مسافة عدّة أمتار منه، ثم شاهد سائقها المتألق ينزل وينادي عليه :

- أستاذ بلا زحمة.

تقدّم علي باتجاهه، وحالما صار بجوار السيارة حتى شاهد نافذة المقعد الخلفي تنزل ويظهر من خلفها وجه الدكتور واصف. إيتسم وداعه للركوب.

- أخبروني بأنك باشرت العمل. كم أنا سعيد. أرجو أن تكون قد ارتحت بالإجازة وحسمت خلالها كل المشاكل التي كانت تشغلك.

قال الدكتور واصف وظل ينظر إلى صديقه الشاب مبتسمًا، ويربت على ركبته بمحبة.

- أنا سأغادر غداً. أحبّيت الامتنان عليك ورؤيتك لمرة أخرى. رمى الدكتور حسرةً مديدةً ثم أكمل.

- لا نعرف ما سيجري. هناك جماعات مسلحة نائمة نعرف بأنها تخططُ لشيء ما. ولكنني للأسف لا أستطيع البقاء أكثر لمتابعة هذا الموضوع. وضعِي الصحي لا يسمح، على استكمال فحوصاتي الطبية، وأن أقلل الجهد.

ظلا يتقدّمان خلال الطريق، ولم يكن علي يعرف إلى أين هم يتجهون، ثم اتضّح فيما بعد أنهم يدورون في شوارع بغداد فقط.

- ألا ترى.. لقد قمنا بعمل مستحيل. هذه الشوارع والأبنية الحديثة. حالة السلام الاجتماعي.

- ومتى يعود المهاجرون إلى بلدتهم؟ حالة السلام تسقط حُجَّة من يبقى في الخارج.

- نعم. الأمر عائد لهم، هذى حريات شخصية.

ردّ الدكتور واصف باقتضاب، وشعر على بأن صديقه لا يريد التطرق إلى موضوعات مماثلة. استغرق بالصمت لنصف دقيقة قبل أن يلتفت إلى صديقه الشاب:

- المهم أنت لديك اليوم مهمّة ثقيلة. أنا بانتظار استكمال فريق البحث الخاص بي هناك في ديترويت. لا بدّ أن نعثر على أسرار جديدة، أشياء تساعدنا على تحسين عملنا.

- لم يبق سوالي واثنين من العاملين في قسمي.

- أعرف. هذى مشكلة كبيرة. ولكنني سأجد حلّاً لها عما قريب، لهذا عليّ العودة سريعاً.

عبرت السيارة من نفق الباب الشرقي لتتدخل إلى شارع السعدون. ظلّت تسير لوقت طويل، ولم يفهم علي ما المغزى من هذه الحركة.

- إلى أين نحن ذاهبون؟

- سأوصلك إلى بيتك. كان بودي أن نجلس لنثرثر كما في المرّة السابقة، ولكن وقتني ضيق.

استمرّ الصمت بين الصديقين القديمين، ولم يكن علي يشعر بالارتياح. كان يرغب لو أوقف السائق كييفما اتفق لينزل على الرصيف. لا يجد في نفسه رغبة للبقاء مع صديقه العجوز أكثر،

ويخشى إن استمرَّ بالثرة معه أن ينسى حذرهُ ويواجه الرجل المتنفَّذُ  
الآن بكلام لن يعجبه وربما تخرَّب كلُّ خططه السرية.

قبل أن ينزل عليٍ ويودع العجوز واصف قال له الأخير:

- أنت لست عليَّ الذي أعرفه ووظفته. ولكن أتمنَّى أنك فهمت  
الآن الوضع الذي تعيش فيه، والمهام الكبيرة التي نتصدى لها.  
أتمنَّى أن أسمع منك أخباراً جيدة.

- إن شاء الله.. أكيد.

ردَّ عليٍ وهو يتحسَّس جفاف بلعومه وخروج الكلمات بصعوبة.  
نزل على الرصيف ماداً جسمه وسحب أنفاسه بارتياح.

#### - ٤ -

عاد إلى شقته، واستغرق في حمام دافئ لوقت طويل. وخلال ذلك ظلَّ يسترجع الجولة التي قام بها مع الدكتور واصف. هل هو شريرٌ حقاً، أم يحسب نفسه يعمل أمراً عظيماً؟ ما الفرق وما المعيار الذي يحدُّد الفرق بين الأمرين في نهاية المطاف؟ هل عليٍ نفسه يُمثل معياراً ما؟ ربما هناك صورة أشمل وأكبر لا يعيها عليٍ، هو بإمكانه بسهولة أن يتهم نفسه بالاستغراق بالخيالات والتصورات المثالية. ربما كان ما حصل هو حلٌّ عبقيٌّ لكلِّ الأزمات التي ظلت تحتاج لهذا البلد المنكوب منذ عقود طويلة.

أعد العشاء لنفسه، ثم قضى بعض الوقت بأعمال تنظيف. أغلق الباب بإحكام والشبايك، واندسَّ في سريره. تناول حبتين من العقار وحاول النوم، وتمنَّى ألا تطرق ليلى الباب عليه أبداً.

استغرق في نوم عميق لم يحظ بمثله منذ أسابيع، وفي الصباح

تذكّر وعدَ ليلي ، وخمّن أنها ربما جاءت وطرقـت الباب عليه وبيـست من وجودـه وغادرـت .

في الدائـرة اكتـشف أن زمـلاً آخر قد غادر إلى المصـحة . بـدا من الواضحـ أن هـناك انهـياراً ما يـجري ، حتى وإن لم يـعلن عنه أحدـ . قال له المـدير التـايـلـنـدي :

- ربما يـجري الآـن العمل على خطـط بدـيلـة . أو يتـخلـون عن هـذا البرـنـامـج . ربما من المـفـيد تركـ النـاس كما هـم ومحاـولة الحـوار معـهم وإـقـنـاعـهم بالـحـجـة والـرأـي والـمنـطق بـدـل إـخـضـاعـهم بالـقـوـة .

- يجبـ أن يستـمرـ البرـنـامـج . إنه فـعـالـ وسـريعـ . وإن لم يـرجع موـظـفـونـ منـ المصـحةـ ، علينا استـقدـامـ موـظـفـينـ غيرـهمـ بأـسرـعـ وقتـ . ردـ علىـ بـهـذاـ الكلـامـ رغمـ عدمـ قـنـاعـتهـ بهـ بالـمـرـةـ ، كـنـوـيـعـ منـ التـموـيـلـ والتـغـطـيـةـ عـلـىـ اـحـتمـالـاتـ جـسـنـ النـبـضـ منـ قـبـلـ المـديـرـ التـايـلـنـديـ .

## - ٥ -

كـانـتـ قـاعـةـ المـسـرـحـ الصـغـيرـ مـمـتـلـئـةـ هـذـهـ المـرـةـ أـيـضاـ ، وـسوـىـ الـوـجـوهـ المـأـلـوـفـةـ المـتـبـعـةـ لـلـرـجـالـ وـالـنـسـاءـ فإنـ هـنـاكـ شـيـئـاـ ما عـقـدـ لـسانـ عـلـيـ ، وـجـعـلـهـ يـصـمـتـ لـوقـتـ آـثـارـ اـنتـبـاهـ الـجـمـيعـ . كانـ يـنـظـرـ إـلـىـ مـنـتـصـفـ المـقـاعـدـ المـدـرـجـةـ وـيـرـىـ عبدـ العـظـيمـ جـالـساـ هـنـاكـ . هلـ يـعـرـفـ عبدـ العـظـيمـ ماـ الـذـيـ يـجـريـ؟ هلـ جاءـ بـإـرـادـتـهـ أـمـ تـمـ اعتـقالـهـ؟ هلـ يـعـرـفـ ماـ الـمـصـيرـ الـذـيـ سـيـتـهيـ إـلـيـهـ؟

أـجـبـرـ عـلـيـ نـفـسـهـ عـلـىـ الـكـلـامـ حـتـىـ لاـ يـشـيرـ شـكـوكـ المـرافـقـينـ الـأـمـنـيـنـ الـذـيـنـ كـانـواـ يـقـفـونـ عـنـ مـاـ دـاخـلـ الـقـاعـةـ ، وـيـتـبـادـلـونـ معـ بـعـضـهـمـ إـشـارـاتـ بـالـيـدـ ، لـأنـهـمـ يـضـعـونـ سـدـادـاتـ أـذـنـ .

رـغمـ أـنـ النـتـيـجـةـ وـاحـدـةـ بـماـ يـتـعلـقـ بـالـأـشـخـاصـ جـمـيعـاـ الـذـيـنـ

يجلسون في هذه القاعة، ورغم أنه قام بالعمل الشنيع مضطراً نهار أمس للتمويه على خططه الأصلية، لكنه اليوم سيدفع بيديه صديقه المقرب إلى بوابة العدم.

كان عبد العظيم صامتاً وواجماً، وبدت نظراته إلى صديقه عند منصة المسرح وكأنها تريد أن تقول له أن كلَّ شيء انتهى. لا فائدة تُرجى من أيّ عمل الآن.

أراد علي أن يتقدّم ويخترق صفوف المقاعد ليمسك بعد العظيم من كتفيه ويقول له؛ أخرج من هنا. أو ربما، في أهون الأمور، يدنو ويوشوش في أذنه طالباً منه أن يسدّ بإصبعيه مسامعه ولا يسمع أيّ شيء مما سيقول.

ربما يُحرّف التعاوين قليلاً، لا يجعلها فاعلة. ولكن، قد يتتبّه المشرفون إلى عمله، حين يكتشفون أن تأثير التعاوين لم يفعل فعله في كلِّ من حضر داخل القاعة. إنهم ليسوا أغبياء ولا يتركون الأمور دون متابعة.

كانت لحظات عصيبة، ولكن الرغبة العميقه لعلي بالخلاص من هذا العالم كله، تغلبت على أيّ مشاعر أخرى ومنها حسُّ الوفاء لصديقه القديم. وظلّت مجموعة من الأفكار المتناقضة تتلاحم في رأسه بينما لسانه يتحدّث بموضوع مختلف، كلمات من ضمن المنهاج المعهَّد لعمله كمدرب. لم يكن صعباً عليه أن يسترسل بالحديث الذي ظلَّ يرددّه بشكل معتمد في كلِّ مرّة خلال الستين الماضيتين، بينما الأفكار المتزاحمة تُخبره بشيء آخر؛ يجب أن تهرب. هذه هي الأولوية القصوى لديك. عبد العظيم شخصٌ انتحاريٌّ، وبالتأكيد وجومه وهدوءه اليوم هو بسبب أنه كان يتوقّع دائماً كلَّ التداعي المأساوية لعمله. ربما حين يتحول إلى خروف أليف

فهذا سيكون حالاً أفضل من القتل. على الأقل بالنسبة لعائلته وأهله. هل تزوج وأنجب أولاداً؟ هل أبوه وأمه أحياء؟ هو لم يسأله أبداً. إنتبه على لاحقاً أنه يقرأ التعاوين بشكلها المعتمد. انتهى كل شيء سريعاً، ثم بدأ يطوي أوراقه من على طاولة المنصة، بينما بدأ الحاضرون بالمعادرة، وعينا على تلقيح عبد العظيم، الذي تسلمهاثنان من الحرس بالباب وخرج بها، حتى من دون أن تُتاح لعلي فرصة الاقتراب منه والحديث معه. وحين خرج شعر بأنه من غير الجيد أن يقف مع أحدٍ من الحاضرين ويتحدث معه. هم بالتأكيد يعرفون من هو عبد العظيم وما يفعل؟ هل يعرفون حقاً؟

استغرق مع شعوره بالذنب خلال الساعات اللاحقة، حتى حين جاءت ليلى لتسأل عنه وتعذر عن عدم تمكّنها من الحضور ليلة أمس بسبب حُمَّى أصابت أحد ولديها، فهو لم يهتم أبداً. وقال لها إنه متعب أيضاً وربما يذهب للمبيت في بيت أخيه الليلة. وكان من السهل أن تفهم ليلى أن هذه مجرد حجّة لإبعادها، ولكن علي لم يشغل نفسه بذلك. صار مع نفسه يلومها أيضاً، ويعتبرها جزءاً من المشكلة والمأزق الذي وجد نفسه فيه.

كان يرى تغييراً في سلوك الموظفين، ومع تتابع الأيام كان ينتبه لتزايد الإجراءات الأمنية في الشارع. ثم سمع عن عملية اقتحام خطيرة جرت في دائرة إدارة الصراعات الطائفية. شعر بقلق تجاه ليلى، ولكنه لا يملك رقم هاتفها، كما أن حُدْسَهُ الداخلي يخبره بأنه لا يملك وقتاً للقيام بأشياء تخص الآخرين أو يشغل بمصائرهم. لا يريد الاستمرار أكثر بقذف الناس في بوابة العدم، لذلك تجرأ وسرق الحبوب الخاصة بالموظفيين الآخرين اللذين بقياً معه. لن يشغل نفسه باكتشاف هذه السرقة، لأنه لن يرجع إلى الدائرة مرة أخرى.

شاهد جنوداً من القوة الأمنية العراقية ينزلون في الشوارع، وسمع من راديو سيارة الأجرة عن حوادث إرهابية صارت تحدث بالقرب من حقول النفط. وحين عاد إلى شقته وفتح التلفزيون شاهد في الأخبار مجموعة ترفع صورة عبد العظيم وتتحدث عن اختطاف مجموعة من العمال والموظفين في أحد مكاتب اتحاد الشركات، ولن تُطلق سراحهم إلا إذا أخلوا سبيل «زعيمهم».

تذكَّر وجه عبد العظيم وهو في جلسة محى الذات المفتردة التي كان يُديرها، فامسك الحزن بأعماقه بقوَّة. ربما كان هو السبب في إلقاء القبض عليه. أعاد تشكيل قصَّة افتراضية في ذهنه؛ كامييرات المراقبة رصدت دخول عبد العظيم إلى شقته. وانتظروا أن يسمعوا منه كامل قصته وربما أسماء عصابته الخاصة، وحين نزل من شقة على جرى اعتقاله أسفل العمارة، ثم بتخطيط بشع، جعلوا صديقه المقرَّب والحميم يمحوه بشيفرة الباب السادس، ويحوِّله إلى حَمْلٍ ودِيع.

ظلَّت شاشة التلفزيون تبثّ أخبار الاضطرابات المتزايدة، وكان ذهن علي يُركَّز على شيء محدَّد؛ العودة إلى حيث انتهى في المرة السابقة. سُيُغرق نفسه بعقار الشيلكسود، ولكن هذه المرة لن يسمح للأخرين باقتياده إلى المصحة، سيعبر إلى مناطق أعمق، بحيث لن تكون هناك فائدة من علاجه.

## - ٦ -

وضع قنينة نبيذ أحمر على طاولة الصالة. ظلَّ يأكل ويشرب على مهلٍ وهو يتبع الأخبار على التلفزيون. استغرق بالشرب حتى استنفذ القنينة، وخلال ذلك كلَّه كان يبلغ حَبَّة أو حَبَّتين من الشيلكسود.

تجاوز بعدها بساعة الحدود السابقة التي وصل عندها في تناول العقار. ولكنه استمرَّ ببلع الحبوب ولم يعد يعرف كم وصل عددها، ثم انتبه لوجود ليلي معه في الشقة، قالت له إنه أحمق.

- هناك ببسي حجم عائلي. وأنت أحمق من الحجم العائلي. أكبر أحمق عرفته في حياتي.

قالت له ذلك وهي تمسك برأسه في محاولة أن تجعله يستقرَّ على رقبته ولا يتمايل يميناً وشمالاً.

- ألم تُقلُّ في المصحَّة لصديقك العجوز أنك ترغب بالعودة إلى حتى لو كلفك هذا حياتك. أنا أمامك يا أحمق. أريدك. العالم أخيراً صار متزناً ويضع العقل في رأسه. هناك حياة نعيشها من دون خوف أو قلق، نعيشها سوية، ما الذي تريد أن تفعله بنفسك. تريد الانتحار بهذه الحبوب. أعطني إيتها. سأرميها في التواليت.

- لا أريد المشاركة بالقتل. أنا لستُ بهذه الصورة؟ أتحبِّين العيش مع مجرم؟

- المجرم هو من أوصلنا إلى هذه الحالة يا أحمق. الشرُ اللذيد عند هؤلاء الناس. نحن لسنا مسؤولين عن كلّ شيء. علينا أن نعيش. ما الذي تبقى من عمرنا؟!

ووجدها تسحبه إلى الحمام ثم تسكب الماء البارد على رأسه، ثم صارت تغسل كامل جسمه، وهو في سريره عارياً، وليلي تُشفَّث رأسه، ثم تدفعه إلى النوم. ففتح عينيه بعد وقت غير معلوم ووجد ليلي عارية أيضاً نائمة بجواره وهي تضع ذراعها بهدوء على خصره. كانت تغطَّ في نوم عميق. قال صوتٌ ما في رأسه بأن كلّ شيء يسيرُ حسب الخطة التي وضعتها يا علي. لا تُصدق بكلٍّ ما تراه الآن. أغلق عينيه وفتحهما، فشاهد سطوح النهار، وهو يأتي من النافذة العريضة في

الصاله، ليضرب على باب غرفة نومه، بينما هناك أصوات نشيش وقرقة أواني تأتي من المطبخ. وقف في منتصف الصالة بروب الحمام، ثم شاهد ليلي تخرج بصينية الإفطار. كانت تفرد شعرها على شكل حلقات متموجة مدفوعة إلى الخلف كما هي تسريحات مذيعات التلفزيون العراقي في الثمانينات. وحين لمحته واقفاً انفردت ابتسامة عريضة على وجهها.

- صباح الخير يا مجنون. كدت تموت ليلة أمس.

وضعت الصينية على طاولة صغيرة أمام طقم المقاعد الجلدية العريضة في الصالة، وصارت تأكل معه، وتضحك بين لحظة وأخرى وهي تنظر إليه، وكأنها تذكّر شيئاً يخصه ولا تريد إخباره به. ثم سمعا صوت أغنية يأني من وراء النافذة، ربما هو راديو أو أحد سكان الشقق المجاورة وقد رفع صوت الأغنية؛ فิروز وهي تتقول «أنا صار لازم ودع肯».

ظلّ علي يأكل وصوت ما ثابت وعميق في أعماقه يزاحم فیروز يخبره بأن عليه ألا يصدق أي شيء مما يجري حوله الآن.

- هل حدثت الحرب أخيراً؟ ألا تتابعين الأخبار؟

- وما شأننا؟ تذكّر التعويدة السابعة يا علي «إملأ كرشك، وأمتع المرأة التي في حجرك». إللي هي أنا !

قامت ليلي وببدأ ترقص على أنغام الأغنية الفيروزية التي صار صوتها واضحاً ويملاً فضاء الصالة. تبدو سعيدة، ولم تتحدث عن طفلتها كلّ خمس دقائق، كما كانت تفعل سابقاً. لا تبدو مهتمّة لمضي الوقت، أو لأيّ خطط يمكن أن تقيدها خلال هذا اليوم، أو لاحتراق العالم خارج الشقة. كانت بالصورة المشتهاة التي لن يتخيّل علي أفضل منها.

استرخى في جلسته و شيئاً فشيئاً صار يدفع رأسه إلى الخلف، وشعر بوطأة نعاسٍ ثقيلٍ. أغلق عينيه، ثم حين فتحهما ونهض وجد أنه في باحة الاستراحة في المصحّة، يا الله، كان يجلس على المصطبة الخشبية التي اعتاد الجلوس عليها سابقاً. ظلَّ يتلفت حوله كي يتأكد من أنه المكان نفسه، ثم جذب انتباذه جُرمُ رجلٍ بعيدٍ بحجم إبهام اليد كان عند الحائط البعيد لباحة الاستراحة. كان الرجل ينظر إليه ويدعوه للمجيء عنده. إندفع على بخطواته نحوه وحين اقترب أكثر تعرّف عليه فوراً، إنه العجوز محمد سدخان، ومثلاً ما كان في هذا المشهد الثابت أكثر من مرّة، كان يمسك بأصابعه قطعة طبشور حمراء، وقد أنجز باباً كبيراً بمقبض وفتحة قفل. وصل على إليه وحالما توقف أمام الباب قال له سدخان:

- إنظر إلى هذا الباب، هذا ما سيحرّك من هذا العالم. إنه ليس مقللاً. إدفعه بيديك وسيفتح.

ظلَّ علي ينظر إلى وجه العجوز الضامر، ويحاول أن يتبيّن مدى جديّته بهذا الكلام. أراد أن يخبره بأنها، لو تحقّقت، ستكون مجازفة، ثم كأنه سمع ما يدور في ذهنه، ردَّ العجوز سدخان:

- وما هو الشيء الثمين الذي ستخرسه هنا.

نظر علي إلى الباب المرسوم بالطبشور الأحمر، ثم مذْيده ليدفعه، ومثلاً ما قال العجوز الضامر ما هو يندفع متیحاً فسحةً من ضوء باهر صارت تتسع كلما اندفع الباب إلى الخلف. دخل علي واختفى فيه، ثم تحرّك الباب من تلقاء نفسه لينغلق خلفه بصفقة قوية وصوت عميق.

## الفصل السابع عشر

### بَابُ اللَّهِ

- ١ -

كان عليَّ أن أترك كلَّ شيء على حاله. هذه إرادة الله وهذه حكمته الأكيدة. لا أخفيك أنا أنظر أحياناً أن هناك خطأ ما حصل، فكان يفترض أن أكون أنا الأخ الأكبر وأنت الأخ الصغير يا علي وليس العكس. أستطيع التأكيد على أنني كنتُ أنا من يرعاك. لم تكن تفعل لي شيئاً. لا أتذَّكَرُ أنك وقفت بجانبي يوماً ما. أتعاركُ في المدرسة، أو أ تعرض لجرح أو ضربة بسبب لعبة كرة قدم في الزفاف. كنت تبتسم وكأن هذه الأشياء الجادة التي تحدث لي مجرد توافة بشرية. وكأنك نصفُ إله، لستَ معنِّياً بما نعيش ونعانيه. ولكن مع مرور الأيام اكتشفت أن الغموض الذي يحيط بك ما هو إلا غشاءٌ فارغٌ وتافهٌ لا معنى له. وحينها تيقنت أنني لم أكن أرغب أن أكبر لأغدو مثلك أبداً.

نعم، ربما أنت ساعدتني من دون أن تقصد ذلك. لقد قررت في أواخر مراهقتي وأنا أراك تتسع على غير هدى مع أصدقائك، وزد يحركك هدفٌ واضح، وتأتي غالباً آخر الليل سكراناً وتبدأ بإطلاق الشتائم، أن أكون النسخة المضادة لك. إحتقرت ما تقرأ من كتب لم تعجبني تحليلاتك الغامضة عن الدين ومعنى وجود الإنسان في

هذه الحياة. لم أرحب بتصديق ما تقول، حتى وإن كنت تتحدث بالحقيقة. فلو كنت تعرف الحقيقة فلِمَ لمْ تصنع بها حياةً جيدةً؟ كنتُ أعرف، حين أنظر في عينيك، أنك ويعمق، لم تكن تشعر بأيّ سعادة. لم أفهم لماذا يُتعصبُ الإنسان نفسه سنوات طويلة من أجل أن يغدو في النهاية عاطلاً عن إدراك السعادة!

هربتُ من هذا المصير، ولكنني لم أتخلص منك أبداً. صرت الشبح الذي يرافقني. أعترف بأنني احتجتُ لوجودك أحياناً كي أرى المسافة التي قطعتها بالابتعاد عنك والاختلاف عن خطّك ومسارك. كنت أحتاج النظر إليك لأعرف النجاح الذي حققته. كنت معياري المناسب للفشل الإنساني.

تيقنتُ بمرور الزمن أنك أنت من قرر ألا يقوم بشيء، حتى الوظائف والأعمال التي اشتغلت بها خلال التسعينيات كانت بالكاد تأتي بمورد يُغطي مصاريفك. لم تكن تُخطط لشيء أبعد. أما أنا فكنت على الضد تماماً.

لقد دربّت نفسي طويلاً على تحمل الإهانات والإذلال. كنت على «باب الله». صمدت في سوق الأرض وملبي الشعبي، خلال التسعينيات، أكثر من أيّ شخص آخر. كنت أرى زملائي وجيراني كيف ينهارون بسبب الشمس الحارقة، أو سوء ظروف العمل والواردات الشحيحة. ملاحقة عمّال البلدية لنا، وهم يكسرون وبيغثرون بسطاتنا التي نبيع فيها أشياء زهيدة الثمن. المساومات والرشاوي وغير ذلك. ثم نجحتُ في حشر نفسي مع باعة السجائر بجنبِ خشبيٍّ بسيط وعلى مساحة لا تتجاوز المتر المربع الواحد.

كان وجهي محترقاً من نهارات الصيف اللاهبة وهيأتني متعبة. لم أتمتع يوماً بارتداء ملابس أنيقة، لأنها سرعان ما تذوّي وبقيت لونها

بسبب كثرة الحركة والغبار والأتربة ودخان السيارات والتعرق الغزير. لم تكن حياة الأناقة مناسبة لي، ولا أي شيء مرتبط بالحياة الهائمة. كنت أكافح بيدي وأسنانني، حتى انتقلت لاحقاً، بمساعدة أحد الأصدقاء لبورصة السجائر في الشورجة وسط بغداد.

توسّع جنبي وصار بعرض مترين. كنت أصرّف ثلاثة ماركات لسجائر شهيرة، آخذها من باعة الجملة في عمق السوق. ثم استطعت لاحقاً، بسبب تعاملِي الجيد مع التجار والمتبضعين والمطاولة في الوقف في السوق من الفجر وحتى وقت متأخر من النهار، أن أخسر نفسي في محلٍ صغيرٍ أخذته بالشراكة مع زميل لي في السوق.

أنت تعرف كلَّ هذه التفاصيل، وتعرف أن ضربتي الكبرى كانت مع اندلاع الحرب الأهلية ما بين ٢٠٠٦ و ٢٠٠٧. وتحول منطقة الشورجة إلى ساحة صراع بين المسلحين من الطائفتين، الأمر الذي أدى إلى هروب العديد من التجار في السوق، ومنهم تجار يعملون في بورصة السجائر.

كنت أجازف بالحضور إلى السوق كلَّ صباح، وتعرّضت مررتين إلى إطلاق ناري من قناص مجهول. ضربت إحدى الإطلاقتين على حديد الباب الذي كنت أنحنى لفتح قفله، والثانية هشمت زجاج سيارة واقفة كنت أمراً مسرعاً بجوارها. أنت طبعاً لا تعرف بهذه الحوادث، وحتى لو رويتها لك حينها لكنك نسيتها، فأنت تفترض أنك وحدك المعرض للخطر والآلام.

في النهاية استسلم شريكِي لجوء الرعب السادس وباعني حصّته في المحل وافتتح بالمبلغ الذي أعطيته له محلاً صغيراً في شارع «الداخل» بمدينة الصدر حيث يسكن.

كان أغلب التجار الذين تركوا السوق قد أهملوا الوكالات

التجارية التي كانوا يملكونها، ويسبب ثباتي في ظل الظروف السيئة، صارت شركات السجائر تعتمد على في توريد بضاعتها، ثم انحصرت العديد من وكالات السجائر في يدي.

أخذت محلين كبارين، وتوسّع عملي، ولكنني بقيت على هيأتي التي يعرفها الناس عنّي، بسيطاً ومهذباً وخدوماً للجميع بهيئة ملابس لا تختلف عن هيئة ملابس عامل في السوق. ثم حين هدأت الأوضاع العامة وعاد بعض التجار لمزاولة أعمالهم التجارية، تفاجئوا من تحولّي إلى حوت ابتلع السوق، حسب وصفهم، متغاضين عمداً عن تفصيل مهمٌ؛ فأنا لم أسرق أو أبتز أحداً. لقد جازفت بحياتي من أجل أن أجحّ، وهذه مكاسب مجازفي وجهي وتعبي.

لاحقاً انقضت المساومات مع هؤلاء التجار بأن أورد لهم أنا بسعر الجملة ما يحتاجونه من سجائر، ولم يستطيعوا الاعتراض على هذا الإتفاق الذي كان بكرم مني، وليس استحقاقاً لهم.

## - ٢ -

لم أستطع تقبّل فكرة الانشغال العاطفي بنساء عابرات وجعل العالم يدور حول هذا الانشغال. الحب بهذه الطريقة أمر مدمر يستهلك الوقت والجهد، وعرفت منك، في لحظات الاعتراف النادرة التي كنت تمرّ بها أحياناً، معاناتك مع امرأة معينة. ليست لدى طاقة مماثلة. لذلك فقد حسمت أمري مبكراً وتزوّجت امرأة مناسبة، من دون أن يكون لخيالاتي عن النساء دخل بالاختيار.

أقول لك كلّ هذا كي تعرف، وهو اعتراف مني، بأنني رغم اختلاف الشديد عنك إلا أنك كنت حاضراً في تفاصيل عديدة من

حياتي. لقد ساهمت أنت بتشكيلها وإن كان بطريقة لا تبدو مقنعة بالنسبة لك. لستُ أنموذجاً مثالياً بكلّ تأكيد، ولكنني أشبه الغالية من الناس، وهذا ما يجعلني أعيش بسلام نسي.

هل أتحدث الآن أمامك لأنني بث أشعر بالذنب تجاهك؟ هل لهذه الشرارة علاقة بما سأقدم عليه؟ وهل تركت خياراً لم أتبعه في سبيل أن تنقض من غيبوبتك الطويلة؟

لفترة طويلة كنتُ أشعر أنه من الضروري أن تعود إلى الحياة، لأنني حينها سأتمنّى من معرفة نفسى أكثر. لقد كُنَا متلازمين لوقت طويل، إلى درجة أنني لن أتعود بسهولة على غيابك. وخلال كل الأحداث التي جرت في البلد، كنت أخشى أن أذهب ضحية جراء الأحداث الطائفية، ولكنني ما فَكَرْت يوماً، أنك من الممكن أن تموت. كان وجودك حيّاً وقدراً على التعليق على ما يجري، تشرب شيئاً معى حين تزورنى في محلّ عملي، أو تأتي لتطلب منّي شيئاً، كان هذا أمراً مفروغاً منه، رغم أنه غير واقعي ولا حقيقي. لا أستطيع أن أخسرك، ولكنني تَعَيَّنْتُ يا علي. أتمنى لو أن هناك إمكانية لتقدّر ما سأقوم به.

لقد مضت ثلاثة أشهر وأنت في فراشك، مربوطاً على أجهزة عديدة، والأنابيب تخترقُ جسدك، واحد للتنفس يمرُّ عبر فتحة الترقة، وأخر لسكب السوائل والمأكولات اللينة باتجاه معدتك. أنت لا تستطيع التنفس ولا الأكل، وجسدك يتقرّح بسبب الرقاد الطويل على الفراش. والأطباء يقولون أنك مازلت في منطقة الوعي السابعة. وهي منطقة حرجة، تقع في المنتصف ما بين درجات الوعي الآمنة التي تنتهي عند الدرجة ١٥ وهي للوعي الكامل، ودرجة ٣ وهي للموت السريري. لم أفهم هذه التفصيلة طبعاً. ألا يفترض أن

الموت يعني منطقة الوعي ١ أو صفر؟ ماذا يفعل الميت بوعي  
بمستوى ٣ درجات؟!

على أيّ حال، صرّت خبيراً بكلّ هذه التفاصيل، بسبب إقامتي الطويلة بجوارك خلال النهار. تركت عملاً ومساعدين يديرون عملي في السوق وتفرّغتُ لك، حتى جاءني محمد سدخان، الممّرض العجوز الذي تبرّع بالسهر معك حتى الصباح، ما ترك لي فرصة المبيت في البيت كلّ ليلة.

أتمنّى لو أنك تسمعني فعلاً وتحاول أن تصدق أنني قاتلت من أجلك وخسرت الكثير في سبيل آلاً أفقدك، ولا تنزلق مني أكثر إلى حافة الموت المؤكّد.

كان الممّرض محمد سدخان مهتماً بك جداً، وساعدني بالتواصل مع مؤسسات طبية في الخارج ونجح في الحصول على تقرير دقيق من الأطباء عن حالتك، قضينا وقتاً بانتظار أيّ علاجات، حتى لو كانت تجريبية. كنت أجازفُ بأن أجرّب أيّ عقاقير غير مستخدمة بعد، لاحق أيّ أمل مهما كان.

راسلنا مركزاً طبياً نشر خبراً عن استحداث علاج لمرض الزهايمر تحديداً ولكننا لم نحصل على جواب. ثم وصل إيميل متّأّخر لمحمد سدخان عن كون العلاج في طور الاختبار وأنهم لم يستخدموه بعد على حالات إصابة الدماغ بأضرار جراء الحوادث.

لم أكن أعرف سبب الاهتمام الاستثنائي لمحمد سدخان بك، ولم أرغب باستجوابه. كنت وحيداً وأرحب بأيّ مساعدة، حتى لو كانت من موظف عجوز ربما هو صديق قديم لك.

بعد شهر ونصف يئسنا تماماً من أيّ مساعدة من خارج العراق، ومضت الأيام رتيبة، وصرت للأسفأشعر بالارهاق والضغط النفسي من رعايتك، خصوصاً وأنك لم تبد أيّ استجابة ولو بسيطة تشعرني بأنك تتحسن. سمعت كلاماً كثيراً عن اليأس من حالات مشابهة، وأنها مشيئة الله. ولكن لم أقبل فكرة أنّ مشيئة الله تتضمن قيامي بارادتي الوعية بتزع الأجهزة عنك وتركك تموت. هذه مشيتني أنا ولن أنسها إلى الله.

ثم حصل شيء جديد. جاءني العجوز محمد سدخان ذات مساء وهو يحمل حافظة بلاستيكية من تلك التي يحملون فيها عينات دواء. جلس بجواري في الصالة وأخبرني بأنه إلتقي مع فريق طبي كندي يزور بغداد هذه الأيام واستطاع أن يحصل منهم على حقنة خلايا جذعية خاصة بعلاج أضرار الدماغ. كان علينا المجازفة باستخدام هذه الحقنة معك. وكان من الواضح بالنسبة لي وللعجزو سدخان أنها ستكون الحلّ الأخير. لن تلومني إن أخبرتك بأنني لم أكن أملأ وقتها طاقة نفسية كافية للاستمرار برعاية جسدك المسجّى دون أيّ أمل والى ما لا نهاية.

تركت العجوز سدخان يستخدم هذه الحقنة معك، من دون علم الكادر الطبي في المستشفى. كانت مجازفة أكيدة. لم أكن أصدق أنّ هذه الحقنة الصغيرة ستصنع نهاية لهذه القصة. ولكنني صليت مساء اليوم نفسه، ودعيت الله باللحاح شديد أن يجعل هذه الحقنة، حتى لو كانت مجرد حقنة ماء مقطر، أن تكون سبباً في شفائك. إن له يكن من أجلك، فمن أجلي أنا. موتك سيمثل عقوبة لي، وأنا نه أفعل ما يغضب الله حتى يعاقبني بهذه الطريقة.

أعرف أن بشرًا كثيرين من حولي كانوا يسألون الأسئلة نفسها، بسبب فقدانهم جراء التفجيرات أحّبة وأخوة وأبناء؛ لماذا يُعاقبنا الله؟ إن كان فقدانا لأحبتنا هو نوع من العقاب، ولماذا يختبرنا هذا الاختبار القاسي إن كان اختباراً.

أعرف أن مأسٍ كبيرة حصلت لآخرين، وببعضهم جিرواني. ولكن من حقّي أنا أن أدفع عن نفسي تجربة مماثلة. ولا أملك إلا الدعاء. بقيت أدعو إلى ساعة متأخرة من كل ليلة، وانتظرت أيّ اشارة من الله أنه أخذ دعائي المنفعل والصادق على محمل الجد.

#### - ٤ -

وأنت تطوف يا الله بعينيك، اللتين لا تشبهان أعيني كائن آخر، على مليارات البشر في هذه اللحظة، أجعل لي حيزاً أكثر. أنظر نحو بي بيسي. لست أملك شيئاً يميّزني عن غيري، ولكنني أتمنى أن توقف عيناك عندي للحظات أكثر. أنا عبدك المطيع وأستحقّ منك التفاتة ما. لا تجعلني مثل رقم في حشود الآخرين. لا تتعامل مع مصيري ضمن صورة شاملة عن مصير الجماعات والشعوب والبلدان. يجعلني مميّزاً في مكان خاص وحدّي وتعامل معي بشكل منفرد. أعرف أن هذه أناانية مفرطة، ولكنك أنت يا الله قلت سابقاً أن كلّ إنسان يأتي بمفرده مع حصيلة أعماله، فلماذا أفكّر الآن بالآخرين؟! أني أفكّر بنفسي ولا أخجلُ من هذا، وتفكيري بأخي في هذه اللحظة لا علاقة له بأخي بشكل دقيق. هو لا يهتمُ بهذه الأمور وعلى الأغلب لن يدخل الجنة أبداً. إنه شخص بعيد تماماً عن المعايير التي يريدها الله من الإنسان. ولكن وجود أخي مهمٌ بالنسبة لي أنا، أفكّر بأخي بأنانية تامة. إنه شاني الخاص

والتفكير به جزء من أنايتي، وأتمنى أن تأخذ يا الله هذا الأمر باهتمام أكثر.

أنا مُؤمِنٌ أنك لا تدفع الأمور في هذه الحكاية الكبيرة التي نعيش فيها نحو مسارات عَبَثَة. لديك حكمة بالغة، وقد لا أفهمها في هذه اللحظة، ولكنني أصدق بوجودها. أعرف أنك الأكثر حكمة، ولكننيأتمنى أن تعذر لي جهلي وقصوري، وتحلني بصيصاً من حكمتك كي أفهم ما يجري. لا تدعني غارقاً في جهلي المطبق، ولا تركني فريسةً لمشاعر العبث واللا جدوى.

لدي طاقة محدودة، فأنا مخلوق عاجز يا إلهي، ومن عجزي أنني قد أفشل في لحظة قادمة، نتيجة الضغوط الموجّهة ضدي، فيفهم حكمتك ورحمتك. ولا أعتقد أن هذا أمرٌ يرضيك.

وجه مِرْقَابَكَ السماويَّ يا الله نحوي. حُوْطني بالدائرة الضيقَة لعدسة هذا المِرْقَاب، وانظر إلىَّ وحدِي، واسمع دعائي. تجاهل صخب كل الأدعية واسمع صوتي الضعيف والخافت يا الله.

- ٥ -

صرت مثل المجنون في الصلاة، ولم تفعل حُقْنةَ الخلايا الجذعية شيئاً. ربما كانت مجرد خدعة ومقلب. وكثرة الدعاء قادتني إلى نتيجة محددة؛ ربما أنا لست الشخص المؤهل للدعاء بشكل قوي وفعال بحيث يخترق دعائي حُجَّبَ السماء ويصل إلى مسامع ربّ. اتصلت بأحد الأصدقاء ومن خلاله جلب رجل دين شيعياً ذا ملامح وادعة وصوت خفيض. جاء ووقف عند رأسك في غرفتك بالمستشفى وأمسك بيده اليمنى وصار يقرأ آيات من القرآن وأدعية من الصحيفة السجادية. رقّ قلبي كثيراً وشعرت مع صوته المؤثر

بأنني متهم بأشياء كثيرة، وأنني لم استغفر ربّي بما يكفي لمحو ذنبي العديدة، رغم أنني لا أعرف ما هي هذه الذنوب، ولكنني شعرت بضائقي وضعيتي. شعرت بأن الحياة كلّها شأنٌ تافه.

غادر الشيخ البليغ ذو الصوت المؤثر، ولم يحدث شيءً بعدها. لا يبدو أن الله أهتم كثيراً لهذا الشيخ اللطيف. قال لي صديق في العمل بأنه يعرف رجل دين صوفياً يُقيم في الحضرة القادرية، عمل كرامات كما يردد بعض الأهالي. اتفقت مع هذا الصديق على جلبه للمستشفى بعد مفاوضات شاقة، طلب أن يرافقه عدة أشخاص من معارفه، خوفاً من أن يكون الأمر عملية اختطاف. لم يخبرني بذلك ولكنني حدست به سريعاً. وافقت على كل طلباته، وجلبيته ليقف أمام جسدك الهامد، وظلّ يقرأ من القرآن ويشعل البخور ولم يحدث أي شيء على الاطلاق.

هل تريد أن ترى الجنون وهو يكتمل؟

جاءني محمد سدخان برجل دين كلداني ظلّ يقرأ من الإنجيل، ثم صابئي وضع أغصان آسٍ تحت إبطيك وردد آيات بالأramaية من الـ «كنز ربّه» المقدس. تجاوיבت مع ما قام به ولم أعتراض. لا بدّ أن هناك باباً مناسباً للطرق على الله كي يتتبّه لنا. التجربة يجب أن تثبت لنا أين هو هذا الباب. لا بدّ أن الله يترك لنا آثاراً تقودنا إلى الطريق الصحيح، وبهذه الآثار نتعرّف على استجابات تؤكّد أن هناك صلة بيننا والله، وإنّا سنتنهي إلى اليأس التام، ولا أعتقد أن الله يقبل أن نقطع الأمل به.

جلب لي أحد الجيران قنية ماء من بئر زمز، غسلت بها وجهك وذراعيك ورجليك، ثم سكبت ما تبقى على رأسك، فالعلّة فيه. وبعد مدة جاءتني امرأة مباركة يمتدحها الناس وأحرقت بخوراً وأعشاباً في

طاسة وظللت تلفّ بها حولك. وامتلاً فضاء الغرفة برايحة دخان غير مريحة، ما عمل لنا مشكلة مع كادر الممرضين في الردهة. ومع ذلك لا يبدو أن الله اكرث لها أيضاً.

ومن أحد النازحين من الموصل جلب صديق تاجر قنينة صغيرة قال إنها تحوي الماء المقدس عند الإيزيدية، وهو يؤخذ من عين ماء تُسمى «كانى يسبى» وطلب مني أن أستخدمها.

لقد قمت بكلّ ما يمكن أن تخيله، ليس لأنني صرت مجنوناً، وإنما لأبرئ ذمتي أمام الله. وكأنني أحرق ما تبقى لي من صفحات كتاب الانتظار بسرعة وعلى عجل، كي أخلص من هذه المحنة، فأنت بلام محك الساكنة تبدو مرتاحاً، وأنا الذي أتكبّد هذه المرارة والشعور بالألم.

قمت بكلّ الأعمال المعقوله والمفهومه والأخرى المجنونة ولم يبق لي شيء سوى أن أجلب فرقة موسيقية ما تعزف عند رأسك. أو أعرضك إلى تجارب غريبة. كأن أسكب عليك الماء المثلج أو أجعلك تنھض عنوة، أو أنقل سريرك وأجهزتك إلى الشمس. إلا يقولون أن الشمس هي مصدر الحياة على الأرض؟! ألم يعبدوها سابقاً؟ ربما تبيأ أشعتها الحياة في جسدك من جديد، ولكن الطبيب المشرف على حالتك لن يواافقني على هذه الأعمال بكلّ تأكيد.

الحل الأخير هو اتهام الأجهزة هذه التي تمنحك الغذاء والأوكسجين بأنها تدفعك إلى النوم المتصل. ربما من الأفضل نزعها لتحفيز جسدك على طلب الهواء بشكل مباشر، والى تحريك أحشائك الساكنة والنائمة مثلك كي تطلب غذاء أكثر.

عزمت على عمل هذا الشيء أخيراً. قررت ذلك وحدي. سأنزع

الأجهزة ثم حين أتأكد من تجربتي أعيدها إليك، ولن يعني لي الكثير حينها إن مُت تماماً أو نهضت بمعجزة تجاريبي الغريبة.

- ٦ -

في صباح اليوم الذي قررتُ فيه إجراء تجربتي الأخيرة، وقبل أن أفعل أي شيءرأيتك تنفس. ذهبت راكضاً إلى الممرّضين فجاؤوا وتحسّسا صدرك، ثم اطمأنوا إلى عمل رئتيك فرفعوا جهاز التنفس عنك. كنت تنفس. لقد حدث شيء جديد. نجحت كل تجاريبي في إحداث تغيير وتحسن ما. أصبحت بدهشة بالغة، وبقيت أفكراً أي التجارب هي التي طرقت بشكل جيد على باب الله حتى سمعني وسمع الطرقات وفتح لي؟ هل هي حقنة الخلايا الجذعية؟ لماذا تأخرت كل هذا الوقت؟ أي من الأدعية الدينية فعل فعله يا ترى؟ سجدت شكرأ لله، ثم شعرت بارتباك بعدها؛ هل كان الأمر كله اختباراً لإيماني؟ هل تخليت عن إيماني وصرت أتبع أهواء الأديان والعقائد الأخرى؟ هل يقبل الله مني أن أنزع جلدي من أجل غرض دنيوي، حتى وإن كان هذا الغرض هو إيقاظ شخص عزيز على قلبي من الغيبة؟

إتصلت بمحمد سدخان لأبلغه بالحدث الهام. وحين جاء ونظر إليك أكّد لي بأن هناك تحسناً، وأن معجزة قد حدثت. جلسنا في كافتريا المستشفى وبقيينا نتحدّث ونراجع كل الخطوات التي قمنا بها، وكان من الغريب أنه منعني تفسيراً لم أفكّر به أبداً، حيث قال:

- ربما أنت جمعت كل قطع الباب الذي يجب أن تفتحه باتجاه الله. كل هذه الأديان والعقائد التي وقفت عند رأس أخيك، هي

قطعٌ صغيرةً من الأحجية، شَكَّلت بمجموعها باب الله. طرقت عليه في النهاية وفتح لك.

إستغرقتُ في تأمل كلامه. ربما يكون صادقاً. ربما نحن نخطئ دائمًا في فهم مقاصد الله. هو يقطع باتجاهنا جزءاً من الطريق وعليينا أن نقطع الجزء الثاني بصير حتى يتقي العبد بخالقه.

أعطاني الله دليلاً على الإيمان به. ولهذا يا علي أنا أشكرك. حتى وإن لم تصحُ بشكل كامل من غيبوبتك، فأنت الآن في المنطقة العاشرة من الوعي حسب تقرير الطبيب المشرف. لقد كنت من دون أن تَعْلَمْ، وسيليتي لا اختبار إيماني واكتشاف قوّة الإيمان وفائدته. لقد أفردني الله بسببك في حيز لوحدي، ونظر إلىَّ بعينيه اللتين لا تشبهان عيني شيء. خصّني بنظرته من دون الآخرين، وأشعر الآن بالتميز، وأن الله يحبّني حقاً.

## - ٧ -

رأيَتْ كم نحن متراطمان. رأيَتْ كيف أن وجودك بجواري مهمٌ لحياتي، حتى وإن كنت مجرد جُنة هامدة لا حراك فيها؟ أتمنَّى أنك تحسَّنَتْ بما يكفي لسماع كلّ كلامي هذا. وأتمنَّى إن شاء الله ونهضت من سريرك أن تقدِّر حقاً كلَّ ما فعلته من أجلك. لا تستحق أن ترقد هنا لفترة أطول يا علي. إن كنت تسمعني فانهض يا أخي.

## الفصل الثامن عشر

### بَأْبُ الْحُبْ

- ١ -

عَلِمَتْ ليلي من عَمَّار أن علي استفاق من غيبوبته. اتصل بها على هاتفها وأخبرها بهذا النبأ، متوقعاً أنها ستحضر بسرعة، لكنها ظلّت جالسة بصمت، بعد انتهاء المكالمة السريعة، لعشرين دقيقة مستسلمة تماماً لأثر المفاجأة في الخبر الذي سمعته. كان جانب من ذاتها يُخبرها بثقة غامضة خلال الأشهر السبعة الماضية بأن علي لن يستفيق أبداً. الأمر متعلق بمدى مطاولة عَمَّار مع جسد مسجّى في موت سريري، لا رجاء بنهوه يوماً، والقرار الذي يُمكن أن يتخذه الأخ الأصغر في تحديد يوم وساعة الإعلان الرسمي عن الوفاة.

كانت تنتظر خبراً من هذا النوع، لأنها وضعت نفسها في وضع مشابه. فهي معلقة منذ سبعة أسابيع ما بين عالمين؛ مقامها هنا بجوار أمها في بيت عائلتها بالزعفرانية، أو الالتحاق بولديها في ديترويت بأميركا. وعلى الرغم من كون خبر عودة علي إلى الحياة مفاجئاً وصادماً، إلا أنه يحوي أثر النهاية نفسه؛ نهاية هذا الوضع المتعلق له ولها.

لقد أخبرت علي في آخر لقاء بينهما قبل الحادث بأنه من الأفضل له أن تبتعد عنه. تبتعد مرة أخرى، ولكن هذه المرة بعلم

منه، وليس اختفاء مفاجئًا كما كانت تفعل سابقاً. لا تريد أن تعاقبه على شيء لم يفعله. هي في أعمقها ترحب بأن تكون معه في الأربعين سنة القادمة من حياتهما، تماماً كما في الوصف المرح الذي استخدمه هو أمامها في عدة مناسبات سابقة، ولكنها إن اتخذت قرار البقاء معه فهذا قد يؤدي إلى مقتله، أو لن يستطيعا العيش بهدوء وسلام في أقل تقدير ما دام طليقها حياً. لذلك من الأفضل أن تبتعد الآن. لأنها تريد أن يبقى حياً، وترغب بتصديق أن هناك فرصة أخرى لهما، في وضع آخر أفضل قد ينبعق في فترة ما قبلة.

ولكن، ما كانت تنظر إليه على أنه قرارات «الآن» استمرّ لأسابيع طويلة. كانت قد قطعت التذكرة وأعدت حقائبها، من دون أن تُخبر أحداً، حين سمعت من الراديو وفي تغطيات نشرات الأخبار في التلفزيون، بخبر محاولة اغتيال المذيع ومقدم البرامج الإذاعية علي ناجي. لا شكّ أنه تعرض لمحاولة اغتيال، وهي مع نفسها متيقنة تماماً من الجهة التي استهدفتة. لقد وقع ما كانت تخشى وقوعه.

ذهبت اليه في المستشفى عدة مرات، واطمأنّت أنَّ مهمَّة الاغتيال لم تنفذ بشكل جيد. ما زال الضحية يتتنفس، وربما هناك أمل بأنْ يستفيق ويعاود مسیر حياته المعتادة. أرادت المضي بجدولها المعتاد، الذهاب إلى موعد الطائرة والسفر ومجادرة البلد. ولكن، ماذا لو أنه استفاق في الأسبوع القادم، وسأل عنها؟

سيكون مؤلماً بالنسبة له أن يعرف أن «حياته» تجاهمت الحادث الصادم الذي تعرض له وتركته وسافرت. سيكون فاصلاً مؤلماً آخر في سلوك تعود عليه من ليلٍ. لن تضمن أنه بعدها سيقوى متعلقاً بخيط الأمل بالعثور عليها مجدداً. لن تضمن أنه سيقوى يحبّها، بالوتيرة التي كشفتها السنوات التسع عشرة الماضية. وجدت نفسها

تُعيد ملابسها إلى الخزانة. تُلغى سفرها وتُكيف نفسها مع حالة انتظار مفتوحة. وخلال هذا الوقت الطويل كانت تجد نفسها أحياناً في حالة تشبه المحاكمة الذاتية على كلٍّ ما جرى لها خلال السنوات التسع عشرة الماضية، وبالذات ذلك الجزء في ذاكرتها المتعلق بعلي.

- ٢ -

لقد قالت له باعتبارها فيلسوفة مثله: إنَّ ما يشعرون به الآن كشيءٍ ممِيز هو بسبب الامتناع. لقد راكمَا ذاكرة لشيءٍ ثمين، ليس لأنَّه ثمين بذاته، وإنما لأنَّ الزمان جعله كذلك.

- تخيل لو أننا أحيبنا ببعضنا فعلاً، في تلك السنة الأخيرة من الكلية. ثم تخرجنا وبقيتنا على علاقة، هناك احتمال كبير أننا سنتصادم في لحظة ما، بسبب طبيعتنا المتشابهة. سنكتشف أننا متنافران بسبب الشابه، لا يستوعب أحدنا نواصص الآخر لتكامل.

هناك احتمال أننا سنتجاوز عقبات من هذا النوع ونستمرُّ، ثم نتزوج. أذهب إلى الوظيفة وأنت كذلك، وقد تعمل في السوق مع أخيك، ونكافحُ من أجل البقاء حَيَّين في عراق التسعينيات البائس.

أطفال ومسؤوليات وتراثات عن أشياء يومية ملحة. تكرار في الكلام والانتقادات حول قضايا نصطدم بها. يتلاشى الشعر شيئاً فشيئاً. تملُّ من جسدي وأملُّ من جسدك بعد عشر سنوات أو خمسة عشر عاماً. ندخل في الاعتياد، وفي إكراهات إدامة علاقة نعرف أن تخربيها مكلف.

سنصل في النهاية إلى هذه اللحظة التي أنا وأنت فيها الآن، جالسين وجهاً لوجه، ولكن من دون هذه المشاعر التي تجمعنا الآن معاً.

كان علي يستقبل كلامها هذا على أنه نوع من الاعتذار عن شيء هي رغبت به في أعماقها ولكنها تركته. إنه ليس تفسيراً منطقياً، وإنما مجرد افتراضات. لا أحد منهم يعرف على وجه الحقيقة ما ستكون عليه خياراتهما لو أنهما ظلا معاً فعلاً كلَّ هذه السنوات.

في كل الأحوال تفسيرات ليلي كانت تُبيّن لعلي أنها تقدر كثيراً وجوده الآن، رجلٌ من ماضيها الذي كانت فيه أكثر براءة وأكثر إشراقاً ما زال ينظر إليها وكأنها على صورتها القديمة تلك.

إنه، من دون شكّ، رجلٌ ثمين. لا تصادف أيُّ امرأة رجلاً مثله كلَّ يوم؛ ظل يحبها ويريدها على مدى عقدرين تقريباً. لا يتعلّق الأمر هنا بالإعجاب. فقد يجلس رجلٌ مجھول بجوارها في الطائرة، أو على كرسي قريب في مطعم أو كافteria. قد تُصادف مثل هذا الرجل في مناسبات معتادة ويعجب بها فوراً، وقد يركع أمامها مرتجاً ليعلن دون تحفظ أنه واقع في غرامها. هذا الإعجاب زهيد الثمن تواجهه المرأة دائماً، لكن أن يبقى رجلٌ ما متعلقاً بأمرأة على مدى عقدرين وبالوتيرة والحماسة نفسها، هذا هو الشيء الثمين والنادر. المرأة الغبية فقط من تُضحي برجل يكُن لها مشاعر مثل هذه، خصوصاً حين تكون هي قد تجاوزت سنَ الأربعين، وتقف على رُكام حياة تخربت ولم تكن كثيرة المباحث، وتبدو في شكل من الأشكال وكأنها حياة مغدورة، ومجرد سير في طريق خاطئ لوقت طويل.

تذكّر كلامه بالغ السذاجة حين كانا يتناقشان وهما يشربان العصير في كافteria كلية الفنون. كلامٌ حكيمٌ ومنمقٌ ولكن مليءٌ بالهراء، بسبب أنه غير مبنيٌ على تجربة فعلية. وإنما مجرد دوران في عقل نشط.

- كلُّ هذه البناء جميلات ولكنهن إمّا غبيات، أو يبحثن عن رجل يجعلنه بُرغيناً في ماكنة حياتهن المقبلة.

كانت تريد منه أن يعترف بأنها تثير انتباهه. هي على الأقل لا تبحث عن براغي ما. كانت ساذجة أيضاً لتعلقها لوقت طوبل بهذه الفكرة؛ كسر قناع الغرور الفارغ الذي يجعل هذا الزميل، من دون الآخرين جميعاً، غير معنىً بإطلاق عبارات إطراء أمامها، أو امتداح ما تلبس. كانت تسمع من أصدقائه سخريةهم على كلامه المنمق، وأنه لا يفكّر بالنساء وإن جاء الوقت المناسب فسيبحث عن امرأة تثير عقله ثم روحه وجسده.

- ٣ -

إنه كذاب. كيف لا يفكّر بالنساء؟ إنه معجبٌ بها ومتّيم، ولا يريد الاعتراف بذلك. انتهت لنفسها لاحقاً بأنها صارت وكأنها في تجربة مختبرية. وضعته في خانة ما في رأسها، وصارت تشتعل عليه لترى النتائج. كانت تتحرّش به أحياناً، تملأ أنفه بعطرها. تدعُ شعرها يتناثر على وجهه حين تلتفُ بجواره. تتعمّد إمساك يده وسحبه، تتلامس معه. تريد أن تربكه، تجعله يستسلم، ويخرج من القوقة التي حبس نفسه فيها.

لم تكن مهمّة سهلة، فهو كان غارقاً في خيالاته من جراء الساعات الطويلة التي ينفقها في قراءة الكتب. ولا يتحرّج من قول شيء مهما بدا غريباً أو مضحكاً لمجموعة الأصدقاء الزملاء المعتادة. وكأنه يُلقي عليهم وحيّاً من عالم آخر، وكأنه لا يقدر وجودهم المادي أمامه كبشر مثله، وإنما مجرد أشباح وخطاطات تشبه ما يجول في خياله. فيتحاور معهم وهو يقوم في الحقيقة

بمنولوج ذاتي دائمًا. أخبرهم ذات مرّة بأنه في فترة إستغراقه بالطقوس الدينية، رأى فجأةً ثلاثة أشباح ورديةً باهتة تقف عند رأسه في الصلاة. وكأنها رسلٌ غامضة، أو إشارات من الله. إشارات لم يفهمها.

قالوا له ضاحكين؛ لهذا لم نكذب نحن حين وصفناك بالنبي، لقد نزل عليك الوحي فعلاً. لم يتقبل هو النكتة ورداً عليهم بجدية «لا.. لم ينزل أيٌّ وحي للأسف..» في الحقيقة كنت أنتظره طويلاً ولكنه لم يأتِ» قال ذلك وارتسمت علامات الخيبة على وجهه، وأثار جوابه موجةً ضاحكٍ بين الزملاء.

كانت ليلى متأكدة أنه هو من كان يسخرُ منهم، ويستخدمهم لخلق جوًّ من المرح. وفي بعض الأحيان تنسى ملاحظاتها السابقة وتصدق أنه جادٌ في كلامه فتدخل معه في مبارزة مضحكَة. وكأنهما في برنامج تلفزيوني، يتراسقان بالمعلومات وإظهار من منها أكثر وعيًّا ومعرفة من الآخر. والمحرجُ حين يحدث شيءٌ من هذا أمام الآخرين. كان يتراجع أمامها أحياناً حتى لا يحرجها أمام الأصدقاء، بسبب نبرتها العدوانية وحساسيتها تجاه من يحاول «الانتصار» عليها. صار يتجنب هذا النوع من النقاشات، وما بدا وسيلة لإثارة إعجابه، وتطبيقاً لأحد الأبعاد الثلاثة في المرأة المثالية التي يحملُ بها على، صار مصدراً للنفور من قبله. لم يكن يدرك إنها تريد إثارة إعجابه. ولم تدرك هي أنها ليست بحاجة إلى هذه الألاعيب. كان بالفعل معجبًا بها، ولكنه يخشى تقصير المسافة بينهما، فهي ستقوم باستبداله سريعاً، كما يظن. القلعة مثيرة بالنسبة للقائد العسكري ما دامت لغزاً، ولكن ما أن يتم فتحها سيفكر بقلاع منيعة أخرى. إن ليلى تمر على الرجال، كما يتصور ويتخمنُ، مثل طفل يمرُّ بالألعاب في مدينة

ملاؤ. لن يُقيِّم هذا الطفل طويلاً مع لعبة واحدة. وعلى لا يرى نفسه مجرد لعبة، ولا يريد علاقة مع امرأة بهذا الشكل.

كان عليه، حتى يختبر أوهامه وافتراضاته عنها، أن يجلس معها ويُصارحها بهذا الكلام. فلربما كان مخطئاً. ولكنه بدلاً من ذلك كان يثق بحدسه الشخصي، يثق بأشباهه الورديّة الثلاث التي في رأسه والتي تخبره بأشياء يتعامل معها كحقائق. وهذا كان يكفيه كَنْيَةً وفِيلسوف. وبما يتعلّق بليلي، فهي المرأة الأكثر جاذبية التي رأها في كلية الفنون أو حتى في بغداد كلّها، وهي لهذا السبب، لأنها الأكثر جاذبية، فهي المرأة التي يمكن أن تسبّب له أذى أبلغ من أيّ شيءٍ سيءٍ تستطيع امرأة أخرى فعله. ولليلي تبدو من النوع الذي يمكن أن يدوس على قلبه ويغادر دون شعور بالذنب. لذلك من الأفضل تجنبها، أو ترك مسافة من الأمان معها.

كان هناك شيءٌ جنوني وطفولي وغير معقول بينهما ليس ظاهراً للعيان. وفي لحظات استرخائهما وشعورها بالتعب من هذه المبارزات الخفية، تُحاول ليلي إقناع نفسها أن الأمر مجرد لعبة، ستنتهي في لحظة قادمة بخلقها الإيقاع العام وليس قرارها أو قرار عليٍ الشخصي. كأن يكون مجرد انتهاء الدراسة الجامعية وتخرُّجهم جميعاً وافتراقهم عن بعضهم البعض الآخر.

#### - ٤ -

جاءت الفرصة التي انتظرتها ليلي، ومن دون تخطيط في اليوم الأخير للدراسة وانتهاء الامتحانات. في الاحتفال الارتجالي الذي اقتربه الأصدقاء، بجولة نهارية في مدينة الألعاب. ركضت باتجاه الكابينة التي رَكَبَ فيها علي. المشهد عند علي بالقلب طبعاً؛ فهي

من دعّته للركوب معها، وليس العكس. في كل الأحوال؛ هناك، وسط حفلة الدورانات المتعددة طبعت ليلي قبّلَة مديدة على شفتي علي، [علي يرى الأمر بالمقلوب] ومن لحظتها تغيير كل شيء.

ما بعد القبّلَة ارتفع حجاب ما عن عيني علي. اكتشف بوضوح وهم يتزلون من اللعبة، سائرين بخطوات حذرة على عشب الحديقة بسبب الدوار الذي سببته حركة الكابينات في اللعبة لوقت طويل، أنه يحب ليلي. لم يكن الأمر لغزاً ولا يحتاج إلى تفصيل كثير. إنه يحبها، يحب عقلها المتوفّد، وروحها المرحة والدفق الحيوي الذي فيها، ويحب وجهها وملامحها وشفتيها وجسدها وشعرها وصوتها وكل شيء فيها، حتى تلك الشامة الدائرية الصغيرة بحجم حبة العدس ذات اللون الباهت على الجانب الأيمن من إلقاء رقبتها مع الكتف، يعرفها جيداً ويحبّها. يحبّ مجنونة برج الجوزاء هذه.

كانت ليلي ترکضُ مع بقية الأصدقاء للذهاب إلى لعبة أخرى. كانت تشعر بالانتصار. لقد شاهدت في عيني علي انهياره التام. لقد هزمته. ومثلاً كانت تفعل في نقاشات كافتريا الكلية، حين تدفعه للصمت بسبب غياب الحجّة، ها هو يسير بخطوات بطيئة، تاركاً مسافة بينه وبقية المجموعة من الأصدقاء، فاقداً للرغبة بمشاركة الآخرين، حتى أنه لم يلحق بهم لركوب دولاب الهواء الكبير. وصار ينظر إليها وهي ترتفع إلى الأعلى وتصبح حين تصل إلى أعلى نقطة في الدولاب. ثم تهبط وهي تضحك.

غافلته من دون أن يعلم، حين خرجوا من مدينة الالعب عند العصر، لتأخذ سيارة أجرة مودعة صديقاتها.

عاد في اليوم التالي إلى الكلية ولم يجدوها. ظلّ يبحث عنها طوال الأيام اللاحقة من دونفائدة. من المؤكّد أنها كانت تتتجّنه.

كيف تسلّمت شهادتها؟ حتى إنها لم تحضر إلى حفل التخرج الذي أقامته جامعة بغداد للكلياتها ومن ضمنها كلية الفنون في ملعب الكشافة. مسح علي بعينيه كلَّ المدرجات، وتجرّأً وسأل عنها بعض صديقاتها، ولكنها لم تكن موجودة. لا بدَّ أنها سترافع الكلية ل حاجات عملية تتعلق بالتخرج والتعيين وما إلى ذلك. أنكرت الصديقات معرفهنَّ أين يقع بيت ليلي في الزعفرانية. لم يزرنها سابقاً في البيت. يعرف المنطقة بشكل عام.

صار يتجوّل في شوارع الزعفرانية. أصيب بالجنون فقد اتزانه الفلسي النبوي بشكل كامل. أدرك الآن أنه بحاجة إلى هذا الشيء الذي حدث، من دون الحاجة إلى تفسيره أو وضعه في إطار منطقى مرتبط بالأشياء السابقة واللاحقة. إنه لا يعرف شيئاً ولا يريد شيئاً. إنه ليس حكيمًا ولا فيلسوفاً ولا أي بطيخ. إنه جاهل تمام الجهل ها هنا، لا يعرف إلا شيئاً واحداً؛ إنه يحبُّ ليلي منذ فترة طويلة ويريدها الآن بقوّة.

أراد إخبار عبد العظيم، صديقه المقرب، بما حدث، ليساعده في العثور على ليلي، ولكن، ماذا لو كان عبد العظيم نفسه صديقاً سريّاً لليلي. ماذا لو أنه كان ينام معها ويتمتع بمفاتن جسدها. سيضحك عليه مع نفسه ويطّيب خاطره بأيّ كلمة. يُطْبِطُ على كتفه بأنه طفل فقد لعبته أو سقطت منه في التراب قطعة الحلوى التي كان يلعقها.

عبد العظيم بالذات، لم يكن يُضيّع فرصة لعلاقة جسدية مع أيّ امرأة. لقد نام مع أم سعد الفراشة التي تعمل في الكلية. امرأة كبيرة لا مفاتن لها. كان يقول له دائمًا «أشطب عليها». وكأنه يراكم رصيداً سينفعه لاحقاً. يشطب على النساء، يعمل مع أيّ امرأة يتعرّف عليها،

علاقة جسدية لمرة واحدة. «لا يوجد وقت لعلاقات طويلة. مُر واخترق أكبر عدد من النساء مثل خيط في مسبحة طويلة وخلاص». هكذا كان يقول له.

رجل بهذا الشكل لن يقدر جيداً كلام علي عن الحب، كما أنه من المؤكد لن يفوت بنتاً جميلة وحيوية ولا تبدو متمنعة أمام العلاقات مع الشباب. لذلك هو شخص غير مناسب لاعترافات علي التي تحرق روحه بشواطئ من نيران مستنة.

ظلّ يضطرم بناره من دون مواساة من أحد، ومن دون أن يفهم لماذا فعلت ليلى ما فعلت، ولماذا غادرت واختفت بشكل حاسم بهذه الطريقة.

- ٥ -

شاهدت ليلى، بعد يوم القبلة، علي أكثر من مرة. شاهدته من بعيد، أثناء مرورها السريع للإنجاز شيء في الكلية. كانت تتهرّب منه. لأنها لا تريد خرق التصور الذي ظلت مؤمنة به بشأن العلاقات داخل الجامعة. كان علي آخر قلعة استطاعت تحطيم أبوابها. الشخص الوحيد الذي لم يبد أي إعجاب بها. وجعلته يكشف عن هذا الإعجاب علينا. إنه نصر آخر مناسب لختام الحياة الجامعية. ولكنها لا تحبه. أو، بتعبير أدق، لا تريد أن تتورّط بحبه. ليس شخصاً مناسباً لحياة طويلة. ستساعده القبلة في تغيير بعض مفاهيمه الخاطئة عن الحياة. ربما نفعته هي بعملها الجريء هذا. من يدرى. في النهاية الحياة تنقضي، كما كانت تؤمن. الحياة مجموعة لحظات ملصقة مع بعضها البعض الآخر بشكل عشوائي. لا شيء

يستمرُّ. حتى الأشياء التي تستمرُّ معنا اضطراراً، مثل أجسادنا، فإنها تتحول وتتغير، أي إن محتواها أو شكلها لا يستمرّ.

بهذه النظرة المتطرفة، تحركت ليلى إلى خطوات حياتها اللاحقة، ولم تلتفت إلى الوراء أبداً. قبلت شاباً من الأقارب تقدّم لها، وشجعها أهلهما على الزواج به. كان يملك معملاً صغيراً للحلويات. وبعد مرور سنة على زواجهما منه، أنجبت ولداً، وقرر زوجها أن يسافرا، بسبب تردي الحال وشعوره أن القادم قد يكونأسوءاً. حزما أغراضهما في منتصف عام ١٩٩٦ وسافرا إلى عمان. وهناك أنجبت ابنها الثاني.

ظلت على مدى خمس سنوات تعيش ما يشبه العزلة مع ولديها، وتنامت الخلافات بالتدريج بينها وزوجها الذي يتركها لأيام كي يسافر لقضاء أعماله، ولا يكاد يتواجد معها، وتشك في خوضه علاقات نسائية عديدة. لم تكن تحبه، أو أنه شعور تناهى لديها بسبب سلوك زوجها.

كان زوجها على وشك الإفلاس التام في ربيع عام ٢٠٠١ حين قررت أخذ ولديها والعودة إلى بغداد. طلبت الانفصال من زوجها ثم غادرت، ولم يفكّر باللحاق بها أو منعها.

عادت إلى بيت العائلة في الزعفرانية، مع ولديها العجوزين، وقررت أن تبدأ من جديد، مصححة أخطاء حياتها السابقة. ستبحث عن عمل لتعيل نفسها وطفلتها. كان موسم العطلة المدرسية ما أتاح لها وقتاً للتفكير في ترتيبات الوضع الدراسي لولديها.

خلال ذلك كلّه لم يكن على سوى ذكرى شاحبة بين آلاف الذكريات الغاطسة وشبه المنسيّة. وكان لديها في القابل من الأيام ما يشغل ذهنها أكثر.

في صيف ٢٠٠١ إلتقت ليلى صدفةً، عند باب مكتبة النهضة بشارع السعدون بعد العظيم. كان ملازماً أول في ذلك الوقت، وخلال الأحاديث بينهما، ومع مفاجأة هذا اللقاء غير المتوقع، عرفت ليلى أن علي ما زال حياً و موجوداً في بغداد، وأنه يلتقي مع عبد العظيم وأصدقاء آخرين من أيام الكلية في بيت رجل ثري في المنصور، بما يشبه المنتدى الأسبوعي. لم تفگر كثيراً وقتها قبل تطلب منه الذهاب إلى هذا المنتدى. كان مجرد فضول لا أكثر، ورغبة بتجديد لحظات إيجابية مع أصدقاء قدامى.

كان زوجها في تلك الأوقات يتصل ببيت عائلتها، ويحاول إصلاح الموقف الذي حصل بينه وليلي. أخبرهم بأن ملفه للجوء الذي قدمه للأمم المتحدة من سنوات قد قُبِلَ، وأنه سُجِّل العائلة كلها معه، ويفترض أن يسافروا في غضون شهرين، وعلى ليلى العودة إلى عمان مع الولدين.

سمعت ليلى كلَّ القصة، ولكنها رفضت استقبال اتصاله الهاتفي والحديث معه، ورفضت فكرة اللجوء وأيَّ شيء يمكن أن يجعلها تعيش حياة مشتركة مع هذا الرجل مرة أخرى.

شاهدت علي في حديقة الدكتور واصف، وشعرت بوضوح أن هذا الشاب ما زال واقفاً في كابينة اللعبة الحديد، رغم مرور أكثر من سبع سنوات على حادثة القُبْلة.

مررت بضعة أشهر، كان المميّز فيها هو اللقاءات الأسبوعية في حديقة الدكتور واصف، والتي تنتهي عادة بمسيرها مع علي لوقت طويل في الشارع العام، وقد يتلقان على الاستراحة في مكان ما.

يجلسان ليشرثرا، وخلال ذلك لم يتطرق أبداً إلى حادثة القُبْلَة، لم يذكر أمامها شيئاً حميمًا، وحافظ، كان في صورته القديمة أيضاً، على كتمانه لمشاعره، أو الحديث عن أيّ شيء بشكل واضح ومباشر.

كانت تعرفُ بأنه ممتنٌ لهذه المصادفات التي جعلتها تظهر أمامه ثانيةً. كان يحبُّها، وكانت مرتبطة لهذا الانعتاق من حياتها الثقيلة، ولم تفُكْ طويلاً بمعنى ما يحدث لها الآن حقاً. كانت مستعدة حتى لنسوان أن لديها ولدين ومسؤوليات، وأن الزمن مرّ عليها بثقله.

كانت تنزلقُ على زمن أملس لبضعة أشهر. روث قصّة سنواتها الماضية على مسامع علي، وعرفت كلّ شيء عنه. لكنه لم يخبرها بالأعمال الخرقاء التي قام بها من أجل العثور عليها. كان يخجل أو لا يرغب أن يبدو ساذجاً. وعلى وفق إحساسها بالايقاع الذي انتظمت به مع علي في هذه اللقاءات والأحاديث، كانت تتوقع أنها خلال أشهر قادمة ستكون أمام مفترق حاسم. كانت قد بدأت تحبه.

إلا أن المفاجأة كانت بانتظارها في البيت. لقد جاء زوجها من عُمان بجواز مزوّر، مخاطراً بحياته، حتى يقنعوا بالعودة معه. كانت عودته بجوازه الأصلي إلى بغداد تعني إبطال ملفه في الأمم المتحدة، لذلك جازف بـجواز المزور. كان عملاً يستحق التقدير.

- الرجل يريد استعادة عائلته، وهو مستعد للاعتذار وعمل أيّ شيء كي ترضي عنه.

قالت لها أمها بلهجة حازمة.

- ما البديل عن حياتك مع عائلتك؟ هل تحملين ذنب حرمان الولدين من أيهما أو أمّهما؟ لماذا هذا الجنون والخبار؟ كلّ الرجال

يُخطئون ويرتكبون الأخطاء، لهذا كانت النساء أكثر حكمة، ولو لاهن لما عاشت الأسر واستمرّت.

قال أبوها بكلمة حكيمة، ولكن من دون أن يحاول الضغط عليها، فهو يحترمها وفخور باستقلالها.

حتى حين جلست مع صديقتها من أيام الكلية «جيـان»، قالت لها الشيء نفسه:

- ما هو المضمون بعلاقتك مع علي؟ أنت تقولين إنه شبه عاطل عن العمل، إنه غير قادر على الزواج منك. وسأقول لك شيئاً من خبرتي؛ سيعيش معك لحظات مجنونة، ثم تفتر حماسته، ولن يكون ملزماً بعدها تجاهك بشيء. سيختفي ويتركك تغرقين في وضعك البائس. هذا النوع من الرجال يحبون أن يبقوا خفافاً. وإلا لماذا لم يتزوج من أيّ امرأة حتى الآن؟

صارت محاصرةً من كلّ اتجاه، وانهارت تماماً مع بكاء زوجها أمامها في صالة بيت العائلة. لن تنكر أنها عاشت معه أوقاتاً جميلة، وأنه كان ينفق عليها دون حساب. وما الذي يضمن أنّ غيره من الرجال لا يرتكبون ذات الأخطاء التي يرتكبها.

ظلّ شيئاً فيها يُمانع، حتى دخل عليها أبوها غرفة نومها ذات ليلة وجلس على الأرض ممدداً رجليه بسبب آلام الروماتزم، واعترف لها بأمرٍ فاجأها:

- أنا كنت أخون أمك. كان طيش شباب. ولكنها غفرت لي. غفرانها هو العقد الذي يربطني معها، وليس عقد المحكمة. هي التي ربّت على كتفي وطمأنّت روحي في كلّ مصاعب الحياة. يجب أن يتسع قلبك ولا تكوني مجنونة مثلّي. كوني حكيمـة مثل أمك.

استسلمت، وانتهى الزمن الرومانسي سريعاً بارتطام حادّ بأرض

الواقع. ولكن ما زال هناك وقت لعمل مجنون وحيد. عملٌ يُرضي المنطقة العميقه في ذاتها، ويترك الخطة الواقعية المحكمة التي أجبرها الآخرون على الدخول إليها، مخرومة في جانب منها، وكأنه باب صغير للهروب، حين يحين الوقت لفعل ذلك.

قالت لصديقتها جيان أنها ستغادر مع زوجها ولديها. سيسافر هو أولاً ثم تلحقه مع الولدين ببضعة أيام. ولكنها ستقوم بشيءٍ آخر؛ ستنام مع علي، تمارس الجنس معه.

إن تركت علي الآن فلن يتبقى منها سوى أشباح القبلة القديمة والتلامسات البسيطة في لقاءاتهما الجديدة، وهذه كلُّها يمكن أن تختفي مع مرور الأيام. قالت لصديقتها أنها تفَكِّر بأنانية، تعرف هذا جيداً. تريده من هذا الرجل ألا ينساها. إن صورتها المعكوسة في أعماقه ثمينة جداً، ولا تريدها أن تختفي، والوسيلة الوحيدة لذلك هي أن تنام معه وتلتجم بجسده، لمرة واحدة على الأقل.

- أنت تستهين أن تナمي معه لا أكثر. لا تخدعي نفسك. قومي بذلك ولكن لا تُعْبِرِي عن الموضوع بكلمات كبيرة.

قالت جيان. ثم صفتَ عدّة لحظات وعادت لتعلق على كلام صديقتها :

- إن كان شخصاً جيداً مثلما تقولين، فليس عليك معاقبته. أن تناامي معه مرة واحدة ثم تسافرين، فهذه ضربة سوط مؤلمة على ظهره. على ظهر رجل يحبُّك فعلاً، لا يتعلّق الأمر عنده بالنوم معك مرة واحدة. ألسْت تقولين أنه يحبُّ عقلك وروحك وجسدك؟

الأمر الذي لم تتوَقَّفْ عنده ليلى طويلاً وقتها، أن الأمر ربما كان في جانب منه لا يتعلّق بعلي ولا شيء يربطها بعلي، وإنما

بزوجها. لم تكن تؤمن بالغفران الذي تحدث عنه والدها. كانت تريد أن تردد الاعتبار لنفسها بطريقتها الخاصة. مع قائمة أخطاء قادمة تتوقعها من زوجها، ستنظر في عينيه حينها وتعطيه الغفران، لأنها انتقمت منه سلفاً.

جرى ترتيب اللقاء في بيت جيان. أمضيا أربع ساعات معاً، ثم غادرًا مثل سكرانين، وعلى يتوقع تكرار هذه التجربة ويلتقي بليلي في أيام لاحقة. لكنها اختفت. وحين حاول الاتصال بها على هاتف بيت أهلها، كان صوت رجوليٌّ خشنٌ يردد عليه دائمًا. لم تكن هناك. واضطرب في نهاية المطاف للعودة إلى بيت جيان، ولكنه لم يتجرأ للطرق عليه. ظل يراقب البيت من بعيد لعدة أيام، حتى شاهد جيان تخرج، ظل يتابعها وما إن اطمأنَّ إلى ابعادها عن المنطقة حتى فاجأها بظهوره، وسارع لسؤالها عن ليلي. أين ذهبت؟

ارتبتكت جيان من ظهوره المفاجئ، وكانت تتوقع تبعات مماثلة للعمل المجنون لصديقتها. أخبرته بأن ليلى سافرت مع زوجها وطفليها، وأن عليه ألا يتبعها، فهي لديها عائلة وأناس يراقبونها. وإن كان إنساناً جيداً مثلما كانت تقول عنه ليلى، فمن الأفضل أن يكتفي بهذا الجواب ولا يبقى يلاحقها في أيام قادمة.

- سافرت؟... كيف سافرت؟

- سافرت. أجبروها على السفر. هي تحبك، ولكنه حكم القوى على الضعيف.

حسمت جيان بهذه العبارة كل التأويلات الممكنة في رأس علي للعمل الذي قامت به ليلى تجاهه. إنها تحبه، وبهذه الطريقة أنت جيان عمل صديقتها، وربطت هذا الشاب بليلي بحبل ذاكرة متين.

في متصف عام ٢٠١١ حصلت على الطلاق من زوجها، الذي كان قد تركها هذه المرة لفترة طويلة، ليس للسفر إلى هنا أو هناك، وإنما للعودة إلى بغداد للعمل في الكابينة الحكومية والإقامة في المنطقة الخضراء.

مضى عليها نصف عقد على هذه الحال، هو هناك في بغداد لا يأتي إلا في الإجازات، وهي هنا في ديترويت تعيش عزلة وشعوراً بالإهمال. وحين إطمأنَّت على دراسة ولديها وأنهما قادران على الحياة من دون إشراف أو رعاية مباشرة منها، طلبت الطلاق، ثم حزمت أغراضها عائدة إلى بغداد هي الأخرى.

كان والدها قد توفي خلال السنوات الماضية، وأمها صارت عجوزاً هرمة، تأتي إحدى أختيها المقيمتين في الشارع نفسه لرعايتها عدة ساعات خلال اليوم، أو تتناول للاقامة معها.

عادت بحقيقة سفر كبيرة، ولكنها مع نفسها تشعر عملياً إنها عادت من دون شيء، سوى خسارة ثمانية عشر عاماً من عمرها. هكذا هي «حياة الآخرين» إذن، تلك التي أجبرت على عيشها. تمضي حياتك من دون أن تشعر بأنك عشت حياتك التي حُصصت لك فعلاً. أو أن هذه الفكرة المتطرفة تحضر في الذهن بسبب تقدُّم العمر ليس إلا، فتشعر بالخسران ولا تلتفت إلى ما كسبناه أبداً.

لم يكن لديها من خطط سوى التخلُّص من حياة زوجها المتضخمة والتي غدت فيها مجرد بُرغٍي صغير. وخلال ذلك لم يكن سلوك زوجها قد تغيَّر. لم يعطها حتى فرصة أن تُربِّت على كتفيه، كما طلب أبوها ذات مرة، فتحاول منحه الطمأنينة. لم يكن بحاجة إلى الشيء الذي تريده منه.

هل يمكن استعادة أي شيء؟ أي أحمق يفكر بهذا؟ لقد جرى نهر الزمن وما عاد من النافع التفكير بإيقاف جريانه أو إعادة خط سيره إلى الخلف.

خلال تلك الفترة، سمعت بالصدفة صوت علي في برنامجه الإذاعي. سمعت شتائمه المقدعة. لم تكن من هواة سماع قنوات الراديو، ولكنها بالخطأ قلبت منظم قنوات التلفزيون إلى القنوات الإذاعية، وجاءت إذاعة «الموقف» أمامها. كان مثل أمر مخطط له بدقة، حتى تملك خيط صلة مع علي.

كان زوجها يعرف بوجودها في بغداد، وكلّف أشخاصاً بمراقبتها سرّاً، وهؤلاء هم من نقلوا له أنها تجلس في كافteria في شارع ٦٢ مع رجل عدة ساعات خلال الأسبوع.

لذلك تظنُّ ليلى، وعلى خلاف تكهنات عمار، أن من أطلق الرصاص على علي في ذلك المساء المشؤوم هم رجال يأترون بإمرة زوجها. لأنَّه وجَّه رسائل تهديد مبَطنة لعلي في برنامجه الإذاعي. ظاهراً بسبب إيراد اسمه في قائمة المشتومين، وعلى لم يكن يعرف وقتها أنَّ هذا المسؤول الذي يستحقُ الشتم هو زوج ليلى. أما باطن الأمر فهو بسبب العلاقة مع ليلى، التي تلقت هي بدورها تهديداً من زوجها، وحملها مسؤولية ما سيقع على علي إن هي استمرَّت بلقائه. لقد آذَّ هذا الرجل بما يكفي، ولا يوجد ما تستطيع عمله الآن كي تعوضه. على الأقل هي قادرة على منع خسائر أكثر، خصوصاً حين يتعلق الأمر بالحياة والموت.

ها هو يستيقظ من غيبوبته. ستتسافر الآن. سيعرف زوجها أنها عادت إلى ديترويت. ستتحمِّي بذلك على من شرّه. ولكن، بقي هناك أمرٌ آخر.

تركت بضعة أيام تمرًّ واتصلت بعمّار. سأله عن وضع علي. قال لها إنه تحسّن كثيراً وهناك علاج وأدوية يتناولها، والأطباء مبتهجون بالحالة التي وصل إليها علي. سأله إن كان قادراً على استعمال التلفون وسماع صوتها والردّ عليها. ففاجأها بأنه جالس بجواره، وهو معها.

سمعت صوت تنفسه، وصار قلبها يدقُّ بعنف كأنها بنت مراهقة. كانت قد رتبت كلاماً محدداً. أرادت أن تقول له بثبات وهدوء أنها سعيدة بسلامته وأنها كانت تنتظر كلَّ هذه الفترة حتى تطمئن على حالته الصحية. وأنها ستتسافر خلال الأيام المقبلة. وكلُّ هذا لصالحه ومن أجله. لكنها حين فتحت فمها وجدت أن صوتها يرتجع. أحست بدمعة ساخنة تهبط على خدّها وهي تقول له:

- حبيبي ..

لم تعرف كم كررت هذه المفردة، ولماذا كانت بهذا الوضع. كانت تمسح دموعها بيدها وتسمع حشراًجة أنفاسه ولا تستطيع إيقاف نفسها من ترديد ذات المفردة بتنغمات متغيرة مع صوت نشيجها:

- حبيبي .. حبيبي ..

## الفصل التاسع عشر

# وَقْتٌ طَوِيلٌ لِلتَّجَوَالِ فِي الْحُلْمِ

- ١ -

خلال أسابيع الغيبوبة السبعة تم إخلاء شقته وتأجيرها لشخص آخر. تصرف عمار ببعض الآثار وباعه، وجلب جزءاً آخر إلى بيته. وحين صار علي قادراً على الانتباه لما يجري حوله، شاهد كتبه تملأً الغرفة التي كان ينام فيها بالطابق الثاني من بيت أخيه.

- أنت لم تدفع لإيجار الشقة لأربعة أشهر، وأنا شخصياً لم أكن أعرف ماذا أفعل، خصوصاً وأنني غير واثق من عودتك إلى الحياة. لم تكن الشقة مفيدة لي بشيء، لهذا سايرتُ صاحب العماره في طلبه. أرجو ألا تكون قد فعلتُ أمراً سيئاً؟ !

- لا... لم أعد أحب هذه الشقة على أي حال، ليست لدي فيها ذكريات طيبة.

قال علي، ثم استعرض مع نفسه أشياء كثيرة في ذاكرته عن الشقة. تذكّر فجأة دفتر التعاويد السابع، فسأل أخاه عن كل الموجودات التي جلبها.

- لم أترك شيئاً أعتقد أنه يهمك. لم أتصرف بأوراقك وكتبك. وهذه هي كلّها كما تراها مرصوفة هنا في الزاوية.

حين أستطيع الحركة والقيام من مكانه، بحث علي بين هذه الكتب والأوراق والدفاتر، فلم يعثر على دفتر التعاوين. ربما سقط أثناء نقل الأثاث أو بقي في الشقة منزرياً وراء سخان الماء في الحمام أو في البالكون أو أيّ مكان آخر. الدفتر موجود بكل تأكيد، ولكن هل يستطيع علي بوضعه الصحي الحالي أن يجري بحثاً مكفأً؟ كان يشعرُ بأن جسمه مفكّك، وأنه لن يعود إلى سابق عهده أبداً. تشوّه قحفُ رأسه، وهناك منخفض واضح لدخول الرصاصة في أعلى جبهته. إنتحر خبرُ صحوته من الموت بين أصدقائه. صاروا يجيئون إلى بيت عمار بين حين وآخر. يجلسون إلى علي وهم يضحكون، ويطلبون منه أن يروي لهم مثلًا ما شاهده في «العالم الآخر». لم يكن هنالك عالم آخر يا أصدقائي، هنالك ستة عوالم أخرى غير عالمنا هذا. أراد علي أن يخبرهم بذلك. ولما كان عمار يجلس إليه ليلاً يتناول الطعام معه ويحدثه عما جرى أثناء غيابه، وما فعله من أجل إعادته إلى الحياة، كان يُخامر علي شعورُ بأنه يجب أن يخبر عمار على الأقل. تحدّث أمامه بشكلٍ مقتضبٍ في البداية عن العالم الستة الأخرى، ولم يسترسل بالتفاصيل. ثم في الليالي اللاحقة روى علي كلَّ التفاصيل التي تخيلها وحلم بها أو عاشها فعلاً، كان يحتاج للتخلص مما يدور في رأسه وأن يثرثر على مسامع أحدي ما. وكان عمار ينصت باهتمام ولم تبدُ عليه أيّ إشارات للسخرية أو التقليل من شأن جدية كلام أخيه. في نهاية الحكاية الطويلة والمتشعبة، صمت علي، وترك عمار يستغرقُ مع نفسه قليلاً قبل أن يردَّ عليه:

- نعم، هذا جائزٌ جداً، ألم تسمع كلام الإمام الصادق عن وجود ألف عالم غير عالمنا وألف ألف آدم غير آدمنا.

بعدها بأيام جاء عَمَّار يَمْلأُ العِمَاسَ، وجلس مع أخيه ليكشف له أنه لم ينس فكرة العوالم السبعة، واحتمالية أن علي مرّ بها أثناء الغيبوبة. روحه تجولت في العوالم الستة الأخرى وعاشت ما عاشت.

- لقد سألت شيخ تميم يحيى. أنت تعرفه، كان زميلاً في الإعدادية، وهو شخص متأنٍ جداً ولديه أفكار غريبة أحياناً ولكنني أثق بعقله. قال بأن تفسير الكلام القرآني والأحاديث القدسية عن السماوات السبع والأرضين السبع الشائع هو أنها فوق بعضها البعض الآخر. يعني هذه السماء التي فوقنا تتراكم فوقها سُلُطٌ طبقات لست سماوات، وكذلك الأمر عن الأرضين. ولكنه يقول بأن الكلام عن «ما بينهما» يشّكّل بهذا التفسير. يعني لدينا سبع سماوات وبسبعين أرضين وما بينهما. أي كل سماء وأرض وما بينهما، أي عالم مستقل بذاته، وهذا يعني أن هناك سبع عوالم، كل عالم له أرض وسماء وما بينهما، وما بينهما هي الحياة بكل تفاصيلها.

- تفسير جميل.

- سبع عوالم وبسبعين حيوانات. ربما مررت بحلمك الطويل بها. لا أحد يُتاح له أن يستغرق بالحلم لشهرين ونصف. وأكيد هذا وقت طويل للتجوال بين العوالم.

- ٢ -

أخبره زملاؤه في الإذاعة بأنهم قاموا بجهدتهم الشخصي بالتحرّي ومحاولة التعرّف على الجهة التي وقفت خلف عملية الاغتيال الفاشلة، وأنهم شّكّوا بجماعة معينة بسبب نوع السيارة الحكومية التي استخدموها المنفذون في يوم الحادث، حسب شهود

عيان إلتقوا بهم. وربطوا كلَّ ذلك بالجهات التي كانت تتصل بمدير الاذاعة وتهدَّد وتطلب إيقاف برنامج علي الاذاعي.

كان عمَّار يسمع كلَّ هذا الكلام، أثناء جلوسه مع زملاء أخيه في غرفته، من دون أن يكون مقتنعاً. لقد أجرى هو أيضاً تحقيقات خاصة به خلال الأسابيع السبعة الماضية، وتوصل إلى نتيجة محددة؛ هناك ثلاثة أطراف، أولها حسون داغر ماضي المسؤول الكبير في الدولة والذي نال نصيبه من الشتائم في برنامج علي الاذاعي، والثاني هو راقد محبي الدين، الضابط الأمني الكبير، والأخ الأصغر للدكتور واصف، والثالث لا علاقة له بالسياسة وإنما هو زوج «بان» موظفة البنك المركزي، وعشيقه علي السريّة.

أضافت ليلى، في إتصال لها مع عمَّار، طرفاً رابعاً؛ إنه زوجها الذي هدَّ سابقاً بقتل علي. ليلى مُصرَّة أنه هو المسؤول الفعلي والوحيد عن عملية الاغتيال غير الناجحة.

في كلِّ الأحوال. هناك أطراف عديدة كانت تريد أن ترى علي ميتاً، وبما أن السلطات الرسمية لم تلق القبض على الجاني، ولا يبدو أنها تستطيع فعل ذلك، فمن الممكن أن تتكرَّر محاولة الاغتيال، لهذا حرَّم عمَّار على أخيه الخروج من البيت، حتى يحين الوقت للقيام بتصرُّف مناسب، لا يعرف عمَّار ما هو، بالإضافة إلى أن علي لم يكن في وضع صحي جيد يتيح له الحركة والخروج، مما جعله يرضخ لمطالب أخيه الصغير.

- ٣ -

لقد عاد إلى الحياة بمعجزة، وبغض النظر عمَّا يدور في ذهنه على مدار الساعة من خيالات وأحداث شارك فيها بالعالم الأخرى،

فإنه لن يعود إليها أبداً. خصوصاً وأنه لا توجد أيّ تعاوين أو أبواب طباشيرية للعبور من خلالها. تأكّد أن صديقه العجوز دكتور واصف ما زال ميتاً، وكان هو صلته الوحيدة بهذه القضية كلّها، إن استثنى محمد سدخان، الممْرض الذي كان برفقته في الأيام الأولى من الإفاقه، ثم اختفى بعدها. ومع اختفاء دفتر التعاوين، بقيت جرة أبو صلابيخ، عليه أن يُراجع المتحف كي يتأكّد من وجودها. هي مكسورة ولا بدّ أنهم يحتفظون بها على هيأتها هذه.

ولكن، لم هذا العبث؟ حتى لو وجد الجرة فكيف سيتمكن من نسخ التعاوين التي على جدارها الداخلي؟ لن يسمحوا له بهذا الأمر أبداً. ثم إن تمكّن من نسخ التعاوين كيف سينقلها إلى العربية ويُفسرها، كيف وبأيّ ترتيب يقرأ التعاوين وكيف يكشف سرّها؟ ثم إن نجح في اجتياز كلّ هذه العقبات فما هو الهدف الذي يسعى إليه؟ «العودة إلى ليلي في العالم الذي شهد مقتل صديقه صاحب الانقلاب. العودة إلى جسد مشوه بسبب حريق الانفجار، ولكن بروح مطمئنة وجدت من يحبّها، مهما بدت وبأيّ صورة كانت».

كانت مشاعره السلبية تستعيد لياقتها. إنتهى نسبياً حال الابتهاج بالنجاة من الموت، وعبره موقفاً عجيباً لن يتمكّن كثيرون من عبوره. إنتهى سحر الحالة الغريبة والشاذة لميت سريري يستيقظ من موته فجأة.

- بالتأكيد فترة العلاج الطويلة، والأدوية التي استخدمها الأطباء أسهمت في تنشيط المناطق المتضرّرة من دماغي.

قال علي وهو يُجادل أخيه، ولكن عمّار ظلّ مصراً أن هناك معجزة إلهيّة في الموضوع.

- باب الله تجمَّعت أجزاؤه من دعاء كلِّ العقائد والأديان.
- طرقت أنا على الباب في الوقت المناسب فانفتح.
- وبماذا تؤمن الآن؟ هل صرت تؤمن بكلِّ العقائد والأديان؟
- لا طبعاً. أخاف أن أغادر إيماني، لكنني صرت أحترم الإيمانات الأخرى بدرجة أكبر. بقاوتها كل هذه القرون والسنين ليس عبثاً. هذه إرادة الله، وعلىي إن أحترمها. ليس العالم لي أنا فحسب ومن يؤمن بعقيدتي. هذا عبث وجنون، وتعالى الله سبحانه عن عبث مثل هذا.
- جيد.. صرت مفتوح العقل الآن يا عمَّار.
- آه. ولكن عليك أن تصدق ما أقول.
- إذا اصرَّت على أن أصدق ما تقول ستعود عمَّار القديم، سيعود العقل المغلق.

#### - ٤ -

إستعاد عمَّار لاحقاً شريحة هاتف على التي توقفت بسبب عدم الاستعمال. وكان أول ما فَكَّر به علي حين أمسك بتلفونه هو رقم ليلي. صار يتصل بها كلَّ يوم، ويتوسل بها أن تأتي إلى بيت عَمَّار، وهي تخوَّف من القيام بشيء مماثل.

كانت قد مضت عدة أسابيع على تحسُّن وضعه الصحي، وكان يفترض بليلي أن تسافر، فهذا ما كانت تخطط له. لم تعد قادرة على تحمل محاصرة طليقها، المسؤول المتندَّد بالدولة، والذي لا يريد لها أن تبدأ هنا أيَّ حياة فعلية.

كان علي يريد رؤيتها، ولم يُخبرها أنه يريد أن يُطابق بين صورتها الحالية وصورها التي رافقته خلال أشهر الغيبة الطويلة.

وكانت تردد أن زوجها يراقبها. لقد ملت من زياراته المفاجئة لها في بيتها واستئناف مواجهات من العراق والشوكوك وتبادل الاتهامات والكلام عن حريتها الشخصية وأنها لم تعد مرتبطة به وما إلى ذلك. وما دام هو هنا في بغداد قوياً وذا صلاحيات فلن تستطيع الاقتران بعلي أو أي شخص آخر، وستظل حركتها مقيدة وسيبقى طليقها يلاحقها، ليس من باب حرصه عليها أو الغيرة والحب وإنما كنوع من الدفاع عن كرامة رجولية متضخمة ترفض القبول بأن يبعث الآخرون بالأشياء التي كنا نملكونا، حتى لو رميـناها في النفايات.

لم يكن يريدها أن تستأنف حياتها من دونه، وإنما تبقى «برغينا» في ماكينة حياته، حتى وإن لم تكن في حياته فعلاً. مجرد بُرغى مهمـل على حافة طاولة، وليس كائناً مستقلـاً له حياته الخاصة. وكثيراً ما كان يردد أمامها حكاية أولادها وأنها أمٌّ ومسؤولة عنهم، فترد عليه بأنهما صارا بالغين ولهمـا حياة مستقلـة، ولن يرغبا بكل تأكيد أيـّ وصـاية، ولن يمانعا أصلـاً ان تكون لأمهـما حياتها الخاصة.

- هذا صداع شديد يا علي.. لا أضمن أنه سينتهي قريباً. كان قد علم بصعودي معك إلى شقتك، ويقيـت لـأسابيع وأنا أدفع عن نفسي أمامـه وكأنـي متهمـة، وكلـ ذلك خـشـية أن يتعرـضـ لكـ. وسأقول لك شيئاً؛ إنه هو من قـامـ بـمحاـولةـ اـغـتـيـالـكـ. أنا مـتاـكـدةـ منـ ذـلـكـ. رغمـ أنـيـ وـاجـهـتـهـ وـأنـكـ،ـ لـكـنـتـيـ مـتاـكـدةـ تـامـاماـ،ـ وـأـعـرـفـ أـنـهـ مـسـتـعدـ لـتـكرـارـ الـمـحاـولةـ مـنـ جـديـدـ مـنـ دونـ أـنـ يـرـفـ لـهـ جـفـنـ.ـ إـنـهـ مـجـنـونـ وـمـجـرمـ،ـ وـالـحـلـ الـوـحـيدـ لـلـخـلـاصـ مـنـهـ هـوـ أـنـ يـمـوتـ.

قالـتـ لـيلـىـ ذـلـكـ بـحـنـجـرـةـ مـرـتـجـةـ وـهـيـ تـنـظـرـ إـلـىـ وجـهـ عـلـيـ عـبـرـ شـاشـةـ السـكـاـبـ،ـ وـتـرـىـ وجـهـ الشـاحـبـ وـالـضـامـرـ وـكـانـهـ انـقـلـبـ إـلـىـ كـائـنـ آـخـرـ لـاـ تـعـرـفـ تـامـاماـ.

- على الأقل أراك قبل أن تさافر. وبعدها نتظر ما سيحدث ..
- أريد أن أراك أمامي وأمسك.
- إنه يراقبني بشكل يومي، أخشى أنه سيعرف وربما يقوم بعمل سيئ ضدك.
- ليلي .. أريد أن أتأكد أنك موجودة.

## - ٥ -

كان يتكرّر أنه يفتح عينيه مع ساعات النهار الأولى، ليبقى مع ذلك في سريره وقتاً طويلاً، يتقلب من دون أن يجد طاقة للنهوض والقيام، مع زخم صور تراكم على شاشة ذهنه وتشوش إمكانية اتخاذ قرار سريع. وكان عقله اللا واعي يفشل ليلاً في تصفية مقلب النفايات الهائل الذي يتراكم فيه خلال النهار ويُثقل الذهن والإرادة. أو كان البحيرة اللزجة من الأوهام والصور المتداخلة التي كان فيها على مدى أسبوع من الغيبوبة، ترفض أن تعرف بأنه انفصل عنها، وتطالبه بالعودة إليها، وتتجه بنعومة خلال هذه الساعات ما بين النوم والصحو.

شعر بأن مكوّنه في البيت يسهم في جعله قريباً من بحيرة الأوهام اللزجة التي كان فيها. قال لليلى عبر الهاتف باقتضاب إنه سيأتي إلى بيت أهلها في الزعفرانية وللحصول ما يحصل. ظلت تتولّ به أن يؤجّل هذه الفكرة، إلا أنه أغلق الهاتف وأخذ مفاتيح سيارة عمّار وخرج، مستفيداً من عودته ظهراً إلى البيت لينام القيلولة.

اتصلت به ليلي مرتّة أخرى خلال الطريق وتوسلت به أن يلغي فكرة زيارتها. طليقها سيأتي اليوم بحجّة رؤية أمّها العجوز المريضة وسيخوض معها بكلّ تأكيد جولة أخرى من المشاحنات التي كانت

تظنُّ أن الطلاق سيحسّمها وينهيها، ولا تريد من علي أن يكون طرفاً  
يزيد وضعها تعقيداً.

كان صوتها مرتجاً وكأنها تبكي. استسلم علي، وظلَّ يدور  
بالسيارة حتى الليل. تعشَّ في مطعم على نهر دجلة في «العطيفية»،  
وردَّ على اتصالات أخيه القلقة مطمئناً إياه. استنفذ طاقته في التفكير  
غير المجدِي بوضعه وشعر بتعب سريع، وحين عاد تفاجأ بوجود  
الممرُّض العجوز محمد سدخان في صالة بيت أخيه.

## - ٦ -

قال سدخان إنه جاء للسؤال عنه والاطمئنان عليه، وأيضاً لـ  
«توديعه». وحسناً أنه يراه يخرج ويقود السيارة ويتجول، لقد غادر  
أزمه الصحيَّة ويدو بخير.

صعد معه إلى غرفته في الطابق الثاني. وحالما جلس على  
الكرسي البلاستيكي بجوار النافذة المطلة على حديقة الجيران حتى  
فتح يده المطوية على كُرَاس صغير ثم ناوله لعلي:

- لقد طبعوا التعويذات السبع في كراس من هذا النوع، وهناك  
من يوزعها بالمجان في شارع المتنبي. هذا أخذته من أحدهم الجمعة  
الفائنة.

- هذا جنون أكيد.

قال علي وهو يُقلب في الكراس متفاجئاً ويقرأ كلمات صديقه  
الراحل. وظلَّ سدخان صامتاً ينظر من وراء النافذة يُراقب انعكاس  
الأضواء على سعفات نخلة تتارجح ببطء، ثم وكأنه تخَّير كلماته  
بشكل جيد ردَّ قائلاً:

- نعم، الذي يتعلّق بالأمل يمكن أن يغدو مجنوناً في سبيل ألا  
يفقده.

قال ذلك وكأنه يقصد نفسه. مدد علي جسده على السرير من دون أن يشعر بالحرج من ضيوفه العجوز وأغمض عينيه، كان متعباً بسبب جولة ما بعد الظهيرة، ولا يجد في نفسه طاقة لمتابعة قصّة التعاوين من جديد. لقد انتهى منها. إنها من أخلاط الغيبة، غيبوبته هو، وأخر شيء ينتظره ويتمتّأه الآن أن يتصرّف شخصٌ ما كشريك في كوايسه الشخصية؟!

- أريد أن أنسى هذه القصّة يا حاج.. أريد الرجوع إلى حياتي الطبيعية.

- لن تكون طبيعية أبداً.

فتح علي عينيه ثم رفع جسمه بهدوء وصار مستوياً على السرير متكتناً بذراعيه على ركبتيه ونظر إلى سدخان بطريقة تكشف عن إزعاجه ورغبته، في الوقت ذاته، أن لا يؤذّي مشاعر العجوز. وحين شعر سدخان بأن علي صار متكتها له أكثر استأنف كلامه:

- لقد مررنا أنا وأنت بالعوالم الست كلّها. لا تستطيع أن تنكر هذا. لو كان الأمر تجربة خاصة لكان لك أن تقول إنها أضغاث أحلام ومن آثار الغيبة الطويلة. لكن هل أذّرك بكلّ ما جرى بيتنا، بأحاديثنا المشتركة؟ كيف ترى أنها مجرد أحلام وأنا مررت بها أيضاً؟! فسر لي ذلك؟

- أنا أذّرك لأنك قضيت وقتاً طويلاً عند رأسِي أثناء الغيبة تروي هذه الحكايات العجيبة. وأختلط الأمر عندي. إنها قصصك أنت وأنا تمثلتها داخل ذهني الغاطس في الغيبة.

ضحك سدخان من ردّ على ولم يُعلق عليه. بدا واضحاً له أن علي لا يريد الانجرار معه لخوض هذا الحوار.

- لماذا تضحك؟ أو كي.. هناك عوالم سبعة وقد خضينا غمارها سوية، وماذا بعد؟

قال علي فرداً عليه سدخان مصححاً:

- ستة عوالم فحسب.

ثم أكمل وهو يؤشر على أصابع يده:

- العالم الذي نحن فيه الآن. عالم قصي صدام حسين، عالم فالح الأكتع، عالم الانقلاب العسكري، عالم اتحاد الشركات، وعالم السديم. وهو العالم السادس.. لقد أفلتنا العالم السابع ولم نمر به من دون سبب واضح. وهذا في الحقيقة واحد من أسباب مجنيتي إليك اليوم. أريد سؤالك عن العالم السابع. هل لديك فكرة عنه؟

- لا أدرى، ولكن لا أظن أنه سيكون مختلفاً بشيء عن بقية العالم، مسارات حزينة أخرى. مصائب أخرى مختلفة.

ردّ علي، وهو يُسابر قناعات الممرّض العجوز.

- لا.. ربما هو العالم المثالي الذي كنّا نبحث عنه. لديك خمسة عوالم متصلة وتکاد تكون متشابهة في محتواها، ولديك عالم السديم، العالم الرخو جداً، وما دام عالماً رخواً فلا بدّ أن يُناظره عالم معاكس؛ عالم صلب وصلب.

- ربما.

قال علي شاعراً مع نفسه أن ما يسمعه يشبه منولوجاً خاضه مع نفسه فيما سبق، ولا جديد تماماً فيما يسمعه سوى تعزيز أكثر لسلطة البحيرة اللزجة التي هرب منها. نهض ليبحث عن سجائره في حقيبته

الجلدية الصغيرة. وحين وجدها وأشعل واحدة انتبه إلى أن العجوز سدخان كان واقفاً وكأنه يهم بالمعادرة.

- لقد صارت التعويذات الآن في أيدي الجميع، وربما نحن مقبلون على فوضى، أو سيهرب الجميع، كما كنت تقول في برنامجك الاذاعي الليلي.

- هذه التعويذات في هذا الكُرَاس محرفة وفيها اضافات، وهي أطول بكثير من تلك التي كتبها الدكتور واصف، كان يمكن أن تشغل صفحتين في دفتر مدرسي على الأكثر. ثم إنني كنت وقتها أمزح يا صديقي. شبه سكران وأهدر بأي شيء فقط من حرقة قلبي، أما الآن فما عدت مهتماً. ثم ما الذي يؤدي إليه الهروب الجماعي من هذا العالم؟ سيفقدون ذواتهم المتفردة ويتحولون هنا إلى خرفان في قطيع. ولكن، أليس هذا واقعاً نعيش هنا أصلاً؟!

## - ٧ -

نزل علي مع سدخان إلى الطابق الأرضي ثم رافقه سيراً إلى الخارج. وبعد بعض دقائق توقف العجوز عند رصيف الشارع ومد يده إلى علي مصافحاً:

- أنا كنت أريد الاطمئنان عليك، فلربما لن نلتقي ثانيةً. سأقوم الليلة بمحاولة للبحث عن العالم السابع... أتدرى.

قال سدخان وهو يرفع وجهه مبتهاجاً بوجه علي وكأنه إلتقاط للتو فكرة نادرة:

- يُخَيلُ إِلَيَّ أَحياناً.. أن ترتيب العالم غير صحيح.. لا يبدأ تعداد العالم مثناً. العالم السابع ربما هو العالم الأصلي والواقعي، ربما هو العالم الذي، بغض النظر عن أي شيء، يفترض أن نعود

إليه، عالمنا الحقيقي. ونحن الآن في غيبة عالم شبحي، وعلينا أن نستيقظ منه.

- الآن تتكلّم وكأنك الدكتور واصف في أيامه الأخيرة.. إحدر أيها العجوز!

قال علي ساخراً، قبل أن يغادر سدخان ثم بعد بضعة خطوات إلتفت وقال رافعاً صوته:

- تذَّكَّر. لا تمحُ باب الطباشير المرسوم على الحائط. أنت لا تقدر كيف أنه انقذك من الموت المحقق أكثر من مرة، وربما تحتاج لهذا الباب في المستقبل.

## الفصل العشرون

### بَرِيدُ الْمَوْتِ

- ١ -

كان «أمير» أخي الوحيد. مع خمس إخوات. كنت الأخ الأكبر، وكان ترتيب أمير ما قبل الأخير، مع اخت توأم «ريم» جاءت بعده بدقائق. وظهر بوضوح بعد مدة أنها تعاني من مشاكل صحية، ورافقتنا العلاجات والأدوية منذ شهورها الأولى.

أمير ساعدنا فيما بعد على الاستمرار بالحياة. أو هكذا يحب أن يصور لنفسه. غالباً ما كان يرافقها في كل تفاصيل حياتها. جعلها تكمل دراستها. كان يرافقها أينما تذهب. كان مصدر قوتها، وأيضاً بشكل من الأشكال، مصدراً للحياة في بيتنا ذي المئة وأربعين متراً في قطاع ٣٣ في مدينة الثورة.

لن تفهم يا علي أبداً كيف كُنّا نعيش. ما هي الوسائل التي اتبعتها أمي من أجل أن تضع طعاماً على المائدة ثلاثة مرات في اليوم، في عائلة من ثمانية أفراد، قبل أن يتوفى والدي مبكراً بالسكتة القلبية وهو جالس أمام باب البيت يتابع حركة الناس، كما هي عادته، منذ أن تقاعد من عمله في معمل السكائر الحكومي.

كان يدخن بياfracط. ترى السيجارة في يده على الدوام حتى وإن لم يسحب منها نفساً. كل الصور الجماعية بالأبيض والأسود التي

لدينا في صندوق العائلة يبدو فيها أبي وفي يده سيجارة نصف محترقة. وجدنا ثقباً واسعاً في دشداشه بسبب يده المسترخية في حجره مع عقب سيجارة سقط منها وصنع هذه الحفرة، وحسناً أن النار توقفت لسبب مجهول ولم تُحرق جسمه كله.

أول سؤال غريب أتذكّره من أمير، هو عن ارتباط المهنة بعادات الشخص الذي يمتهنها. فما دام أبي يدخن بإفراط بسبب عمله السابق في معمل السجائر، فإن المتوقع أن تصاب أمي بمرض السكري مثلاً لأنها كانت تبيع الحلويات على بسطيتها أمام باب البيت. كذلك فإن الجندي، حين يحيى وقت موته، حتى بعد انتهاء الحرب، سيموت بإطلاقه من رصاصة ما، بسبب شحذار، أو ربما عن طريق الخطأ بسبب عدم الانتباه أثناء تنظيف السلاح.

أماً رجل الدين، فإن الله يتکفل بآياته. يتبع الله طريقة إلهية في أخذ روحه، ولا يستخدم الوسائل المعتادة البشرية جداً في القتل والموت. كان يرفعه إليه في السماء مباشرةً، كما حصل مع نبي الله إدريس.

هكذا أخبرتني أمي عن مؤذن «الحسينية» التي في رأس الزقاق. لقد وجده مسجى على سجادته في صلاة الفجر، بعد انتهاءه من الآذان. لم يكن يحضر الكثيرون في تلك الأوقات. شخص واحد دخل ورأى المؤذن على هذه الهيئة المقدسة. ميتاً على سجادة صلاة الفجر.

كيف سأموث أنا؟ لم أكن قد امتهنت عملاً محدداً. تركت الدراسة مبكراً حتى أعفي أمي من أعباء المعيشة، مع مرتب تقاعد صحيح، وأبناء يكبرون وتكبر طلباتهم.

لقد طلبت «ريم» ذات يوم، وباللحاج أن تشتري كماناً لتعزف

عليه. لم نكن نرفض لها طلباً، ويبدو أن منظر عازفات بعمرها على التلفزيون كان قد استفزّها، بالإضافة إلى أنها أصلاً لم تكن تُشارك فتيات بعمرها العابهن المعتادة. لذا رغم الطلب الغريب وغير المتوقع فإنه من الممكن أن تشغل نفسها بهذه الآلة الموسيقية.

كان طلبها أمراً مهماً، ولكنني لم أتعثر على كمان للبيع، حتى أخبرني أمير ذات يوم بأن عائلة في القطاع نفسه الذي نسكن فيه لديها آلة عود قديمة، كان يعزف عليها رب الأسرة قبل استشهاده في القاو. ولا أحد مهتماً في عائلته بالاستفادة من هذه الآلة.

جرّيت ريم على مدى أسبوع العزف على العود، وفشلّت في استخراج شيءٍ ممتعٍ من ضرباتها العشوائية على الأوّلار. ظلّت تعبث بالعود لشهر كامل ثم أهملته. حتى جاء أمير وصار يعزف أمامها بضربيتين منتظمتين على الأوّلار. كان قد انتبه لعازفين يظهرون على التلفزيون مثل علي الإمام ومنير بشير، وتعلّم منهم طريقة احتضان العود، وما يفعلون بالريشة وكيف يضربون بها على الأوّلار، ولكنه لم يكن يعزف بشكل فعلي. في النهاية بدأ هذه الآلة الموسيقية مجرد أداة لشغل جانب من الوقت الكثير الذي يقضيه أمير مع ريم خلال اليوم.

بعد سنوات، كان المشهد ذاته بين ريم وأمير قد تطور إلى شيء لم يكن يتوقّعه أحد. كنّا في منتصف التسعينيات. أمير طالب في المرحلة الثانية في معهد الدراسات النغمية، وريم تكمل ستتها الأولى في كلية الآداب جامعة بغداد.

كانا يجلسان في الصالة مساءً، يُطفئان التلفزيون. أمير يعزفُ وريم تُغنى. لقد طورت خلال سنوات قدراتها، وصارت تغنى بشكل جيد. كانوا يشكّلان ثنائياً جميلاً. غير أنهما لم يكونا يقدمان وصلتهما

الفنية أمام أحد، ما سوى أفراد العائلة، التي تناقص عدد أفرادها بسبب زواج أخواتي، ولم يتبق في النهاية سوى وأمّي مع ريم وأمير. اللحظة الحاسمة جاءت حين قرر أمير وريم أن يظهرا للعلن في حفل للتخريج بكلية الآداب. رفضت أنا وأمّي هذا الموضوع بشدة. إنه شيء يشبه الفضيحة. ولكن أمير ظلّ مُصرّاً على أنهما يقدمان فناً راقياً، مجموعة من الأغانيات الخمسينية، وليس هذه الأغانيات الشائعة اليوم بسبب تلفزيون الشباب.

لم أكن معترضًا على الظهور العلني بحد ذاته، وإنما مجازفة أن يكونا تحت أعين الآخرين. والعروض والإغراءات التي يمكن أن تظهر أمامهما. ونحن في بيته فقيرة. كنت أخشى من التحوّلات الممكنة التي قد تغيّر نمط حياتنا إلى مسارات غير مرغوبة. ولكن، ماذا أفعل مع أخت بجسد ضعيف قضت نصف حياتها مُختلطةً بنفسها في البيت. مع بنت ترى نفسها أقل حظاً من غيرها. والرفض قد يؤدي إلى انتكasse كبيرة لديها، أكثر مما يمكن أن يحصل مع بنت بكامل صحتها.

لم تكن التجربة مثلما توقّعت، كان الارتباط واضحًا على ريم، ولم يعزف أمير بشكل جيد، بسبب الخجل والارتباك أمام العيون المبحلةة ووجود خلل في الأوتار كما أدعى، ولم يكن الجمهور، وجذبهم من طلبة الجامعات، مُنشداً إلى الأغانيات التي قدمها، وطالب بعض أصدقائهم ساخراً أن يرافقهم عازف على الإيقاع، ويقدموا أغانيات أحدث.

لم تنجح التجربة ولكنها لم تفشل أيضاً، غير أن الأثر الذي خلّفته هو شعور أكثر بالعزلة لدى ريم، لأنها مرتبطـة نفسياً مع أمير، فكان هو الآخر واقعاً تحت تأثير المشاعر السلبية التي كانت تسيطر

على ريم، إلى الحد الذي صارت ترفض فيه أن تشارك أمير في الجلسات المسائية المعتادة للتدريب على الأغانيات القديمة. كانت تقول له إنها منشغلة بالقراءة، تريد إكمال هذا الكتاب الجديد. ت يريد أن تكتب، تتبع فيلماً جديداً على التلفزيون.. إلخ.

- ٢ -

كُنَّا في تلك الفترة نعيش «نسياناً لله». لم نكن نبحث في أي عمل نقوم به عن الشرعية الإلهيَّة. كان لدينا، أنا وأخرون من أمثالِي، تصوَّرات عامة يختلط فيها الدين مع العرف الاجتماعي مع العادات والأوامر الأخلاقية التي تتعلَّمها داخل البيت والأسرة. كان خليطاً مناً من الثقافة الشعبية، الدين جزء منها ولكنه ليس مركزها. وكمثال على ذلك فإن الذنب وارتكاب المعاصي كان ممارسة شعبية شائعة، تُغَلَّف عادةً بوعود تقطعها الذات على نفسها بالتوبَة مستقبلاً. هكذا تتم ممارسة الحياة بكلِّ أشكالها، تلك التي تتفق مع الدين أو لا تتفق، مع تأجيل مستمرٍ للتوبَة. يقين بالتوبَة وفائدها وأهميتها، ولكن ليس الآن.. ليس الآن.. ليس الآن. ليس في هذه الحياة ربما..!

كنت قد حصلت على فرصة للعمل في الأردن، حين كنت أرى أمير يخوض نقاشات كثيرة مع شباب من منطقتنا السكنية، زملاء الطفولة والدراسة الابتدائية والثانوية، وأخرين غيرهم، يجتمعون على لعبة كرة قدم مثلاً، أو يشربون الشاي في المقاهي، ويطلبون من أمير الآ يلعب الدومينو أو الطاولي والشطرنج لأنها ألعاب شيطانية محرامَة.

كنت راضياً بأن لا يُضيئَ أمير وقته وأن يرُكَّز على دراسته، ولم

أكن أتوقع أشياءً أبعد. كان وضع الأسرة مستقرًا حين سافرت طلباً للعمل. كنت أفكّر بإنقاذ العائلة من هذا البيت الذي أكلته الرطوبة والقدم وصار آيلاً للسقوط، ولم يكن لدينا من أموال سوى ما يساعدنا على العيش والأكل والشرب وبعض المتطلبات الأخرى البسيطة، وليس لترميم بيت أو بنائه من جديد أو الانتقال إلى بيت أفضل.

كان البيت الجديد هو هدفي، ولو كلفني هذا سنوات من العمل المرهق والمزعج وتحمل الإهانات.

حين عدت في أول زيارة لي كان هناك شيئاً قد حدثاً في غيابي؛ الأول هو تقدّم شابٍ لخطبة ريم، زميل لها في دراستها، وكانوا ينتظرون عودتي من أجل أن يكون الأمر رسميًّا ومعلنًا، والشيء الثاني هو التحول الذي حصل عند أمير. كان بلخيئة نامية داكنةً وملابس رثة، وكآبة عميقه تُغطي وجهه، بل وتصدر منه مثل إشعاع وتؤثر على المحيطين به، فحالما يدخل أو يجلس حتى يتوجهُ الجو، وتغيب الابتسamas وتنلاشى روح المرح والدعابة، والتي كان أمير هو مصدرها الأساسي بيننا. لقد «تذكّر الله».

كنت أفسّر الأمر في البداية أن هذا من تأثيرات انطلاق ريم إلى حياة كاملة، من دون الحاجة إلى عُكَاز اسمه أمير. لقد فقد أمير جانبيًّا من حياته التي اعتاد عليها، بكونه مفيداً وضرورياً لريم. لقد استبدلته ريم الآن بعُكَاز جديد.

لكني كنت مخطئاً. بالتأكيد لغياب ريم المحتمل في المستقبل تأثير بالغٌ على أمير، غير أن السبب الرئيس في تحوله هو نقاشاته المستفيضة على طاولات مقهى من دون دومينو ولا طاولي ولا شطرنج، مع شباب رافقوه طوال حياته، وصاروا الآن فجأةً

متحمسين لـ «الله» ويريدون من أمير أن يتذَّكره، ليس على وفق الصورة التي نعرفها عن الله، وإنما الله الرسمي والقانوني المسطور في الكتب.

كان هناك معيار محدَّد لإنجاز التحول عند أمير، وهو أن يُكسر آلة العود التي عنده، ويترك العزف بشكل نهائي. لن يدخل هؤلاء الأصدقاء إلى قلب أمير ليعرفوا هل حلَّ الله به أم لا، ولن يستطيعوا القيام بشيء مثل هذا، ولكنهم سيرتاحون حين يرون يديَّ أمير فارغة من الآلة التي اعتاد ملمسها منذ أن كان مراهقاً.

في الحوارات التي دارت بيننا سمعته يتحدَّث بلغة جديدة، وشعرت أحياناً أنه يُحاصرني في زاوية ضيقة، في محاولة منه لجعلني أتذَّكر الله. ولكني لا أشعر أنني نسيت الله في يوم ما، فإن لم أكن أمضي على أوامره ونواهيه بشكل كامل، فعلى الأقل أنا أشعر بالذنب تجاهه حين أخطئ، ولا أرغب أن يُحاسبني على أخطائي سوى الله نفسه. بإمكانني أن أكُمْ أيَّ شخص يتجرأً لمحاسبي على أسنانه، حتى لو كان هذا الشاب الأناني الملتحي ابن مؤذن الحسينية الذي حلَّ محلَّ أبيه منذ أن توفي في ذلك الفجر المقدَّس. وهو على ما يبدو كان يشبه القائد في مجموعة الأصدقاء القدامي لأمير.

لم يكن يهمُّني الأمر كثيراً لو أن أمير كان مرتاحاً وسعيناً. ولكني كنت أهجمُ بالصراع الذي كان يعيشه مع نفسه، بدليل أنه كذب على مجموعته وأخبرهم بأنه حطَّم آلة العود القديمة، غير أنه ظلَّ يحتفظ بها في غرفته، وإن كان بطريقة مهينة، ملفوفةً بكيس طحين فارغ ومرمية تحت سريره الحديدي.

كنت مستعداً وقتها أن أضرب ابن المؤذن في الزقاق أمام الجميع وأدميه وربما أجعله معاقاً إن كان هذا يساعد على تخفيف

التأثير السلبي الذي كان يقوم به تجاه أمير. ولكن هذا سيجرُ مشاكل عائلية، بالإضافة إلى أن الدولة في تلك الأوقات كانت تُرحبُ وتشجّع تحول الشباب إلى الدين. كان الأمر سيغدو وكأنني أتجاوزُ على رغبات الدولة. وبعد هذا وذاك بدا لي أمير وكأنه أمسك بالمقود بنفسه، ولم يعد ابن المؤذن أو غيره مهمًا، كان يُسرع وحده على الطريق الذي فتحه له هؤلاء الشباب. يُسرع بطريقة لا تجعلني الحقُّ به، أو أحاول التأثير عليه بشيء. لم أكن في الحقيقة أملك إجابات مختلفة. كنت أعيش حياة الذنب، وأتمنى في أعماقي أن تأتي في وقت ما لحظة طهارة وصحو مثل التي يعيشها أمير، ولكن ليس الآن، ليس الآن.. ليس في هذه الحياة ربما..!

### - ٣ -

عدت من عمان بعد ليلة رأس الألفية الجديدة ببضعة أيام. كان من الصعب أن أقطع عملي فجأة للعودة سريعاً إلى بغداد. ولكن الخبر الذي تلقيته أنساني كلَّ شيء. لقد مات أمير بسبب سقطة من أعلى السلم في البيت المتهالك الذي لم أنجح باستبداله أو ترميمه بعد. لقد قُتلَ البيت العتيق أخي. عدت سريعاً، مع شعور بأنني ربما قد أفقد عملي بشكل نهائي بسبب هذه العودة المفاجئة التي تركت ربَ العمل متزعجاً جداً وغير مصدق تماماً بحكاية وفاة أخي الوحيد. لم أُحق بالجنازة ولم ألقِ نظرة أخيرة على أخي العزيز. كان الجيران وبعض الأقارب قد تكفلوا بإجراءات الدفن بسرعة. لم يستغرق الأمر إلا نصف نهار لينجزوا كلَّ شيء تحت وطأة تعليمات ابن المؤذن ومجموعته بعدم جواز مبيت جثة الميت في البيت، وإكرامُ الميت سرعةً دفنه وما إلى ذلك من كلام. لم تنفذ أمي رجائي

وطلبي على الهاتف بأن لا يفعلوا أي شيء حتى أصل إليهم. لا بد أن أرى أمير قبل دفنه. كنت سأعرف، بطريقة لا أستطيع تفسيرها، أشياء كثيرة بمجرد إلقاء نظرةأخيرة على وجهه العجيب.

لقد بكى طوال الطريق، وبقيت أبكي مثل طفل صغير لعدة أيام لاحقة. قلب كل أشيائه حتى استند معها الذكريات العاطفية وخرزين الدموع المرتبط بها. وجدت أمي تحتضن آلة العود التي كانت أكثر أوتارها قد تقطّعت. ووجدت ريم صامتةً وباردةً مثل تمثال وكأنها لا تعني ما حدث.

صافحت ابن المؤذن وأصدقاء أمير الآخرين في مجلس العزاء، وصوت في داخلي يخبرني بضرورة أن أقتلهم جميعاً. هم من قتلوه. بشكل أو باخر هم من تسبّب في ضعف ووهن أمير وتحوله إلى كائن هشٌّ قريب من الموت أكثر من قربه من الحياة.

حين رجعت بعد ستين إلى بغداد بشكل النهائي. كشفت لي أمي السر الذي استطاعت مداراته بصعوبة. لقد شنق أمير نفسه ولم يسقط من السُّلْم كما ادعى أمام الآخرين. ثم حكت لي عن كلامه ولقاءاته الأخيرة بأصدقاء جدد. كان قد ترك الدراسة في معهد الموسيقى وترك أيضاً مجموعة ابن المؤذن.

وفي محاولة للفهم انشغلت كثيراً بهذه القضية. عرفت اسمياً واحداً من الأصدقاء الذين كان أمير يلتقي بهم قبل شنقه لنفسه. إنه سنان فتاح، زميله عازف الكمان في معهد الدراسات الموسيقية، الذي يسكن في حي المنصور. بقيت أبحث وأتبع هذا الشخص حتى عثرت عليه. كان قد تخرج منذ زمن ويعمل عازفاً مع فرقة لمطرب شاب جديد، يُعْنِي في الفنادق والمطاعم الفخمة. كان قريباً من أمير فعلاً، وكان هو مع مجموعة أخرى من الأشخاص هم آخر من التقى

بهم قبل أن يقدم على شنق نفسه في البيت. كانت تلك المرة الأولى التي أسمع فيها عن شيء اسمه «جمعية المتتحررين».

- ٤ -

لقد أخبرتك سابقاً يا علي بمحاولاتي الانتقام منك. أنت السبب في تصعيد الصراع النفسي لدى أمير إلى الدرجة التي رغب فيها بمعادرة الحياة. لم يكن مؤهلاً لذلك. كان طاقة وشعلة حياة متوجهة. كيف لمثله أن يموت؟!

كانت هناك تفاصيل في الصورة العامة، ليست مهمة كثيراً عندى. كان يحبّ بشكل سري بتناً من زميلاته في المعهد، هي ذاتها البنت التي كان يعشقها سنان فتاح أيضاً. كانوا زملاء ويعزفون سوية، يخرجون ويدخلون ويتحدون ويأكلون ويشربون، كمان وعود وألة كلارنيت. كانت هذه البنت تعزف بشكل جيد على الكلارنيت، وأباها يرغبان أن تنضمّ في يوم ما إلى الفرقة السيمفونية العراقية.

التفصيل الوحيد المختلف في هذه المجموعة من الأصدقاء هو الفقر الشديد لأمير. ومع ذلك لم تمنع الحالة المادية الجيدة لسنان من التفكير بالموت وقتل النفس أيضاً. ما الذي يجمع شباباً من خلفيات اجتماعية مختلفة وظروف متباعدة على تأييد فكرة واحدة؟ إنه صاحب الفكرة وقدرته على الاقناع. وهذا ما أنت مسؤولٌ عنه يا علي.

علمت لاحقاً أن سنان تزوج من عازفة الكلارنيت، ولم يُشارك في حفلة الموت الجماعي التي كنت تدعوا إليها. وهذا ربما ما جعل أمير يندفع أكثر باتجاه فكرة الموت. سيرى هذه الفتاة كلما سمع عزفاً للكلارنيت في التلفزيون أو المذياع. ستلاحظه، ولن يتخلّص

منها إلا بتخلصه من نفسه. ربما كان الأمر بهذه الطريقة. صرفت وقتاً كثيراً في ترميم القصة المفترضة لما مرّ به أمير في الأيام الأخيرة قبل موته. غير أنني متأكدٌ أن السبب الأبرز هو غسيل الدماغ الذي مارسته على هؤلاء الشباب قليلي التجربة.

الكلُّ كان يُمارس غسيل الدماغ، من ابن المؤذن إلى خطابات الحكومة في التلفزيون، وحين نفرُّ منها لنجلس على مقاعد مقهى ندخن الأرجيلة باسترخاء ونشرب الشاي تأتي أنت لتجلس معنا وتمارس غسيل الدماغ لتقنعوا بفكرك المدمرّة.

أنت لا تختلفُ عن السلطة وابن المؤذن بشيء. كلُّكم تدعونا إلى أن «نتذكّر» فكرتكم ونسى أنفسنا. وللأسف لقد نجحتم جميعاً بهذا الهدف.

أعفتي السلطة من عقاب ابن المؤذن حين اعتقلته في أواخر عام ٢٠٠١ وأعفاني الأميركيان من عقاب السلطة حين جاؤوا واسقطوا النظام كله. ولكنك أنت بقيت عصيّاً على العقاب.

- ٥ -

من بين كلِّ المفاجآت التي حصلت بعد ٢٠٠٣ كنت مندهشاً بدرجة أكبر تجاه الحال التي انتهى إليها ابن المؤذن. لقد خرج من السجن، وصار الجميع ينظرون إليه كبطل. يا إلهي. لماذا لم يدعموه؟ كانت السلطة ت عدم معارضيها بشكل سريع ومن دون أي رجفة في اليد أو وخزة في الضمير. ما الذي حدث لها؟ ربما أصبت بالشیخوخة، أو ما كانت مهتمة كثيراً بهذا التفصيل مع إحساسها بدُنُونها.

كانت الأجواء في تلك الفترة كما تعلم مجونة تماماً، وشعرت

بأن جزءاً من الجنون العام صار يتسرّب إلىي. بقيت أتابع ابن المؤذن، ولم أفهم ماذا أريد منه بالضبط. ربما أضرّيه أمام الآخرين حتى أدمي وجهه واكسر أسنانه. سيكون هذا الأمر مريحاً وكافياً بالنسبة لي، حتى وإن لم يفهم هو السبب وراء قيامي بذلك.

بقيت فترة طويلة أصارع نفسي في محاولة لفهم الدوافع التي تحرّضني على إيذاء هذا الشاب. ثم آمنت في النهاية أنني حتى وإن لم أفهم فعليّ أن أتصرّف.

توصلت في البيت وخرجت فجراً متوجهاً إلى الحسينية التي كان يؤذن بها. وكما توقّعت فإن هرجة الدين والتدين في الشارع لم تكن حقيقة جداً. لقد أصبحت السلطة والدين شيئاً واحداً، وبدأ سوق النفاق على أوسع ما يكون. ولكن، في ساعات الفجر الأولى، لا أحد يصدق تديّن الناس النائم.

كان ابن المؤذن وحده على سجادة الصلاة بعد أن فرغ من الآذان. دنوث منه وأنا أرگب كاتم الصوت على مسدسي، توقفت خلفه للحظات متوقعاً أن يتتبّه لوجودي، لكنه كان مستغرقاً بالصلاحة. مدّت المسدس باتجاهه وبحركة سريعة أطلقت عليه في قحف رأسه إطلاق واحدة، ما دفع جسده للارتخاء إلى الإمام ثم السجود. عدلت رأسه المائل إلى اليسار وأرجعت ذراعيه الممدودين بشكل عشوائي، لجعله وكأنه في لحظة استغراق مع سجدة طويلة. تركته على هذه الهيئة وألقيت نظرةأخيرة عليه من باب الحسينية قبل أن أغادر. كانت ميّة مناسبة لرجل دين، كما في التصور الأول لأمير عن ارتباط الناس بالأعمال التي يمتهنونها.

ظلّ المؤذن فيما بعد يُلاحقني في أحلامي فترة طويلة وأنا أطلق

عليه الرصاص من دون كاتم صوت ولكنه لا يموت، ويبقى يُلاحقني. شعرت في لحظة ما بأنني لن أتخلص منه أبداً وأنني أقترب من الجنون. ولكنني ما أن دخلت دوامة الأوضاع المضطربة، حتى بدأت أتحرّر من مطاردته. لقد شرعت بقتل أشخاص كثيرين، لأسباب مختلفة، حتى ما عاد القتل مميّزاً. فقد هذا الأمر بعد عقد كامل من الاضطرابات ومشاركتي بها، أيّ متعة أو إثارة. لم يعد قلبي ينبض بدقق دم متسارع مثلما كان يحدث في البداية.

في تلك الفترة، ومع أجواء الهدنة وتراجع سوق القتل، والشعور بعدم الحاجة لي، كانت أفكار مجنونة تخطر على بالي. صرت أفكّر بسنان وزوجته عازفة الكلارينيت. صرفت وقتاً كثيراً، من دون أن يعرف أحد، في البحث عنهم. حتى انتهى هذا البحث بمعرفتي أنّهما هاجرا إلى خارج العراق. حصلت البنت الموهوبة على فرصة عمل في الخليج، في فرقة سيمفونية أو ما شابه، وأخذت زوجها وأطفالها معها.

كنت أريد، برغبة غير مفهومة، أن أصفي معهما حساباً متأخراً يتعلق بأمير. وهذا نفسي لاحقاً بفكرة أنّهما لا بدّ أن يعودا في يوم ما. سأكون بالانتظار إن لم يحدث لي طارئ خلال هذا الوقت.

## - ٦ -

في تلك الفترة كنت أستمع لبرنامجه الإذاعي. كنت قد هدأت وبدأت أنسى علاقتي مع السلاح. صرت أهتمّ بأسرتي وأمّي. نقلتهم إلى بيت فخم في البلديات، وأعيش من مرتب جيد من وظيفتي التي حصلت عليها كجزء من حصة الحزب، الذي كنت أخدمه، من الوظائف الحكومية.

صارت متابعتي لبرنامجك الاعاري جزءاً من طقس الاستعادة لأمير. ولكنني لم أعد أكرهك تماماً. لستَ مسؤولاً بشكل فعلي عن رغبة أحد ما بالموت، ربما أنت ساعدت أمير بطريقة غير مباشرة للوصول إلى الهدف الذي كان يفكّر به أصلاً. لكنك لم تُطلق النار عليه أو تربط حبل الأنبوطة التي شنق بها نفسه. حتى حصل ذلك اللقاء غير المتوقع عند مدخل مطعم راوندوز بشارع السعدون. كان لقاءً ودياً. ولكن تحفظك وخوفك والأسئلة التي كانت تتناثر على وجهك بدت واضحة جداً.

حين عدت إلى بيتي في حي البلديات، تناهى في داخلي شعور غريب. كان من الأفضل لو أننا لم نلتقي وجهاً لوجه. لقد استيقظ كُرهي لك فجأةً.

بقيتُ أنازع برنامجك وشائمه، ثم شعرت أنك تريد أن تتحرر. أنت تشنتم بشكل مقدع كلَّ أولئك الذين يملكون جماعات مسلحة ويستطيعون قتلك في الشارع بسهولة من دون أي محاسبة أو متابعة قانونية.

من الذي سيقوم بالمتابعة القانونية والقانون بيدهم والمحاكم والشرطة وكلَّ شيء. هم ينطبق عليهم قول الشاعر «فيك الخصم وأنت الخصم والحكم». كانت عملية قتلك سهلة جداً. لكنك استغرقت لأشهر طويلة من دون أن يعتدي عليك أحد.

في بعض الليالي كنت أشعر وكأنك تنادي على قاتליך. لكنهم يتتجاهلونك. يستخفون بك. يضحكون عليك. كنت ترغب أن تكون شهيداً، ولكنهم لا يريدون منحك هذا الشرف. لقد حزنت عليك وكرهتك وكرهت نفسي وكلَّ شيء. بسيبك دخلت في دوامة مشاعر مختلطة وغريبة. صرت مدمداً على سماحك، وفي الوقت نفسه، كأني

أربى بسماعي لك موقفاً غامضاً. لن يستطيع أحد، حتى زوجتي وأطفالي وأمي العجوز، أن يفهمونه بشكل جيد.

كانت الأسباب التي تدفعني إلى القتل قد تناقضت بشكل كبير. مضت بضع سنوات وأنا لم أضغط على الزناد، حتى من باب تجربة السلاح. ولم يكن الأمر يُعجبني. لم تكن صفة القاتل المتقاعد تناسبني. ولكن لا يوجد سبب يُريح الضمير من أجل القتل.

أهملت سماع برنامجك الليلي لفترة ثم حين عدت، وجدتك وكأنك مصاب بالجنون، تقرأ تعاوين سحرية وتطالب الآخرين جميعاً بأن يقرؤوها ويرددون كلماتها بإيمان شديد قبل النوم حتى يتقلوا إلى عالم آخر أفضل، أكثر عدالة ورحمة.

لقد فسرت موقفك بأنك أنت من كان يريد الانتقال إلى عالم آخر، أكثر رحمة وعدالة، وبالنسبة لي هذه صفات تنطبق على العالم الآخر، عند الله فقط. عن نفسي لم أكن واثقاً أن الله سيرضى عنّي في حال انتقلت إليه. كنت أُؤجّل التوبة إليه على مدى سنوات طويلة، ولا أعتقد أنه ساذج بحيث يصدق نيتّي الفعلية بالتوبة. من الممكن أن يقول لي؛ سأضعك الآن في الجحيم ومارس هناك على مهلٍ هو اتيتك بتأجيل التوبة.

ولكن، من الممكن أن تحظى أنت بالعالم الآخر الجيد، شرط لا تقتل نفسك وتنتحر مثل أمير. أنا سألحق بأمير إلى الجحيم، وسأكون بجواره هناك. هذا يريحني. لا أريد أن أذهب إلى الجنة الفارغة من أمير.

بالنسبة لك، ولأنك جبانٌ و تخافُ أن تذهب إلى الموت بإرادتك، منذ ١٣ عاماً، فلن أصدق أنك خلال العقد التالي ستكون

شجاعاً. لن تأتيك هذه الشجاعة أبداً. كنتُ واثقاً من ذلك. وعلى أحدهم أن يقرّر بالنيابة عنك هذه النهاية.

كنت تتعرّب وراء ما يكرفون الإذاعة. وكان من الضروري أن يتصرّف أحد. وهؤلاء الحُقَرَاء من الساسة وجماعاتهم المسلّحة لن يمنحونك الأمانة التي تريدها. إنهم أشدُّ حقارة من أن يقدموا أيّ خدمة لأيّ إنسان ما سوى أنفسهم.

لمحتك صدفةً قبل مغيب الشمس بدقائق تسير مع صديق لك في شارع السعدون، أثناء ما كنت مع صديق لي في السيارة الحكومية التي أستقلها. طلبت من الصديق السائق أن يستدير من الفتحة في نهاية الشارع ويعود إلى المدخل الذي كنت تتجهُ إليه مع صديقك. وصلنا بعد دقيقة أو أكثر ووجدناك واقفاً تتحدث. لو كنت غادرت لما طارتك. كان مجرد هاجس مرّ سريعاً في ذهني، وكلُّ ما قمت به لاحقاً بدا وكأنه أشبه بالحلم أو عملاً قمت به دونوعي كامل.

كنت هناك واقفاً تنتظرني، وما إن ابتعد صديقك بعشرين متراً. حتى صرُّت بمحاذاتك، فاستللتُ مسدسي ووجهت إطلاقة واحدة إلى رأسك. كنت رامياً ماهراً ولا أخطئ. تفاجأ صديقي السائق من عملي، ولكنه لم يقم بأيّ ردّ فعل، لأنَّه من رفاقي القدماء في السلاح والمهام الغريبة مثل هذه. ربما توقع أن لديّ أمراً ما وها أنذا أنقذه.

سقطت على الأرض سريعاً. كانت إطلاقة قاتلة كما تصورتها. وما أن أثار صوت الإطلاق الناس القليلين في الشارع وبائع السجائر عند الرصيف القريب وفزع صديقك الذي عاد إليك، حتى كبس صديقي على دوّاسة البازين وغادرنا مسرعين.

لم أستطع تقديم جواب مقنع لصديقي الذي ظلَّ يعود ويسألني

على مدى أيام عن هوية القتيل ونوع المهمة التي قمت بتنفيذها، وحين قلت له إنني أوصل بريد الموت الذي كان ينتظره هذا الرجل منذ ١٣ عاماً ليس إلا. ظل صافناً بوجهي ثم أطلق ضاحكة مجلجلة. كنت أستعيد في عيني الصديق صورتي التي نسيتها لبعض سنوات. صورة رجل لا يخاف من الموت ويصنعه لآخرين حين الضرورة.

- ٧ -

أنت تراني هنا فيما تسميه عالم السديم، وربما هذا بسبب أنني سمعت زميلة لك في الإذاعة، بعد غيبوبتك ببضعة أسابيع وهي تردد ذات التعاوين التي كنت تقرؤها. كانت تستذكر آخر ما قرأته أمام ما يكررون الإذاعة قبل إصابتك. ويبعدونني بمعونة منها عبرت بباب السديم.

لو كان أمير أمامي الآن، وكجواب على سؤاله الطفولي عن مهنتي ونوع النهاية المرتبطة بهذه المهنة، لكنني أخبرته: أنا قاتل يا أخي، وقد انتظريني أخوة لإبن المؤذن ذات ليلة وأردوني قتيلاً في الزقاق.

## الفصل الحادي والعشرون

### عالَم سَابِعٌ

- ١ -

كانت ليلى قد حجزت منذ أيام تذكرةً من مكتب الخطوط الجوية التركية في شارع السعدون. ستكون رحلة طويلة ومرهقة حتى ييتها في ديترويت. ولداتها عاداً منذ مدةً من دراستهما الجامعية، وهي تتواصل معهما كلّ يوم عبر الانترنت. أما طليقها فعلى بخطّتها للعودة، واطمأنَّ أنها بذلك ستبقى بُرغيتاً في حياته. وجدت نفسها، وهي في سيارة التكسي أثناء ذهابها للقاء الأخير مع علي، ملزمةً بالاتصال بطليقها. لم ترغب بسماع صوته، لذا بعثت له برسالة نصيّة «ارتح الآن. سأسافر غداً الساعة ١١ صباحاً. دع رجالك يأخذون استراحة من مراقبتي». ذهبت الرسالة ولم تلتَّ ردّاً منه.

ظلّت جالسةً لنصف ساعة على واحد من المقاعد الخارجية في كافيتريا «جايخانة» حتى جاءها علي بسيارة أخيه عمّار. نزل من السيارة وجاء بعينيه سريعاً ومن بعيد على المقاعد وشاهد هيأتها وهي منحنية على هاتفها المحمول تعبّث به. خفق قلبها مثلما في كلّ مرّة يشاهدها، وحين إلتفتت إليه بوجهها، زادت ضرباتُ قلبها؛ إنها بهيأتها نفسها كما داخل أحلامه المعقدة. غمرة فرحة طریٰ كأنه لم ي-

بيده فاكهةً مقطوفةً للتوّ من الشجرة، واستشعر نبضاً غامضاً مدفوناً في  
أعماقه، هو مزيجٌ من الدهشة واكتشاف شيء مفقود.

كان الجُوُر يلسعُ الوجه ببرودة خفيفة تخمدّها أشعة نهار صافٍ.  
صافحها ووَدَّ لو طبع قُبْلَةً على خدّها أو احتضنها. كان بحاجة  
لذلك. لكنه ساير حذر ليلى وكبح نفسه. طلب منها أن يدخلـا إلى  
صالـة الكافـتـريا، سـيـشـعـرـ معـهـاـ هـنـاكـ خـلـفـ الأـرـائـكـ وزـجاجـ وـاجـهـةـ  
المـقـمـىـ، بـحـرـيـةـ أـكـبـرـ، لـكـنـ لـلـىـ أـصـرـتـ أـنـ يـقـيـاـ فـيـ الـخـارـجـ.

- دـعـناـ نـتـنـفـسـ الـهـوـاءـ هـنـاـ.

- وـيـرـاقـبـناـ رـجـالـ زـوـجـكـ بـحـرـيـةـ أـيـضـاـ.

- أـنـتـ تـحـتـاجـ إـلـىـ الشـمـسـ.. بـشـرـتـكـ شـاحـبـةـ.

ابتسمت باقتضاب. وظلت تتملى وجهه وترى فيه علامات  
المكوث الطويل في السرير. كان ضامراً بوجنتين غائزتين. أخبرها  
بأنه صار يُعاني من جملة عوارض غير معهودة لديه سابقاً. ضعف  
مفاجئ في السمع أو البصر، مشاكل في الجهاز الهضمي، ربما  
بسبب الخمول في معدته التي لم يدخلها طعام حقيقي طوال أسبوع.  
وأحياناً تُغطي الظلمة نصف المشهد الذي أمامه، وكان أحداً ما وضع  
حاجباً على عينيه. لا يشعر بالإجمال أنه بخير، رغم أن الطبيب الذي  
يراجعه يخبره بأن حالته تتحسن. ولكن، ما هو معيار التحسن  
الفعلي؟ إنه لا يرى نفسه بخير، هـاـ دـاـخـلـ روـحـهـ عـلـىـ الـأـقـلـ.

- هل كنتِ جادةً بنوایا الموت لزوجك؟ شعرت وكأنك تقدمين  
لي عرضـاـ.

سألـهـاـ مـغـيـرـاـ دـفـةـ الـكـلـامـ عـنـ نـفـسـهـ، فـرـدـتـ:

- أنا مجنة نعم، ولكن ليس إلى هذا الحدّ.

قالت ذلك ثم سرحت بذهنها وكأنها لم ترحب باستذكار زوجها. تأمل على هيأتها، بدا جسدها مشدوداً مع امتلاء بسيط، وشعرها ما زال ناعماً وأسود كما هو شعر هند كامل في الثمانينيات. ما زالت تعتنى به جيداً. ورغم الآثار التي خلفها الزمن على وجهها ويديها، إلا أنها ظلت قريبة من صورتها القديمة لزميلة الدراسة الجامعية، بعينيها المبللتين وابتسامتها التي تكشف عن أسنان دقيقة. هكذا كانت وما زالت، أو ربما هي رؤية علي التي تريدها على هذه الهيئة، أما علي نفسه فتغير كثيراً، خصوصاً مع تجربته القاسية الأخيرة. ولم يقنعه كلام ليلى بأنه ما زال على صورته القديمة.

قال لها إنه يتفهم وضعها، وهو معها في أيّ قرار تتخذه. ويأسف لأنه أجبرها على هذا اللقاء، ولكن عليها أن تصدق أنه، بالإضافة إلى رغبته القوية بأن يكون بجوارها على مدار الوقت، فهو أيضاً لا يريدها أن تغادر من دون لقاء أخير، يساعد على إزاحة كلّ الخيالات والأشباح المرتبطة بها والتي رافقته خلال سبعة أشهر ماضية. هذه الصور الشبحية التي تحدث عنها، بكلّ ما فيها من تفاصيل غريبة وعجيبة، خلال اتصالات هاتفية سابقة مع ليلى.

طلباً كوفي نسكافيه ساخنة، واستمرّا يشرثان. سحبت سيجارة من علبة على الطاولة وصارت تدخّن من دون أن تبلغ الدخان، ومع نفث الدخان صفت قليلاً ثم نظرت إلى علي قائلة:

- أتعرف.. عندما كنت أسمع برناجمك الإذاعي أثارتني التعويذات السبع. كانت قصائد جميلة، وكانت أعتقد أنك أنت من أللها.

- هل جرّيت استخدامها؟

ضحكـت ليلى وهي تضرـب سيجارتها على حافة المنـفـضة:

- أنت فعلاً بحاجة إلى فترة تقاهة أطول يا علي. ليس من إصابة رأسك، وإنما من كمية الأوهام التي غطست فيها.

إنحنت باتجاهه وصارت عينها أمام عينيه وقالت:

- أنا كنت أعرف دكتور واصف جيداً مثلما كنت تعرفه أنت. صحيح إن علاقتك به أقوى، ولكنني عرفته. الرجل كان يريد ضخ طاقة إيجابية فيك. أعطاك هذه التعاويند كي يرفع من معنوياتك. إنها نصائح وليس تعاويند سحرية. من المؤكد هو من ألقها.

- آه.. ممكن طبعاً.

قال علي وهو يريح جسمه على الكرسي ويرسل نظره إلى بعيد. وكأنه يسترجع في ذهنه صوراً بعيدة. فما مرّ به من الصعب أن يُشاركه فيه أحد حتى لو كانت ليلي: شيء يشبه تجارب المتصوفة في الشهدود، يمرّ بها صاحب التجربة وحده، ولا يستطيع نقل تجربته إلى الآخرين. عملية نقل التجربة ستكون عملية تشويه وتخرير للتجربة نفسها. ورغم أن علي قادر على تصديق ما قاله ليلي بشأن اختلاقات دكتور واصف، إلا أن جانباً صغيراً في نفسه لا يريد أن يغلق كل الأبواب. يريد لباب الخرافات والوهم أن يظل مفتوحاً أيضاً، فمن دون هذا الباب كيف يُصدق أنه سينجو من طحن هذا العالم العنيف.

- إنه شيء يشبه كلام الأشباح الوردية الثلاثة التي كانت تقف عند رأسي في الصلاة.

- أيُّ أشباح؟

سألت ليلي.

- لا عليك.. ألا ترين؟.. أن نستمر بهذه العلاقة، وأن نلتقي

في محطّات صنعتها المصايف على مدى عشرين عاماً.. هو أمرٌ  
خيالي أيضاً ويشبه الوهم، أليس كذلك؟

رمث ليلي حسراً مديدة، وصمتت وكأنها تبحث عن ردٍّ تاه  
منها. كانا متباورين فمدّ يدها لتعبر بشعر لحيته الداكن الذي  
خالطه الشيب، متجاهلةً أيّ أعين فضولية للندل في الكافتريا أو  
العايرين على الرصيف بجوار المقاعد الخارجية والطاولات الخشبية  
الدائريّة الصغيرة التي كان يجلس عندها زبائن آخرون.

ثم وكأنها تذَرَّرت شيئاً، سحبّت يدها ثم تنفسَت بارتياح، قبل  
أن ترفع حقيبتها الكبيرة المركونة بجوار أرجل الكرسي. أخرجت  
دفراً أسود صغيراً، وفتحته، ثم نظرت إلى علي مبسمة.  
ـ لقد أعطيتني إيه في آخر لقاء بيننا قبل أن تعرّض للحادث.  
ومنذ ذلك الوقت، أحياناً أرجع لأقرأ فيه.

ـ آه.. كنت أتساءل أين أضعُ هذا الدفتر.. إقرئي.. ربما  
نعبر الليلة سويةً من باب التفاويذ.

قال علي ذلك بأسى، ولكن ليلي ابتسمت. ففي ظنّها ما زال  
هناك وقت حتى مجيء نهايات تراجيديّة مماثلة.

قبل أن تأتي إلى هذه المقهي كانت ليلي تفكّر بأن الوقت الوجيز  
الذي سيستغرقه لقاوها مع علي، هو وقت مخصوصٌ لعلي فقط،  
وستمنع ذهنها من الشرود. مجرد وقت تنفقه في الانتصارات لعلي  
والشعور به، وتدفع عنها أيّ شيء آخر، مثل فكرة أن هناك من  
يراقبهما وهما جالسان هنا. وهي أصلاً أرادت البقاء أمام الأعين  
المراقبة في مكان مكشوف، حتى لا ينقل المخبرون تفاصيل غير  
موجودة أو تخمينات تُعظّم من شكوك طليقها. ورغم إصرارها على  
القطع مع أيّ شيء خارج جلوسها هنا فإنها أدركت بمضي الوقت

أنها لم تكن مع علي مئة في المئة. وأثناء ما كانت ترشفُ من كوب النسكافيه، أو حين تسمع لعلي يروي تفصيلاً مِرَّ في أحلامه، أو عما يُخطط له في الأيام المقبلة، كان تحضر في ذهنها بثقل مزعج صورةٌ مسلحين ينزلون من سيارة تقف بجوار الرصيف أمام الكافteria فجأة، ليوجّهوا إطلاقات مباشرة نحوها وعلي، بناءً على أوامر زوجها المجنون. تكرّرت الصورة ذاتها عدة مرات بأشكال مختلفة، وذهب بصرها سريعاً، مرتين أو ثلاث، إلى سيارات أجرة كانت تتوقف على الرصيف المقابل للكافteria للحظات ثم تغادر بعد أن ينزل راكبٌ منها. فقدت التواصل مع كلام علي أكثر من مرّة، وربما أحسَّ علي بذلك فصمت مكتفياً بالنظر إليها، راضياً بذلك رغم أيّ شيء، حتى دون الحاجة لسؤالها عما يشغل ذهنها، فهو يكاد يعرف كل شيء.

كانت ترغب أن يستمرّ لقاوتها مع علي إلى وقت غير معلوم. أن تبقى تبعث بأصابع حبيبها المرتاحة على ركبته. تمدُّ يدها لتمسح على شعر ساعده، تستعيد بهذه الحركة ذكريات ما من لقاءاتهما الأخيرة في شقة علي، قبل حادثة إطلاق النار وفاصل الغيبوبة الطويل. جزءٌ منها يشتق لهذه الأوقات، ولكنها لا ت يريد أن تثير انتباه علي لهذا الأمر. ليس لأنها لا ترغب بذلك، وإنما لإدراكها أن أيّ تواصل جسدي بينها وعلي في هذه الأوقات سيجعل رحلتها بالعودة إلى ديترويت صعبة ومؤلمة، خصوصاً وأنها، رغم الأمل بأن ترى علي مرّة أخرى، إلا أنها تعرف أنها تبتعد الآن. تبتعد مرّة أخرى، ولن تستطع الجزم مع نفسها بأنه لن يكون ابتعاداً تماماً هذه المرة.

صار الجوُّ أكثر برودة، وشعرت بحزن أن الوقت كان يمضي بسرعة. كان من الواضح لديها أن علي ليس بصحة جيدة، وصارت

تفكير بطريق عودته هو إلى البيت. ظلت الأشياء التي تخرّب عليها عزلتها الجميلة عن العالم داخل «الفقاعة الزجاجية» مع علي تراكم أمام عينيها. سحبت سيجارة نحيفة من علبة سجائر علي وأشعلتها، رغم أنها لم تسحب أنفاساً منها وتركتها تشتعل في يدها، ولكنها رغبت بعمل شيء يُفرغ الانفعالات التي تجمعت في صدرها في تلك اللحظة.

- إقرئي يا ليلي.

قال علي، منتهاً إيّاها إلى الدفتر الصغير الذي كان يسترخي في يدها الأخرى. وضعت السيجارة على حافة المنضدة، ورفعت مجلد الدفتر الصغير وصارت تقرأ في صفحة منه بنبرة متمهّلة، وكأنها تتذوق الكلمات التي تنطقها، مصدقةً للحظة واحدة تعرف أنها لن تتكرّر لاحقاً، بما تقوله هذه الكلمات.

- ٢ -

\* لقد أخبرتني يا «آتو» يا إله السماء وكبير كلّ الآلهة:  
«شاگن هول سا دوگ پوساگ دول، إيگن أيجيجال أبا شاگ  
داب سودگال، أون شوب.»

أن المحظوظ فقط من يصل للهؤة السحرية في ذاته،  
ولكن الحكيم من يُطيل النظر إليها، لا أن يسقط فيها.  
ها أنذا

أسقط في هوّتي، مصدقاً كلامك،  
وأدعى أنني أطيلُ النظر إليها.

\* في ليلة منيرة قال لي «نانـ سين» إله القمر:  
«منزن كيـشـرـ شـوـ آـنـاـ إـيـجيـ گـوبـ شـارـگـادـ،ـ شـوـ بـالـ آـنـاـ إـيـجيـ گـوبـ  
کـورـ شـارـگـادـ».ـ

أنت محكومٌ بما تراه عن العالم. غير ما تراه يتغير العالم.  
وها أنذا أغير العالم كل ليلة، وكأنني «نان» نفسه وهو يستمر  
بعجن قرص ضوئه المنير على سطح بحيرة هادئة.

\* سطع «شماش» إله الشمس في عيني حتى أعماني بكلماته:  
«توگم منزن أك نو أتيـکـوـ بـالـ نـيـ منـزـنـ شـاـگـ هـوـلـ،ـ شـوـدـوـ منـزـنـ  
سوـبـارـ أـلـادـ أـمـ بـارـ سـاـگـ أـوـمـيـاـ»

إن لم تكن لديك القدرة على إسعاد نفسك، فعلى الأقل في  
بدنك وروحك ولسانك ما يسعد الآخرين.

أشرق عليهم كل يوم.. ولا تبخـلـ بـحـيـاتـكـ عـلـىـ حـيـاتـهـمـ.

\* لقد فهمت ما تحرّك به لسانك الرقراق يا «آنكي» يا إله الماء،  
ولكني حين أخبرتهم قالوا إنهم سمعوا ما يشبه هذا الكلام منذ زمانٍ  
بعيد:

«كيندو آ. أك هال نياـگـ. سـاـگـ کـالـ آـبـارـ زـالـ أـكـ شـوـ گـيـ»  
بسـجـ معـ الزـمـنـ. لا تـتـعلـقـ بـالـأـشـيـاءـ. قـدـرـ الزـمـنـ لـأـنـ يـنـضـيـ وـلاـ  
يـمـكـنـ اـسـتـرـدـادـهـ.

\* يا «إنليل» يا إله الهواء، إنهم يطلبون شخصاً عظيماً أو ملكاً  
ينطق بكلامك حتى يصدقـوهـ.  
إنـهـمـ يـرـونـيـ رـجـلـاـ وـضـيـعاـ.ـ لـقـدـ مـلـكـتـ وـتـعـبـتـ منـ الـكـلامـ.  
فـأـخـبـرـهـمـ بـنـفـسـكـ ماـ أـخـبـرـتـنـيـ بـهـ وـحـفـظـتـهـ وـصـدـقـتـهـ:

«زال نامثال ناموش، ناموش نامثال، كيودبا زيا زو كاب زِد دو»  
ذُوب الموت في الحياة، والحياة في الموت. حينها ستعرف  
الطعم الحقيقي لكليهما.

\* لقد أطعْتَ كلامكِ أبئتها الربّةُ الأُمُّ العظيمةُ «كي»:  
«أك نو أك بار دنگر»  
لا تصنع للمجهول إلهاً.  
ولكنّهم يقولون؛ إنَّ المجهول يهجمُ علينا من كلِّ مكان،  
وإن لم يكن له وثُنْ فكيفَ سراها.  
أطعْتَ كلامكِ أبئتها الإلهةُ «كي»، وحَطَمْتُ حتى أوثانك  
العزيزة.

\* حاضرٌ في ذهني ولساني كلامكِ يا «عشтар»:  
«سي مونتنا، بار ساگ مونوس أبا منزن ديرگ»  
إملاً كرشكَ، وأمتع المرأة التي في حجرك.  
ولكنّي لن أستطيع فعلَ شيءٍ إذا لم يسمعوا هُم أيضًا كلامكِ.  
لا أستطيع كسرَ رغيفٍ خبز دون أن أكونَ على مائدةٍ يجلسُ إليها  
الجميع.  
لا طعمَ لقضِمِ الرغيفِ وحدِي في الظلام يا «عشтар».

### - ٣ -

بعد أسبوعين من سفر ليلى، سمع علي خبراً صادمًا؛ لقد قُتل  
زميلٌ له يعمل في التلفزيون. أكتشفت جثته بعد ثلاثة أيام متغفنة في  
مطبخ شقته بإطلاقه في الرأس من الخلف. لم يعرف أحدٌ، كما هو

متوقع، من الذي استهدفه، الأمر الذي فاقم من جوّ الرهبة والفزع لدى كثيرين.

في وقت مقارب هرب «سلوان الصالح» طليق ليلي، إلى أميركا، ملاحقاً بتهم بالفساد. وأشار بعض المعلقين أن سلوان تمت التضييع به في صفقة سياسية بين الأحزاب الكبرى، وإن إدانته العلنية جاءت لترضية الشارع المطالب بتقديم الفاسدين للقضاء، غير أن الحيتان الكبرى بقيت في مأمن. ثم عرضت إحدى القنوات التلفزيونية تقريراً يظهر متهمين بجرائم إرهاب، واعترف أحدهم بأنه كان على صلة بسلوان الصالح، وأنه نفذ بإمرته مهمات تصفيية لمعارضين للنظام السياسي.

بسبب هذه التطورات منع عمّار أخاه من الخروج من البيت. هناك فوضى في الخارج، ولا يريد أن يرى أخاه الأكبر في تقرير تلفزيوني ممدداً على الرصيف.

- لا أريدك أن تُصدق أنك محظوظ وغير قابل للموت. أجلس هنا ولا تفعل شيئاً. إقرأ ودّعن حتى إذا أردت أجلب لك المشروب بنفسي وأعمل لك المزة بيديّ، ولكن لا تخرج من باب البيت الله يرضي عليك.

رغم مبالغات عمّار إلا أن علي لم يكن يفگر بالخروج من البيت أصلاً. كان مشغولاً بمحاولة الاتصال بليلي للاطمئنان عليها. حسب مع نفسه ساعات الرحلة بالطيران، ثم خمن أنها وصلت إلى بيتها في ديترويت حين جرب أول اتصال بها عبر النت. كانت غير موجودة. ظلّ مشغولاً بأمرها بعض الوقت ثم هذا نفسه بالقول؛ إنها ستتصل به بكل تأكيد حين تجد فرصة لذلك، غير أنها لم تفعل. وحين سمع عرضاً باسم سلوان الصالح وخبر عودته إلى أميركا، زاد قلقه تجاه

ليلي. لم تكن موجودة على الفايبر ولا الواتساب، ولا على أيّ من وسائل التواصل الأخرى عبر النت. ثم تفاجأ أنها حذفت صفحتها على الفيسبوک. اختفت أيضاً من تويتر. رَنَّ على رقم هاتفها في أميركا فكان خارج التغطية. لن يكون شيء من هذا مجرد صدفة. لقد غطست ليلى، وبقرار حاسم منها، في الظلام مرة أخرى. اختفت دون توضيح أو تفسير، وتركته من جديد وكما هي عادتها، في دوامة من الشكوك والظنون.

- ٤ -

زاره زميل في الإذاعة وجلس معه في غرفته بالطابق الثاني. ظلَّ يتجادب معه أخبار التطورات الأخيرة وتظاهرة التشبيع للصحفي القتيل التي منعت وزارة الداخلية إجراءها، وما جرى بعدها من تداعيات. ظلا يرتشفان الشاي ويدخنان، ثم صمت الزميل للحظات قبل أن يخبر علي بالنِّي الذي جاء من أجله:

- لقد وجدنا اسمك في قائمة التصفيات التي كُلِّف بها هذا الإرهابي، حسب إذاعاته، من قبل سلوان الصالح.

تفاجأ علي، لكنه ظلَّ صامتاً يُقلّب الكلام في رأسه، ثم أطفأ سيجارته في المنضدة على الطاولة الصغيرة بينه وصديقه، ورددَ بعد أن حضر في ذهنه أول تفسير مقنع بالنسبة له:

- ربما الموضوع كله مجرد فيلم. لقد تمَّ ترتيب هذا الأمر. لا يمكن الوثوق بما تقوله الحكومة.

- ممكن جداً. ولكن هذا الدخان خلفه نار.. اذا كان اسمي موجوداً في قائمة تصفيات حتى لو كذباً، سأهرب بجلدي من البلد في اليوم التالي.

قال الصديق، ثم قبل مغادرته صافح علي بحرارة، وكرر أمامه نصيحة سمعها من أصدقاء آخرين خلال الفترة الماضية:

- أنت لم تتحسن منذ آخر مرة رأيتك فيها. عليك أن تستريح وتنشق هواء خالياً من التوتر خارج بغداد. ولو لبضعة أيام.

كان علي يتحسس هذا الإلهاق في نفسه. إنخفض وزنه، وزادت كآبته بسبب اختفاء ليلي، وفي المرات القليلة التي خرج بها من البيت، على خلاف رغبة أخيه عمّار، شعر بأنه لا يستطيع الخطو والمسير لمسافات كان يقطعها سابقاً بشكل معتاد. ثم صار يرى في كلّ زاوية وشارع، وفي وجوه من ينظرون إليه من بلكرنات العمارات أو من وراء زجاج السيارات، ملامح متهمين محتملين، أشخاصاً يمكن أن يرفعوا أيديهم فجأة بسلاح يوجهونه نحوه، من دون الحاجة لسبب منطقي، لا بمسار الأحداث نفسها، ولا في الفكرة التي تدور برأوس الناس.

حتى عامل الأسواق الشاب الذي يشتري منه السجائر وبعض المواد على مسافة مئة متر من البيت، ظلّ علي ينظر إلى وجهه ويرى فيه احتمالات قاتل مختبئ لم يستيقظ بعد. يمكن أن يجري حدث معين فيتحول هذا الشاب الوديع بسببه إلى مجرم بطريقة أو بأخرى.

دخل إلى البيت ذات ليلة، ورأى عمّار يُزّيّت بندقية كلاشينكوف، وحين سأله عنها، ردّ بأنه مع هذه «الحديدة» فحسب يستطيع النوم براحة.

- هناك مسدس كلوك إذا أحببت خذه معك إلى الغرفة. نصف القلق الذي يبدو عليك سيختفي بمجرد أن تتحسن برودة هذا المعدن بجوارك.

رفض على هذا الفكرة طبعاً. ورفض أيضاً فكرة أن يحمل سلاحاً معه حينما يخرج. ثم أنه لا يرى من معنى لخروجه أصلاً. الفائدة شحيحة من تجواله من دون رغبة أو حماسة لهدف واضح، وستغدو الفائدة المشكوك بأمرها كارثة عظمى بالنسبة لعلي، حين تضنه أمام احتمال لتبادل إطلاق نيران بينه وشخص قد يستهدفه، وقد تنتهي هذه المواجهة، استناداً إلى الخيال المفرط لعلي، إلى مقتل الشخص المعتمدي، وتحول علي إلى قاتل رغمما عنه.

يعرف علي أن جزءاً من هذه الأفكار هي هلوسات وكوابيس، وأنه، أكثر من أيّ شخص آخر، مؤهل للانقياد مع الكوابيس، فهي تستدعيه على مدار الساعة وتناهياً عليه.

ظلَّ قابعاً في غرفته أغلب الوقت. لم يعد يتبع التلفزيون. يقرأ ويتناول وجبات خفيفة، ثم ينام. ينام لوقت طويل. ثم من دون اعتراض واضح من عمار، صار يجلب مشروباً إلى غرفته. ساعده الشرب على الاستغراف الطويل بالنوم. كان وكأنه يريد الدخول في الغيبوبة من جديد. لم يعد يكترث لمرور الوقت. ثم ذات مساء استيقظ نشطاً، ورأى أنها الساعة الرابعة فجراً. لم يتذكّر في أي وقت نام بالضبط، هل نام مبكراً أم أنه استغرق يوماً وليلة كاملين في النوم؟ لماذا لم يتدخل عمار ويعاول إيقاظه؟

أخرج قنينة ويسكي في قعرها القليل. سكب في كأس موجودة على الطاولة من دون أن يرى إن كانت نظيفة أم لا، فهو أحياناً يطفئ أعقاب سجائره في أيّ شيء يكون قريباً من يده؛ استكان الشاي أو كأس فيها بقايا ماء أو مشروب.

ظلَّ يشرب ويدخن، ولم يشعل الضوء في الغرفة، وكأنه بذلك يريد تخدير نفسه للعودة إلى النوم من جديد، وخلال الظلام شعر

بوضوح برائحة وأجواء غرفة العزل الانفرادي في خريف ٢٠٠٢ التي يتذكّر تفاصيلها جيداً. وكأنَّ السنوات التي مرَّت لم تكن سوى مجرد حُلم، وأنه ما زال في مكانه نفسه، داخل الزنزانة، وبعد نصف ساعة من الشرب الصامت صار يرى، تأكيداً لش��وكه، باباً مرسوماً بالطباشير على الحائط المقابل له. كان واضحاً بخطوطه الجبسية البيضاء المترعة، التي رسمتها يدُ متوتةٍ ومجونةٍ تريد فتح باب نحو المستحيل.

- ٥ -

في اليوم التالي أخبره عَمَّار بأن الباب الذي يريده أن يفتحه جاء إليه الآن، وليس عليه بذل جهد كبير لفتحه. إنه ليس باباً طبشورياً، وإنما بابٌ واقعي تماماً، لكن من النادر أن يظهر أمام الكثيرين، وهذا ما يستدعي أن نقدر جيداً الفرص التي تعرض أمامنا ونغادر سلبيتنا قليلاً. قال عَمَّار ذلك باتفعال وحماسة.

- لقد اتصلت «شاناز» بي أكثر من مرّة. تقول أنت لا تردد على اتصالاتها.

- ما الذي تريده مني؟

- إنها «الباب» الذي أتحدثُ لك عنه.

قال عَمَّار بأنه تجاهل اتصالاتها سابقاً لأنه رأى على مندفعاً بعلاقته مع ليلى. لم يرغب بتعكير الأجواء من حوله، هو يرغب أن يراها سعيداً بأيّ صيغة كانت. لكن ما الذي يجري الآن؟ لقد اختفت هذه المرأة التي كان على يتصل بها كلَّ يوم على مدى ساعات. يبدو علي تعيساً الآن. وليس هناك وقت كثير في هذا العمر من أجل قضائه في العزلة والشعور بالتعاسة. علينا أن نتحرّك مع الحياة

بالايقاع نفسه لحركتها ، وإلا ستر كلنا بقدميها وتعبر فوقنا ولا تكترث لنا أبداً.

- هذه حياة بنت كلب .

كرر عمار هذا الوصف أكثر من مرّة ، وهو يحاول إقناع أخيه بالفكرة التي صار مقتنعاً بها تماماً؛ لم تعد شانا ز بالصورة نفسها قبل إفراقها عن علي . إنها تريد الحديث معه لإبلاغه أنها غفرت له كل ذنبه تجاهها ، وخيانته لها أكثر من مرّة . قالت إنها بكت لليلالي كثيرة بسبب الحادث الذي تعرض له ، وفرحت كثيراً حين علمت بسلامته ، هي تعرف أكثر من أيّ وقت مضى أنها تحبه بشدّة ، ومستعدة الآن لبدء صفحة جديدة ، ولن تطالبه بعد اليوم بأيّ شيء ، لن تذكر أمامه موضوع الإنجاب . لقد شاهدت معاناة اختها مع أولاد ذوي قصور عقلي . لم تختر هذه الاخت هؤلاء الأولاد ، ولكنها أخذت حقتها من الحياة استناداً إلى خياراتها الخاصة . والحياة لعبة قمار كبيرة . شانا ز لا تريد تجربة من هذا النوع ، تريد علي فقط وهو كافٍ لها بأولاد أو من دون أولاد .

- قالت إنها أمنت لك وظيفة صغيرة في مؤسسة إعلامية بأرييل ، وستقيمان معاً في شقة أجررتها من مرتبها هناك . أهلها متفهمون لما تقوم به . البنت تحبك يا رجل .. هذا باب واقعي للهروب من بغداد والضغط النفسي هنا ، كما إني بصرامة لا أعرف ماذا أفعل . أنا أيضاً لدى مليون قضية تشغّل ذهني يا أخي ، ولكنني أتجاهل عادة كل مشاغلي من أجل قضية واحدة ؛ سلامتك والاطمئنان عليك .

- ولكنها ستظهر مرّة أخرى . هذه هي خطّة القدر بيني وليلي .. تختفي فأندمج بحياة مختلفة ثم تظهر لتخرّبها .

صنف عمار للحظات حتى يستوعب ردّ علي ، ثم فهم القصة :

- تظاهر أو ما تظاهر. ليس لديك وقت لأن لا عيب المراهقين هذه.  
أنت تتقدم بالعمر. عليك أن تتجاهلها تماماً.

قال عمّار ذلك متفعلاً، ثم همد قليلاً في محاولة لايجاد كلمات أخرى، وبعد لحظات خمّن أنه يمكن أن يؤثر على أخيه أكثر لو اعترف أمامه:

- هل تتذكّر كوثر؟ ربما لا تتذكّرها. كانت تجلس في دكان أهلها في حيننا. ربما لا تعرف بأنني أحببتها، وصارت بيننا علاقة انتهت بزواجها المفاجئ من أحد أقاربها. كانت صغيرة حين زوجوها. لم تبلغ السابعة عشرة بعد. كنت أدخل رأسي من الشبّاك الصغير في الدكان، ويبقى وجهي مسّوراً ومحجوراً بحديد الشبّاك، وهي من تأتي لتقبلني. فعلنا ذلك ربما مئات المرّات. هل ترى؟! أنا أملك رومانسيات أيضاً. حزنت عليها وبكيت مع نفسي دون علم أحد. لكن كل شيء له نهاية.

## - ٦ -

كانت التظاهرات قد اندلعت في بغداد منذ بضعة أسابيع، وصارت تصاعد بشكل مخيف، حتى انتهت بتطويق المنطقة الخضراء. نجح علي مع شانا ز باجتياز السيطرات الكثيرة التي قطعت شوارع بغداد، ووصلوا أخيراً إلى الصالة الداخلية لمطار بغداد، وهو ما يشعّران به تهديد الوقت الوجيز المتبقّي قبل انطلاق طائرتهما إلى أربيل.

كانت آخر الأنباء التي تلقاها على تحدّيثات الفيسبوك تتحدّث عن القوة العسكرية بإمرة العقيد عبد العظيم حامد والتي تم استدعاؤها من خارج بغداد لمزيد من الحماية للمنطقة الخضراء.

ولكن تطوراً مفاجئاً حدث مساء أمس مع تزايد الهتافات أمام إحدى بوابات المنطقة الخضراء. لم يستطع عبد العظيم إعطاء أيّ أوامر لضرب المتظاهرين أو الاعتداء عليهم لمنعهم من التقدّم أكثر. بكي فجأةً أمام كاميرات المحمول التي يحملها بعض المتظاهرين. ثم إلتفت إلى الرجال بإمرته وأعلن بصوٍت عالٍ أنه انضمَّ إلى المتظاهرين، ومن يريد الالتحاق به فأهلاً وسهلاً وإنما فهو غير مسؤول عنهم وعما يفعلونه بعد الآن.

كانت لحظة عاطفية متاججة، ومثل سريان النار في الهشيم صارت صور عبد العظيم تتكرّر على صفحات الفيسبوك مشبهين إياه بالحرّ الرياحي. تحول وبظرف ليلة واحدة إلى «زعيم» وطني، يؤدي بكلام وحركات مسرحية في مقاطع الفيديو على النت أشياء مؤثرة ألهبت مشاعر الجميع. ربما هي اللحظة التي تمنّها عبد العظيم. هذه خشبة المسرح التي انتظرها طويلاًوها هو يقف عليها الآن ويمثل أفضل أدواره.

شدّ على على يد شانا ز وهمما يتقدّمان في طابور التفتيش، فاستدارت بوجهها نحوه وابتسمت. شعر بالطمأنينة، وأنه كلّما نظر إلى عينيها العسليتين يتعدّ خطوة أكثر عن كوابيسه المظلمة.وها هما يتبعان كلّا هما عن بغداد المقبلة على مغامرة رومانسية مفتوحة على الاحتمالات.

أمام شريط فحص الحقائب، وضعت شانا ز حقيقتها الكبيرة ثم هاتفها المحمول وساعتها اليدوية وخواتتها وأغراض معدنية أخرى في وعاء بلاستيكي. ومن خلفها كان على يتزع حزامه ويستعد لوضع حقيقته على الشريط المتحرك حين سمع صوت تنبيه الرسائل في هاتفه.

أخرج هاتفه من جيبه ونظر إلى شاشته. كانت رسالة من رقم غريب. رقم دولي طويلاً. فتح الرسالة بسرعة وقرأها. كانت قصيرة وحاسمة مثل رصاصة:

«بيبي.. لقد دخل سلوان ليلة أمس إلى مستشفى فيبرا بسبب مضاعفات إصابته بسرطان الكبد.»

شعر علي فجأة أن كلّ شيء اختفى من حوله للحظات وظلّ متسمراً أمام شاشة المحمول. حتى نبّهه عجوز يسير خلفه بضرورة التحرك. لاحظ أن شانا ز عبرت إلى الجهة الثانية من حاجز التفتيش، ورفعت حقيبتها الكبيرة من شريط الفحص. وضع هاتفه المحمول مع أشياء أخرى في وعاء بلاستيكي. ودفعه بعد حقيقته على الشريط.

فتحه الحرس يدوياً بعد السونار، ثم رفع الوعاء البلاستيكي وحقيقة وصار يربط حزامه، وحين حمل أغراضه من الوعاء انتبه أن هاتفه غير موجود. عاد وسأل عنه الموظف أمام شاشة جهاز الفحص، فقال له بأنه سينظر، ربما وقع من الشريط المتحرك.

اقتربت شانا ز وأخبرت علي بأن موعد الطائرة أُزفَ، وأن الأخبار مقلقة. عليهم ألا يفوتا هذه الطائرة، فلربما لن يتمكنا من الخروج من هذا المطار أبداً، حتى ولو من أجل العودة إلى بيت عمار.

زوج ليلى في المستشفى بسبب السرطان. سيموت إذن. لم ترسل له هذه الرسالة إلا لأنّها متأكدة تماماً من زوال الحاجز بينها وعلى أخيراً. هذه هي اللحظة التي كانوا يتذمرونها. أليس كذلك؟!

كانت الأفكار تزدحم في رأسه وهو يبحث عن هاتفه، ثم عثر عليه محظماً قبل حاجز التفتيش. لم يتبه، مع انشغاله بمفاجأة رسالة ليلى، أنه رماه بجوار السلّة البلاستيكية وليس فيها، فهو إلى الأرض.

حمل هاتفه الذي غدا أربع قطع ووضعه في جيب سترته، ثم تقدم مع شانا ز داخل صالة المسافرين. أمسكت هي بيده، وكأنها شعرت غريزياً بالتهديد الذي دخل بينهما منذ دقائق. ظلت ممسكة بيده علي وبدت وكأنها تجربه وهو يسير بخطوات مرتخية مع إعصار يدور في رأسه. ثم، حتى يكتمل مشهد الجنون تماماً، خيّل إليه أنه شاهد رجلاً عجوزاً يعبر من حاجز المغادرة وختم الجوازات. ابتسם بوجهه من بعيد دون سبب واضح ورفع يده محيياً. كان يشبه الدكتور واصف عبد المحبي.

قالت شانا ز بأن كاوونتر الطائرة سيُغلق بعد قليل، حين طلب منها علي أن يتوقف ويجلس على كرسي معدني مجاور. إنه بحاجة للحظة صمت حتى يستجمع ذاته.

- لا وقت لذلك. سنجلس في الصالة الداخلية بعد انتهاء الاجراءات.

ربما هو الآن في العالم السابع، حسب كلام سدخان. العالم المثالي جداً الذي تتدخل فيه يدُ القدر حسب مزاج علي فيصيب زوج ليلى بسرطان الكبد، أو ربما هو يستدعي هلاوس العجوز سدخان بسبب وقوفه الآن أمام مفترق طرق بين عالمين؛ ويشعر أن دماغه تعطل ولم يعد قادرًا على إتخاذ قرار سريع.

## - ٧ -

تذَّكِّر، مع وجه دكتور واصف الذي ظهر أمامه منذ دققتين، التعويذة الرابعة «إسبح مع الزمن». لا تتعلق بالأشياء. قدر الزمن لأنه ينقضي ولا يمكن استرداده».

«إسبح مع الزمن إذن، ثم فُكِّر لاحقاً بما جرى لك الآن» قال

لنفسه وكأنه يشرع في اختراع تعويذاته الخاصة، متعرّكاً لاتمام الاجراءات على عجل. بعدها بربع ساعة كانا هو وشاناز آخر راكبين صعدا إلى الطائرة. وحين جلس على كرسيه واستراح فيه تحسّس الهاتف المحظّم في جيبيه، وصوتُ في رأسه يطالبه أن يبقى هذا الهاتف على حالته هذه أطول فترة ممكنة.

سيفِّر على مهلٍ خلال الأربعين دقيقة التي يستغرقها تحليق الطائرة حتى مطار أربيل، أو خلال الأيام أو الأسبوع أو الأشهر القادمة قبل اتخاذ قرار يراه مناسباً. أو يدع يد القدر، كما فعلت ذلك كثيراً في حياته، هي من تضغط على زر القرارات نيابةً عنه.

- أتعرفين.. لقد عرفت الآن أين هو هذا «العالم السابع».

كانت شاناز مشغولة بالنظر من شباك الطائرة حين سمعت كلامه، افترضت أنه يتحدث عبر الهاتف، أو يخاطب شخصاً خفيّاً أمامه. نظرت إليه لترى إن كانت هي المقصودة بالكلام:

- أي عالم سابع؟!

كان همود عجيب يخدر حواسه في تلك اللحظات، وشعر بأن ذهنه صار أصفى من السماء التي ستنتطلق الطائرة إليها عابرة الغيوم المتقطعة. نظر إلى شاناز وتحدث من دون أن يكتثر لتواصلها معه:  
- العالم السابع هو ذلك العالم الذي نتخذ فيه نحن القرارات ولا نتركها للآخرين. هو العالم الذي نصنعه بأيدينا ونتحمّل مسؤولية صناعته. إنه العالم الموجود دائمًا في كلّ العوالم، لا نراه غالباً بوضوح أو لا نعرف بوجوده.

أرادت شاناز فتح فمها بسوزان آخر نكبه كانت على حافة قلق بالغ يتعلق بإقلاع الطائرة، فمن الممكّن أن يحدث خلال الدقائق القادمة ما يُعطل رحلتهما. إنّه تعي جيداً هذه الإمكانيات شبه

المستحيلة وكيف يمكن أن تحدث هنا في بغداد من دون مقدمات، وهذا عندها شاغلٌ أقوى من هلاوس زوجها العائد إليها حديثاً من رحلتين؛ طلاق وغيبوبة أتلتفت خلايا مخه. لقد أخبرها عمار، عبر الهاتف، خلال محادثاتها الأولى معه، والتي انتهت بعودتها إلى علي، بكل التفاصيل الطبية المتعلقة بحالة علي. كان عمار يرغب أن يكون صادقاً ويضعها أمام صورة واضحة؟

- خلايا المخ لا تتجدد ولا تنموا من جديد كما تعلمين، وهذه الطلقة النارية العجيبة لم تمزق شرياناً رئيساً في دماغ علي لحسن الحظ، ولكنها أحرقت بعض الخلايا على طول مسار الإطلاق داخل الرأس. ومن هو في مثل حالته الطبية النادرة لن يعود إلى وضعه السابق أبداً، وترافقه مثل ظله مجموعة من علاجات وأدوية مرضي الصرع والفصام.

ما هو الشيء الذي يضطرّها بقوّة للعودة إلى شخص في مثل حالته؟ قد لا يقدّر علي ذلك حق قدره أبداً. إنه الحبُّ. هي تحبه، ومستعدة للقبول به مهما كانت حالته الصحية. مستعدة أن تتعايش مع تفاصيل قصة عجيبة رواها لها على مدى الأيام الثلاث الماضية، بداعي من الصراحة الشديدة مع زوجته، ورغبتها بهذه صفحة جديدة من دون أسرار أو أشياء خفية. وجدت نفسها تدخل في عقد غريب معه، غير عقد الزواج الذي جدّاه في محكمة الكرخ، عليها أن تتفاعل بجدية مع العالم الذي يعيش فيه زوجها، ولا يريد العودة منه إلى عالمها الواقعي.

ها هي ترى نفسها، بسبب القلق الفائض ربما وتأخر إقلاع الطائرة، تخرب هذا العقد الخفي جزئياً. نظرت إليه وقالت:

- ربما أنت من صنع كل هذه العوالم يا علي، وهذه

الشخصيات.. دكتور واصف، سدخان، حتى إنك لم ترينني صورة شخصية لليلى. ولو على النت أو الفيسبوك!

- لقد قلت لك إنها أغلقت حساباتها.

- لو إلتزمت بالأدوية والعلاج ستتبخر كلُّ هذه العوالم التي تحكي عنها.

- نعم، وربما ما زال جسدي هناك في الغيوبية ولم أصح منها. كيف يصحو من الغيوبية من تخترق إطلاقة رأسه؟! هل تصدقين بذلك؟

- سيكون كل شيء على ما يرام. تأكّد من ذلك. إرتح يا علي.

قالت شاناز وهي تضغط على يده بعد أن تأكّدت أن الطائرة بدأت بالحركة على المدرج، فأغمض على عينيه مستسلماً لاحتلال الضغط، متحسّساً الإقلاع المرتّج للطائرة. تناوم وهو يتخيل كيف أن الطائرة صارت تمثّل عبر بوابة هائلة في السماء مرسومة بأعمدة من الغيوم البيضاء لتعبر إلى عالم آخر.

دخل سريعاً بعدها في نوم يشبه الغيوبية لم يحظ بمثله من قبل.

\* إنتهت في بغداد، أيلول / سبتمبر ٢٠١٦



## إشارات

- أغلب الشخصيات والأحداث الأساسية في الرواية من نسج الخيال، وأي تشابهات بينها وأحداث وشخصيات واقعية هو أمر غير مقصود.
- النصوص المكتوبة باللغة السومرية وبالحروف العربية، مختلفة وغير حقيقة وقام بترجمتها، مشكوراً، من العربية إلى السومرية عالم الآثار والسميريات الدكتور عبد الأمير الحمداني.
- الشكر موصول لعدد كبير من الأساتذة والأصدقاء ممن ساعدوا في جمع المعلومات أو أفادوا، على مدى عامين ونصف، في النقاشات حول مسودات الرواية ومراجعتها، وتأشير الملاحظات، والتشجيع والدعم المعنوي، ولكل من ساهم ولو بجهد بسيط بإخراج هذه الرواية بصورتها الحالية.



# الفصول

الفصل الأول: الميت الحي	٧
الفصل الثاني: الدفتر الأسود	٢٣
الفصل الثالث: جماعة المستحررين	٤٦
الفصل الرابع: المتجول بين العوالم	٧٨
الفصل الخامس: حياة أخرى	١٠٤
الفصل السادس: جرعة التعاوين	١٢٩
الفصل السابع: الضابط والفيلسوف	١٤٥
الفصل الثامن: خطاف قبيح الشكل	١٦٤
الفصل التاسع: الحمامات الكبّرى	١٨١
الفصل العاشر: ما يقوله التاريخ	١٩٨
الفصل الحادى عشر: عالم السّدئيم	٢١٢
الفصل الثاني عشر: في المَصَحة	٢٢٦
الفصل الثالث عشر: حفرة الأرتب	٢٤٠
الفصل الرابع عشر: ميدان التفريح	٢٦٠
الفصل الخامس عشر: خروف في القطيع	٢٧٢

الفصل السادس عشر: المُتَّحِر	٢٨٤
الفصل السابع عشر: بَابُ اللَّهِ	٢٩٦
الفصل الثامن عشر: بَابُ الْحُبُّ	٣٠٩
الفصل التاسع عشر: وَقْتٌ طَوِيلٌ لِلتَّجَوَّلِ فِي الْحُلْمِ	٣٢٨
الفصل العشرون: بَرِيدُ الْمَوْتِ	٣٤١
الفصل الحادي والعشرون: عَالَمٌ سَابِعٌ	٣٥٨

هذا الكتاب

لقد مات، أو هكذا أحسّ بنفسه، حين صار يرى حائطاً  
كبيراً، ورجلًا عجوزاً ضاماً يتقدم إلى الحائط ويرسم  
بالطبشور الأحمر أبواباً واسعة، ثم يدعوه بحركة من يده  
إلى التقدم وفتح باب منها إن استطاع. فهناك في الخلف  
يستطيع أن يرى عالماً أفضل. مع ملاحظة هامة لتعريف  
هذا الوصف «عالماً أفضل»، فهو بالتحديد؛ ذلك العالم  
الذي ترى فيه أنك قادرٌ على القيام بشيء، هو العالم  
الذي تملك فيه دوراً واضحاً ويقدر الآخرون جهودك الذي  
تبذله، وتشعر أنك تساهم في الخير ومحصلة الأعمال  
الجيدة. هو العالم الذي يغدو فيه تقدُّم الزمن وبذل الجهد  
طريقاً معبَّدة باتجاه «معنى الحياة». وهذه كلها أشياء صار  
«على» يفتقدها أو غير واثق من أنه على صلة بها.

# مکتبہ بغداد

ISBN 978-993335289-9

